شعراء
في مواجهة الطغيان

أشهر قضايا النهب بالمستندات

محمد عبد الشافي القوصي



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اســم الكتاب : شعراء في مواجهة الطغيان

المــــؤلف : محمد عبد الشافي القوصي

رقــم الإيداع :

رقــم الإيــداع :

٢٠١١/١٠٤٨٨

الطبعة الأولى ٢٠١١



مكتبة جزيرة الورد

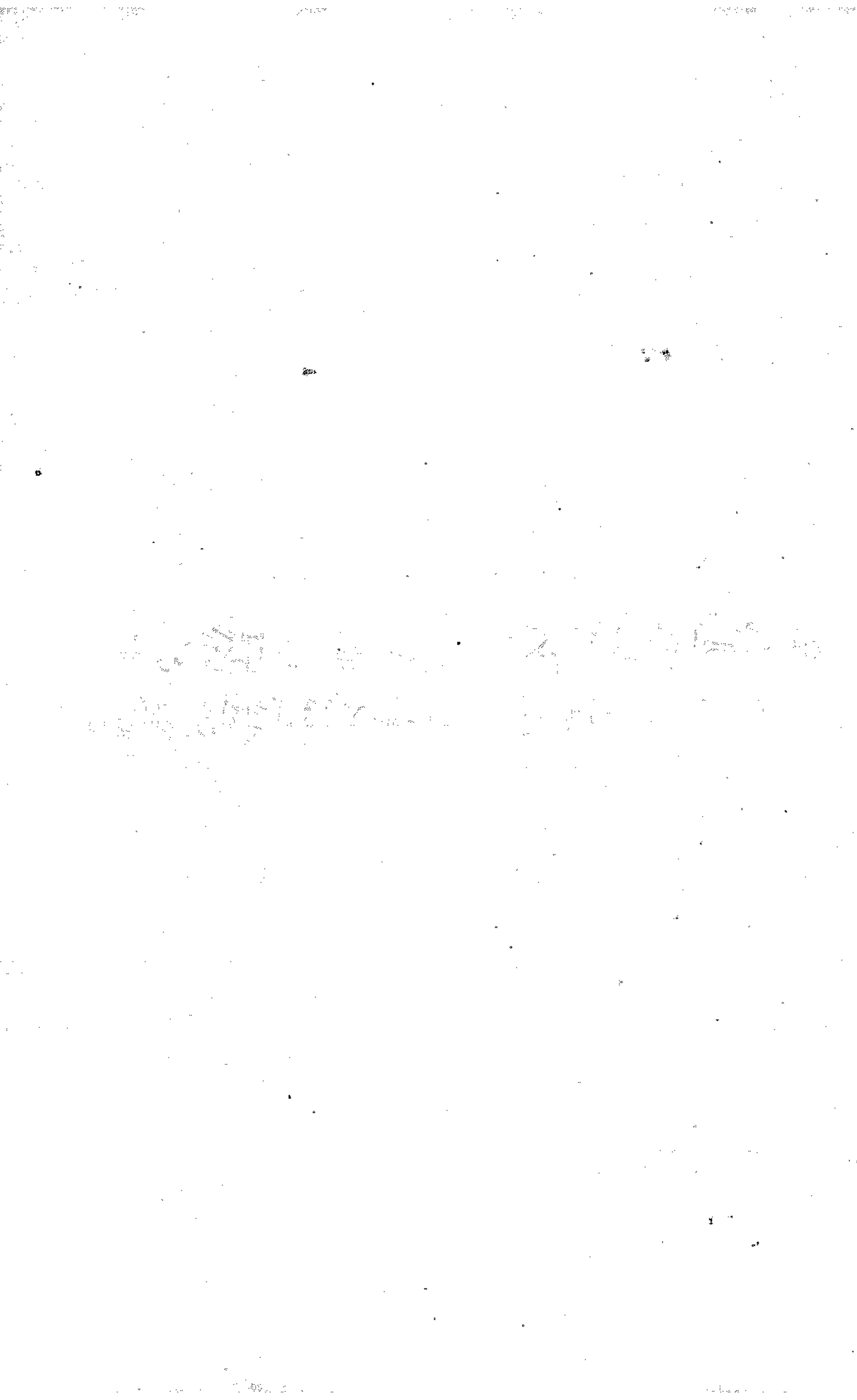
القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [هود]



إهداء

إلى سَحَرة فرعون

الذين تَحدَّوا الطاغية و ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ ﴾ [طه].



مقدمة

■ ■ ■

أعوذُ بالله من غضب الشُّعراء!

إنَّ كيدهم عظيم، وخطرهم شديد، وشرهم مستطير .. وهجاءهم من سِجِّيل!

أسعد الناس من يَتَّقِي شرهم .. فلا يتخذ منهم صديقاً، ولا يعرف لهم طريقا!

ولا يزال المرء بخيرٍ؛ ما لمْ يتعرض لهم أوْ يصيبهم بأذى!

ربما يكون -الشَّاعر- رومانسياً حالِماً، أوْ عابداً زاهداً ... فإذا ما غَضِبَ .. سرعان ما يمسك بِمُسَدَّسِه ويطلق النار في قارعة الطريق على المارة!

أوْ ربما يتحول إلى زجاجة حارقة، وعبوة ناسفة، وقنبلة موقوتة!

ولا يبقى في قاموسه سوى لغة الشتيمة، وضرب النعال! ومن ثمَّ تصير قصائده عواصفاً ترابية، وحِمَماً بركانية، ورِيحاً صَرْصَراً تقتلع البيوت والأشجار والصخور، وتدمِّر كل شيء في طريقها!

لماذا يغضب الشُّعراء؟!

ما هي الدوافع النفسية والاجتماعية والسياسية التي جعلت الشعراء يحملون راية العصيان؟ وأجبرتهم على كتابة قصائد الهجاء المسمومة؟ التي يُعَدّ اقترافها من «الكبائر» أوْ من «المحظورات» في أحسن الأحوال! وما هي الأسباب التي أرغمتهم على كتابة هذا اللون الشِّعري، وساقتهم إليه رغماً عنهم؟ فراحوا يقذفون بقصائدهم الحارقة التي جَرَّتْ عليهم كثيراً من الأزمات والمصائب؛ كالسِّجن والنفي والمطاردة والتشريد والتصفية الجسدية!

❋ ❋ ❋

هؤلاء الشُّعراء لا يتصنَّعون «الشِّعر الممنوع» ولا يتكلَّفونه كغيره من الأغراض الشعرية الأخرى، إنما يفرض نفسه عليهم فرضاً .. فهم مُسَيَّرون لا مُخيّرون في هذا الأمر، وإنهم مُساقون إليه سوقاً، ومدفوعون إليه دفعاً .. ربما لسوء الأحوال الاجتماعية وتدهور الأوضاع السياسية، أو ربما بسبب طبيعتهم النفسية القلقة، أوْ بفعل شياطينهم المردة، أوْ بسبب قسوة الحياة، ووحشية المجتمع، وضراوة الأنظمة الحاكمة، ووعورة الطريق التي يسلكونها!

اللافت للانتباه؛ تواتر شعراء الرفض في العالم العربي في شتى الأزمنة، ولا يزالون يُعلِنون عن غضبهم الشديد، ومعارضتهم المستمرة لكثير مما يجري حولهم!

فالشَّاعر العربي جُبِلَتْ نفسه على خلق هذا اللون الشِّعري «المُزعِج»! فيرى نفسه مشدوداً إليه شداً، بحكم الطبيعة النفسية المصاحبة له! ومدفوعاً إليه دائماً بدافع قهري. فعندما تلح عليه فكرة القصيدة أو موضوعها، لا يستطيع صدها أوْ منعها أوْ حتى تأخيرها .. إنها لحظة المخاض -كما وصفها الشعراء أنفسهم! فلابد لهذا الجنين أن يخرج إلى النور على الفور سواء كانت ولادته عادية مُيسّرة، أوْ قيصرية مُتعسِّرة .. المهم أن يخرج هذا الكائن إلى الحياة. أمَّا عن اسمه ورزقه وأجله؛ فهذه مسائل أخرى تتضح معالمها فيما بعد الولادة .. حيث يبدأ صراع هذا «الوليد» الشِّعري مع الوجود الخارجي المُلَبَّد بالسحب الداكنة، والعواصف الهوجاء، والحفر والمطبّات الصناعية. ولطالما أمسى هذا الوجود الخارجي في حالة لا تسمح له بقبول هذا الوليد أوْ منحه مكاناً تحت النور، إمّا لسبب راجع إلى الشِّعر نفسه، أوْ إلى المجتمع، أوْ إليهما معاً!

* * *

في العصور الماضية: كان «الشِّعر السياسي» أشبه بمعارك شخصية، أوْ تصفية حسابات بين «الشَّاعر» و«الديكتاتور»! لذا .. غلب عليه طابع «الكَتْم» وكان

يصعب العثور عليه! فأغلبه تعرَّض للضياع والتلف والتشويه، أوْ الإحراق، أوْ الإغراق، لأنه ذو طبيعة معينة، وموضوعاته ذات مغزى ودلالة على طبيعة العصر، فهو أشبه بالقنابل والمتفجرات، أوْ هو كالسلاح غير المرخص به، فيتحول عندئذ إلى «السوق السوداء» ويتداول بين الناس سراً وعلى حذر شديد!

أمَّا في الحقب الأخيرة: فقد عَبَّرَ الشِّعر عن الهمّ الجماعي .. هموم الوطن والأُمَّة!

فالشَّاعر المعاصر لَمْ يرَ حوله إلاَّ النكسات المتعاقبة التي تُوِّجَتْ بسقوط الخلافة الإسلامية، ثم سقوط العواصم العربية والإسلامية الواحدة تلو الأخرى غنيمة باردة بأيدي الاستعمار الذي حسمها بزرع الكيان الصهيوني «إسرائيل» في قلب العالم العربي!

لَمْ يشاهد الشَّاعر -خلال القرن العشرين- سوى غارات متتالية على بلاده وأُمته، ومجازر بشرية هنا وهناك، واعتداءات سافرة على الإسلام وشريعته، وهو في تلك الأثناء مُكَمَّم الفم، مكتوف اليديْن .. بَلْ يواجه التشريد من الأوطان، والإقصاء التعسفي من داره أوْ عمله، ويُحَمَّل مسئولية ما فعله السفهاء من قومه!

فأينما تقع عيناه يرى جماجم إخوانه هنا وهناك، ويبصر دماءهم تنهمر من كل حدبٍ وصوب، ويسمع كل يوم عن المجازر الجماعية التي يتعرض لها إخوانه في العقيدة، دونما ذنبٍ اقترفوه .. إلاَّ أنْ قالوا ربنا الله !

لقد رأى هول فلسطين وما جرى لها، ودماء البلقان .. وسمع أنين الشيشان، وصراخ كشمير، وعذابات العراق، وصرخات آلاف الذين يُساقون إلى المشانق، لأنهم جهروا بكلمة الحق، أوْ جأروا من الظلم الواقع بهم!

عندما يرى ويسمع الشَّاعر تلك التناقضات الصارخة التي تحيط به وبمجتمعه .. ماذا يُنتظَر منه؟ وكيف لا تثور عاطفته ولا ينبعث شعوره ولا يتميز من الغيظ .. فتتحول أشعاره إلى زجاجاتٍ حارقة، وعبواتٍ ناسفة؟!

ماذا فعل الشُّعراء أمام هذا كله؟ لقد امتطوا جواد الشِّعْر، وأطلقوا له العنان، فجاشتْ قرائحهم، وفاضتْ عواطفهم .. فعبَّروا عن مشاعر إخوانهم .. آلاماً وآمالاً!

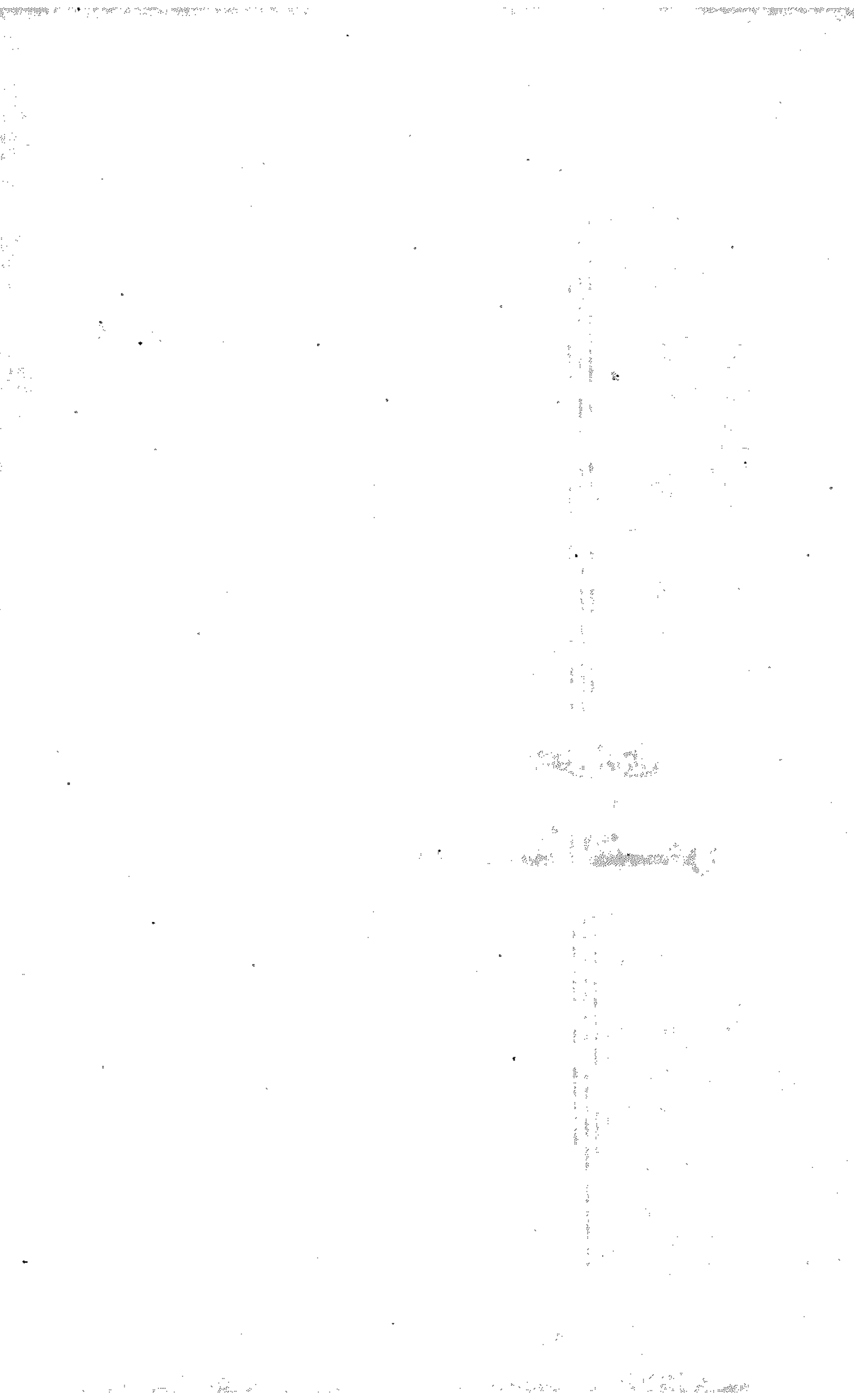
أخيراً، أرجو أن يكون التوفيق حالفني في ما قصدتُ إليه من تأليف هذا الكتاب الذي يحوي بين دفّتيْه -لا أقول أشعاراً نارية- بَلْ أكباداً تحترق، ومُهَجاً تتلظّى!

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾

مُحمّد عبد الشَّافي القُوصِي؛
E: aldohapress@hotmail.com
ص. ب١٦٢ المهندسين/ جيزة

الفصل الأول

رسالة الشُّعراء



ما هو «الشِّعْر» الذي نريده؟

ومَنْ هو «الشَّاعر» الذي نراهِن عليه؟

وما هي رسالته في الحياة .. أوْ ما هي الرسالة المنوطة به؟

وما هي الصفات التي ينبغي أن تتوافر فيه حتى يكون أهلاً لحمل تَبِعات هذه الرسالة؟!

(الشِّعر) هو الثورة العارمة على العادات الراكدة، والتقاليد الوافدة، والجهل والغش والخداع والفوضى، ومخلَّفات عصور الاستبداد والظلم والانحطاط.

(الشِّعر) هو «العصا» التي يمسك بها الشَّاعر، ليسوق الطغاة إلى سواء السبيل!

(الشِّعر) هو الغِناء الحار للبطولة .. لأنه وقود الثائرين، ونشيد المجاهدين.

أمَّا (الشَّاعر) فهو جزء من أهم أجزاء المجتمع، أوْ هو بمثابة الرأس من الجسد، لأنه الجزء المُعَوَّل عليه في كل الحركات العامة، والمُمَهِّد لكل الإصلاحات الاجتماعية والفكرية. وإذا تحدثنا عن الشَّاعر؛ فإننا نتحدث عن المفكِّر الذي يؤمن بأنَّ له رسالة، ويعرف كيف يؤدي هذه الرسالة كاملة لخدمة قضايا أمته .. وتتفاوت درجات الشّعراء ومنازلهم الفكرية والأدبية بمقدار ما يُسهِمون في تقدم الإنسانية ورفع الإصْر عنها، والعمل على سعادتها.

لذا؛ فإنَّ هناك فنوناً عالمية، وأخرى محلية أوْ إقليمية. فنون خالدة باقية، وأخرى وقتية زائلة، وفنون رفيعة راقية، وأخرى ضحلة تافهة .. ولعلَّ السبب الأساسي في ذلك التفاوت يرجع إلى القيمة الوظيفية للعمل الأدبي ومدى ما يحققه من أهداف .. فالعمل الذي يحقق جميع أهداف الفن –أو معظمها– لابدّ أن يكون أرقى وأرفع من الذي يحقق قليلاً منها، أمَّا الذي لا يحقق شيئاً منها، فهو خارج محراب الفن والأدب.

وقد نال الحديث عن الوظيفة القيمية للفن والأدب والشِّعر حظاً واسعاً من

تنظيرات الأدباء والنقَّاد، ولعلَّ أدقّها وصفاً هو ما ذهب إليه الدكتور يوسف عز الدين، الذي شَبَّه الأدب بجسم الإنسان الذي يتقلَّب بين الصحة والمرض، وما قد يترتب على ذلك من أسباب ونتائج، فيقول: «الأدب كالجسم البشري فإذا ظهر عليه المرض، فمعنى ذلك أن الأُمَّة عمّها المرض، وأن الأديب لا يستطيع أن ينتج إنتاجاً سليماً. وبقاء الأدب في حالة واحدة والسير على منوال مكرَّر معناه انحراف الحالة الفكرية، ويكون الانحراف عادة في الأدب أوْ الموضوعات التي يعالجها، وكما تختل وظائف الجسم تختل وظائف الأدب وتظهر عليه الأعراض المرضية، فيبعد عن الفنية وخدمة المجتمع ويصبح مفكك الأسلوب، وقد تأتي هذه الأمراض من طبيعة الفنان نفسه أوْ الأُمة ذاتها، فالأديب الضعيف الثقافة المحدود الفكر الضيق الأفق يأتي إنتاجه مثلاً صادقاً لهذا الضعف. والأُمَّة عندما تتقهقر وتتأخر فكرياً وحضارياً يظهر هذا الضعف في أدبها فتعتمد على الاجترار، لأنها لم تُغَذَّ غذاءً طبيعياً جديداً يزيد في صحتها ويجعل أدبها قوياً، ونقص الغذاء الروحي والفكري والابتعاد عن الفكر العالمي أهم مرض يصيب الأمم في أدبها، وكما يُصَاب الأدب بفقر فني؛ يُصَاب -أيضاً- بعسر الهضم عندما يأخذ المفكر الرأي دون فهم أوائله وعوامله ومسبباته ويهتم بمظهره دون أن يعرف مكوناته. ومن يفهم أصول الأدب وتاريخه فهو أديب مفكر، ومن يقدر على هضم الآراء الجديدة فهو أديب مثقف، أمّا الذي يقدر على هضمه وتمثيله ووضعه بأسلوب جديد تستفيد منه الأمة فهو العبقري. فكثير من الأدباء السطحيين يُقلِّدون أدباء الغرب المرضى والشواذ الطبع فانعكس كل هذا في شِعْرهم».

ولعلَّ هذا المعنى الذي قصده الدكتور «محمود ذهني» عندما تعرَّض للحديث عن إشكالية الأدب والحياة، إذْ يقول: «والأدب كما نفهمه، تفاعل وجداني بين الفنان والمتلقي، يسبقه تفاعل بين الفنان والمجتمع، وينتج عنه تفاعل بين المتلقِّي

والمجتمع، وهو بهذا الوضع ضرورة من ضروريات الحياة، يحتاج إليها الإنسان مثلما يحتاج إلى الغذاء والماء والهواء، وكلها تلعب دوراً هاماً في تكوين الصحة العضوية والجسدية للفرد، كذلك الآداب والفنون تلعب دوراً هاماً في تكوين الصحة الوجدانية والروحية. فإذا تناول أحد طعاماً فاسداً أو فاقداً قيمته الغذائية فإنه يمرض ويعتل ويصبح ضعيفاً في شخصه وغير نافع لمجتمعه، وإذا شرب أحد ماءً آسناً، أوْ استنشق هواء غير نقي مرض واعتلَّ وفقد القدرة على إعالة نفسه وإفادة مجتمعه .. كذلك الأدب والفن، إذا تلقى الناس ألواناً مزيفة ومدسوسة عليها، اختلّتْ صحتهم الوجدانية، واضطربتْ حياتهم الروحية، وأثَّرتْ هذه العِلل على أنفسهم وعلى مجتمعهم، وكلما استشرى الداء، كلما عزَّ الدواء واستعصى العلاج».

فالأدب الحي، هو لسان عقل الجنس البشري، أوْ هو الذي يمنحنا القدرة على الانفعال به، ولو كان أسمى من مشاعرنا الخاصة، لأنه يستطيع أن يرفعنا إليه لحظات، وقد تكون هذه من مزايا الأدب التي تُحْسَب له في عالم «المنافع» إذا لم يكن بد من النظرة النفعية للفنون!

لذا؛ نجد كاتباً مثل «توفيق الحكيم» يصف مهمة الأديب ورسالته في الحياة وصفاً صحيحاً حين يقول: «لوْ يعلم الأديب خطورة فنِّه؛ لسكتَ دهراً قبل أنْ يكتب حرفاً».

كذلك، يقول صاحب رواية «مدام بوفري MADAME BOVARY»: «قرأتُ عشرة آلاف كتاب في مكتبة فرنسا الوطنية، كَيْ أستطيع أنْ أكتب أرضية هذه الرواية».

وَلِمَ لا؟ فالثورات الاجتماعية الكبرى قامت على أكتاف الأدباء والفنانين. والدعوات الإصلاحية اعتمدت كثيراً على الفن، ولاسيما الفن القولي.

فالأديب الكبير أوْ المتميز رائد من رواد البشرية، يسبق خطاها، وينير لها الطريق

فلا تنقطع بينه وبينها السبل! وهو رسول من رسل الحياة إلى الآخرين الذين لمْ يُمْنَحوا «حق الاتصال»! كما مُنِحَه ذاك الرسول، فهو يطَّلِع من خفايا الحياة على ما لا يطَّلِع عليه الآخرون، وهو يحسّها في صميمها مجردة عن الملابسات الوقتية والحدود الزمنية، يحسّها كما انبثقت أول مرة من نبعها الأصيل.

ووظيفته أن يفتح المنافذ بيننا وبين هذا النبع بقدر ما نطيق .. وفي الأديب -كما يقول سيِّد قطب «قبس محدود من النبوة التي تتصل بالقوة الكبرى، وتصل بها القطيع الضال، وقيمة الأديب الكبرى إنما تقاس بمقدار اتصاله بالنبع من وراء الحواجز والسدود».

من هنا كان العمل الأدبي في حقيقته ثمرة «التجارب الشعورية» التي ترفع الإنسان فوق مستوى حياته العادية، والتي ترتفع فيها درجة الانفعال أيّاً كان نوعه حتى تصل إلى درجة التوهج والإشراق أوْ قريباً منهما.

الشِّعر خير تعبير عن اللحظات الأقوى والأملأ بالطاقة الشعورية في الحياة لأنه -كما يعرفه الشَّاعر الإنجليزي وليام وردزورث W.Word sworth «هو الفيض الاختياري للأحاسيس القوية، وهو ينبع من الانفعال الذي يستعيده الشاعر في هدوء، إذْ يطيل الروية فيما خلّف عنده الموضوع من انفعال، حتى يتجدد الثأر به في نفسه ويختفي الهدوء تدريجياً، وينشأ في العقل انفعال مشابه للأول أوْ قريب منه، وهنا يبدأ التأليف الشِّعْري الناجح، ويستمر في هذا الجو مصحوباً بحالة من الغبطة العقلية. وعلى الشّاعر أن يقلد الطبيعة في هذا، وأن ينقل المشاعر إلى القارئ حية سليمة، محوطة بهالة من اللذة والإمتاع، وأن يجعل من الوزن والقافية عاملَيْن جديديْن يضيفان ثروة إلى النشوة العقلية، ويخلعان على لغة الناس رواءً موسيقياً، ويلبسان العادي المألوف ثوب الجديد الطريف».

فمن أراد أن يكون أديباً أصيلاً ومُجدِّداً؛ يجب أن يعرف ما يأخذ من الآداب

الغربية وما يترك، فقد أصاب بعض الأدباء (هوس التجديد) فجاءوا بالجديد الذي ليس فيه أصالة فنية، وليس فيه أسلوب مشرق، وبعيد كل البعد عن الأساليب العربية .. لأن هذا «المُجدِّد» ليس لديه ذخيرة أدبية أصيلة، ولم يتزود بالتجارب الفكرية العميقة، وأضاع قابليته في المزاوجة الأدبية، ولمْ يراعِ الإخصاب الحضاري بين العرب والغرب لجذْب أدواته وضعف ثقافته!

إنَّ المشابهة الذهنية والتقارب الحضاري والمقابلة في التجارب ضرورية لإنتاج الأديب، ومتى وجدت مشابهة فكرية وتجارب متماثلة بين العرب والغرب فسوف يكون الأديب مجليا، وليس القلق الفكري والغموض الروحي والحيرة والنزعات المضطربة التي يجدها الأديب المعاصر في آداب الغرب كافية ليصور لنا فيها أدب الأمة العربية وما يعتريها من ضياع وحيرة وتناقضات في قضايا المجتمع وحاجات المصير.

من هنا؛ رأى الأدباء الكبار أنَّ الأدب العربي بحاجة إلى تغيير جذري في المضمون الفكري، وعليه أن يتخذ سُبلاً غير التي اتخذها خلال السنوات الماضية، وأن تكون فيه للكاتب شجاعة القائد وعزم الرائد، وأن يكون الأديب مفكراً خلاَّقاً لا يتزعزع أمام الأحداث ولا ينحني أمام الملمّات، ويجب أن يكون بطلاً يخطّ تاريخاً فكرياً جديداً في إطار المقومات العربية والإسلامية، فقد سادت الحيرة النفسية والبلبلة الفكرية بين كثير من أدباء العرب.

ما هي رسالة الشَّاعر؟

(رسالة الشَّاعر) هي الرسالة التي يحملها الشِّعر الجميل الهادف البنَّاء في جميع أغراضه، وشتى مدارسه، باختلاف بيئاته وعصوره ولغاته .. إنه الشِّعر الذي إذا سمعته يهزّ أعماقك هزاً، أوْ الشِّعر الذي صار ناقوساً يدق في سمع الزمان .. لِمَا حمله من الحِكَم والأمثال. إنه الشِّعر الذي واجه الحكَّام الفاسدين وهجا الجبابرة

المُستبدين الذين أفسدوا في البلاد، وأورثوا شعوبهم الفقر والجهل والعار. إنه الشِّعر الـذي تصـدّى للأنظمـة الديكتاتوريـة القمعيـة والفاشـية والدمويـة في كـل زمـان ومكان.

إنـه الشِّـعر الـذي عـبّر عنـه الـدكتور/ **يوسـف القرضـاوي**- في قصـيدته «أنـا والشِّعر»:

أريـدُ لـهُ هجـراً فيغلبنـي حُبِّـي — وأنـوي، ولكـن لا يطـاوعني قلبـي
وكيـف أطيـق الصـبر عنـه وإنـما — أرى الشّعر للوجدان كالماء للعُشْبِ
فكمْ شَدَّ من عزمٍ وبصَّر من عمى — وأيقظ مـن نـومٍ، وذلَّـلَ مـن صـعبِ

وبالرغم من أن الشيخ القرضاوي ترك الشِّعر وتفرغ للعمـل الإسـلامي، إلاّ أنـه مازال يتابع مسيرته، ويشارك في ندواته ومؤتمراته، لأنه يرى أن الشِّـعر ركيـزة مهمـة من ركائز الدعوة الإسلامية إذا كان للحق وحده، فيقول:

وقفتـكَ يـا شـعري عـلى الحـق وحـده — فـإنْ لمْ أنـلْ إلاّهُ قلـتُ لهـم: حسـبي!
وإنْ قـال غِـرٌّ: ثـروتي، قلـتُ: دعـوتي — وإنْ قـال لي: حـزبي، أقـولُ لـه: ربي!
فَعِشْ كوكباً يا شِـعرُ يهـدي إلى العُـلا — ويـنقضُّ رجمـاً للشـياطين كالشُّـهُبِ

لقد آمن الشُّعراء الكبار بهذه المعاني السامية، واجتهدوا في تحقيقها في إبداعاتهم، كما أدركها النقاد والدارسون وسائر جماهير الشِّعر ... فكان الشِّعْر خير هاد، وأجمـل مصوّر لمآثر الأمة وأحزانها ومشكلاتها .. فازدادتْ حِدَّة الشُّعراء، وتباروا في إيقـاظ جذوة الوطنية في النفوس وكثرت الكتابة في كل ما يبعث الثقة بالنفوس، واستمدوا من التاريخ الإسلامي أروع أمثلة البطولات والجهاد وصاغوها حية ثـائرة مسـاهمة في بعث الروح التي لم تصلها الثورة بعد .. فأبدعوا أطناناً من الشِّـعر المناوئ لحُكَّـام الجور. وقد رأينا ألواناً من الشِّعر الذي زلزل الأرض تحت أقدام الفراعنة والجبابرة، وكشف خباياهم، وصار شاهداً عليهم! وسمعنا الشِّعر الـذي أَرَّقَ الطغـاة، وأقـضّ

مضاجعهم. وبالتالي خرج الشَّاعر العربي من برجه العاجي، وأدار ظهره لقصور الحكام وامتنع عن عطاياهم، وَصَوَّبَ قذائفه تجاه قواعد الماركسية والرأسمالية والرجعية والاستعمار، ويَمَّمَ وجهه شطر الشعوب الغارقة في مشكلاتها، وجعلها مادة موضوعاته الأساسية، فازدادت صلته بحياة الشعوب، وتوطدت علاقته بالجماهير.

إذا كان الأدب صَدىً لِمُثُل الشعب عامة وقِيَم الأُمة، وتعبيراً عن آمالها ورغباتها، فإنَّ الأدب الجديد الذي تطمح إليه نفوسنا هو الذي يحّض على مناهضة الاستعمار وأعوانه، والدعوة إلى الوحدة العربية والإسلامية في إطار ثقافي جديد، وإلاَّ فسوف تجرفنا أمواج الحضارة الغربية الهادرة بعقائدها المادية والوثنية، فتضيع شخصيتنا القومية المتميزة، ويغدو العربي مسخاً غريباً، تائهاً بين الأُمم، ومُعلَّقاً بين السماء والأرض!

ينبغي -لذلك- أن يكون جميع الأدباء واضحي الرؤية، متآزري الهدف والغاية، وأن يضعوا مصيرهم مع مصير شعوبهم مدافعين عن أهدافهم وغاياتهم بحرية مطلقة، لا يسمعون الوساوس من خارج ضمائرهم، ولا يصغون لهمسات غير واقع المجتمع العربي وحاجاته، وأن يعملوا بعقلٍ واع .. فلنْ تنفع -السريالية أوْ الرمزية أوْ الحداثة- ذاك الفدائي العربي في مسرح القتال والجهاد!

ويجب أن تكون لنا خصائصنا القومية حتى تنصهر العروبة والوطنية بالإسلام، إذْ إن الاعتماد على شعارات العروبة أوْ القومية وحدها لن تستطيع خلق ثقافة أصيلة قوية عالمية تشبع رغبات الجماهير المتعطشة إلى الحرية والثورة والعقيدة.

هذا هو ما دعا إليه عباقرة الإصلاح ورواد الفكر في القرن الماضي أمثال: الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وعبد الرحمن الكواكبي، وشكيب أرسلان، وحسن البنَّا، ومحمد إقبال، ومالك بن نبي، وعباس العقاد، وعلال الفاسي،

وأبو الحسن الندوي، وعبد الحميد بن باديس، ومحمد الغزالي، وأنور الجندي .. وغيرهم من المُصْلِحين.

إننا في حاجة إلى شعراء «غِلاظ شِداد» لكيْ يهدموا على الطغاة قصورهم، بلْ يقتلعوا «عائلة الطغيان» من جذورها، ولا يبقوا لهم أثراً ولا رِكْزاً.

بلْ إننا في أمس الحاجة إلى كتيبة من شعراء الجن والإنس العظام، يحملون أرواحهم على أكفّهم، ويتقدمون ركب الجياع والمظلومين والمستضعفين في الأرض، فيدكُّون أسوار الجبابرة والمستبدين، ويفتحون حصون الديكتاتورية والأنظمة الشمولية، ويطيحون بمعاقل الاستبداد، وسراديب الطغيان!

مهمّة الشَّاعر العصرية

مهمة الشَّاعر ورسالته في هذا العصر -بالذات- يجب أن تتحدَّد بوضوح شديد، ودون مواربة، لاسيما بعدما ظهرت الحقائق، وانكشفت الأوراق .. فقد احتُلَّت الأوطان، وسُلِبَتْ الثروات، ودُنِّستْ المُقدَّسات، وانتُهِكَتْ الحُرمات، وحَلَّ بالبلاد الفقر والجهل والخراب!

ماذا ينتظر الشَّاعر الغيور بعدما رأى الصهاينة أقاموا في قلب الوطن العربي ترسانة نووية هائلة أطلقوا عليها اسم (دولة إسرائيل)؟!

بلْ ماذا ينتظر بعدما رأى الصليبيين أقاموا قواعدهم العسكرية في أوطاننا شرقاً وغرباً؟!

أمّاذا ينتظر بعدما رأى السيخ والهندوس -عُبَّاد الحمير والبقر والكلاب- يفترسون المسلمين، ويعتدون على مساجدهم ومنازلهم وحرماتهم؟!

وما عساه أن يفعل بعدما صارت بلاده حقلاً للتجارب النووية، وعواصمه مسرحاً للعمليات العسكرية، ومقراً ومستقراً للقوات الغازية الأجنبية؟!

وماذا يرتجى بعدما غدتْ «فلسطين» مقبرة لسكانها الأصليين؟! وصارت مدينة

«القدس» تُبَاع في مزاد عالمي؟! و«المسجد الأقصى» يُقتلَع من جذوره؟!

***

الشَّاعر الحق، يجب أن يملك إرادته وأن يعي ما يريد ويفهم ما يقول ويعرف ما يخطط، وأن يسيطر بشعوره وبعقله على إنتاجه، وأن يضع فنه في خدمة أُمته.

ولن يكون الشَّاعر ناجحاً إلاَّ إذا درس المعركة الناشبة بيننا وبين العدو بكل وسائلها وتَفهَّم طرقه الملتوية وأساليبه الشيطانية وخططه الجهنمية.

ومتى كتب الأديب ما يوحيه الضمير، ويوجبه عليه الحق، فسوف يترجم عن أحاسيس الأُمة، ويترجم عن مشاعر البشرية كلها، ويحس بأنه مِلْكٌ للشعوب المحبة للسلام والعدل.

إننا ندعو الأدباء والشُّعراء عامة إلى وقفة صادقة مع النفس .. فإنَّ أمتنا باتتْ على خطرٍ داهم، بعدما اقتلعتها رياح الفلسفات الوضعية، وتقاذفتها أمواج المذاهب الغربية، وابتُلِيَت بحكَّام فاشلين، حتى صارت غنيمة باردة في أيدي الطامعين.

فالأدب عامة -والشِّعرِ على وجه الخصوص- ليس كلاماً منظوماً، أوْ سطوراً مرصوفة، وأوزاناً وقافية -كما يتوهم المتوهمون- كلاَّ .. وألف كلاَّ ..!

الأدب لابد أن يكون أولاً أدب مسؤوليات ضخمة تجاه الإنسانية -كما يرى سارتر- لدرجة أنه يعتبره مسؤولاً عن كل مظاهر الكبت والردع والتمرد والإرهاب والحروب بشتى أنواعها، لذلك يقول «سارتر» في وصفه لمهمة الأديب وللأدوات التي يستعملها: «إنَّ الكلمات مسدسات محشوة، وإذا تحدث الأديب فإنه إنما يطلق النار، حقاً لقد كان في وسعه أن يصمت، ولكن مادام قد اختار لنفسه أن يطلق النار، فإنَّ من واجبه أن يفعل هذا كرجل، بأن يصوّب نحو أهداف، لا كطفل يطلق النار كيفما اتفق، مغلقاً عينيه، مقتصراً على التلذذ بسماع أصوات الطلقات وهي تدوي من بعيد».

لعلَّ رأي سارتر هذا، يؤكد أن مسؤولية الأديب في إبداع عمله لا تقل في خطورتها عن مسؤولية الزعيم عندما يصدر قراره السياسي. إن مهمة الأديب هي العمل على تقديم العالم إلى الآخرين، بحيث لا يكون في وسع أحد بعد ذلك أن يتجاهل حريته، أوْ يتنكَّر لمسؤوليته، أوْ أن يزعم لنفسه أنه بريء من كل ما يحدث، وليس من المعقول مطلقاً أن يبدع الأديب عملاً ينادي بسيادة الاستعباد والظلم، أوْ يطالب بإقرار الأحكام العرفية وقوانين الطوارئ، أوْ استغلال الإنسان لأخيه الإنسان!

فليس (الشَّاعر) هو سامر الحي، ولا ساقي المَلِك ونديمه.

وليس (الشِّعر) كؤوساً وأقداحاً لاستحضار البهجة والسرور، لا هذا، ولا ذاك!

إنَّما (الشَّاعر) هو المبدع الثائر، والفيلسوف الواعي، والمصلح الاجتماعي، والمجاهد في سبيل الحق والعدل .. والمحارب الذي لا تلين قناته، والفارس الذي لا يترجَّل!

والشِّعر -بمثابة- الرمح، والسيف، والرصاصة، والبندقية، والريح التي تقتلع البيوت والأشجار، والبركان الذي تتطاير منه الحِمَم! أوْ كما يقول عبد الرحمن العشماوي:

الشِّعر عندكَ جمرةٌ ورصاصةٌ ... في وجه تُجَّار الحروفِ تثورُ!

أوْ على حد قول نزار قباني:

الشِّعْر ليس حمامات نطيّرها ... نحو السماء ولا ناياً وريح صبا

لكنه غضبٌ طالتْ أظافرهُما ... أجبن الشِّعر إنْ لمْ يركب الغضبا!

لذا .. ينبغي أن تتحول جميع الهيئات الثقافية والمنتديات الأدبية إلى مشاعل هداية، ومنابر دعوة إلى خير وصلاح البلاد والعباد .. فلا قيمة للأدب ولا معنى للشِّعر إذا مات في بطون الشُّعراء، أوْ أُنشِد في حجرات مغلقة، أوْ نُشِر في مطبوعات

رديئة لا يسمع عنها أحد، إنما لابد أن تمتد أشعته إلى جميع أرجاء الوطن، وأن تتغلغل رسائله إلى كل شرائح المجتمع، كما كان في عصوره الذهبية السالفة.

من ثمَّ؛ فإنه ينبغي على المؤسسات الأدبية أن تجتهد في تكتيل كل المثقفين تحت لوائها، ليقفوا في جبهة واحدة وصف واحد كالبنيان المرصوص لنصرة قضايانا المصيرية وتحرير أوطاننا، وصد التيارات والفلسفات الغازية لديارنا، والقوى المعادية لأمتنا.

لن يتسنَّى هذا المطلب، ولن تتحقق هذه الغاية إلاَّ إذا كان دور هذه الجمعيات الأدبية إيجابياً فيما بينها، بمعنى أن ترسي فيما بينها قاعدة التسامح والتعاون والمشاركة .. فإنَّ أية رابطة ثقافية أو جمعية أدبية تخطئ خطأً كبيراً إذا اعتقدت أن بإمكانها وحدها أن تحمل عبء نهضة المجتمع ثقافياً أوْ تهذيبه علمياً أوْ تعبئته فكرياً أوْ توجيهه حضارياً. بلْ الواجب على كافة الجمعيات الأدبية أن تخلص الولاء لوطنها وأمتها، وأن تتعاون وتتكاتف في صد رياح المذاهب الوافدة والهجمات المغرضة على لغتنا وثقافتنا وهويتنا.

فالأدباء المبدعون والشعراء قادرون –بالتعاون والتحاور– على قيادة المجتمع إلى بر الأمان، ومرفأ النجاة، وانتشاله إلى شاطئ السلامة.

بل ينبغي على الأدباء والشُّعراء السعي إلى تكوين رأي عام عربي وإسلامي يمثل القاعدة الجماهيرية العريضة من الشعوب التي هي منوط بها تحرير الأوطان المغتصَبة، واسترداد الكرامة المهدرة.

ليس هذا فحسب، بلْ إنَّ واجب الأدباء والشّعراء تهيئة مناخ عام عالمي، يؤمن بوجود الأُمَّة العربية الإسلامية وبعدالة قضاياها وأهمية رسالتها الحضارية بين الأمم. وتحرير «الآخر» من العُقَد المزمنة والأكاذيب التي علقتْ بذهنه منذ العصور الوسطى، والتصدّي للحملات الإعلامية الصهيونية ... لابد من تهيئة رأي عام

يفسح صدره لعودة الحق إلى أهله، وظهور القوة الإسلامية بجوار القوى العالمية الأخرى، مدركاً أن من حق العرب والمسلمين أن يحكموا أنفسهم وفق عقيدتهم، باعتبارهم أغلبية في بلادهم، كما تنادي بذلك مبادئهم الديمقراطية التي يتغنَّون بها، وأن من حقهم أن يدعوا إلى رسالتهم الإنسانية العالمية، باعتبارها إحدى الديانات الكبرى في العالم التي لها ماض وحاضر ومستقبل، ويدين بها أكثر من مليار ونصف المليار مسلم على ظهر الأرض.

على الأدباء والنقاد أن يوجهوا المبدعين إلى هذه الموضوعات الساخنة وذات الأهمية، ويدفعوهم إليها دفعاً، فما أحرى بالمبدعين -في هذا الوقت بالذات- أن يُخرِجوا الأُمة من حالة اليأس والإحباط التي خيّمت على كاهلها، ونسجت على عاتقها، وأن يوقظوا النائمين، وينبهوا الغافلين، ويرشدوا الضالين من أبنائها ... ويذكِّروهم بالخيرية التي منحها الله لهم، والنصر القريب الذي سيكون حليفهم إذا هم أخذوا بأسبابه.

إنَّ من أهم واجبات الأدباء والشُّعراء -في هذا الوقت بالذات- الدعوة والعمل من أجل استخلاص الحُكْم من أيدي الحكَّام الضعفاء والخونة العملاء، ليوضَع في أيدي الرجال الأقوياء والمناضلين الشرفاء .. الذين لا يريدون عُلُوًّا في الأرض ولا فسادا، الذين يُصلِحون ولا يفسدون، الذين يجوعون ليُشبِعوا بطون الرعية.

وعلى المبدعين والشّعراء الإسهام في علاج أمراض الأمة المزمنة كالجهل والفقر والمرض والتسول وسائر الرذائل والأمراض الاجتماعية، كما رأينا في أشعار: إقبال، والبارودي، وشوقي، وحافظ، وأحمد محرم، وغيرهم.

كذلك -المبدعون- مطالبون بالدعوة والتحريض لتحرير الأراضي المحتلة والأوطان السليبة والمقدسات الأسيرة، ومجابهة قوى البغي ومناوأة الاستعمار وتثبيطه وكسر إرادته.

بلْ إنَّ من أولى واجبات الرسالة المنوط بها الأديب المبدع أوْ الشاعر أن يدعو إلى نشر الإسلام وشرح تعاليمه ووصاياه وذكر محاسنه وفضائله، والذود عن حياضه، ورد الشبهات والافتراءات والمغالطات التي تلصق به –كما فعل شعراء الرسول ﷺ في فجر الإسلام.

إننا نرجو من كتائب شعراء العروبة والإسلام أن تعتبر نفسها مرابطة في سبيل الحق والعدل، ومجنَّدة لكل قضية عربية وإسلامية، بلْ من الواجب عليها أن تعمل على تجنيد مسلمي العالم وراء قضية فلسطين–بالذات كما جنَّدت الحركة الصهيونية يهود العالم وراء أكذوبة «أرض الميعاد»! بلْ عليها أن تجنِّد كل ذي ضمير في العالم لمساندة قضايانا العادلة.

ميادين الإبداع الأدبي

إنَّ أمام أدبائنا وشعرائنا مجالات رحبة فسيحة، لم يطرقها من قبل إنسٌ ولا جان، لكنها في حاجة إلى ريشة الفنان العبقري ليغوص في أعماقها، ويسبر أغوارها، حتى يقف على الحقائق الكبرى.

فما أكثر مجالات الإبداع وما أوسع ميادينه، وما أكثر القضايا الساخنة التي فرضت نفسها بقوة في الوقت الحاضر بالذات، خاصة بعد الهيمنة الغربية على العالم العربي والإسلامي .. فمنذ أكثر من قرن من الزمان؛ لمْ يشاهد الشَّاعر المسلم إلاَّ هزائم ونكسات تترى، وأعمال خيانة وغدر، وشماتة الأعداء، وسلسلة من المهانة والذل بأيدي الحُكَّام الأجانب، وأتباع الاستعمار وربائبهم وإخوانهم في «الرضاعة»!

لمْ يشاهد الشَّاعر –منذ ذلك الحين– إلاَّ النكسات المتعاقبة التي تُوِّجَتْ بسقوط الخلافة الإسلامية، ثم سقوط العواصم العربية والإسلامية الواحدة تلو الأخرى غنيمة باردة بأيدي الاستعمار الذي حسمها بزرع الكيان الصهيوني «إسرائيل» في

قلب العالم العربي!

لمْ يشاهد الشَّاعر -خلال تلك الحقبة الكريهة من الزمن- سوى غارات متتالية على بلاده وأمته، ومجازر بشرية هنا وهناك، واعتداءات سافرة على الإسلام وشريعته، وهو في تلك الأثناء مُكَمَّم الفم، مكتوف اليديْن، يواجه التشريد من الأوطان والإقصاء التعسفي من داره أوْ عمله، ويُحَمَّل المسئولية عما فعله السفهاء من قومه، فجاشتْ قريحة الشَّاعر، وفاضتْ عاطفته بالحنين إلى وطنه السليب، كما جادتْ قريحته بالتعبير عن آلامه وأحزانه .. لأنه واجه الحرمان بدرجاته، وواجه القيود بأنواعها، وواجه المهازل بأشكالها. كما واجه التشريد من الوطن قسراً مرات ومرات .. ففاضتْ قريحته في تصوير هذه المآسي التي تكاد السماوات يتفطرنَّ منها، وتنشق الأرض، وتخر الجبال هدًّا .. إنه رأى إخوانه يُشرَّدون من خيامهم، بعدما شُرِّدوا من أوطانهم، وقد تسلَّط عليهم العدو المغتصب الذي لا يمتُّ إلى ذلك البلد بصلة من قريب أو بعيد!

إنه يسمع ويرى إخوانه يأكلون القطط والكلاب والجرزان، في الوقت الذي تُصَادَر فيه ثروات بلاده وخيراتها إلى بلاد الأعداء في الشرق والغرب!

إنه يرى آلافاً، بلْ مئات الآلاف من أهله يموتون جوعاً، بينما تعيش في الترف والنعيم فئة من المُدلِّسين والمنافقين والمهرجين وأزواجهم وما كانوا يعبدون!

عندما يرى ويسمع كل هذه التناقضات الصارخة التي تحيط به وبمجتمعه .. ماذا ننتظر من هذا الشَّاعر الذي تحوَّل -رغماً عنه- إلى قنبلة موقوتة؟!

كيف .. كيف لا تثور عاطفته ولا ينبعث شعوره ولا يتميز من الغيظ .. فتتحول أشعاره إلى زجاجاتٍ حارقة وعبواتٍ ناسفة؟!

لقد استطاع الشَّاعر «**محمد عبد القادر الفقي**» أن يترجم هذه التناقضات الصارخة في قصيدةٍ مطولةٍ أسماها «أمجاد الماضي وتحديات الحاضر» إذْ يقول فيها:

إنّي لأنظر للماضي فيفزعني ... حالي، فأصرخ: يا بؤسي ويا ندمي!

شتّان بين زمانٍ كنتُ فيه بلا ... ندّ ينافسني في البأس والشمم

وبين عصرٍ هوام الأرض تنظر لي ... فيه ازدراء كأني مطلق العدم

أرضي تضجّ من الأرزاء صارخة ... والناس في غفلة، والذئب في الغنم

بالأمس أندلسٍ قد صاح نائحها ... هُبّوا من النوم عين البغي لمْ تنمِ

فما أفاقوا، وضاع المُلْك، وافترقوا ... ما بين باكٍ على مجدٍ ومنهزم

واليوم أندلسٍ في القدس ماثلة ... فيا لبؤس الأُلى، والأنف في القتم

ما قيمة الشِّعر إنْ لم يحرّض على الجهاد واسترداد الحقوق الضائعة، ويؤازر المجاهدين، ويُواسي جرحاهم، ويرثي شهداءهم -أوْ كما يقول الشَّاعر الأردني د. مأمون جرار- في قصيدته الطويلة «شكوى من الشِّعْر»:

وسائل عن جديد الشِّعر قلتُ لها ... حسبي من الشِّعْر أن الشّعر يجفوني

فلا رثاء لموتى في مرابعنا ... عيونهم لحياض الموت تدعوني

ولا بكاء على صرعى الجفاف ... نرى أشباحهم في عذاب غير ممنون

ولا مديح لفجر المجد يصنعه ... مجاهدون لتبقى راية الدين

عجبتُ يا صاحِ من شِعْرٍ يطاوعني ... يوم الرخاء، وحين البأس يعصيني!

نعم .. حُقَّ للشَّاعر المعاصر أن يبكي بكاء مراً على حال أُمته التي ضَلَّت طريقها وسط تزاحم الأُمم، فأينما يتجه بصره يرى جراحاً موَّارة، وجثثاً ملقاة، وهزائم متواصلة، وانتكاسات لا يحدّها حد من القدس إلى لبنان، ومن جبال أفغانستان إلى أريتريا .. وإنْ شئتَ استمع إلى الشَّاعر عبد الرحمن العبيد، في قصيدته: «حوار مع التاريخ»:

أبكي على أُمتي ضلّتْ مسالكها ... وعندها الحق يسري فيض أنوار

والقدس في قيدها نادت: سينقذني ... صدق الجهاد أتى، لاهُوهم ثوّار

وجرح لبنان كمْ أذكته طائفة ... تناحرتْ بين خوّانٍ وسمسار
والنار فوق رُبَى الأفغان تضرمها ... جحافل أقبلت من أرض فجّار
وهجمة الشرق هولاكو يتيه بها ... وقيصر الغرب يُملي زيف كُفّار
والمسلمون هم صهري يُذلُّ فمن ... يلومني إنْ بكيتُ اليوم أصهاري؟!

مَنْ يلوم الشَّاعر إنْ بكى اليوم أهله وأصهاره؟!

بلْ من الواجب أن نشاركه البكاء ونشاطره أحزانه في هذا العصر الذي تطارده فيه الهموم، وتحاصره المصائب، وتلاحقه الهزائم في كل منازلة وفي كل ميدان، فشتان بين ماضٍ مجيد، وبين حاضرٍ تعيس .. فمن ذا يصدّق أننا كُنّا حُماة الأرض، ثم صرنا جراد الأرض – أوْ كما يقول الشَّاعر الفلسطيني **داود معلا**، في رائعته «الشجر المأسور»:

يا قدس لا تعتبي إنْ طار بي قلمي ... إلى خيالٍ توالت خلفه الصور
ماذا أرى وهمومي فيكِ تدفعني ... إلى الجنون وأين السمع والبصر
من ذا يصدّق أن الليل يكرهنا ... وأن شمس ضحانا كلها حفر
ونحن كنا حماة الأرض ما رفعت ... يد علينا العصا إلاَّ وننتصر
عقيدةٌ هي ماضينا وحاضرنا ... وساعدٌ هو فينا الصارم الذكر

الشَّاعر الحق الذي لا ينكفئ على ذاته، غافلاً أوْ لاهياً عما يدور من حوله، كذلك لا يليق به أبداً أن يتقوقع داخل أسوار مدينته أوْ دولته أوْ وطنه المحدود، بلْ من الواجب عليه أن يتفاعل مع سائر قضايا أُمته المترامية الأطراف من الهند وكشمير شرقاً إلى الأندلس غرباً، ومن الشيشان إلى الصومال، وعليه أن يولي اهتماماً كبيراً بالأقليات المسلمة في القارات الخمس .. ذلكم هو الشّاعر المؤمن برسالته في الحياة .. وهذا ما تمثله الشَّاعر الكبير «**محمد التهامي**» خير تمثيل، فتارة يكتب عن القدس والمسجد الأقصى، وتارة أخرى يكتب عن كابل وما يحدث للأفغان، وينتقل بعد

ذلك إلى العراق فيروي لنا من أخبارها .. وها هو ذا يردّ –متأسفاً– على (قائد جيش البوسنة) الذي كان قد طلب نجدة إسلامية إبان الأزمة التي حلَّتْ على وطنه «البوسنة والهرسك» يقول التهامي في قصيدته: وا معتصماه:

فَضَحْتنا عندما ضاقتْ بك السبلُ ... فصحْتَ بالأهل تدعوهم وتبتهلُ

يا صاحِ أهلكَ قد فاتوا مضاربهم ... وشُرِّدوا في سواد الليل وارتحلوا

خلّوا معاقلهم شمَّاء خاوية ... وفي مهاوي بطون الأرض قد نزلوا

إنْ جئتَ تنشدهم يوماً لمكرمةٍ ... فليس في نجدةٍ من دارهم أملُ

لا يفزعون لنارٍ في دياركمُ ... لأنهم بدواهي نارهم شُغِلوا

فليس معتصمٌ في الدار ينجدكم ... فلم يعد في حِمَى أوطانهم بطلُ

وإنْ سمعتم صليلاً في مرابعنا ... فإننا في رحاب الدار نقتتلُ !

لم يبقَ في طوقنا جهدٌ نقدّمه ... فما نلاقي لدينا ليس يحتمل

لمْ يَبقَ إلاَّ احتراق الشعب مثلكمُ ... لأنه معكم في النَّار يشتعل!

النار مشتعلة، والمذابح لا تتوقف من القدس حتى ضفاف الخليج، ومن الشرق إلى الغرب .. ولا خلاص إلاَّ بالوحدة والتضامن الذي دعا إليه في كثير من قصائده شاعر الصعيد الجواني (محمد أمين الشيخ الهلالي) –يرحمه الله– ففي قصيدته «هموم مسلم» يقول:

من القدس حتى ضفاف الخليج ... وبين «رُبَا البوسنة» الحائرة

مضيتُ حزيناً ففي كل أرضٍ ... مذابح محمومة قاهرة

وتبدو المآذن .. كالنائحات ... تعاني من الطغمة الجائرة

ويمضي الشَّهيد على أرضها ... وينثر أشلاءه الطاهرة

دفاعاً عن الحق .. يعطي الدماء ... وقد باع دنياه بالآخرة

....

تعالوا إلى الله .. نبغي حِماه ... وتجمعنا وحدة قادره
نُلمْلِمُ أشتات شعب كريم ... ووعد من الله أن ينصره

إنَّ من المهام المنوطة بالشَّاعر، أن يكشف النقاب عن حكام الجور وعملاء الاستعمار المزروعين في بلادنا، وأن يواجههم علانية، ويرجمهم بقذائف الشعر الحارقة، ويحرض الشعوب على اقتلاعهم من الحُكم والإطاحة بهم .. وبالفعل، فقد تجرأ الشَّاعر (محمود خليل) في قصيدته «هي جولة في الحق» وخاطب «الديكتاتور» بشجاعة نادرة، قائلاً له:

أوَ كنتَ تزعُمُ أنني قدْ أستكينُ .. وأنّ ظلمكَ مُرعبي
أوَ كنتَ تحلُمُ أنّ صرختكَ الجبانةَ قدْ تُعوّق مركبي
أوَ ما شبعتَ من المذابح والدماء .. أَمَا مللتَ تعقبي

يستطرد -الشَّاعر محمود خليل- في خطابه إلى «الطاغية» شارحاً له كُنه رسالته في الحياة، مُستلهِماً منطق العلماء الأفذاذ في وقفتهم أمام الطغاة وحُكَّام الجور .. أوْ كأنه سُئلَ من أنتَ؟ وما تبغي أيها الشَّاعر؟ فأجاب:

فأنا وُلدتُ ببيتكَ المنهارِ ... أنْماني على التقوى أبي
وبأنني من جُندِ من عَنَتْ ... الوجوهُ لهُ: إليهِ تقرُّبي

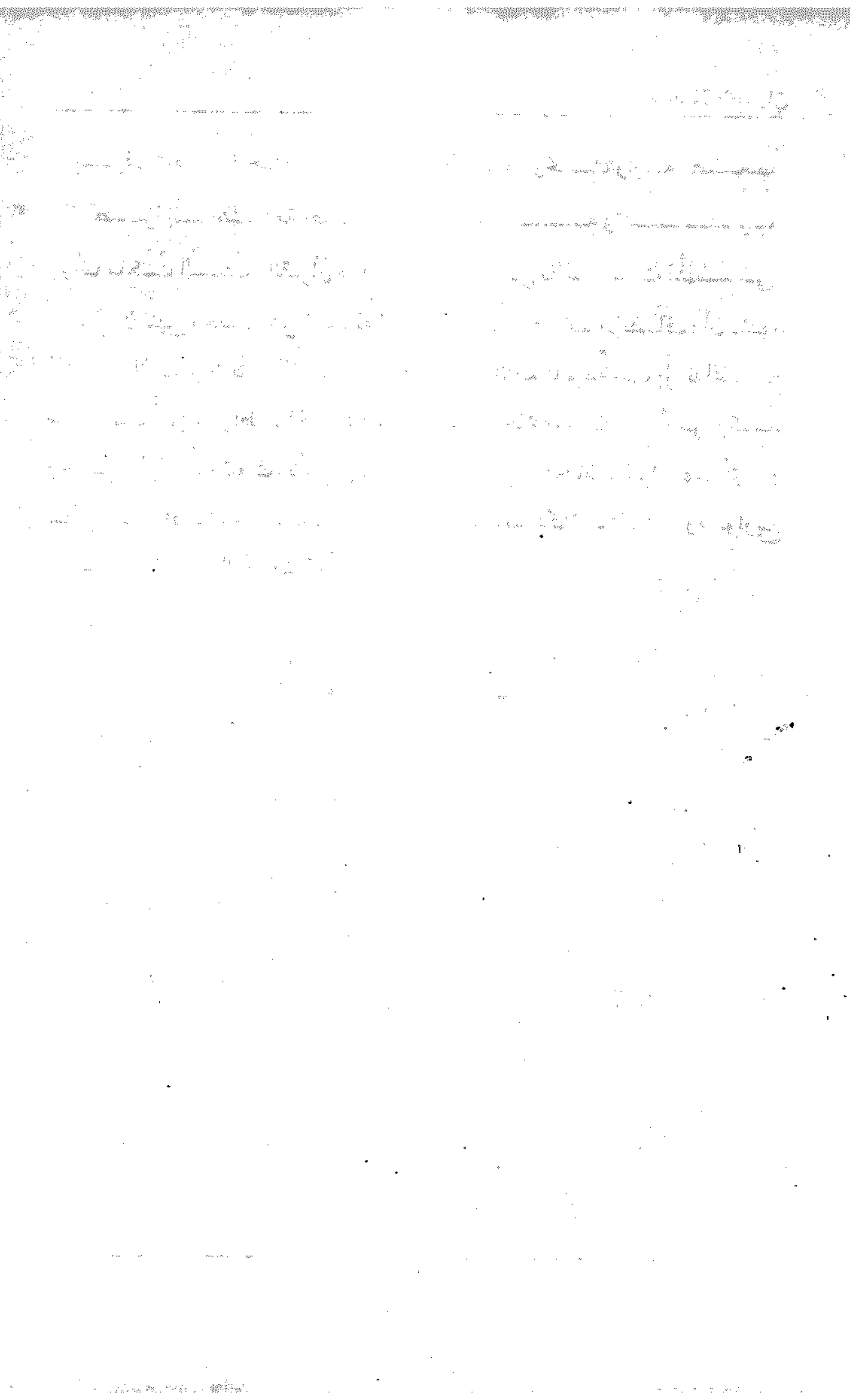
لَمْ يكتفِ -الشَّاعر- بهذه الخطبة النارية التي ألقاها في وجه «الفرعون» بلْ راح يهدده ويتوعده، متمثلاً موقف سحرة فرعون، عندما قالوا للطاغية في شجاعة: فيقول: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾ [طه].

فتمردي يا أرضُ فالفرعون جاء ... وجاء هامان الغبي
وتأهبي يا خيل مَنْ مَلَكَ الرقاب ... ويا فوارسُ فاركبي وتأهبي

وبسـيف «خالـد» حـين يختصر الزمـان وتحـت رايـة مصـعبِ
فتربَّصـوا إنَّـا هنـا متربصـون بعزمـةٍ وتشـببِ
وأنـا ملكـتُ السـيفَ والقـرآنَ فيـكَ فكـن بظلمـك مُلْهبـي

قبل أن ننهي الحديث عن (رسالة الشّعراء) فإنَّ من باب الإنصاف؛ أن نشهد للشُّعراء الإسلاميين بأنهم لمْ يألوا جهداً في أداء رسالتهم المنوطة بهم، بلْ تفاعلوا مع سائر قضايا أُمتهم، وأطلقوا قصائدهم كأنها خيول جامحة، تركض الأرض ركضاً، وتحرض الجماهير، وتبعث الأمل في نفوس المجاهدين .. فجادتْ قرائحهم بأشعار تقطر دماً، وقصائد مغسولة بالدمع! **فهناك قتال بـ«الكلاشينكوف» وصواريخ «القَسَّام» .. وهنا قتال بالكلمة!**





الفصل الثاني

كناسة الشُّعراء

مَنْ هم «كُناسة الشُّعراء»؟ ولماذا رميتهم بهذه الصفة المشينة؟ وكيف استحقوا تلك المنزلة الدنيا وكُبْكِبُوا إلى هذا الدرك الأسفل في سوق الكُنَى والألقاب؟ وما هي مناسبة الحديث عن هذا الصنف الرخيص وتلك الطبقة السفلى من الشعراء، في الوقت الذي نُحلِّق في الأُفق مع الشعراء العمالقة الأفذاذ؟!

لعلَّ الذي دعاني إلى الحديث عن هذا الجانب المظلم أوْ الطابور الخامس من الشُّعراء، الذين وصمناهم بـ«كناسة الشُّعراء»؛ هو من باب التمييز بين الأُصلاء والأدعياء، بين الجمال والقبح، أوْ بين منهج حسَّان وبشَّار!

فالشيء بنقيضه يُعرَف، وبضدها تتميز الأشياءُ!

(كناسة الشُّعراء) هم أرخص طوائف الأدباء، إنهم الشُّعراء الذين أفرزوا نفايات الشِّعر، وحامض الثقافة، حتى صنعوا حاجزاً مريراً، وسداً منيعاً بين الشّعر والجمهور، مما حدا بناقد حداثي من كتائبهم أن يُصدر كتاباً أسماه (زمن الرواية) كأنه يريد أن يقول للناس ما عاد الشِّعر ديوان العرب، فقد مضى زمانه وزالتْ دولته وانتهى عصره!

(كناسة الشُّعراء) هم الذين ارتضوا لأنفسهم تلك المهانة، وألقوا بأنفسهم في التيه والوحل، ومجاهل السبل، وغيابات الوهم والضياع .. لأنهم كذبوا على أنفسهم، واختاروا الضلال على الرشاد، واستحبوا العمى على الهدى، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير!

وقد تصدَّى كثير من الأدباء والمفكرين لهذا الصنف المتلوِّن من الشُّعراء والكُتَّاب، الذين يُلْبِسون الحق بالباطل، والذين يُزيّنون للطاغية سوء عمله فيراه حسناً!

فالحرف العربي –كما يصفه الدكتور يوسف عز الدين«: نفحة في رياض المعرفة، وقبس من نور الفكر الوهّاج .. يرفع النفس من تدنّيها، ويدفع المخلصين إلى حمل

رسالة الفكر الحر. والويل لأولئك الذين باعوه بثمن بخس، ذلّة للحاكم، وتمسّح كاذب لكل ذي جاه.

إنَّ الحرف العربي المشرق يأبى إلاَّ أن يصاحب النفوس الكريمة، والأنامل الأبية، لأنَّ الإسلام ما جاء إلاَّ ليتمِّم مكارم الأخلاق ويبعد الغلّ عن النفوس والذلّ من القلوب الواعية المؤمنة برسالة الله الخالدة.

كيف يكون كاتباً من عاش في حمأة الذل؟ وكيف يكون عالماً من يفاخر بالاعتداء على الناس، ويباهي بقربه للظالمين والطغاة؟! ورسالتنا هي الوقوف بالمرصاد لأدعياء العلم وتطهير صفوفه من رجسبهم وبذاءتهم لكيْ يسفر ضاحك المُحيَّا، يفتح آفاق المخلصين على عالم واسع رحب من الإيمان والخير والتسامح.

شعراء البلاط

يأتي في طليعة كُناسة الشُّعراء (شعراء البلاط) الذين هم أبواق الأنظمة في كل عصر، أوْ ما يشبه أجهزة الإعلام الرسمية وكُتَّاب السلطة في عصرنا هذا .. وهؤلاء الشعراء هم أنصار الحُكْم لا أنصار المذهب، فإذا تغير الحُكم تغير اتجاههم .. شعارهم المثل القائل: دُرْ مع الأيام إذا دارتْ! أوْ قول الشاعر:

ودارِهم ما دُمْتَ في دارهم　　　وأرْضِهِم ما دُمْتَ في أرضهم!

فهو اشتراكي في عهد الاشتراكيين، ورأسمالي في عهد الرأسماليين، وهو مَلَكِي مع المَلَكيّين، وجمهوري مع الجمهوريين!

وظاهرة نفاق الأدباء والكُتَّاب والفنانين للسلطة ليست ظاهرة حديثة، بلْ هي موجودة منذ وُجدتْ السلطة ووُجدَ الأدباء والفنانون والكتَّاب، فالعلاقة بين السلطة والمثقفين هي علاقة جذب وطرد في نفس الوقت، والأديب أوْ الشَّاعر باعتباره بشراً يمكن أن تغريه امتيازات السلطة وموائد السلطان، بغض النظر عن

موقفه الفكري!

فما الذي يدعو «المثقّف» لأن يُنافِق السلطة؟

فمثلاً، نجد «أبا حيان التوحيدي» يهدي كتابه الشهير «الإمتاع والمؤانسة» (عام ٨١٥ هـ) إلى «السلطان الأعظم مالك رقاب الأُمَم، مولى ملوك العرب والعجم، باسط الأمن والأمان ناشر العدل والإحسان، أبي المفاخر، فخر الدنيا والدين، سليمان بن غازي محمد الأيوبي، خلّدَ الله تعالى مملكته وسلطانه وأعلى في الخافقيْن عزه وبرهانه».

وهكذا وجد التوحيدي فضائل الملائكة في حاكم «بشر» مارس حكماً ديكتاتورياً شأنه شأن سلفه وخلفه من حُكّام العرب.

الملاحظ أنه في تلك العهود، بلْ قبلها في الجاهلية، تفرَّد العرب بالتطرف في ظاهرة المديح، وأوجدوا في الشّعر باباً له قواعده وأصوله وأعلامه ومدارسه، وارتبطت هذه الظاهرة بالسلطة، فالشّاعر يمدح الحاكم ويهجو عدوه، أوْ يمدح صاحب العزّ الذي يشمله بعطفه المادي أوْ المعنوي ويهجو من يعترض طريقه أو ينافسه.

ارتبطت تلك الظاهرة أيضاً بذلك النظام الذي يرعى فيه الحاكم أوْ الثري عدداً من الكتّاب، وبالتالي فلابد أن يحدث نوع من الولاء بين المثقف والسلطة التي ترعاه، وقد حلّت الدولة بمفهومها الحديث محل النظام القبلي أوْ الفردي السابق، والدولة تعنى هنا النظام الحاكم فيها، فأصبحت الدولة هي التي ترعى «مثقفيها» أوْ تربِّي من سيصبح «مثقفها».

كما هو متعارف عليه فإنَّ النظام –أيّ نظام– يحتاج باستمرار إلى مثقف يدعمه ليؤيده، ويتبنى قضاياه، ويفلسف جرائمه ومصائبه، بأنها جاءت لمصلحة الشعب الطيّب، وتخفيفاً من أعبائه! ودعماً لمحدودي الدخل والمساكين!

لعلَّ هذه الطائفة من الأدباء والمثقفين هي التي اشمأزَّ منها الدكتور/ يوسف القرضاوي، وضاق بها ذرعاً، فعرَّض بها في قصيدته «أنا والشِّعر» إذْ يقول:

لقدْ بغَّضتْ لي الشِّعرَ في مصر شُلَّةٌ ... يبيعونه بالمال للبغي والنهب

فكمْ سافحٍ قد لقّبوه بفاتحٍ ... وكمْ مسرفٍ سمَّوهُ ذا الكرم الرحبِ

وكمْ فاجرٍ باغٍ مشوا في ركابه ... وسمّوه ليثاً وهو أدنأ من كلب

وكمْ ولغتْ في حرمة الناس كفّه ... فغطوا عليها كالخضاب على الشيْب

إذا كان هذا ديْدن الشِّعر في الورى ... فما هو إلاَّ السُّمُّ في المشرب العذب

كثيراً ما تصبح الثقافة وأهلها لعبة جذابة للسلطة تستخدمها لتعزيز مكانتها، ولعلَّ أظهر مثالَيْن على ذلك هما النظاميْن الشيوعي والرأسمالي، وهما المرحلة الحديثة في تطور أنظمة الحكم بعد مراحلها البدائية والقبلية والإقطاعية والصناعية .. فبعدما حكم «جمال عبد الناصر» مصر كان من أوائل ما فعله هو نشر كتابه «فلسفة الثورة» وكما يدل عليه اسمه فهو محاولة ثقافية لتبرير وتوضيح ثورة ٢٣ يوليو/ تموز ١٩٥٢ في مصر، والتي قام بها العسكر، وبعده احتاج النظام المصري الجديد إلى مائة مثقف –كونوا منهم ما سُمِيَ بلجنة المائة– لكيْ يضعوا دستور النظام الاشتراكي الجديد وسموه «الميثاق» من عشرة أبواب كل باب في قضية معينة.

بعدما رحل «عبد الناصر» وركب «السادات» السلطة وحده، داس على الميثاق السابق، واحتاج إلى «المثقفين» مرة أخرى لوضع ميثاقه الجديد، فأتى بعدد من أساتذة الجامعات على رأسهم الدكتور صوفي أبو طالب –رئيس جامعة القاهرة آنذاك، لكيْ يضعوا له ورقة «الاشتراكية والديمقراطية» ويدرّسوها في المدارس والمعاهد .. وهكذا يمضي مجرى الثقافة متعرجاً بحسب احتياجات الأنظمة الحاكمة في كل عصر وفي كل مصر.

نعود –مرة أخرى– إلى حكاية (شعراء البلاط) مع الأنظمة التي عاشوا في

ظلالها، والتي أسهموا في تكريسها، ومنحها صفة الشرعية، ونفض الغربة عنها، وتبرير أخطائها وخطاياها في حق الشعوب والأوطان .. فتعالوا نقترب قليلاً من هؤلاء الشّعراء من أجل تشخيصهم نفسياً، واكتشاف الأمراض التي ابتُلوا بها، والتعرف على السبب الذي جرّأهم على شهادة الزور .. ومن ثمّ خديعة الناس، وتزييف الوعي، وخيانة الأمانة!

فما من شك أن هذا الصنف أقبح طبقات الشُّعراء، وأبغضهم عند الله، وعند الناس .. لأنهم اليد اليُمنَى من الطغيان، فهم يُؤَلِّهون الحُكَّام، ويصنعون الطواغيت، ويزيّنونَ للفرعون سوء عمله .. فيلقّبونه –زوراً وبهتاناً بـ«الواثق بالله» أوْ «المعتضد بالله» أوْ «المؤيد بالله» أوْ «المستنصر بالله» وغيرها من الكنى والألقاب الرنّانة المدوية، أوْ كما قال الشّاعر قديماً:

أَلقابُ مملكةٍ في غير موضعها ... كالهِرِ يحكي انتفاضاً صولةَ الأسدِ!

مع أنهم في حقيقة الأمر لا يعدون أن يكونوا سوى حكام صعاليك مستبدين، حاكمين بأمرهم أوْ بأمر الشيطان .. لكن هؤلاء الشعراء –من أسف– خلعوا عليهم من صفات المهابة والجلالة والوقار والتقديس التي لا يستحقونها بأيّ حال من الأحوال، كأن يصفون الديكتاتور بـ«أمير المؤمنين» مع أنه ما صلَّى فرضاً ولا نافلة، ولا حتى توضأ مرة في حياته! أوْ يُسَمُّونه «الحاكم بأمر الله» في الوقت الذي كان يحكم بأمره هو وأمر الشيطان، ويمنع ويُحرّم على الناس الأطعمة والمشارب التي أحلّها الله لعباده! وفي العصر الحديث كان أحدهم يُلَقَّب «بالزعيم المُلهَم» مع أنه هو الذي تجرَّع الهزائم القاسية الواحدة تلو الأخرى.

أَسَدٌ عليَّ وفي الحروب نعامة ... صفراء تنفر من صفير الصافر!

وآخر لَقَّبوه «بالرئيس المؤمن» وهو الذي كان يرمي المُصلحِين بأقذع الألفاظ، ويتهمهم بأنهم «عملاء وخونة»!

سريع إلى ابن العم يلطم خده ... وليس إلى داعِ الندى بسريع!

لذلك؛ لمْ يتجاوز الحقيقة المفكر «عبد الرحمن الكواكبي» عندما قال: «إنه ما من مُستبدٍ سياسي إلاَّ ويتخذ لنفسه صفة قدسية يشارك بها الله»! لكن هذه الصفة قد تكون ظاهرة بارزة يعلنها الحاكم نفسه كما فعل «فرعون» وقد تكون خافية مستترة، وإن كان مضمونها ظاهراً في سلوكه فهو على أقل تقدير «لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون»! وهذا ما فعله جميع الطغاة على مدار التاريخ. فالحاكم المستبد أوْ الديكتاتور أوْ الطاغية لا يخضع للمساءلة، ولا للمحاسبة، ولا للرقابة من أي نوع .. ومن هنا ينبغي علينا ألاَّ نندهش عندما نقرأ في كتب التراث أن الوليد بن عبد الملك استفسر ذات مرة في عجب: «أيمكن للخليفة أن يُحاسَب؟!» والسؤال هنا عن الحساب من الله. دعْ عنك أن يجرؤ البشر على ذلك.

هكذا تصنع الحاشية أوْ البطانة بالطاغية من الثناء والتمجيد والتعظيم و... حتى يصلوا به إلى التألُّه، فيُرهِب هو بقية الناس بالتعالي والتعاظم، ويذلّهم بالقهر والقوة وسلب المال حتى لا يجدوا ملجأ إلاَّ التزلّف له وتملّقه .. وعوام الناس يختلط في أذهانهم الإله المعبود الحق والآلهة المزعومة من الحكام المستبدين .. ولهذا خلعوا على المستبد أوْ «الطاغية» صفات الله: كولي النِّعم، والعظيم الشأن، والجليل القدر، وما إلى ذلك. وما من مستبدٍ سياسي إلاَّ ويتخذ له صفة قدسية يشارك فيها الله، أوْ تربطه برباط مع الله، ولا أقل من أن يتخذ بطانة من أهل الدِّين يعينونه على ظلم الناس باسم الله! وبذلك يصبح هو: الحاكم، القاهر، الواهب، المانع، الجبار، المنتقم، المقتدر، الجليل، المَلِك، المهيمن، المهيب، الركن ... إلى آخر الأسماء الحسنى التي تَسمَّى بها واحد من أعتى طغاة الشرق في تاريخنا المعاصر وهو الرئيس العراقي صدام حسين، دون أن يجد في ذلك حرجاً ولا غضاضة!

بطبيعة الحال، فإنَّ الحديث عن (شعراء البلاط) يجرّنا إلى كشف الغطاء عن فئة

«المنافقين» التي هي موجودة بين الناس في كل عصر ومصر، وفي كل زمان ومكان، التي يقول عنها ابن قيّم الجوزية: «كاد القرآن يكون كله في شأنهم لكثرتهم على ظهر الأرض، وفي أجواف القبور، فلا خلت بقاع الأرض منهم لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات وتتعطل بهم أسباب المعايش، وتخطفهم الوحوش والسباع في الفلوات»!

لكن هناك من يعلّل كثرتهم في هذا الزمان -بالذات- لأسباب كثيرة منها: تفشّي الجهل في الأُمة بسبب هيمنة التعليم اللاديني أوْ العلماني في المدارس والجامعات، وإقصاء الإسلام عن معظم مناحي الحياة، وحُكْم المسلمين بالقوانين الوضعية، وحرص الحكام والملوك على كراسي الحكم، حتى لو أدى ذلك إلى إقصاء الإسلام بالكلية، وسيطرة المنافقين على وسائل الإعلام في البلاد العربية والإسلامية وحجب الأخيار وأهل الصلاح عن ذلك.

يظهر هذا الصنف من الناس بكثرة في عصور الظلم والطغيان، وتعلو هاماتهم وترتفع أصواتهم في ظل الأنظمة الديكتاتورية، فلا أحد يظن أنه يمكن أن يظهر هذا اللون من الشعر الرخيص في أجواء ترفرف فيها رايات العدل والحرية مثل عهد الخلفاء الراشدين .. لأن الخليفة أوْ الأمير العادل لا يتخذ بطانة من المفسدين في الأرض وحملة البخور أوْ المتسلقين والمداهنين الذين يُصفّقون له في السراء والضراء، فالإنسان المستقيم أوْ السوي لا تقبل نفسه المديح والتقريظ والثناء، بلْ يضيق ذرعاً بعبارات المديح الخادعة، وبرقيات التهاني الكاذبة، لأنه يعتبر هذا نوعاً من الغش والخداع والتدليس.

لذا، نجد الإمام أبا حامد الغزالي يقول في ذم المدح وكراهيته في كتابه «روضة الطالبين وعمدة السالكين» بأن في المدح ست آفات: «أربع في المادح واثنان في الممدوح. فأمّا التي في المادح فالأولى أنه قد يفرط في المدح حتى ينتهي إلى الكذب. وثانيها أنه قد يدخله الرياء فإنه بالمدح مُظهِر للحب. وقد لا يكون كذلك أو أنه قد

لا يكون معتقداً لجميع ما يقوله فيصير به مرائياً منافقاً. وثالثها أنه قد يقول ما لا يتحققه فيكون كاذباً مزكياً من لمْ يزكِّه الله تعالى، وهذا هلاك. ورابعها أنه قد يُفرِح الممدوح وهو ظالم أوْ فاسق، وذلك غير جائز، لأنَّ الله تعالى يغضب إذا مُدِحَ الفاسق.

أمَّا الممدوح فيضيره بالمدح من وجهين: أحدهما أنه يحدث فيه كِبراً وعُجْباً، وهما مُهلِكان. والثاني أنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر ورضي عن نفسه، وقلّ تشمره لأمر آخرته. فإنْ سَلِمَ المدح من هذه الآفات لم يكن به بأس».

تروي لنا كُتُب التاريخ والفقه والسِيَر كثيراً من قصص الخلفاء الراشدين والأمراء الصالحين الذين كانوا ينفرون من عبارات المديح، ويضيقون ذرعاً بالمدّاحين –مع أنهم أهل لهذا الثناء، بلْ إنهم بأعمالهم الجليلة وسيرهم العظيمة فوق مستوى المدح والتكريم والاحتفاء– لكن زهدهم منعهم من أن يستمعوا لمثل هذا الثناء.

نذكر بعضاً منها على سبيل المثال –لا الحصر: جاء رجل يمدح الصدِّيق أبا بكر .. ماذا فعل الصدِّيق .. هل أمر له بمكافأة من بيت مال المسلمين .. أمْ أسند إليه ولاية أوْ ضيعة يتبوأ منها حيث يشاء؟! لا .. لمْ يحدث هذا ولا ذاك، ولا ينبغي أن يحدث مع خليفة مثل «الصدّيق» الذي أجاع بطنه ليشبع الرعية. لكن الذي حدث هو أن أشاح بوجهه غاضباً منه ومزدرياً له، وهو يقول: «اللهمَّ اجعلني خيراً مما يظنّون، ولا تؤاخذني بما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون».

وجاء آخر يمدح الخليفة الثاني عمر بن الخطاب قائلاً له: والله ما رأينا بعد رسول الله أفضل منك يا عمر! ماذا فعل «عمر» عندما سمع مثل هذا «المانشيت» الصارخ في النفاق؟ هل ألقى عليه بُردَته، أوْ أمر له بعطاءٍ وفير؟

لا .. لا يمكن أن يحدث مثل هذا العبث من خليفة اشتُهِر بالعدل وحمل الناس

على الجادّة.

إنما الذي حدث هو أن أمر بجلد هذا الرجل .. بعد أن خذله على الملأ قائلاً له: كَذبتَ والله .. إنَّ ليلةً في حياة أبي بكر خير من عُمر وآلِ عمر.

وجاء أحد المنافقين يمدح الإمام علي -كرم الله وجهه- فإذا الإمام يرجمه بكلمة تتصدّع من وقعها الجبال الرواسي. حيث قال: أنا دون ما قلت، وأكبر مما في نفسك أيها المنافق!

وقصة الخليفة «عمر بن عبد العزيز» مع الشعراء معروفة للجميع. عندما استُخلِف، وقد وفَدَ إليه الشّعراء كما كانوا يفِدون إلى الخلفاء الأمويين من قبله، فأقاموا ببابه أياماً لا يأذن لهم بالدخول .. وقال للحاجب: اطردهم، فوا الله لا دخلوا عليّ أبداً. فقال الحاجب: إنَّ منهم ابن عمك عمر بن أبي ربيعة. فقال الخليفة: أبعده عني لا قرّب الله قرابته ..!

هكذا كان شأن الخلفاء الأمناء على دينهم ودنياهم، فلا حاجة لهم في المدح والثناء والتقريظ الذي يضر ولا ينفع .. لكن الأمر مختلف تماماً مع الجبابرة والمستبدين وحُكّام الجور الذين يشترون بالذهب والفضة ألسنة المنافقين ليمدحوهم بالخطب العصماء والأشعار، وآخرين يكتبون المقالات المسلسلة ويملأون وسائل الإعلام ضجيجاً بشعارات زائفة كالحرية والاشتراكية والديمقراطية والرخاء والأمن والخير الوفير و...!

من أسف، أن نجد في تراثنا الأدبي نماذج صارخة، وألواناً كريهة، من النِّفاق الفج، والمدائح الممجوجة، التي أفرزها «شعراء البلاط» في العصور الماضية .. والتي -من أسف- يُقرّرها «المسئولون» على طلاب المدارس والمعاهد والجامعات، كأنهم يتواصون بسخيف القول وشهادات الزور والبهتان، ليخلقوا أجيالاً «صاعدة» من المنافقين والمُهرِّجين وسوف نعرض بعض هذه النماذج السيئة للتدليل على صدق

ما نقول، متجاهلين ذكر أسماء أصحابها عمداً، لسوء صنيعهم، وكراهية لهم ولحكّامهم الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد!

فعلى سبيل المثال؛ هذا واحد من الشعراء المنافقين يمدح عبد الملك بن مروان مُكرّساً «نظرية التفويض الإلهي» لبني أُمية، لكيْ يمارسوا الحكم، فهم أجدر الناس به وأقدرهم عليه!:

وقد جعل الله الخلافة فيكم بأبيض، لا عاري الخِوان ولا جدب
ولكن رآه الله موضع حقها على رغم أعداء وصدادة كذب

وهو الشَّاعر نفسه الذي مدح بِشْر بن مروان بقوله:

أعطاكم الله ما أنتم أحق به إذا الملوك على أمثاله اقترعوا

وهذا شاعر آخر يمدح عبد الملك بن مروان، قائلاً:

الله طوقك الخلافة والهدى الله ليس لما قضى تبديل
وَلِيَ الخلافة والكرامة أهلها فالملك أفيح والعطاء جزيل

ويمدح عبد الملك بن مروان -مرة أخرى- بقوله:

أنت الأمين أمين الله لا سرف فيها وليت ولا هيابة ورع
أنت المبارك يهدي الله شيعته إذا تفرقت الأهواء والشيع
يا آل مروان إنَّ الله فضَّلكم فضلاً عظيما على من دينه البدع

وقوله أيضاً لعبد الملك:

والله قدّر أن تكون خليفة خير البرية وارتضاك المرتضي
أعطاك ربك من جزيل عطائه ملكاً كعوب قناته لمْ ترفض

وذاك شاعر آخر من شعراء البلاط يمدح هذا المَلِك الأموي المستبد -جازماً بأنَّ الله جعل له الخلافة ونصره على أعدائه نصراً عزيزاً. - والمقصود بالأعداء هنا هو

الخليفة الشرعي- آنذاك- عبد الله بن الزبير وأتباعه من علماء وفقهاء الحجاز- يقول الشَّاعر:

فـالأرض لله ولاّهـا خليفتـه   وصـاحب الله فيهـا غـير مغلـوب
فأصـبح الله ولى الأمـر خـيرهم   بعـد اخـتلاف وصـدع غـير مشـعوب

وهذا شاعر آخر يمدح الوليد بن عبد الملك، مُصرِّحاً بأنَّ الله اصطفاه للخلافة ورفع قومه على غيرهم بكثرة محامدهم ومحاسنهم! (جدير بالذكر أن هؤلاء الخلفاء الممدوحين هم الذين قال عنهم الخليفة عمر بن عبد العزيز: «والله لوْ جاءت كل أُمةٍ بخطاياها، وجاء بنو أُمية بخطايا الحَجّاج الثقفي، لرجحتْ كَفَّة بني أُمية» يقول الشَّاعر مادحاً الوليد:

يكفـي الخليفـة أن اللـه سربلـه   سربـال ملـك بـه تزجـى الخواتيـم
يـا آل مـروان إن اللـه فضَّـلكم   فضـلاً قـديماً وفي المسـعاة تقديـم

مألوف في سيرة الحكم الفردي؛ الإغداق على رجال البلاط وجوقة المنافقين، في المقابل الشح والمنع والحرمان للمخالفين والمعارضين .. فالملق والنفاق باب واسع إلى الثراء والرفاهة. وهل ضاع دين الله ودنيا الناس إلاَّ بهذا المنطق الوضيع؟ لقد ذهب رباط المبادئ وبقي رباط المآرب والمنافع، ذهب الحب والبغض في الله، وبقي الحب والبغض لدنيا تُنال أوْ لشخصٍ يُلتمس في جواره الجاه والمال .. وكلنا يعرف قصة جرير مع عبد الملك بن مروان، حيث أنشده الشّاعر قصيدته التي يقول فيها:

ألسـتم خـير مـن ركِـب المطايـا؟!   وأنـدىَ العـالمين بطـون راحِ!

فطرب عبد الملك طرباً شديداً، وقال: بلى نحن كذلك .. خير من ركب المطايا، وأسخى الناس أيادي .. وانفتح بيت المال ليأخذ الشّاعر منه ما يشتهي! وعطايا الخلفاء للمدّاحين بلا حساب.

والضمير المسلم يتساءل بألم وحسرة: ألهذا أُنْشِئَ بيت المال .. أموال الأُمة

وثرواتها تُنفَق على هذه الأغراض الوضيعة وعلى هؤلاء المتفعين والمأجورين من شعراء السلطان وحواريه وجواريه ... إنّ هذا لشيءٌ عُجَاب!

وتحضرني قصة المرأة التي جاءت إلى معاوية، فأعطاها ما شاءت وزادها، ثم سألها: أوَ لَوْ كان «عَليّ» حياً .. أكان يعطيكِ هكذا؟ فقالت المرأة: لا .. لأنّ عَليّاً كان يخشى الله!

ومن هذا القبيل -أيضاً- ما قيل بمناسبة زيارة الوفد المصري إلى واشنطن عقب اتفاق «كامب ديفيد» وكان يضم أكثر من مائة شخص، وأقيم لهم حفل طعام في البيت الأبيض، فكتب صحفي أمريكي يستنكر إقامة حفل لهذا العدد الكبير، وقال: إن دافع الضرائب في الولايات المتحدة لم يقدِّم ماله لمثل هذه الأغراض! وأسرع البيت الأبيض يعلن أن نفقات الحفل قامت بها إحدى الشركات، ولم تتحملها الدولة! نعم إن المال العام ليس كلأً مباحاً يتخوّض فيه الحاكمون بغير حق، وصون هذا المال جزء من النزاهة التي تُحترَم بها الدولة.

الحديث في هذا الموضوع ذو شجون، فقصة تجرّ قصة، وحكاية تهتف بأخرى .. فلا أحد يستطع أن يحصي تلك الأموال الطائلة -أموال الأمَّة- التي راحت في غير موضعها، كالتي أُلقيتْ تحت أقدام الجواري، أوْ التي أُنفِقَتْ على طوابير المُهرجين، والشعراء المادحين، وحفلات الأغاني ومهرجانات الأفلام ..!

تذكر كتب الأدب أنه لَمَّا أفْضَتْ الخلافة إلى بني العباس، وملك الأمر عبد الله السفَّاح، جاءه شاعر من ذات الجوقة الذين يتكسّبون بالشِّعر، فأنشده هذه الأبيات:

دونكموها يا بني هاشم ... فجدِّدوا ميراثها لا تعْدَموا منكم لها
دونكموها فالبسوا تاجها ... لابسا الطامسا
خلافة الله وسلطانه ... ومنبر كان لكم دارسا
قد ساسها قبلكم ساسة ... لم يتركوا رطباً ولا يابسا

لـــو خـــيِّرَ المنـــبر فرسانـــه ... مـــا اختـــار إلاَّ مـــنكم فارســـا
والملـــك لـــو شـــوور في ساســـة ... مـــا اختـــار إلاَّ منكـــم سائســـا
لم يُبْـــقَ عبـــد الله بالشـــام مـــن ... آل أبي العـــاص امـــرءاً عاطســـا
فلســـت مـــن أن تملكوهـــا إلى ... مهـــبط عيســـى، منكـــم آيســـا ...

قال الرواة: فأمر له الخليفة بمائة ألف درهم، وقال له: سلْ حوائجك! فقال الشَّاعر: ترضى عن سليمان بن حبيب وتوليه الأهواز! فأمر الخليفة بجعل سليمان أميراً على الأهواز.

وفي تعقيبه على هذه الرواية يقول الشيخ محمد الغزالي: هكذا –باسم الإسلام– نُهِبَ مال الأُمَّة، ونِيلتْ مناصبها الكبرى، وتمنَّى الشاعر أن تظل الخلافة في عائلة العباس إلى نزول عيسى ابن مريم .. وقد خَيَّبَ الله الأمل! وزالت تلك الخلافة بعدما عانى الإسلام منها البلاء الشديد».

وهذا شاعر آخر من معسكر المزوِّرين يمدح «الأمين» ويضفي عليه من الصفات الإلهية والجلال القدسي ما لا يطلق إلا على الله ذي الجلال والإكرام –وحده– إذْ يقول ذلك الشَّاعر:

ألا يـــا خـــير مـــن رأت العيـــونُ ... نظـــرُكَ لا يُحَـــسُّ ولا يكـــون
وفضـــلك لا يُحَـــدُّ ولا يجـــارى ... ولا تحـــوي حيازتـــه الظنـــونُ
فأنـــت نســـيج وحـــدك لا شـــبيه ... نُحاشـــيه عليـــه ولا خـــدينُ
كـــأنّ المُلـــكَ لمْ يـــكُ قبـــل شـــيئاً ... إلى أن قـــام بالمُلْـــكِ الأمـــينُ !

وهذا شاعر آخر من طابور المدَّاحين، وصلت به المبالغة في مدح «المأمون» إلى الحد الذي جعل الحُكم وقفاً عليه إلى يوم القيامة! وأنَّ القَدَر يخاف من المأمون! بلْ جعل المأمون في سياسته أفضل من أبي بكر وعمر! ولا جدوى ولا أهمية للشمس والقمر مع وجوده!

يقول هذا الشَّاعر –الذي باع آخرته بدنيا غيره!:

يا وارث المُلك إن المُلك محتبسُ ... وقْفٌ عليكَ إلى أن تُنشَر الصورُ

لمْ يذكر الجود إلاَّ خضتَ واديه ... ولا انتُضي السيف إلاَّ خافك القدرُ

ما ضرّ من أصبح المأمون سائسه ... إنْ لمْ يسسْهُ أبو بكر ولا عمرُ

وما على الأرض والمأمون يملكها ... أنْ لا تضيء لنا شمسُ ولا قمرُ!

جدير بالذكر؛ أن هؤلاء «المدّاحين» الذين أكثروا من التكسُّب بشعرهم، كانوا يُلحّون على الممدوحين في طلب الجوائز، وقد يحدث –أحياناً– أن يُعرِض عنهم الممدوحون، ويحجبوا عنهم الجوائز، فينقلب المدح إلى هجاء مقذع، لأنه لم يكن باعث المدح الإعجاب بشخصية الممدوح، وإنما الطمع في الجائزة، فلما مُنِعتْ –ذات مرة– كان رد «ابن بسَّام» على الوزير «صاعد بن مخلد» رداً حارقاً وهجاءً قاسياً:

سجدنا للقرود رجاء دنيا ... حوتها دوننا أيدي القرودِ

فما نالتْ أناملنا لشيء ... عملناه سوى ذُلِ السجودِ!

هناك أطنان من شعر المديح الذي يتخلّله التقديس ويطفو عليه النفاق –خاصة في ظل حكم الأمويين والعباسيين– لكن يكفي من القلادة ما يحيط بالعنق!

ولمْ تكن العصور الأخيرة بأحسن حالاً مما سبقها من العصور، فالنفاق والمدائح الفجَّة أمراض متوطنة في أرض العرب، فشل في علاجها أطباء القلوب والعلماء والدعاة .. فهذا شاعر آخر من شعراء البلاط يمدح الخليفة الفاطمي المعز لدين الله قائلاً:

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدارُ ... فاحكمْ فأنتَ الواحدُ القهّار

وكأنما أنتَ النبيّ مُحمّدٌ ... وكأنما أنصاركَ الأنصار

بلْ يصل الغلو بهذا الشَّاعر إلى أن يقول:

ندعـــوه منـــتقماً عزيـــزاً قـــادراً غفّـــار موبقـــة الـــذنوب صـــفوحا
أقســمتُ لــولا أنْ دُعيــتَ خليــفةً لـدُعِيتَ مـن بعـد المسـيح مسـيحا

وفي العصر الحديث، كان هناك عدد كبير من الشُّعراء -بمثابة- أداة من أدوات الشرف في بلاط الملوك والأمراء وحفلات التأبين المواليد والمناسبات التاريخية كعيد الجلوس وتولّي الإمارة والبيعة وغيرها، وهؤلاء الشُّعراء كان لهم ولاء مثلث: ولاء للخليفة العثماني، وولاء للخديوي والملوك، وولاء لممثّلي السلطة: الاستعمار والأحزاب والحكام.

فاللورد كرومر مُدِحَ في مصر، وكان هناك شعراء يسيرون في ركبه ويُسَبِّحون بحمد الإنجليز في كل مناسبة، منهم: الشاعر أحمد نسيم، وولي الدين يكن وغيرهم. فيقول نسيم في كرومر:

يـا مُنقِـذ النيـل لا ينسـى لـك النيـل يـداً لهـا في فـم الإصـلاح تقبيـل
إنـا نـودّع فيـك العـرف أجمعـه ومـا لنـا غـير حسـن الصـبر تعليـل!

كما مدح الشَّاعر الساعاتي، الوزير إسماعيل صدقي، فقال:

وحبـكَ بالإجمـاع منـا فصـادح بحمـدك غريـد وآخـر بـاغم

ويمدح الساعاتي الخديوِ، فيقول:

رفـع القواعـد مـن دعـائم دولـة عـزّتْ بـه فنظيرهـا لا ينظـر
قد طاولـتَ بالعـدل كسرى واعتلـتْ شرفـاً وقصّر عـن مـداها قـيصر!

منذ عهد قريب، وقف أحد الشُّعراء العرب في مهرجان «المربد» الذي كان يقام في العراق على عهد صدام حسين - يقول الشّاعر رافعاً راية الكُفْر صراحة ودون مواربة:

رضيتُ بالبعـثِ ربـاً لا شريـك لـهُ وبالعروبـةِ دِينـاً لا لـهُ ثـاني!

هذه نماذج وشواهد شعرية مشينة، تتأذّى عند سماعها كل الكائنات، حتى

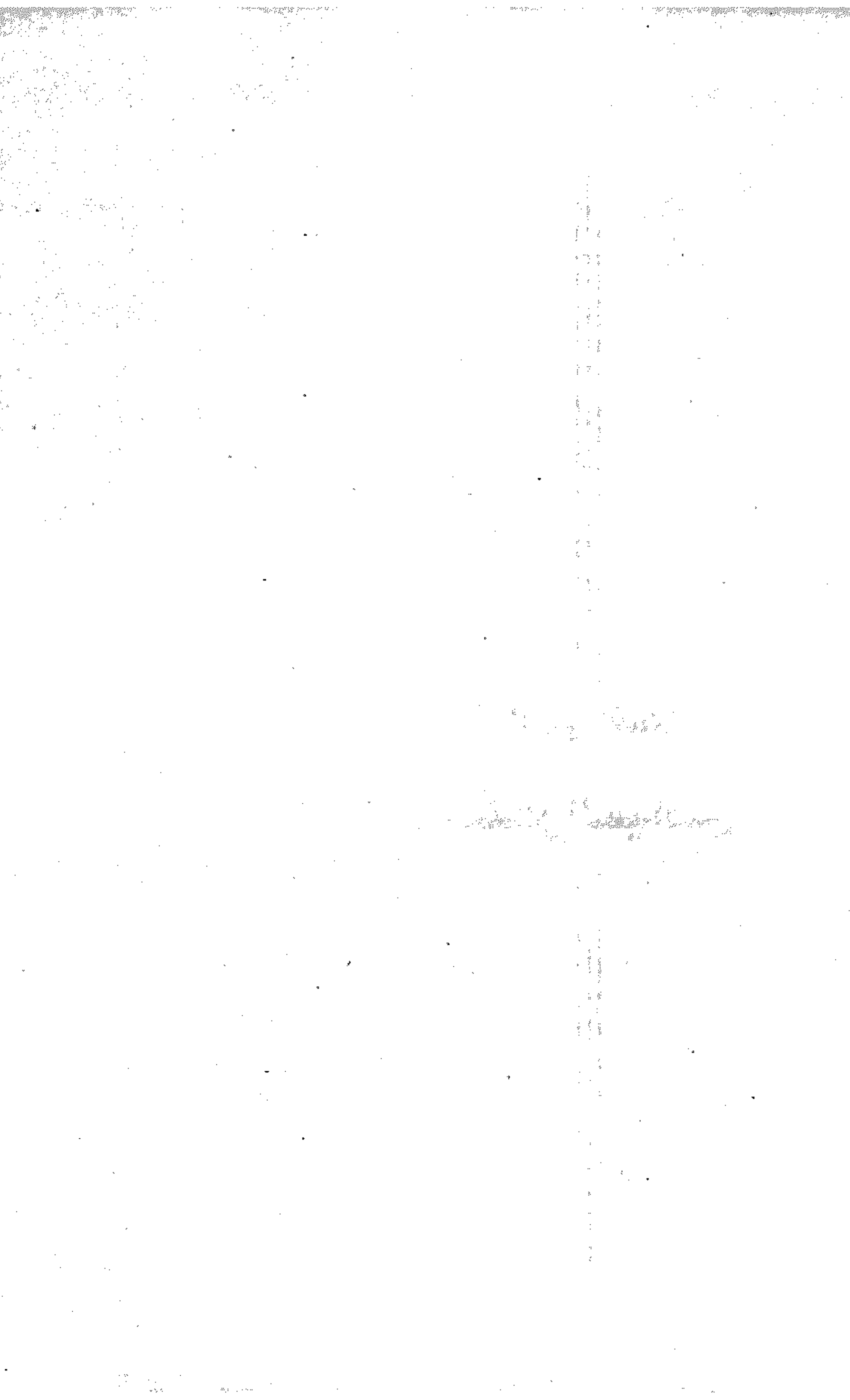
الدواب والزواحف، وربما يتورّع مـن سماعها أبـو جهل وزميله أبـو لهب وعتاة المشركين، ولولا أن القاعدة الفقهية تقول: «**ناقل الكفر ليس بكافر**» لَمَا تجرأتُ على نقل هذه الإفرازات الكريهة التي لا تصدر إلاَّ عن طُلاَّب الدنيا، وخُدَّام الطغاة، وحاشية السلطان وكلابه وكُتَّابه وزبانيته!

من ثمَّ؛ فإنني لا أجد ما أقوله بعدما قرأنا سخيف القول من الإفك المبين، وشهادات الزور، والبهتان والتزييف والمغالطات... لا أجد إلاَّ أنْ أدعوكم – جميعاً– أن تحثوا التراب في وجوه أمثال هؤلاء الشُّعراء، وأنْ تصفعوهم بالأحذية والنعال، وتلاحقوهم باللعنات، ولا تأخذكم بهم رأفة في دين الله إنْ كنتم مؤمنين!



الفصل الثالث

الشِّعْر السياسي



(الشِّعر السياسي) لون من ألوان الشعر، يُعدّ اقترافه في مجتمعاتنا من «الكبائر» أَوْ من «المُهلِكات» ويصنِّفه فقهاء السلاطين ضمن المحرمات، أَوْ المحظورات في أحسن أحواله .. وقد أَوْدَى بحياة كثير من أصحابه ومن والاهم أَوْ دعا بدعوتهم .. فكمْ من الشعراء الذين أُودِعوا الزنازين من أجله؟ وكمْ من الرءوس التي فُصِلتْ عن أجسادها بسبب اقترافه؟ وكمْ من المبدعين الذين أُخرِجوا من ديارهم، وشُرِّدوا من أوطانهم بتهمة «تسييس» الشِّعر؟ وكمْ من أطنان الشّعر السياسي التي صُودِرتْ أَوْ أُحرِقت؟ فضلاً عن الشِّعر الذي لمْ يخرج من بطون الشّعراء .. ولمْ يرَ نوراً ولا ناراً!

قبل أن نُميط اللثام عن ماهية هذا اللون الشّعري، وطبيعته، وتاريخه، وحكاية شعرائه ومآسيهم وصراعاتهم مع السلاطين الطغاة .. لابد من زيارة سريعة إلى الماضي، نلقي من خلالها نظرة موضوعية على معضلة السياسة وطبيعة الحُكْم في العالم العربي وغاياته التي بلغتْ بهؤلاء الشعراء إلى حد المخاطرة والتضحية بالنفس والنفيس.

ونظراً للعلاقة العضوية بين ألوان المعرفة والثقافة بوجه عام، وبين الأدب وعلم التاريخ وعلم السياسة -على وجه الخصوص- أَوْ باعتبار أن الأدب والشِّعْر مرآة لهذا الواقع، وأن الشّعراء -بمثابة- وسائل الإعلام التي تبث على الناس ما يحدث في المجتمع، وتروي لهم ما يجري في الأُمة من خير أَوْ شر، وانتصارات وهزائم.

أيضاً، حتى يتسنّى لنا معرفة ما إذا كان هؤلاء الشُّعراء -الذين باعدتْ بيننا وبينهم القرون الطويلة والمسافات البعيدة- أكانوا على حق أمْ على باطل؟ أصابوا أمْ أخطأوا في دعواهم وآرائهم التي أذاعوها عبر أشعارهم؟ وهل هم «جُناة» وآثمون يستحقون ما أصابهم من أذىً ومكروه وما لاقوه من العنت، أمْ أنهم «ضحايا» ومجني عليهم كما يزعمون؟!

الأمر -إذن- يتطلب زيارة إلى الماضي، ورحلة سريعة إلى الوراء، نُقلّب صفحات التاريخ، لنستلهم وقائعه، ونعتبر بدروسه، ونتعلم من الأخطاء، ومن هم الذين أحسنوا ومن الذين أساءوا؟ ونستكشف الحلقات المفقودة بين الشعوب والحكام!

قراءة التاريخ، بلْ إعادة قراءته مرات ومرات ضرورة للغاية، فمن يقرأ التاريخ يزداد عُمراً إلى عُمره، لذلك .. ولحكمة بالغة كان قصص القرآن وما حواهُ من أحداث الأُمم الماضية يشغل حيزاً كبيراً من كتاب الله الكريم.

فكيف نقرأ التاريخ، وكيف نفقه أحداثه بين المد والجزر؟ ومَنْ ذا الذي يُفسّر لنا حوادثه ووقائعه وملابساته؟ حتى نعرف مَنْ القاتل ومَنْ المقتول؟ مَنْ الظالم ومَنْ المظلوم؟ مَنْ الجاني ومَنْ المجني عليه؟ مَنْ المُفترِي ومَنْ المُفترَى عليه؟

حتى نخرج من زحمة المتناقضات، وركام المراجع، التي قد كُتبتْ تارة بأقلام حواشي السلاطين وندمائهم، أوْ كتبها تارة أخرى أعداؤهم وخصومهم الألداء!

إنني أُحيل القارئ في هذا الشأن إلى رؤية محايدة وموضوعية .. إنها وجهة نظر نخبة من أُولي الألباب من العلماء والمفكرين البارزين المشهود لهم بالموسوعية، والاستقامة، والوسطية وسلامة القصد، وصدق النيّة.

إنَّ من شواهد صدق وموضوعية هؤلاء العلماء والمفكرين، أنهم ليسوا تابعين أوْ «موظفين» لدى هيئة أوْ مؤسسة أوْ حكومة ما، فلا يرغبون في ذهبْ المُعِزّ وكنوزه، ولا يخشون سيفه ووعيده. إنما نذروا حياتهم للبحث عن الحقيقة المجردة، فجهروا بكلمة الحق حينما صمت الآخَرُون!

أزمة العقل المسلم !

نستمع -أولاً- إلى وجهة نظر المفكر الإسلامي الدكتور/ **عبد الحميد أبو سليمان** -مؤسس المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالولايات المتحدة، والرئيس الأسبق

للجامعة الإسلامية بماليزيا- إذ يقول في كتابه «أزمة العقل المسلم» الذي انشغل بموضوعه وجمع مادته طوال نصف قرن من الزمان،ذلك الكتاب الذي يقول عنه الدكتور/ طه جابر العلواني: «لوْ لمْ ينتج العقل المسلم في المئة سنة الأخيرة غير هذا الكتاب لكفى»!

يقول الدكتور أبو سليمان في تحليله لتاريخ أزمة الصراع السياسي التي شهدتها الأُمَّة:

(إنه منذ سنة ٤٠ هجرية -أيْ بعد انتهاء الخلافة الراشدة- تحول الحُكْم إلى مُلْكٍ عضوض دعائمه القبلية والعصبية والاستئثار والاستبداد، وكان طبيعياً، وقد تغيرت القاعدة السياسية، أن يستقر الأمر لسلطان بني أمية وأن لا يستقر لعثمان أوْ علي أوْ الحسن من بعده رضي الله عنهم جميعا.

وكان طبيعياً أن لا تقوم على مدار أكثر من قرن من الزمان قائمة للجماعة القليلة من رجال الالتزام الإسلامي في مكة والمدينة، وأن تُدمَّر صفوف الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير ومحمد ذي النفس الزكية وزيد بن علي وسواهم في حروب أهلية طاحنة كانت الغلبة فيها للقاعدة القبلية الواسعة لتزداد تمكناً بتقدم الأزمان مع جموع الأمم الوافدة على الإسلام من فرس وروم وهند وترك وسواهم من الأمم التي انضوت تحت لواء الإسلام دون أن تتاح لها الفرصة للتربية والتدريب كيْ يصهروا نفوسهم في بوتقة الإسلام الخاصة الخالية من شوائب الجاهليات والعصبيات والباطنيات .. وهكذا كانت بداية الانحراف والتباعد عن غايات الإسلام ومفاهيمه الخالصة ومنهجه السليم هي غلبة الأعراب من رجال القبائل، وبالتالي تغيُّر القاعدة السياسية لتنتهي الأمة إلى قيادة ونظام هو خليط من إسلام وجاهلية.

وإذا كانت غلبة الأعراب على جيش الفتح وإسقاط الخلافة الراشدة وإقامة

مُلك بني أمية في موضعها السبب الأول للتغيير والانحراف، فإنّ ما نجم عن هذا التغيير الظاهر الملموس من تغيير معنوي كان أشد خطراً وأبعد أثراً، فقد نتج عن هذا التغيير انقسام في صفوف القيادة الاجتماعية مثّل فصاماً بين القيادة الفكرية عن القيادة السياسية وكان أساساً هاماً لما نجم بعد ذلك من عوامل الضعف والتدهور والتمزق وتراجع الطاقة الهائلة التي فجرها الإسلام في نفوس الناس والأمم.

فبعد قيام سلطان العصبية والأثرة والقهر في نظام المجتمع الإسلامي؛ فإنّ القيادة الفكرية الإسلامية الملتزمة المتمثلة في أرض الحجاز وحاضرة الخلافة الراشدة لم تتقبل التغيير الجديد وفكره وغاياته، فهبّت لمقاومته على أساس عقائدي وفكري، وليس على أساس قبلي.

وحين أنهكت الثورات والحروب الأهلية الطاحنة لأكثر من قرن من الزمان أصحاب الفكر والالتزام الإسلامي الذين فشلوا في استقطاب جماهير الأمة التي سيطر على عقليتها وتربيتها عقلية ومفاهيم القبلية والشعوبية والطائفية، اضطرت صفوفهم إلى التراجع والانطواء بعيداً عن القيادة السياسية والتخلي عن أسلوب المواجهة والقتال، وأخذت القيادة السياسية الجديدة في محاصرتهم ومحاولات إخضاعهم لمآربها وتضييق الخناق على معاقل الصلابة في مقاومتهم حتى كان نصيب كبار العلماء وعلى رأسهم الأئمة الأربعة الإيذاء والنكال، ليموت الإمام أبو حنيفة في السجن دون أن يقبل تولّي القضاء لسلطة سياسية غير ملتزمة، وليُضرَب الإمام مالك حتى تُشلّ يده لما جهر به من فتوى بطلان طلاق المُكره وما كان لهذه الفتوى من دلالة سياسية سلبية على خلخلة قبضة السلطة السياسية القائمة، كما نال الإمام أحمد الكثير من العذاب والأذى لمعارضته مخططات السلطة السياسية، وكان نصيب الإمام الشافعي الهرب من حاضرة السلطان في بغداد بعد أن سِيقَ إليها مُكبلاً من اليمن لخوف السلطة من فكره ونشاطاته السياسية حتى لجأ

إلى مصر -تلك الحاضرة البعيدة عن مركز السلطان- طلباً للسلامة والنجاة .. بل إنَّ التهمة «العجيبة» التي أرادوا أن يحاكموه من أجلها هي حب آل البيت والثناء عليهم، وما عُرِفَ آنذاك بفرقة «الرافضة» مما جعله ينشد في ذلك:

يا راكباً قِفْ بالمحصب من مِنى	واهتفْ بقاعد خِيفها والناهض
إنْ كان رفضاً حُب آل محمّد	فليشهد الثقلان أنّي رافضُ

لقد شكَّل هذا التمزق والفصام بين القيادة الفكرية الإسلامية والقيادة السياسية الاجتماعية الأساس لتراجع وتمزق نسيج المجتمع العام وتدهور الفكر والأنظمة الإسلامية وانحطاطها وفتح الباب واسعاً أمام قوى التدهور والفساد والانحطاط.

لقد مثَّل هذا الفصام بين القيادة الفكرية والقيادة السياسية التربة الخصبة لأمراض الأمة اللاحقة والتي جعلتها اليوم تقف فكرياً ومادياً مبهورة الأنفاس -عاجزة ومهددة في صميم وجودها وكيانها- أمام التحدّي الحضاري الغربي المعاصر، الذي انتصب يهددها مادياً ومعنوياً بالسحق والدمار. فقد أدى هذا الفصام النكِد أولاً إلى عزل القيادة الفكرية عن المسئولية الاجتماعية والممارسة العملية، وهذا بدوره كان العامل الأساس والأهم خلف عجز العقل المسلم وضموره حتى انزوى في أروقة المساجد بين طيات الكتب النظرية والتاريخية التي تعني في جوهرها بأسلوب وصفي ونهج لغوي في معرفة مرامي وغايات نصوص الكتاب والسنة ومحاولة الحيلولة بين السلطان وأتباعه وبين استعمال هذه النصوص كوسيلة وأداة لتأصيل انحرافاته، وانتهى الأمر بهذه المعركة إلى ما عرف بقفل باب الاجتهاد، ولم يكن في الحقيقة للاجتهاد باب يُقفَل ولا دار تُهدَم! وإنما كان ذلك تعبيراً عما انتهى إليه الأمر من الضمور الذي أصاب الفكر من آثار عدم الالتزام لدى القيادة السياسية وما لحِقَ ذلك من محاولات السلطان السياسي للقهر والاستبداد بتطويع كل شيء تصل إليه يده لخدمة مصالح السلطة وأعوانها وعصبياتها، مما جعل العلماء ينكفئون على ما في أيديهم في صحون المساجد

بعيداً عن كل حادث وجديد.

وقد أدى هذا الفصام النكِد ثانياً إلى جهل القيادة السياسية وحرمانها من وجود قاعدة فكرية تخدمها وتواكب معها المتغيرات وتمدها بالفكر والسياسات والبدائل، فلا غرابة إذن أن تتحول القيادة السياسية في مجمل تاريخ الدولة الإسلامية إلى سلطة مستبدة غشوم تأخذ الناس بالقهر والخسف ولا يكون للشورى ومشاركة الأمة مجال ولا نصيب في تسيير شئون الأمة وتوليد قناعاتها وطاقة بذلها وعطائها، ولا غرابة أيضاً أن ينتهي الأمر بمجمل الأمة إلى الاضمحلال والانحسار والتراجع الحضاري في الكيان النفسي والفكري وفي المؤسسات والنظم.

هذا بعض ما قاله الدكتور أبو سليمان- في تحليله لأزمة العقل المسلم منذ بدأت أولى فصولها في الماضي البعيد، ثم استشرت تلك الأزمة المعضلة وتفاقمت مضاعفاتها حتى سَرَتْ في جسم الأمة كلها قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل إلى يومنا هذا، وألقتْ هذه الأزمة «الكارثة» بظلالها على الواقع الحالي للأمة، التي كانت من نتائجها الفقر والجهل والمرض والانتكاسات وتفشي الديكتاتورية والاستبداد والطغيان وسيادة الأنظمة الشمولية.

نعم .. إن حالنا الآن أسوأ مما كان عليه من قبل، وهذا القرن بالذات أشد ضراوة وقسوة مما سبقه من القرون، بلْ إنه ما من عامٍ يُقبِل على العرب والمسلمين- إلاَّ شراً من الذي سبقه .. فالمسلمون من مائتي عام -فقط- كانوا أشدّ هيبة وأعزّ نفراً -مع ما تلاحَقَ عليهم من هزائم- فقد كانت الأساطيل الأجنبية لا تمر بالبحر المتوسط إلاَّ بعد أن تستأمن من دوله الإسلامية إذْ كان المسلمون يفرضون ضرائب على السفن المارّة بشواطئهم!

سرّ تخلّف العرب والمسلمين!

حتى تتضح لنا الصورة ناصعة جلية في هذا الصدد .. ننتقل إلى مفكر كبير آخر،

وعالم جليل، وداعية لا يُشق له غبار، الداعية الذي احتشدت له الألوف لتستمع دروسه وخطبه الحماسية، وخرجت من أجله المظاهرات من قلب الجامع الأزهر تندِّد بأبواق الزحف الأحمر وسفراء الماركسية .. إنه الشيخ/ **محمد الغزالي**– الذي استطاع أن يضع مبضعه على موضع الداء، ويكتشف مناطق الخلل في الجانب السياسي للأمة، وما ترتبّ عليه من آثار سلبية في سلوكياتنا وحياتنا وثقافتنا، وذلك في كتابه «سر تأخر العرب والمسلمين» يقول الشيخ الغزالي:

(ومن أمدٍ بعيد أحسستُ أن هناك ازوراراً عن توجيهات الإسلام الحاسمة في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية تمشياً مع أهواء فرد من الأفراد، أو طبيعة جنس من الأجناس .. إن أهل الكتاب الأقدمين حرّفوا الكلم عن مواضعه على نحوٍ ما، ونحن –على امتداد عدة قرون– نغلّف الوحي بأهوائنا حتى ضاع بريقه، وأكاد أقول لسكان القارات: إن ما ترون في شئوننا ليس ما أنزل الله من كتاب ولا ما قدّم رسوله من أُسوة، إن ما ترون هو عِوَج أُمة نسيت ما لديها ومضت مع هواها ... وقد بلغت من ضراوة الحجب التي رانتْ على بصائرها أنها تقاوم من يريد العودة بها إلى طريق الله، أنها تتعصب لمواريثها من تقاليد الانحراف والعجز، وتتأبّى على عناصر الحق والرشد، التي عرفها سلفها فكانوا الأمة الأولى في العالم.

إنَّ الأمة الإسلامية تعاني صدوعاً هائلة، وهي الآن موزّعة على أكثر من سبعين قومية، أوْ سبعين جنسية سياسية بلغة هيئة الأمم ولغة «جوازات السفر» على سواء! والإسلام سواء كان عقيدة أو شريعة عملة ليس لها رصيد، وأتباعه يُنال منهم ولا ينالون، ويُجار عليهم ولا يجيرون! وذئاب الشرق والغرب تُغير عليهم فتفترس ما شاءت من القطعان السائبة دون أن يتمعّر وجه!

إنَّ إحراج يهودي واحد في روسيا يثير عاصفة من الكلام حول حقوق الإنسان، وحول عداوة الساميّة، أمّا مقتل المئات والألوف من المسلمين في إفريقية وآسيا

وأوروبا فالخطب يسير! وقد يُثار بعض اللغط ثم تُنسى المأساة، وأول من ينساها المسلمون أنفسهم! ما سرّ هذا الضياع والشتات؟ ما وراء هذا التفكك والتبلد؟

الحق أن الأسباب كثيرة بين سياسية واجتماعية وثقافية، وأنها بدأت من قديم، ولكن الكيان الحيّ قد يغالب الجراثيم الوافدة ويهزمها، وقد يصاب بها ويتماسك تحت وطأتها، وربما استطاع العيش زماناً وهو يحس بها ويعالجها بمسكنات موقوتة، بيد أنه سيقع فريستها آخر الأمر، مادام لم يتناول لها دواء يجلب العافية، ويحسم البلاء.

لقد بدأ المسلمون رسالتهم العالمية بداية حسنة، فكانوا -أُمّة ودولة- نموذجاً حسناً لتعاليم الإسلام، واستفادوا استفادة صادقة من تاريخ الأمم الأولى .. لكن بمجرد انتهاء حقبة صدر الإسلام والخلافة الراشدة، بدأ التحول المذهل المشين، حيث نشأت العصبية القبلية، ونزعة الفردية الطاغية، وفرضت نفسها على شعبة الحكم في الإسلام، ثم فرضت نفسها على شُعب أخرى اجتماعية واقتصادية، وخلقية...

وهذا التسلل العربي المنحرف المغالب لتعاليم الدين بدأ على استخفاء، وبدأت العصبيات الشريرة التنفيس عن ذاتها في هذا الجو، فبدأت التحرك رافعة علم الدين! فالعربي الذي ولد في بطحاء مكة يرى أن لسلالته الحق في حكم شواطئ الهادي والأطلسي، إلا أنَّ أباه كان عمدة في الجزيرة العربية والشام والعراق.

وجمهور الفقهاء والمؤرخين والدعاة يؤكد أن علي بن أبي طالب -الخليفة الرابع- كان إمام حق، وأن معاوية بن أبي سفيان كان يمثل نفسه وعصبيته في خروجه على الإمام عليّ، ولم تكن لديه أية مؤهلات لهذه المكانة التي يصبو إليها سوى أنه ينتمي إلى المأسوف على شبابه حرب بن أمية ... وشاءت الأقدار أن يكسب معاوية هذه المعارك، ومن ثمّ تحولت الخلافة الراشدة إلى مُلك عضوض في بني أمية .. وهذا

التحول كان هزيمة للحق، وضربة موجعة للمثُل العليا ... لماذا يحمل نظام الخلافة على عاتقه هذا العبء الثقيل؟ وماذا كسب الدين نفسه من هذه الذرية من الضعفاء والأقوياء؟ لكن بني أمية، ثم بني العباس فعلوها، فاستصحبوا نسبهم «العريق» وهم يفرضون أنفسهم حُكاماً على الأمة، ويسوّغون وجودهم وحدهم في مناصب القيادة، بأنهم أقدر من غيرهم على خدمة الإسلام ونشر دعوته! قد تقول: مالنا ولهذا التاريخ القديم؟ ولماذا ننبش القبور؟ والجواب أن الأمر ليس أمر فرد ما، أو جنس ما، إنه أمر دين يجب إنصافه .. فإنَّ (الحُكْم) هو أول ما انحلَّ من عُرى الإسلام، وأمست «الدولة ورجالها» في أغلب الأعصار والأمصار الوجه الدميم للإسلام، لأسباب ينكرها الإسلام نفسه، ذلك أن الخليفة لم يكن أقدر الناس على القيادة، ولا من أقدرهم، أيْ أن الكفاءة استُبعِدت في الترشيح للمنصب! ثم وهنت أو ماتت أجهزة الشورى، وانفرد بالتصرف عقل واحد يزعم لنفسه الكثير! وانطلقت الأيدي في المال العام تغرف منه دون حسيب ولا رقيب، وذهبت قناطير منه للخدّامين والمدّاحين، واضطرب العمل بالإسلام في الداخل والخارج على سواء، بلْ لم توجد أجهزة رسمية متخصصة للدعوة في أنحاء العالم، ففحش الجهل بالإسلام، وحسب الأجانب أن الإسلام دين قتال وحسب!

لقد كان انحلال عروة الحكم آفة تحمّلها الكيان القوي كما يتحمل الإنسان السويّ صداعاً اعتراه .. وظهرت المأساة مع مرّ الزمان، وترادف البلاء و ... شيخوخة الدولة، وضعف أجهزة المناعة، وقدرة الجراثيم الكامنة على الفتك دون وجل .. إن غلبة النزعات البدوية، والعصبيات العائلية على نظام الخلافة خلّف شروراً كثيرة ... ففي العهد الأموي قُتل قادة الفتوح العظام في المشرق والمغرب ولقوا معاملة منكرة! قُتِلَ قتيبة بن مُسلِم الباهلي -فاتح الصين- هو وأولاده شر قتلة، كما قُتِلَ محمد بن القاسم -فاتح السند- وأُهين وعُزِلَ موسى بن نصير فاتح

المغرب والأندلس لأسباب لا تُشرِّف نظام الحكم .. ولوْ أنَّ الخلافة الراشدة باقية، لكان للقادة العظام شأن آخر، بلْ لمضى الفتح في طريقه يؤدّب الأوروبيين، ويتيامن حيث وصل إلى جنوب فرنسا وجبال سويسرا ليشق طريقه نحو النمسا والبلقان والقسطنطينية في شرق أوروبا وبذلك يعود إلى الشام متمماً الرحلة التي بدأت من مصر ... إن الخلفاء الأكاسرة لا يكترثون بذلك! لقد هاجت القومية العربية بغتة في دمائهم، وعادت إليهم حمية الأنساب، وتقاليد البسوس وداحس والغبراء، ورجّحوا وساوس هذه العروبة الرعناء على وصايا الدين الذي ما كانوا قبله شيئاً مذكوراً، وهزموه آخراً بعد ما نصروه أولاً).

هـذا هو فقه الشيخ الغزالي لوقائع التاريخ العربي والإسلامي، وهذه هي قراءته للأحداث قديماً وحديثاً، وهذا هو تشخيصه لحال الأمة وأوضاعها على كافة الأصعدة، ورأيه في سرّ الفجوة الهائلة عبر تاريخ الأُمة الطويل بين الحكومات والشعوب، بين الرعاة والرعية، بين الحكام والساسة من جانب والعلماء والمفكرين والأدباء من جانب آخر.

فالشيخ الغزالي بذكائه أدرك أن المرض العضال يكمن في الأنظمة الجائرة والمُلْك العضوض والديكتاتورية والاستبداد، وأدرك أن سبب الداء العُضال هم أشخاص الحكام والملوك، فإنْ هم صلحوا صلح سائر الجسد، وإنْ هم فسدوا فسد سائر جسد الأمة .. حيث يقول الشيخ في موضع آخر من ذات الكتاب:

«ما السبب؟ أشخاص الخلفاء أنفسهم، والطريقة التي جاءوا بها إلى منصب الخلفاء! إذْ سرعان ما تحول معظم نشاط أولئك الخلفاء إلى المحافظة على الحكم في ذراريهم، وإلى مكافحة الفتوق التي يُحدثها الناقمون والمعارضون ... ثم جاء العثمانيون فقلّدوا من سبقهم، ولِمَ لا؟ والمتأمل في القيمة الذاتية لأشخاص الذين وُلُّوا أعظم مناصب الدنيا يشعر بالحسرة ... إن بعض الخلفاء لوْ بيعوا رقيقاً ما جاء

أحدهم بثمنٍ طائل، ولكن عنجهية العرب فرضتهم على الإسلام ليقودوه بضعة قرون، فماذا حدث؟ قبعوا في قصورهم، واغتصب السلطة منهم أمراء ووزراء من أجناس أخرى، ولقي أغلبهم مصيره على شر وجه»!

بالطبع هذا أمر محزن ... خاصة عندما نرى دولاً عديدة وأُمماً كثيرة جاءت بعدنا، لم يكن لها ذكر في التاريخ ولا الجغرافيا من قبل، لكنها نهضت نهضة كبرى، وسادت الدنيا بأسرها، وبسطت سيطرتها على العالم كله، براً وبحراً وجواً، بلْ صرنا نتسوّل منها طعامنا وشرابنا ودواءنا، ونستورد منها القوانين والدساتير والتشريعات والأدب والفن و«الشِّعر» أيضاً، بلْ وتُلقّنا -تلك الدول- دروساً في حقوق الإنسان والحيوان، وكيف نعامل المرأة والطفل! وتدعونا إلى ضرورة الإصلاحات السياسية والاقتصادية، وتأمرنا باحترام الحريات وممارسة الديمقراطية، وتنهانا عن سياسات القمع وإغلاق الصحف وكسر الأقلام وتكميم الأفواه، وتُحذّرنا من شق قلوب الشعراء ودواوينهم أو بقْر بطونهم للكشف عن المعاني!

أليس هذا واقعنا بالفعل؟ أو ليس الوهن بلغ بالأُمة ما بلغ؟ أولمْ نُصبح عالةً على الأمم الأخرى، وعبئاً ثقيلاً على البشرية؟ أليست الأمة شاختْ وترهّلت إلى هذا الحد؟ وهل أحد يختلف في أننا أصبحنا في ذيل الأمم ومؤخرة الحضارات؟ وأنّ أمتنا ضحكت من جهلها الأممُ -منذ زمن المتنبي- وما زالت تضحك، وتضحك، وتتمايل من فرط الضحك والقهقهة!

الحلول المستوردة

كذلك؛ الدكتور/ يوسف القرضاوي- يطرح رؤيته حول واقع المسلمين وأزماتهم، في كتابه «الحلول المستوردة .. ماذا جَنَتْ على أمتنا»؟ فيستعرض أحوال الأمة، مُشخِّصاً عللها وأمراضها، فيقول:

(.. ولا يُنكِر عاقل أن وطننا العربي الكبير من الخليج إلى المحيط، بلْ الأمة الإسلامية كلها من أقصاها إلى أقصاها، تعاني مشكلات متعددة متنوعة، مشكلات مادية وإنسانية، مشكلات اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية وأخلاقية. وكلها تتطلب الحل، والحل الحاسم السريع، فإن مرور الأيام لا يزيدها إلاَّ تفاقماً واستفحالاً، كالداء الخبيث الذي يتضاعف خطره، كلما تأخر علاجه، وربما أدى إهماله إلى تمكن الداء، واليأس من الشفاء.

نعم .. إن أجزاء كثيرة من هذا العالم الفسيح تشكو من سيطرة الأجانب -غير المسلمين- على أرضها، وتحكمهم في أهلها، كفلسطين وكشمير وأريتريا والحبشة وقبرص وبخارى وسمرقند وغيرها من ديار الإسلام.

والأجزاء الأخرى من هذا العالم تشكو من هذا التمزق العجيب والتجزئة المفتعلة، والحواجز المصطنعة، التي جعلت من الأمة الواحدة -كما رضي الله لها- أُمَماً ودولاً -كما شاء الاستعمار- يجافي بعضها بعضاً، بلْ يضرب بعضها وجوه بعض. حتى لترى بعضهم يقف مناصراً لأعداء المسلمين ضد المسلمين، استجابة لنعرات جاهلية، أو خضوعاً لسياسة استعمارية غربية أو شرقية.

والناس داخل هذا العالم الإسلامي يشكون ويتوجعون: الكبير يشكو، والصغير يشكو، والمثقف يشكو، والأُميّ يشكو، والطبقات كلها تشكو، والشعوب كلها تشكو.

أجل؛ شعوبنا تشكو تخلفاً في العلم، وتخبطاً في السياسة، واضطراباً في الاقتصاد، وتفككاً في الاجتماع، وتدهوراً في الأخلاق، وبلبلة في الأفكار، وزعزعة في العقائد، وضعفاً في التربية، وخواء في الروح، واختلافاً في الصفوف: اختلافاً على الغايات والأهداف، فضلاً عن الوسائل والطرائق.

وقد كشفت الحقبة الأخيرة بأحداثها الجسام عن هذا الفساد العريض،

والانحلال المتغلغل في كيان الأمة، والضعف الكامن في كل جوانبها، وعادة الجسم العليل أن تبرز كوامن علته لأدنى وعكة تصيبه، فتخور قواه، وتنهار صحته، ولا يجد قدرة على الصمود والمقاومة لأضعف «الميكروبات» وإنْ كان في ظاهره غنياً باللحم والشحم).

هـذا هو تشخيص الشيخ يوسف القرضاوي لماضينا وحاضرنا.

إنه تشخيص الطبيب الماهر الذي أدرك موطن الداء، وسبب البلاء .. إنه أمر غاية في الخطورة ما لم يتحرك الجميع -فوراً- لإسعاف هذا المريض، وإدخاله غرفة الإنعاش، أو تلقينه الشهادتيْن قبل أن تفارق روحه الحياة!

وكما نعلم أن لكل مرض أسباباً أوْ مسببات، وهذه المسببات تتعدد وتتنوع حسب نوع المرض ذاته، والطبيب الناجح والماهر هو الذي يعرف كيف يُشخص المرض في المرحلة المناسبة قبل أن يستفحل الداء ويعز الدواء. والأمانة مطلوبة من الطبيب عند التشخيص بحيث لا يُخفي الحقائق عن مريضه، حتى وإن كانت مُرة وخطيرة، لأن المكاشفة والمصارحة الأمينة مطلوبة إذا أردنا إيقاف المرض. وأسباب هذا المرض تتنوع مسبباتها وتتعدد أشكالها.

ونتيجة لهذا التنوع في الأسباب فإنه يمكننا القول بأن العلاج لن يكون سهلاً، خاصة ونحن نتحدث على امتداد رقعة الأمة كلها، وخاصة أيضاً أن كثيرين في بلادنا لا يحبون أن يسمعوا الحقائق أو يروها، وذلك إمّا هرباً من مواجهة الحقائق أو خداعاً للنفس .. ولن تُحل مشكلاتنا مع هذا الصنف من المخدوعين ..

إنّ العالم العربي والإسلامي محتاج اليوم إلى النصيحة الخالصة والمخلصة من العلماء والمفكرين والدعاة «فالدين النصيحة». وفي موضوع كهذا الذي استعرضنا جوانبه -آنفاً- فإنّ النصيحة موجهة بالدرجة الأولى إلى أئمة المسلمين ومن بأيديهم الأمور من حكام ووزراء ومخططي سياسة ومديري جامعات ... إنّ هؤلاء جميعاً

مسئولون عن تفهُّم أسباب تخلف شعوبهم وأوطانهم، وانهيار أوضاعهم وتراجع حضاراتهم .. وبالتالي فإنهم مسئولون عن محاولة الإصلاح وإنقاذ ما يمكن إنقاذه!

علاقة الأدب بالسياسة

لعلّ تلك الإطلالة التاريخية، التي قدمناها قبل التعرض لعلاقة الأدب والشعر بالسياسة، كانت من لوازم بحثنا هذا، وضرورة من ضرورات استنطاق التاريخ، والاستماع إلى أنين الماضي لاستشراف المستقبل المجهول، كما أن فيها فائدة كبرى لقراء الأدب، فإن الجهل بالتاريخ جهل ما بعده جهل، وفضيحة ما بعدها فضيحة، لأن الجهل به يعني الجهل بكل شيء، بالحياة وحتى الممات!

فالأدباء –بالذات– أولى الناس بقراءة التاريخ وفِقْه أحداثه .. وإذا كان المؤرخ يسعى لزيادة وعينا بالتاريخ من خلال الأفراد، فإن الأديب يهدف إلى تكثيف وعينا بذواتنا من خلال التاريخ الإنساني، وهنا تكمن المهمة التاريخية الحقيقية الملقاة على عاتق الأديب.

هكذا يختلط التاريخ بالأدب، كما تختلط السياسة بالأدب، فلا غنى لهذا عن ذاك. وفي كتابه «التفسير العلمي للأدب» أوضح الدكتور/ نبيل راغب– مدى علاقة الأدب بعلم السياسة، حيث يقول: ارتبط الأدب الإنساني بالسياسة منذ أقدم العصور، وقبل أن تصبح علماً له أصوله ومعاييره وقواعده، فإذا أخذنا ملحمتي «الإلياذة» و«الأوديسا» للشاعر الإغريقي هوميروس –على سبيل المثال– سنجد أن الصراع بين الزعماء السياسيين قد شكل العمود الفقري لهذا الشعر الملحمي، فلم يكن هناك فارق بين الزعماء السياسيين والقادة العسكريين في ذلك الوقت، لذلك كانت الحروب التي تضمنتها ملحمتا هوميروس بمثابة الصراع السياسي على أرض الإغريق في أوضح صوره التاريخية.

الوضع نفسه ينطبق على الشِّعر العربي منذ عصور الجاهلية، فكان الشاعر –في

كثير من الأحيان- بمثابة المفكر السياسي للقبيلة، فهو الذي يوجهها بقصائده وخاصة تلك التي تدور حول الحرب والكرامة وأغراض الحماسة الأخرى. وفي عصر ازدهار الحضارة العربية قرّب الملوك والخلفاء كبار الشعراء إليهم وأصبح الكثيرون منهم من رجال الحاشية، وبصرف النظر عن قصائد المديح التي اشتهر بها بعض الشعراء بهدف الحصول على المنح والعطايا، فقد كان لمعظم الشعراء كلمتهم المسموعة في إدارة دفة شئون الحكم والسياسة العامة للدولة.

على مر التاريخ كانت تقاس سعة أفق الحاكم بمدى اهتمامه بالفنون والآداب، فمثلاً كانت الملكة إليزابيث الأولى -ملكة انجلترا- من المعجبين بفن شكسبير، وكانت من رواد مسرحه، وكان هو بدوره من رجال بلاطها، وقد مكّنه اقترابه منها على الاطلاع على حياة القصور حتى كتب مسرحياته التاريخية التي تتخذ من ملوك انجلترا أبطالاً لها، وفيها بلور فترات الصراع الدموي للحصول على كرسي الحكم، وهو الصراع الذي استمر حتى استقرت الأمور في عهد الملكة إليزابيث، وأصبح العصر الإليزابيثي بداية التاريخ الحضاري لبريطانيا كلها فيما بعد.

غنيٌّ عن الذكر أن المفكرين والأدباء في فرنسا قد مهَّدوا للثورة الفرنسية بكتاباتهم التي هاجمت الإقطاع والإرهاب والظلم الاجتماعي، وفتحت أذهان الجماهير الكادحة على أوضاعهم التي تتنافى مع كل القيم الإنسانية المعروفة. بلْ إن التاريخ يذكر للروائية الأمريكية «هارييت بيتشر ستو» أنها أشعلت شرارة الحرب الأهلية الأمريكية بروايتها «كوخ العم توم» التي حازت شهرة عالمية، وتركت أثراً كبيراً في الفكر الإنساني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لدرجة أنه عندما زارت «هارييت ستو» الرئيس إبراهام لنكولن في البيت الأبيض، رحّب بها بقوله **«أهلا بالسيدة الصغيرة التي أشعلت الحرب الكبيرة»** فلقد أثبتت لأهل الشمال أن الرّق نظام يتنافى مع أبسط المبادئ الإنسانية، أمّا الجنوب فكان ينضح بالكراهية

للرواية ولصاحبتها، ولم يحدث من قبل أن تركت رواية بصماتها واضحة على السياسة في عصرها كما فعلت هذه الرواية.

من الواضح أن الأديب الناضج يقف موقفاً محدداً من النظم السياسية، فإذا كانت «ديمقراطية» فإنه يقف بكل قواه لكي يساندها حتى تمنحه المزيد من حرية التعبير الفني عن كل المضامين السياسية التي تخطر على باله، وإذا كانت هذه النظم «ديكتاتورية» فإنه يقاومها بكل وسائله الفنية، ذلك أن الديكتاتورية تكبت الحريات وعلى رأسها حرية التعبير، وتريد إلزام الأدباء بمضامين واتجاهات تتمشى مع سياسة الديكتاتور، والأدب الإنساني الرفيع لا يمكن أن يعيش تحت ظل الإلزام والكبت، لأنه بذلك يتحول إلى بوق أجوف للدعاية السياسية، ومن ثم يفقد دوره الفني والإنساني تماماً. قد يقبل الأديب بمبدأ الالتزام في ظل النظام الديمقراطي، لأن الالتزام نابع من داخله ومن قناعاته الشخصية بالنظام، أمّا الإلزام فيفرض عليه من الخارج في ظل النظام الديكتاتوري، وهذا هو السر في المعاناة القاسية التي يمر بها الأدباء تحت وطأة الديكتاتورية، لدرجة أنها تصل إلى حد التشريد والسجن والنفي والموت.

وتنزع الديكتاتورية المعاصرة إلى استخدام العلم والفن لدعم نظم حكمها، وخاصة الأدب باعتبارها وسائل وأساليب للتأثير في عقول الجماهير داخل الوطن وخارجه، ويُستخدم الفن خاصة بطريقة منظمة كوسيلة نفسية اجتماعية – وذلك لغايات سياسية سمتها الاضطهاد والعدوان، ومن أجل أغراضه ومآربه يعمد الديكتاتور المعاصر إلى استخدام أية أداة فنية تناسب أهدافه في السيطرة على الاتجاهات والعواطف العامة بين أفراد شعبه والشعوب الأخرى، والدولة الاستبدادية المطلقة تعتبر الحرية والفردية والشكلية الأسلوبية والاتجاهات الفوضوية في الفن، ضرباً من عوامل بث الضعف في النظام السياسي، فهي تفضل

أن يكون الفن مباشراً وقابلاً للفهم حتى يوصل الرسالة المرغوبة: رسالة الطاعة ومطابقة الجماعة.

والدولة الاستبدادية المغلقة لا يوجهها الفنان أو الأديب أو جمهورها، وإنما توجهها الحكومة في شئون الأدب والفن وغيره من السلع الاستهلاكية، ذلك أن الفنون والآداب تعتبر مجرد سلع استهلاكية في ظل النظم الشمولية تنتهي قيمتها الفنية عند توصيل مضمونها الفكري إلى الجماهير، فالناس يتلقون ما ترى الحكومة أنه نافع وخير لهم، وكثيراً ما يخصص للفن نصيب من الدخل القومي يتناسب وقيمته بوصفه وسيلة لغايات اجتماعية واقتصادية وسياسية، وعلى الفنون والآداب أن تساير الخط السياسي الذي تتبعه الدولة.

ويلاحظ أن الفنون والآداب تزدهر عادة في ظل النظم التي تنأى عن الاحتكارات التجارية والمؤسسات العسكرية، كما تزدهر تماماً بعيداً عن النظم الاستبدادية والديكتاتورية، والدليل على ذلك أن الكثير من الإنتاج الفني والأدبي الخلاق الذي أنتجه الأدباء الغربيون، لم يظهر إلاَّ في ظل مناخ الحريات قبل الحربين العالميتين، والشواهد على ذلك كثيرة جدا.

تسييس الأدب!

بالرغم من تأخر ظهور الأشكال الأدبية كالقصة والمسرحية في مجتمعاتنا العربية، إلاَّ أنها منذ نشأتها الأولى وهي مُتلبثة بالسياسة بشكل واضح أو خافت، كما نجد في قصص وروايات «ليل وقضبان» و«عمالقة الشمال» و«عذراء جاكرتا» و«عمر يظهر في القدس» لنجيب الكيلاني، أو «في بيتنا رجل» لإحسان عبد القدوس، أو «السمان والخريف» لنجيب محفوظ، أو «أرض النفاق» ليوسف السباعي، وغالبية أعمال علي أحمد باكثير، وعبد الحميد جودة السحار، وعبد الرحمن الشرقاوي، وثروت أباظة، وغيرهم. هذا فضلاً عن الأعمال المسرحية للشرقاوي، وتوفيق الحكيم،

ومسرحيات فاروق جويدة مثل: «دماء على ستار الكعبة، والوزير العاشق، والخديوي، وهولاكو ...» وغير ذلك من الإبداعات التي كانت ذا مغزى سياسي، أو التي تُسمّى بـ(الإبداعات السياسية) التي كتبها الأدباء العرب خلال القرن العشرين.

أمّا في ميدان الشِّعْر «ديوان العرب» فحدِّث ولا حرج، نظراً لاتساع رقعته الجغرافية، وامتداد عمره الزمني الذي يتجاوز ستة عشر قرناً من الزمان، والتي شهدت أجيالاً متعاقبة من الشعراء.

لعلَّ «التوجه السياسي» في الشعر أوضح منه في الأجناس الأدبية الأخرى، لأن القاص أو الروائي يمكن أن يستبطن المعاني من خلال السرد الطويل أو المناورة والالتفاف حول كثرة الشخوص والأمكنة والأزمنة التي يستلهمها العمل الأدبي. هذا فضلاً عن أن الشعراء هم أكثر الناس تأثراً وأسرعهم استجابة لما يدور حولهم من الأزمات الصغرى والأحداث الكبرى، فقد تنطلق القصيدة من جوف الشاعر مدوية قبل أن ينطفئ الحدث أو تنتهي الأزمة، بينما نجد الأعمال القصصية والروائية في مجملها تعتمد على تقصّي آثار الحدث والبحث عن منحنياته والقيام على بلورة المستقبل واستشراف آفاقه، مستخدمة في ذلك أدواتها الفنية وأساليبها الدرامية .. وهذا بطبيعة الحال يحتاج من الفنان أو الأديب إلى عمر زمني طويل لاستخراج هذا العمل إلى النور، فعلى سبيل المثال: كتب المتنبي رومياته أثناء نشوب الحرب بين الحمدانيين والروم، كما أنجز أبو تمام رائعته التي تسمى «البائية» قبل أن ترجع الجيوش المنتصرة من مهمة «فتح عمّورية». وفي العصر الحديث، طالعنا نزار قباني بقصيدته «هوامش على دفتر النكسة» قبل أن تضع حرب حزيران أوزارها، في حين أنه لم يظهر أيّ عمل روائي عن هذه الكارثة إلاَّ بعد مرور سنوات! كما كتبت الشاعرة الكبيرة علية الجعّار قصيدتها «الله أكبر .. بسم الله» بمجرد انطلاق شرارة

معركة الكرامة في يوم 6 أكتوبر 1973، بلْ إنه في ذات اليوم تم تلحين وغناء هذه القصيدة في جميع أجهزة الإعلام المصرية والعربية. في حين أنه لم يستطع كُتّاب القصة أن ينجزوا رواية ذات قيمة إلى الآن!

خصائص الشّعر السياسي

هذا اللون الشِّعري -الممنوع اقتناؤه والمحظور تداوله- له سمات خاصة به دون غيره من الألوان الشعرية الأخرى، كما أن شعراءه لهم خصائص نفسية معينة، وله ظروف زمانية ومكانية بذاتها، سوف نشير إلى جانب منها في السطور التالية:

- (الشِّعر السياسي) كثيراً ما يعبر عن «أيديولوجية» فكرية بعينها؛ كالأحزاب والفِرق والمذاهب والعصبيات المتناحرة، وخير شاهد على هذا اللون الشعري ما كان في العصر الأموي بالذات، حيث ارتدّت الحياة السياسية والاجتماعية إلى سابق جاهليتها في العصبيات المتأججة التي استشرت حتى أصابت بعض فضلاء المسلمين والصحابة غافلين عما في ذلك من الضرر، كفعل عمرو بن العاص بوفد الأنصار الذي قدم على معاوية بن أبي سفيان وكان فيهم النعمان بن بشير، فقالوا للحاجب: استأذِن لنا، فدخل فقال لمعاوية: الأنصار بالباب، فقال عمرو بن العاص: ما هذا اللقب الذي جعلوه نسباً، اردُدهم إلى نسبهم، فقال معاوية: إن علينا في ذلك شناعة، فقال: وما في ذلك! إنما هي كلمة مكان كلمة ولا مرد لها، فقال له معاوية: اخرج فنادِ: مَنْ بالباب من ولد عمرو بن عامر فليدخل، فخرج فنادى بذلك فدخل من كان هناك منهم سوى الأنصار. فقال له: اخرج فنادِ: مَن كان هنا من الأوس والخزرج فليدخل فخرج فنادى بذلك، فوثب النعمان بن بشير فأنشأ يقول:

يا سعدُ لا تعد الدعاء فما لنا ... نسبٌ نجيبُ به سوى الأنصار

نسبٌ تخيّرهُ الإلهُ لقومنا ... أثقِل به نسباً على الكفّار

إنّ الذين ثووا ببدرٍ منكمُ ... يوم القليبِ هم وقود النارِ

هذا العصر الذي شهد من المخازي والفواجع ما يجعل الحليم حيران! فهو العصر الذي شهد مولد فرقة الخوارج المنشقّة على الإمام عليّ -كرم الله وجهه- وشهد مقتل هذا الخليفة الراشد العادل المجاهد الزاهد، وشهد افتتان أصحابه به وتشيّعهم له ولآل بيته لى حد مجاوزة الحق والصواب، كما شهد مقتل الإمام الحسين -عليه السلام- في معركة غير متكافئة، ثم شهد خروج فرق الثائرين لمقتله وثأرهم له ولمن استشهدوا معه من آل البيت، وشهد خلافة عبد الله بن الزبير ومناوأته لبني أمية ومقتله!

إذن، حُقّ لشاعر مثل «أبو دهبل الجمحي» أن يحمل روح السخط الشديد على بني أمية، لقتلهم ابن بنت رسول الله في كربلاء:

تبيت سكارى من أمية نوماً	وبالطُّف قتلى ما ينام حميمها
وما أفسد الإسلام إلا عصابة	تأمّر نوكاها ودام نعيمها
فصارت قناة الدين في كف ظالم	إذا اعوجّ منها جانبٌ لا يقيمها

هذه الأبيات من الشّعر السياسي الذي يبيّن مدى سخط هذا الشاعر على بني أميّة لإقدامهم على هذه الفعلة الشنعاء، وللمفاسد التي شاعت في أيامهم، وهو هنا يعرّض بيزيد من مقارفة الذنوب، والاجتراء على المحرمات.

كذلك الحال؛ نجده عند الشّاعر «خالد بن غفران» الذي ندّد كثيراً في قصائده السياسية اللاذعة بطغاة بني أمية وجرائمهم البربرية، فيقول عندما أُتي برأس الإمام الحسين إلى دمشق:

جاءوا برأسك يا ابن بنت مُحمّدٍ	متزمّلاً بدمائه تزميلا
وكأنما بك يا ابن بنت مُحمّد	قتلوا جهاراً عامدين رسولا
قتلوك عطشاناً ولم يترقبوا	في قتلك التأويل والتنزيلا
ويُكبّرون بأنْ قُتِلتَ، وإنما	قتلوا بك التكبير والتهليلا

- (الشِّعر السياسي) يغلب عليه في بعض الأحيان طابع «الكَتْم» وهذا اللون ما أسماه النقاد بـ«المُكتّمات» وهي أشعار موجودة في كل عصر، وقصائد المُكتّمات يصعب العثور عليها، فضلاً عن الاستدلال على أصحابها، فمصيرها الضياع والتلف والتشويه، أوْ الإحراق، أوْ الإغراق، لأنها ذات طبيعة معينة، وموضوعاتها ذات مغزى ودلالة على طبيعة العصر، فهي أشبه بالقنابل والمتفجرات الممنوع اقتناؤها، أو هي كالسلاح غير المرخص به، فيتحول عندئذ إلى «السوق السوداء» ويتداول بين الناس سراً وعلى حذر عظيم.

- (الشِّعر السياسي) وليد ظروف بعينها، فالشَّاعر مدفوع إليه دائماً بدافع قهري، فعندما تلح عليه فكرة أو موضوع القصيدة، فلا يستطيع صدها أو منعها أو حتى تأخيرها، إنها لحظة المخاض -كما وصفها الشعراء أنفسهم- فلابد لهذا الجنين أن يخرج إلى النور على الفور سواء كانت ولادته عادية ميسّرة أو قيصرية متعسّرة، المهم أن يخرج هذا الكائن إلى الحياة. أمّا عن اسمه ورزقه وأجله، فهذه مسائل أخرى تتضح معالمها فيما بعد الولادة .. حيث يبدأ صراع هذا «الوليد» الشعري مع الوجود الخارجي الملبّد بالسحب الداكنة، والدخان الكثيف، والعواصف الهوجاء، والحفر والمطبّات الطبيعية والصناعية، ولطالما نجد أن هذا الوجود الخارجي في حالة لا تسمح له بقبول هذا الوليد أو منحه مكاناً تحت النور، إما لسبب راجع إلى الشعر نفسه، أوْ إلى المجتمع، أوْ إليهما معاً!

وقد يفطن الشاعر إلى ذلك من نفسه منذ البداية فيمتنع عن إنشاد هذا الشعر أو يتخلص منه، كما فعل أبو نواس بأشعار له أحرقها قبل أن يموت، فلما سئل قال: هذه أشعار كنتُ أضن بها أن يسمعها الناس وسمعها الناس وكرهت أن تبقى بعدي فينتحلوها، فأحرقتها.

- (الشِّعْر السياسي) موصول بجميع الأزمنة والأمكنة .. فلا يخلو عصر من هذا

اللون الشِّعري الغاضب، نظراً لوجود فئة من الأدباء «الراديكاليين» أصحاب الأفكار المرفوضة سياسياً أو عقدياً أو اجتماعياً، وهؤلاء تقوم السلطة القائمة بتكميم أفواههم، فلا يكادون ينطقون جهراً حتى يُؤخَذوا بجرائر ألسنتهم، وربما يشتد بهم الأمر فيؤخذوا بذنب تفكيرهم قبل نطقهم، فكلنا يعرف حكاية أمل دنقل وقصيدته «لا تصالح» التي لم تتجرأ على نشرها أية مطبوعة مصرية آنذاك! ومُظفَّر النواب وقصيدته اللاذعة «القدس عروس عروبتكم» التي لم تنشر في صحيفة أَوْ كتاب، وكانت تتداول سراً بين عشاق الأدب والشعر، فلم يكن أحد يعرف من صاحب هذه القصيدة حتى وقت قريب! وقصيدة «رسالة إلى الفرعون» لعبد الرحمن العشماوي، التي لم يستطع أحد –في بادئ الأمر– معرفة من هو شاعرها الجريء! وكذلك القصيدة الحارقة التي نشرتها الصحف بدون توقيع اسم صاحبها، وهي بعنوان «رسالة من صدام حسين إلى قمة الزعماء العرب في تونس»! إذْ تضاربت الآراء في معرفة شاعرها، وإنْ كانت أصابع الاتهام قد أشارت إلى السفير اليمني عبد الولي الشميري!

مهما يكن من أمر، فإنه لا خلاف في أن هذه الظاهرة (المُكتّمات) أوضح ما تكون في العصر الأموي، ذلك العصر الذي تحولت فيه الأُمة من خلافة راشدة مثالية، إلى مُلْك عضوض، وانحرف فيه الخط السياسي كلية، وكثرت فيه الفِرَق والمذاهب السياسية على نحو غير معهود، مما حدا بشاعر مُتشيّع مثل ابن هرمة الذي كان مدفوعاً بقوة من داخله بذلك الحب الذي ملك عليه فؤاده وتغلغل في أعماق نفسه، فيقول في آل البيت:

ومهما أُلامُ على حبهم	فإني أحبُّ بني فاطمة
بني بنت من جاء بالمحكما	تِ والدين والسّنُة القائمة

هذا الشّاعر الذي كان إذا سأله سائل: من قائل هذه القصيدة، فينكر نسبتها إليه

خوفاً من بطش الحكومة القائمة آنذاك. فيخرج الشعر بذلك من طور «الكَتْم» إلى الانتحال أو نسبة الشعر إلى مجهول أو غير ذلك. فلا نعجب إذا علمنا أن ابن هرمة كان واحداً من الذين حضّوا أبا العباس السفاح على الفتك بمن بقي من بني أمية وعدم التسامح معهم!

أشهر حادثة في هذا الباب هي القصيدة المشهورة المنسوبة إلى يزيد بن مفرغ الحميري والموجهة إلى معاوية بن أبي سفيان عندما استلحق زياد ابن سمية، وهي قوله:

ألا أبلِغ معاوية بن حرب	**مغلغلة من الرجل اليمان**
أتغضب أن يقال أبوك عفٌّ	**وترضى أن يقال أبوك زان!**
فأشهد أن رحمك من زياد	**كرحم الفيل من ولد الأتان**
وأشهد أنها ولدت زياداً	**وصخر من سُميّة غير دان!**

هذه الأبيات المقذعة ما كان هذا الشاعر على جرأته على زياد ليوجهها إلى معاوية، وقد أنكرها بين يديه -كما يقول صاحب كتاب الأغاني!

وقد نسبها -صاحب كتاب الشّعر والشّعراء- إلى غيره من الشّعراء، لأن الشّاعر نفسه قال في زياد أسوأ من ذلك بكثير، وكان يكتبه على حيطان الحانات في البصرة، وكان أهل البصرة يتغنّون به. وقد أمر عبيد الله بن زياد بأن يمحو هذا الشّاعر ما كتبه على الحيطان بأظافره حتى عدم أصابعه!

هذه النماذج الشِّعرية والقصص التي رافقتها، إذا دلّت على شيء فإنما تدل على أن الحياة السياسية ألقت بظلالها الكثيفة على الشعر، مما جعل بعض الشعراء يكتمون أشعارهم، أوْ يتنكرون لها، أوْ ينسبونها إلى غيرهم مخافة بطش السلطان أو الديكتاتور المستبد الذي يتعقب خصومه ومناوئيه وينكل بهم بمجرد الاشتباه في تورطهم ولوْ في بيت واحد من الشعر!

ونظراً لهذه الوسائل البوليسية والسياسة القمعية التي حرمت الناس من حق التعبير عن الرأي، أوْ الإفصاح عما يجيش بخواطرهم، أوْ حتى رثاء موتاهم ... فقد ضاع تراثاً أدبياً هائلاً، وثروة شعرية لا يُستهان بها في ذاك العصر الأموي بالذات. بحسبْ أن تعلم أنه لم تصل إلينا قصيدة واحدة كاملة من مراثي الإمام الحسين وآله الطاهرين في كربلاء!

لم تصل إلينا ولوْ قصيدة واحدة من عصر «فحول الشعراء» وفي حدث جلل كهذا، ومأساة لا تعادلها أية مأساة أخرى في التاريخ!

- (الشّعر السياسي) لا يتصنّعه المبدعون ولا يتكلّفونه كغيره من الأغراض الشعرية الأخرى كالفخر والوصف والمدائح، إنما يفرض نفسه عليهم فرضاً، بسبب سوء أحوال البلاد الاجتماعية وتدهور أوضاعها السياسية .. وحول هذا المعنى يقول الدكتور «عثمان قدري مكانسي»: خرجنا على الدنيا في نهاية خمسينات القرن الماضي نردد ما غنّاه محمد عبد الوهاب للشّاعر علي محمود طه:

أخي جاوز الظالمون المدى فحقَّ الجهاد وحقَّ الفدا

ترنّمنا بها فشحنت قلوبنا وعقولنا، إذْ كنا نسمعها في المذياع وفي طابور الصباح المدرسي، وفي كل مكان حتى حفظناها عن ظهر قلب .. وبعد سنين من القهر وتغير المعالم والمعاني في عصر العولمة .. هل تغير شيء؟! لعلّ الظلم والظالمين مازالوا، فهذه سُنّة الحياة. ولكن ما بال الجهاد والفداء وهما من سُنّة الحياة أيضاً؟ لعلهما تغيرا، فوجب تغيير الشطر الثاني .. والتركيز على ما استجد من أمور كانت موجودة سابقاً ولكن دون «فلاش».

أخي جاوز الظالمون المدى — وهم «سادة» خربوا البلدا
يثبتهم في الكراسي اليهود — وواشنطن أطلقتهم يدا
فعاثوا يميناً وعاثوا شمالاً — وكانوا ذيولاً بسِفل العدا

يـــذلّون أُمـــتهم ... باقتـــدار! وإلاّ أُزيحـــوا وضـــاعوا ســـدى!

- (الشِّعر السياسي) ينفرد هذا اللون الشعري بطبقة متميزة من المبدعين في كل العصور، ينقطعون له، ولا يعدونه شبراً واحداً، ويخلصون لـه أيـما إخـلاص، حتى يصبحوا من أعلامه، كأمل دنقل، ومظفر النواب، ويحيى السماوي، وأحمد مطر، ومحمود الدغيم، وغيرهم في العصر الحديث.

وقد فتحت ثورة المعلومات التي اتخذت من (الإنترنت) بوابة واسعة تطل من شرفاتها، فتحت آفاقاً واسعة أمام هذا اللون الشعري، فلا تستطع الرقابة المستبدة أو القيود المشددة أن تحول دون انتشاره وذيوعه، فقد خُصّصت مواقع شعرية كثيرة لهذا الغرض «الملعون» مثل موقع «الساحر» للشاعر أحمد مطر، وموقع «أدباء الشام»، وموقع «أبيات» للشاعر السوري محمود السيد الدغيم، الذي كرّس فيه من القصائد السياسية التي ما كان أن تقع عليها الأعين، أو تسمعها الآذان، أو تخطر على القلوب، لولا «الشبكة العنكبوتية»! فلنقتطف من ثمار هذه «الشبكة» قصيدة «حصار الوطن والمواطن» للشّاعر الدغيم، التي يقول فيها:

لقد مَرَّتْ على الوطن السنون وحاصر كل من فيه الجنونُ
وأظلمت البلادُ، وغاب نور وجَنّ الليل وانتشر الدجون
وصار الحرُّ للأوغاد عبداً يعاقبه الجبانُ ومن يخونُ
وللجاسوس صرح مشمخّر به تيسٌ حداثيٌّ لبون
وحول الصرح حُرّاسٌ غِلاظٌ وبائعُ ذمةٍ وغدٌ خؤون
وأشراف البلاد بدار ذلٍّ وليس لمثلهم صدر حنون
لأنَّ بلادنا تحت احتلال له في كل زاوية أتون
يكرسه الرفاق بسوء فنٍّ وأشباه الرجال لهم فنون
وآباء الرفاق لهم ذيول وأبناء الرفاق لهم قرون

فخانوا الـدين والأعـراض حتـى تكـاثرت الفضـائح والشـجون
جميـع الحـاكمين قيـود ذلٍّ وأوغـادٌ، وزُعـرانٌ، ودونُ !

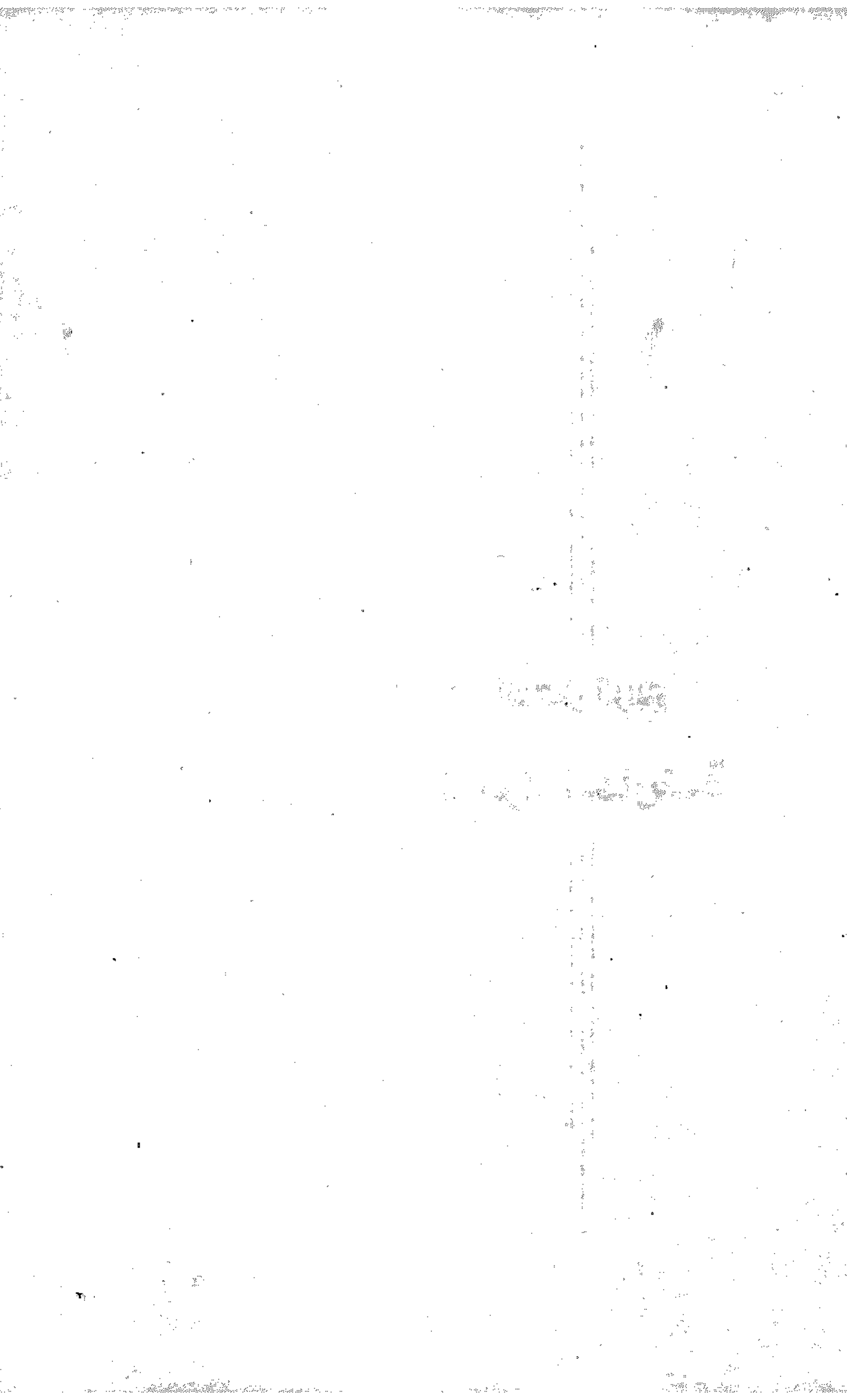
هـذه هـي الخطـوط العريضـة والقسـمات المميـزة للشّـعر السـياسي .. إنهـا نبـذة سريعة، وقليل من كثير، وغيض من فيض، وقطرة من محيط هادر، من أشكال (الشّعر السياسي) وتاريخه، وغاياته، ومراميه، وما كان من أمره في مختلف العصور.

أمَّا عن أعلامه ورواده، وقضاياهم، وأحوالهم، وأزماتهم، وشئونهم وشجونهم، والقاسم المشترك فيما بينهم، ومواضع التشابه والاختلاف عندهم، ومدى نجاحهم أوْ إخفاقهم في تجاربهم الإبداعية، ودرجاتهم ومنازلهم، ومكانتهم بين يدي التاريخ ... فهذا الذي سوف نستعرضه في الفصل التالي (شعراء المعارضة)!



الفصل الرابع

شعراء المعارضة



ما هي المعارضة؟ ومَنْ هم شعراؤها؟

وأيّة معارضة نقصدها ونرجوها؟

ومتى تكون المعارضة مقبولة؟ ومتى تكون مرفوضة؟

وما مدى نجاحها أوْ إخفاقها فيما تصبو إليه؟

وما هي النتائج المترتبة عليها في كلتا الحالتين؟!

لعلَّ أسوأ شرائح المعارضة أولئك الذين يعارضون من أجل المعارضة، أو الذين يتلهفون على مقاعد السلطة ويسيل لعابهم من أجل كراسي الحكم، فإن أُعطوا منها رضوا وإنْ لم يُعطوا إذا هم يسخطون! ومعارضة هؤلاء معارضة حقيرة الهدف وخسيسة الغاية، لا نوافقهم فيها إطلاقاً. وهناك معارضة تُضعِف الدولة أمام خصومها، وقد تهدد وجودها ورسالتها، وهذه معارضة مشبوهة ومغرضة وسيئة بلا ريب. وسائر العقلاء يرفضون أيّة معارضة من هذا القبيل.

كما أسلفنا الحديث عن تاريخ الاستبداد أو الإقطاع السياسي والأنظمة الديكتاتورية في الأمة العربية والإسلامية، ومواضع الانحراف عند الحكام والولاة ... كل هذا من شأنه أن يخلق ألواناً عديدة من المعارضة يضطلع بها نفر من المُصلِحِين والمجاهدين سواء كانوا علماء أوْ أدباء أوْ كُتاب، فلا يألون جهداً في مقاومة الفساد السياسي، ومناوأة الفرعونية والهامانية والقيصرية مهما كان الثمن، وقد قُتِل من هؤلاء المجاهدين من قُتل وعُذِّب من عُذِّب، وبقيت حياتهم أُسوة حسنة لدعاة الخير وحماة الحق.

هذا، ومنذ زمن بعيد اختلفت وجهات النظر حول مقاومة أو معارضة الاستبداد السياسي والأنظمة الديكتاتورية، ومنازعة الإمام الجائر .. ما بين مؤيد، ومعارض، ومتحفظ ... فما هو الحُكم الشرعي الصواب في هذه المعارضة؟!

هناك فتوى جبانة مضللة تلبس الحق بالباطل، وتحرف الكَلِمَ عن مواضعه، تحت

عنوان: هل تجوز منازعة الإمام الجائر؟ جاءت فيها هذه الكلمات:

«... ذهبت طائفة من المعتزلة، وعامة الخوارج إلى منازعة الإمام الجائر، وأمّا أهل الحق -وهم أهل السنة والأثر- فقالوا: الصبر على طاعة الجائر أولى، والأصول تشهد أن أعظم المكروهين أولى بالترك. فقال عياض: وأحاديث مسلم كلها حجة على ذلك كقوله ﷺ: «**أطعهم وإن أخذوا مالك، وضربوا ظهرك**»! وقال الطرطوشي في سراجه: حديث أبي داود عظيم الموقع في هذا الباب، قال رسول الله ﷺ: «**يطلبون منكم ما لا يجب عليكم، فإذا سألوكم ذلك، فأعطوهم ولا تسبوهم**». أيْ ندفع لهم ما طلبوا من الظلم، ولا ننازعهم، ونكف ألسنتنا عنهم. وقال ابن العربي: السلطان نائب رسول الله ﷺ يجب له ما يجب لرسول الله من التعظيم والحرمة والطاعة!. ويزيد على النبيّ ﷺ لا بحرمة زائدة، لكن لعلّةٍ حادثة بأوجه، منها الصبر على أذاه ويدعى له عند فساده بصلاحه.

وقيل لمالك: الرجل عنده علم بالسُنّة أيجادل عنها؟ قال: يخبر بالسنّة، فإنْ سُمِع منه وإلاَّ سكت! قيل: فينصح السلطان؟ قال: إن رجا أن يسمعه! وإلاَّ فهو في سعة».

يُعَقِّب على هذه الفتوى الشيخ محمد الغزالي، قائلاً: (الواقع أن الجُبن وحب الحياة ومهادنة الضلال تقطر من كلمات هذه الفتوى، وما تُربِّي إلاَّ أذناباً للحاكمين، وحواشي للمستبدين .. وهي تصوّر الفكر السائد عند جمهور من المتدينين وهو الفكر الذي حاربهُ زعماء الإصلاح وأئمة العلم وبينوا بعده السحيق عن دين الله.

وما أدري كيف يكتب هذه الكلمات من يعرف أن الدين النصيحة، ومقاومة المنكر! وأن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر! وأن الأُمة إذا هابت أن تقول للظالم يا ظالم فقد ماتت موتاً مادياً وأدبياً ..

هل قرأ مصدر هذه الفتوى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ

وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

إننا لمْ ننصره من عدة قرون، لشيوع الظلم بين المسلمين، وكثرة من يداهنون الجائرين ويأكلون على موائدهم!

فيهود إسرائيل -وهم من هم- دعا القاضي «كاهان» رئيس الحكومة فمثل بين يديه، ثم دعاه مرة أخرى وأنذره إن تأخر، فجاء رئيس الحكومة طائعاً، ثم صدر الحكم ضده وضد من معه.

وقال الناس: يستحيل أن يقع هذا في بلد عربي! وأردفوا ساخرين: الماء لا يجري إلى أعلى! قلت: وبركات السماء لا تنزل على الأدنى، إنّ الاستبداد السياسي أعمى المسلمين عن حقائق الكتاب والسنة فغشيهم من الضياع ما غشيهم .. والإصلاح في الميدان السياسي كالإصلاح في الميدان العقائدي له رجاله المرموقون .. وفي عصرنا هذا استُشهد رجال كثر وهم يحاربون الاستبداد السياسي، ويستنقذون حقوق الإنسان من براثن الجبابرة).

ولِمَ لا يقف المصلحون من العلماء والمفكرين والأدباء والكُتّاب والشعراء وحتى أهل الفن في وجه الحكم الفردي الديكتاتوري، والاستبداد السياسي، والطغيان على حقوق الشعوب، وأن يكونوا دائماً في صف الحرية السياسية المتمثلة في الديمقراطية الصحيحة غير الزائفة، وأن يقولوا بملء أفواههم للطغاة: لا، ثم لا. ولا يسيروا في ركاب ديكتاتور متسلط وإنْ أظهر وِدَّه لهم، لمصلحة موقوتة، ولمرحلة لا تطول عادة، كما هو المجرّب والمعروف.

إنَّ الحديث الشريف يقول: «**إذا رأيتَ أمتي تهاب أن تقول للظالم: يا ظالم، فقد تُودِّع منهم**». فكيف بنظام حكم يقهر الناس على أن يقولوا للظالم المتجبّر: ما أعدلك وما أعظمك، أيها البطل، والمنقذ، والمحرّر؟!

وإنَّ القرآن الكريم أعلن حملة قاسية على الطغاة المتألّهين في الأرض من أمثال

نمروذ وفرعون وهامان وغيرهم، وذمّ معهم من يتبعونهم ويدورون في فلكهم، ولهذا ذمّ الله قوم نوح بقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾.

وذمَّ عاداً قوم هود بقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

وقال عن ملأ فرعون: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾، ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

لكن، برغم كل الأنظمة والحكومات الديكتاتورية التي أنشبتْ أنيابها في تاريخنا القديم والحديث، ورغم طوابير المنافقين والمتسلقين والمجدفين والمداهنين التي لا يحدّها حد .. إلا أنّنا لم نعدم «كلمة الحق» و«الرأي الآخر» و«الصوت المعارض» في مختلف الميادين، حتى وإن لم يستطع هؤلاء المصلحون «المعارضون» أن يغيّروا دفّة الحكم وخارطته السياسية، فيكفيهم شرف المحاولة، وما على الرسول إلاّ البلاغ.

نحن –إزاء هذه القضية– لن نخرج عن ميدان الشِّعْر والأدب، الذي هو محور هذه الدراسة، فعندما نقلّب كُتب الأدب ودواوين الشّعر، نجد الأمثلة الكثيرة على تواتر شعراء المعارضة أو شعراء الرفض الذين انتشروا في مختلف الأزمنة وشتى الأمكنة، فمنذ أن وُجِدَ الشعراء على الأرض، وهم يعلنون عن رفضهم الشديد ومعارضتهم المستمرة لكثير مما يجري حولهم من أحداث وقضايا، وقد تتغير مسميات (شعر المعارضة) بحسب لونه ودرجته أو المناسبة التي قيلت فيه، أو الرسالة التي كان يسعى إليها الشّاعر ... فالفخر والهجاء والمدح والنقائض والمكتبات كلها تحمل في طياتها من ألوان الرفض والخروج، وأشكال المقاومة والمناوأة .. فالشَّاعر العربي جُبِلَتْ نفسه الأمّارة بالشّعر على خلق هذا اللون الأدبي «المزعج» حتى إنْ لم تكن له مناسبة أو ضرورة، بحكم الطبيعة النفسية المصاحبة له! وأحياناً وجد نفسه مشدوداً إليه شداً، ومفروضاً عليه فرضاً، من أثر البيئة القاسية التي نشأ فيها، والظروف الاجتماعية والسياسية المحيطة به من كل جانب.

قالوا جُننتَ؟ فقلتُ كلاَّ ... وربي ما جُننتُ ولا انتشيتُ
ولكني ظُلمتُ فكدتُ أبكي ... من الظلم المبين، أو بكيتُ
فإنَّ الماء ماء أبي وجدي ... وبئري ذو حفرتُ وذو طويتُ

لعلَّ الصراع القبلي الذي شهده العصر الجاهلي حرَّض الشعراء على المبارزة الكلامية والانتصار لمفهوم القبيلة، لم يختلف كثيراً في العصور الإسلامية المتعاقبة، خاصة بعد سنة ٤٠ هجرية، عندما تحولت الأمة من خلافة راشدة إلى مُلك عضوض دعائمه القبلية والعصبية والاستئثار والاستبداد، وكان طبيعياً، وقد تغيرت القاعدة السياسية، أن تنمو في هذه التربة ألوان عديدة من المعارضة، وأن ينبت فيها أجيال متعاقبة من شعراء الرفض، في مقابل شعراء البلاط .. فقد وقف «الكُميْت الأسدي» شاعر الهاشميين، في مواجهة «الأخطل التغلبي» الذي استأجره بنو أُمية ليكيل لهم المدائح، ويزود عنهم وعن سياستهم!

ثم إذا نظرنا إلى العصور المتعاقبة، وجدنا الأمر يزداد سوءاً، حيث ترهَّل كيان الأمة، وانتابتها الأمراض، فانفرط عقدها، وهانتْ في عين أعدائها المتربصين بها

أوليس هذا التراجع المستمر والانحطاط الشنيع في شتى الميادين وكافة المجالات خليق بأن يُقابل بمعارضة شديدة من الشعراء، ويحوّلهم إلى فرق ومذاهب بمختلف ألوان الطيف العقدية والفكرية والسياسية والكلامية .. وهذا الذي حدث بالفعل، حتى صارت الأمة الكبيرة الواحدة دويلات وطوائف عديدة، تتناوب شئونها وتتولى أمرها الصبيان والعبدان والموالي والخدم! وهذا الذي جعل «المتنبي» يأبى الذهاب إلى الأندلس، لأنه أدرك تفاهة حكامها وهشاشة شأنهم من ضخامة الألقاب التي يحملونها، وكأنّ الشاعر يصف أحوال العرب في عصرنا هذا لا في عصره هو، عندما قال:

في كل أرضٍ وطئتها أُمَمٌ ... يقودها عبدٌ كأنهم غنمُ!

حول هذا الموضوع يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه (قذائف الحق): «إن جماهير العرب عطشى إلى الحرية والكرامة، ولقد بُذِلت جهود هائلة لمنعها من الحق والجد وتعويدها عبادة اللذة إلى جانب عبادة الفرد، ولكن جوهر الأمة تأبّى على هذه الجهود السفيهة، وإن كانت طوائف كثيرة قد جرفتها هذه المحن النفسية فهي تحيا في فراغ ومجون مدمرين، لا تبقى معهما رسالة ولا ينخذل عدو .. ومن ثم كان العبء على المصلحين ثقيلاً ولكن ما بدّ منه لحماية حاضرنا ومستقبلنا. ولقد تبعت الصراع بين الحكام المستبدين والرجال الأحرار منذ نصف قرن، ودخلت في تلك المعمعة لأذوق بعض مرّها وضرها .. فإنني أدعو إلى مقاومة الاستبداد السياسي، ومنذ أمسكت بالقلم لم أتريث في مهاجمة الجبابرة والإعانة عليهم بالتافه والجليل.

ولا أزال أُكرِّر أن الحريات المقررة هي الجو الوحيد لميلاد الدين ونمائه وازدهاره .. وإن أنبياء الله لم يضاروا بها أو يهانوا إلاَّ في غيبة هذه الحريات، وإذا كان الكفر قديماً لم ينشأ ويستقر إلاَّ في مهاد الذل والاستبداد فهو إلى يوم الناس هذا لا يبقى إلاَّ حيث تموت الكلمة الحرة وتُلطم الوجوه الشريفة وتتحكّم عصابات من الأغبياء أو من أصحاب المآرب والأهواء .. نعم ما يستقر الإلحاد إلاَّ حيث تتحول البلاد إلى سجون كبيرة، والحكام إلى سجّانين دُهاة.

من أجل ذلك ما هادنّا –ولن نهادن إلى آخر الدهر– أوضاعاً تصطبغ بهذا العوج ويستشري فيها ذلك الفساد.

إنَّ إذلال الشعوب جريمة هائلة، وهو في تلك المرحلة التكدة من تاريخ المسلمين عمل يفيد العدو ويضر الصديق .. بلْ هو عمل يتم لحساب إسرائيل نفسها .. فإنَّ الأجيال التي تنشأ في ظل الاستبداد الأعمى تشبّ عديمة الكرامة، ضعيفة الأخذ والرد .. ومع اختفاء الإيمان المكين والشرف الرفيع، ومع شيوع النفاق والتملق والدناءة، ومع هوان أصحاب الكفايات وتبجح الفارغين

المتصدرين .. مع هذا كله لا تتكون جبهة صلبة، وصفوف أبية باسلة. وذلك أمل إسرائيل حين تقاتل العرب لأنها ستمتد في فراغ وتشتبك مع قلوب منخورة وأفئدة هواء! والواقع أن قيام إسرائيل ونماءها لا يعود إلى بطولة مزعومة لليهود قدر ما يعود إلى عمى بعض الحكام العرب، المرضى بجنون السلطة وإهانة الشعوب. ولو أنصف اليهود لأقاموا لهؤلاء الحكام تماثيل ترمز إلى ما قدموا لإسرائيل من عون ضخم ونصر رخيص!».

خصائص شعراء المعارضة

إنَّ المتأمل في (شِعْر المعارضة) يلحظ أنه يمثل قاسماً مشتركاً بين شعراء العربية كلهم، فلا نكاد نجد شاعراً بريء من هذا المرض أو رُقي من هذا السّحر، بلْ أُصيبوا كلهم بإصابات بالغة، ولُدِغوا من ذات الجحر مرات ومرات، وكأنهم ولدوا في جحور الأفاعي، فما من شاعرٍ منهم إلاَّ اكتوى بناره، وتلظّى بسعيره، ودفع ضريبة ما جناه عليه لسانه، ونفسه الأمّارة بالشِّعْر، ورغم ذلك يُصرّ الشّاعر على معصيته، فلا يفارق الكأس إيّاها، فلا رجوع ولا إقلاع ولا ندم ولا استغفار، بلْ اقتراف المزيد من الذنوب والأوزار التي تصل إلى حد «المعلّقات» كما فعل الكُمَيْت الأسدي، ودِعْبِل الخُزَاعي، والعُرْجي، وأبو نواس قديماً، وكما فعل عبد الحميد الديب، والجواهري، والبردوني، وأمل دنقل، ونزار قباني، وبلند الحيدري، وأحمد مطر، وغيرهم في العصر الحديث.

(شِعْر المعارضة) في الأغلب يكون نتيجة أو ردّ فعلٍ من الشاعر للظروف الاجتماعية المحيطة به .. فقد يكون الشاعر مظلوماً، أوْ مضطهداً، أوْ منفياً، أوْ مطروداً، أوْ مسجوناً، أوْ مجروراً أمام حبل المشنقة، أوْ خلاف ذلك من المآسي التي حملتها لنا كتب التاريخ والأدب .. فماذا عساه أن يقول الشَّاعر حينئذ؟!

فمثلاً، ماذا نتوقّع من «البارودي» أنْ يقول وهو في منفاه في «سرنديب»؟ وماذا

ننتظر من «أحمد محرم» وهو يرى أُمته الجليلة القدر وقد تمزق أوصالها، وصارت فريسة وغنيمة باردة لأطماع الدول الكبرى؟ وبأيّ حق نمنع «حافظ إبراهيم» من أن يجأر من الاستعمار والفقر والجهل والغلاء؟ وكيف لا يسْخَر «عبد الحميد الديب» من المَلِك وحاشيته؟ وما العجب في أن يعلن «نزار قباني» نبأ وفاة العرب على العالم كله؟ ولِمَ لا يُطالِب «أحمد مطر» على صفحات الجرائد الحكّام العرب بالرحيل فوراً؟!

فلماذا –إذن– لا يضيق الشعراء ذرعاً بحكامهم الذين يسومون الناس سوء العذاب، والذين حولوا الأوطان إلى ملاجئ ومعتقلاتٍ وسجونٍ وزنازين ومقابر جماعية؟!

فالإسلام –كدين وتشريع سماوي لا ريب فيه– يدعو إلى التصدّي بقوة للطغاة، ومقاومة الجبابرة والحكام الفاسدين بالنقد اللاذع تارة وبالخصومة تارة أخرى، معتبراً أن ذلك لوناً من ألوان الجهاد، فيقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه «من معالم الحق»: «أن ذِكْر الظالمين بآثامهم التي بعثت على الشكوى منهم ليس استثناء شاذاً عن قاعدة، بلْ هو اطراد مع قاعدة أخرى، وعمل بنصوص لا ريب فيها، تهدف إلى صيانة الأمة من البغي والعدوان ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾.

وذِكْر المجرم على سبيل التسلّي والتلهّي ليس بإيمان ولا إجمان .. فإنّ الواجب تتبعه بالنقد والصد، وتناوله بالخصام والملام، وإنّ الحملة على مثله دين!

مازال السؤال مطروحاً: من هم شعراء المعارضة؟ ومن هم أعلام هذا الفريق وروّاده في الوطن العربي؟ وما هي قضاياهم الأدبية والفكرية التي يحلّقون حولها؟ وما هي خصائصهم النفسية؟ وما هي أوطانهم أو الأمكنة التي يتواجدون فيها بكثرة؟ وهل هناك مواسم وأزمنة بعينها يُولدون فيها؟ وما هو القاسم المشترك بينهم في مختلف العصور؟ وما هي نظرة المجتمعات نحوهم؟ وما الوقود الذي

يشعل نيرانهم المستعرة؟!

الحقيقة أن (شعراء الرفض .. أوْ الشعراء المعارضين) لا تجمع بينهم أزمنة بعينها، ولا أمكنة بذاتها، فهم متناثرون أو متفرقون في سائر الأزمنة ومختلف الأمكنة، وإن كانت بعض الحقب الزمنية تشهد أسراباً منهم وأفواجاً غفيرة، وتضجّ بهم الحياة ضجاً، كتلك الحقب التي يسوسها الحكام الجبابرة والطغاة الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون .. وما أكثر هذه الحقب السوداء!

- الملاحظ في النماذج التي اخترناها من (شعراء المعارضة) أنهم -في الأغلب- لم يكونوا متصالحين مع المجتمعات التي عاشوا فيها، بلْ عاشوا منبوذين فيها! لأنهم عادة لا يعيشون في الحياة، ولكن يعيشون ضيوفاً على الحياة!

فإنْ حضروا لا يعرفهم أحد، وإنْ غابوا لا يسأل عنهم أحد .. فالكُميْت الأسدي، اغتيل ولم يُعثَر على جثته إلى اليوم! وعبد الحميد الديب لم يسمع أحد بموته بمستشفى قصر العيني إلاَّ بعد مرور أيام عديدة على وفاته! وفي ذات المستشفى مات أمل دنقل! ولا أحد يعرف سرّ اغتيال هاشم الرفاعي! وتضاربت الآراء حول مقتل راشد حسين!

- (شعراء المعارضة) مُسيَّرون لا مُخيّرون في هذا الأمر، ومُساقون إليهِ سوقاً، ومدفوعون إليه دفعاً، بسبب طبيعتهم النفسية القلقة، أو بفعل شياطينهم المردة، أو من قسوة الحياة، ووحشية المجتمع، وضراوة الأنظمة الحاكمة، ووعورة الطريق التي يسلكونها!

- (شعراء المعارضة) دائماً يظلوا في بؤرة الأحداث، ويحظوا بسمعة واسعة الانتشار، لكن الكتابة أو الحديث عنهم لا يكون في الوسائل والقنوات الرسمية، إنما يكون على استحياء وفي السهرات الخاصة، كما أن الحديث عنهم كثيراً ما يأخذ طابع التهكّم والسخرية والتقليل من شأنهم ، فمثلاً إذا جاء ذكر الشَّاعر «دعبل

الخزاعي» فأول ما يقال عنه: إنه كان سليط اللسان! وإذا ذُكِرَ «عبد الحميد الديب» فسرعان ما يقال عنه: كان صعلوكاً! ويقال عن «أمل دنقل» كان حاد المزاج أوْ لا يطاق! وهكذا ..

وفي حالة نفيهم أوْ سجنهم أوْ مصادرة إبداعاتهم، لمْ يخمد ذكرهم، بلْ تتسلّط عليهم الأضواء أكثر وأكثر .. فالممنوع مرغوب!

- (**شعراء المعارضة**) لا يُحسِنون الدبيب إلى القصور، ولا يتقنون التسرب إلى الطبقة العليا في المجتمع، لأن مثل هذه الأماكن تحتاج إلى نوع من المرونة واللباقة الاجتماعية أو ما نسميه «الخُبْث» وهؤلاء الشعراء غير مؤهلين نفسياً لأداء هذا الدور، فنفوسهم تمتعض كثيراً من هذا الدور الرخيص.

- (**شعراء المعارضة**) تغلب عليهم روح التمرد أو الثورة، وقد ساعدهم هذا على أن يكونوا خارجين على الأنظمة، أو غير منتمين إليها، وإذا انتموا فإن غالب انتمائهم يكون للأنظمة والأحزاب المشاقّة والمكايدة للأنظمة القائمة، ويكون انتماؤهم كذلك للكيانات التي تضع «العدل الاجتماعي» في برامجها من قريب أو بعيد كالخوارج والشيعة وبعض الأنظمة الثورية، أو متذبذبين بين القبول والرفض، أو منسحبين تماماً من كل ما يدور حولهم، لأن ما يدور حولهم أقوى منهم، ولأن من يقترب منهم قد يُصعق، أو يقصم بالسيف، أو يموت وهو منشور الذراعين!

- (**شعراء المعارضة**) يبدون ككتيبة من العُصاة، فقد أجبرتهم الحياة بصفة عامة على أن يُعبِّروا عن القلق والفقر والهروب والموت والأشياء القريبة التناول، ولهذا يعتبرهم النقاد من رواد «الواقعية العربية» فقد كشفوا عن الشاعرية الكامنة في الأشياء البسيطة، واقتربوا من لغة الحَكْي، وتنبهوا بشفافية إلى المرئيات التافهة، وأخذوا من الحياة شرائح ساخنة، ثم عبروا عنها من خلال نفوسهم .. ومن خلال نظرتهم الخاصة للحياة.

- (شعراء المعارضة) يهتموا اهتماماً خاصاً بظاهرة الموت في أشعارهم، لأنهم يشعرون أنهم أبناء الموت، وأن حياتهم دائماً في خطر، ومن ثم فإنّ خلاصهم الحقيقي لابد أن يكون خارج الحياة لا داخلها، وهم في الغالب لمْ يمارسوا الحياة في «دائرة الأدب» وهكذا عاشوا يتامى في الحياة. وفي الوقت نفسه كانوا مُطالَبين بالحصول على «تصريح إقامة» داخل مناطق بعينها في المجتمع.

- (شعراء المعارضة) لا نجد عندهم محاولة للعودة إلى أوطانهم في حالة الاغتراب أو النفي، مهما تباكوا عليها في أشعارهم، فسرعان ما نراهم يندمجون في المجتمع الجديد، لأنهم يجدوا أمنهم فيه، ولا أدلّ على ذلك من الجواهري، وبلند الحيدري، ومُظفّر النواب، ومحمود الدغيم، وأحمد مطر، وغيرهم ممن قضوا أعمارهم في المنافي والشتات.

- (شعراء المعارضة) لا يميلون إلى الغزل أو النسيب، فطبيعتهم الجادة، تمنعهم من ذلك، أو أنهم غير مؤهلين للتعامل مع النساء، فلم تلفت انتباههم المرأة في الحياة، بقدر ما لفت انتباههم الطغاة والمستبدين، وحكام الجور، وأمراء السوء!

- (شعراء المعارضة) لا يعتمدون الثرثرة الفارغة أو الإطالة المعجوجة في قصائدهم، كشعراء المدائح، بل يعتمدون على الإيجاز في الألفاظ وتكثيف المعاني قدر المستطاع.

- (شعراء المعارضة) لا تظهر قصائدهم في حينها في كثير من الأحيان، ولا تُسمع في الموطن الذي وُلِدتْ فيه، وربما لا يُعرف صاحبها، وقد تُنسَب إلى غيره، إذْ يغلب عليها صفة الكَتْمْ، فهي من الممنوعات أو المحظورات، فهي أشبه بالديناميت، أو كأنها زجاجات حارقة وعبوات ناسفة، كقصيدة «القدس عروس عروبتكم» التي لم يُعرف شاعرها الأصلي سنيناً طويلة، وقصيدة «رسالة إلى الفرعون» لعبد الرحمن العشماوي، التي مازال كثير من الناس يجهلون شاعرها،

كذلك «القصائد العشر في جراح مصر» التي نُسِبَتْ خطأً إلى هاشم الرفاعي»وغيرها من القصائد الجارحة!

- (شعراء المعارضة) يلجأون -أحياناً- إلى التعريض أوْ المواربة، بدلاً من التصريح أوْ الهجاء المباشر، لأن التعريض أهجى من التصريح -كما يقول ابن رشيق- لاتساع الظن في التعريض، وشدة تعلق النفس به، والبحث عن معرفته، وطلب حقيقته، كما رأى أن أجود ما في الهجاء أن يسلب الإنسان فضائله النفسية، وما تركب من بعضها مع بعض .. كما عرَّض الفرزدق بالخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، في «الميمية»:

وليس قولكَ مَنْ هذا؟ بضائرِهِ فالعُرْبُ تعرفُ منْ أنكرتَ والعجمُ!

أو كقول سيد قطب في قصيدته (هُبل .. هُبل):

هُبَل ... هُبَل

رمز الخيانة والعمالة والدجل

هُتافة التهريج ما ملّوا الثناء

زعموا له ما ليس ... عند الأنبياء

هو فاتح ... هو عبقري ملهمٌ

هو مرسلٌ ... هو عالمٌ ومعلمٌ

ومن الجهالة ما قتل !

- (شعراء المعارضة) يُركِّزون في أشعارهم على كل ما يُوحي بالزوال والفناء والقتل، فلعلّ الإحساس بالفناء والعدم وغلبة التشاؤم هو بمثابة تعبير عن حياتهم البائسة، خاصة عندما يكون الإنسان مُضيّعاً، أوْ طريداً، أوْ منفياً، وفاقداً للأمل في العدل الاجتماعي أو الحرية أو الديمقراطية التي عاش يحلم بها ويدعو إليها ..

كقول عبد الحميد الديب:

لـوْ ذاق هـذا الـورى معشـار محنتنـا ... مـا قـاربوا عيشـهم دنيـا ولا دينـا

لمْ نرتقـبْ فرجـاً في يـوم كربتنـا ... إلاَّ وكـان لنـا ضِـيقاً يوافينـا

أو قول البردوني:

لكـن أنـا راحـل في غـير مـا سـفر ... رحلي دمي .. وطريقي الجمر والحطب

إذا امتطيـتَ ركابـاً للنـوى فأنـا ... في داخـلي .. أمتطـي نـاري وأغـترب

قـبري .. مأسـاة مـيلادي عـلى كتفـي ... وحـولي العـدم المنفـوخ والصُّـخب

أو قول يحيى السماوي:

لا تُحسـني بغـدي الظنـونَ فأمسُـنا ... دامٍ وحـاضرُ يومنـا مغلـولُ

إنِّي لأُبصِرُ في مرايـا حـاضري ... قـبراً بـه غـدُنا الـذبيحُ نزيـلُ

وقوله أيضاً:

يتيمـةٌ أنـا أيـامي، وأشرعتـي ... يتيمـةٌ، ويتـيمٌ بعـدي اليُـتْمُ!

وباتسـاع رغيـفٍ لا مـذاق لـهُ ... غـدي، وأضْـيَقُ منـه بيتـي العَـتِمُ!

- (شعراء المعارضة) تتميز أشعارهم بقوة الألفاظ، واستلهام الرموز خاصة الشخصيات التي تمثلت فيها البطولة والتضحية والشجاعة النادرة، والصدق، والعدل، والأمانة كالأنبياء والمجاهدين والثائرين، والنماذج الفذّة كعمر بن الخطاب، وأبي ذر الغفاري، وعلي بن أبي طالب، وخالد بن الوليد، والحسين بن علي، وعمر بن عبد العزيز، والعز بن عبد السلام، وصلاح الدين الأيوبي، ومحمد الفاتح، وعمر المختار، وعبد القادر الجزائري، وعز الدين القسَّام، والشيخ أحمد ياسين ... فمثلاً نجد حافظ إبراهيم يكتب «العُمرية»، وعبد المطلب يكتب «العلوية»، وعمر أبو ريشة يكتب «الخالدية»، وعبد الرحمن الشرقاوي يكتب

«الحسين ثائراً»، و«الحسين شهيداً»، والدكتور/ محمود خليل يكتب «إلى أن يقوم الحسين»، و«رسالة إلى سيف الله المسلول»، والدكتور الحضيري يكتب «ملحمة عمر المختار» ولفيف من الشعراء يكتبون «نهج البردة» وغير ذلك من الروائع التي جادت بها قرائح الشعراء. اسمع مثلاً إلى قول نزار قباني:

يا ابن الوليد، ألاَ سيفٌ نؤجّرهُ فكل أسيافنا قدْ أصبحتْ خشبا

أوْ قول يحيى السماوي:

من بعد «هارون الرشيد» ودينُنا دينارُنا، والموبقاتُ ضُرُوعُ!
من بعد «هارون الرشيد» وبابُنا مخلوعةٌ، وجدارنا مخلوعُ!

– (شعراء المعارضة) لا يجمع بينهم زمان بذاته، ولا تجمعهم عائلة أو قرية أو مدينة بعينها، إلاَّ «عائلة الرفض» أوْ «مدينة العصيان» فمثلاً نجد عمرو بن كلثوم في «العصر الجاهلي»، والكميت الأسدي في «العصر الأموي»؛ ودعبل الخزاعي في «العصر العباسي»، وحافظ إبراهيم في «العصر الحديث»، وأحمد مطر في «الألفية الثالثة»!

في الوقت ذاته نرى أبا القاسم الشابي «تونسياً»، والجواهري «عراقياً»، والبردوني «يمنياً»، وأمل دنقل «مصرياً»، وعمر أبو ريشة «سورياً»، وعبد الرحمن العشماوي «سعودياً» ومحمود مُفلِح «فلسطينياً». فلا أنساب بينهم ولا يتساءلون! أوطانهم متباعدة، وأمهاتهم مختلفة، ولكن ... رسالتهم واحدة، وغايتهم مشتركة .. وكلهم في الهَمِّ شرق!

– (شعراء المعارضة) تتفاوت مستوياتهم الاجتماعية، فلا ينتمون جميعاً إلى القبائل ذات النفوذ أو الأسر الأرستقراطية، وليسوا كلهم من الصعاليك والبؤساء ... فإذا كان عمرو بن كلثوم من قبيلة ركعتْ وسجدتْ لها الجبابرة .. فإن منهم البائسين مثل: البردوني! وإذا كان نزار قباني عاش في أفخم قصور الشام وأجمل

فنادق لندن وباريس، فإنّ أمل دنقل عاش ومات على أرصفة القاهرة!

- إذا كان منهم من ترقّى إلى أعلى المناصب ونال أرفع النياشين كالبارودي الذي عمل وزيراً للحربية، وكان رئيساً للوزراء .. فإنّ عبد الحميد الديب لم يجد له أيّة وظيفة طوال حياته ولوْ بخمسة جنيهات .. حتى طُويَت صفحته المؤلمة!

- كذلك نجد التفاوت البعيد في هوياتهم مرجعياتهم الفكرية، فنجد منهم القوميين أمثال: السياب، ومحمود درويش! ونجد فيهم الإسلاميين أمثال: أحمد محرم، ووليد الأعظمي!

وإذا كان بعضهم عاش مُلتفاً حول نفسه وحجرته فقط كعبد الحميد الديب، فإنّ البعض الآخر حلّق بجناحيه في سماء الأُمة بأسرها كعبد الرحمن العشماوي!

- وإذا كان بعضهم مهموماً بمصيبة بلده فقط، مثل السماوي مع العراق، ومحمود مفلح مع فلسطين .. فإنّ البعض الآخر ظل شاهراً سيفه في كل الجبهات كحافظ إبراهيم، وأحمد مطر!

- وإذا كنا نجد فيهم الشعوبيين والثوريين والبعثيين أمثال: بلند الحيدرى، ومظفر النواب .. فإننا نجد فيهم أيضاً العلماء والفقهاء أمثال: الشيخ الغزالي، والشيخ يوسف القرضاوي !

- وإذا كان أكثر شعراء الرفض أو الشعراء المناوئين قد أُودِعوا السجون أو عاشوا في المنافي مثل: الجواهري، والسماوْي، وأحمد مطر، ومحمود الدغيم .. فإنّ منهم من عاش عزيز الجانب موفور الكرامة أو شغل مكاناً بارزاً في الحياة السياسية مثل: الشريف الرضي، والمتنبي، والمنفلوطي، وعبد الولي الشميري!

- في الوقت الذي نجد عامة هؤلاء المعارضين ذوي حظ واسع من الشهرة والدويّ كعمرو بن كلثوم، والكميت، وحافظ إبراهيم، وسيد قطب .. فإننا في المقابل نجد البعض حُرِمَ من هذا الضجيج، وانحسرت شهرته مثل: إسماعيل

شعشاعة، وعصام الغزالي، وخالد سليم، وعبد الحسيب الخناني!

- وإذا كان أغلب شعراء المعارضة من الرجال كمن أشرنا إليهم .. فإننا رأينا - أيضاً- الشاعرات المعارضات أمثال: فدوى طوقان، وعليّة الجعار، ونوال مهني، وسعيدة خاطر!

- وإذا كان بعضهم عاش حياة مديدة ورُدَّ إلى أرذل العُمُر، مثل البردوني، والجواهري. فإن منهم من طُويت صفحته على عجل ومات مبكراً مثل: الشابي، وهاشم الرفاعي، وغيرهم.

- ومنهم من كان رافضاً دائماً، ومعارضاً إلى آخر الخط، وعلى طول الطريق: كالكميت، ودِعبل، وأمل دنقل، وأحمد مطر، ويحيى السماوي، وسميح القاسم. ومنهم من كانت (المعارضة) موقفاً أو حادثة في حياته مثل: عمرو بن كلثوم، والفرزدق، والمتنبي، وفاروق جويدة، وعصام الغزالي، ومحمود خليفة غانم .. وغيرهم.

***

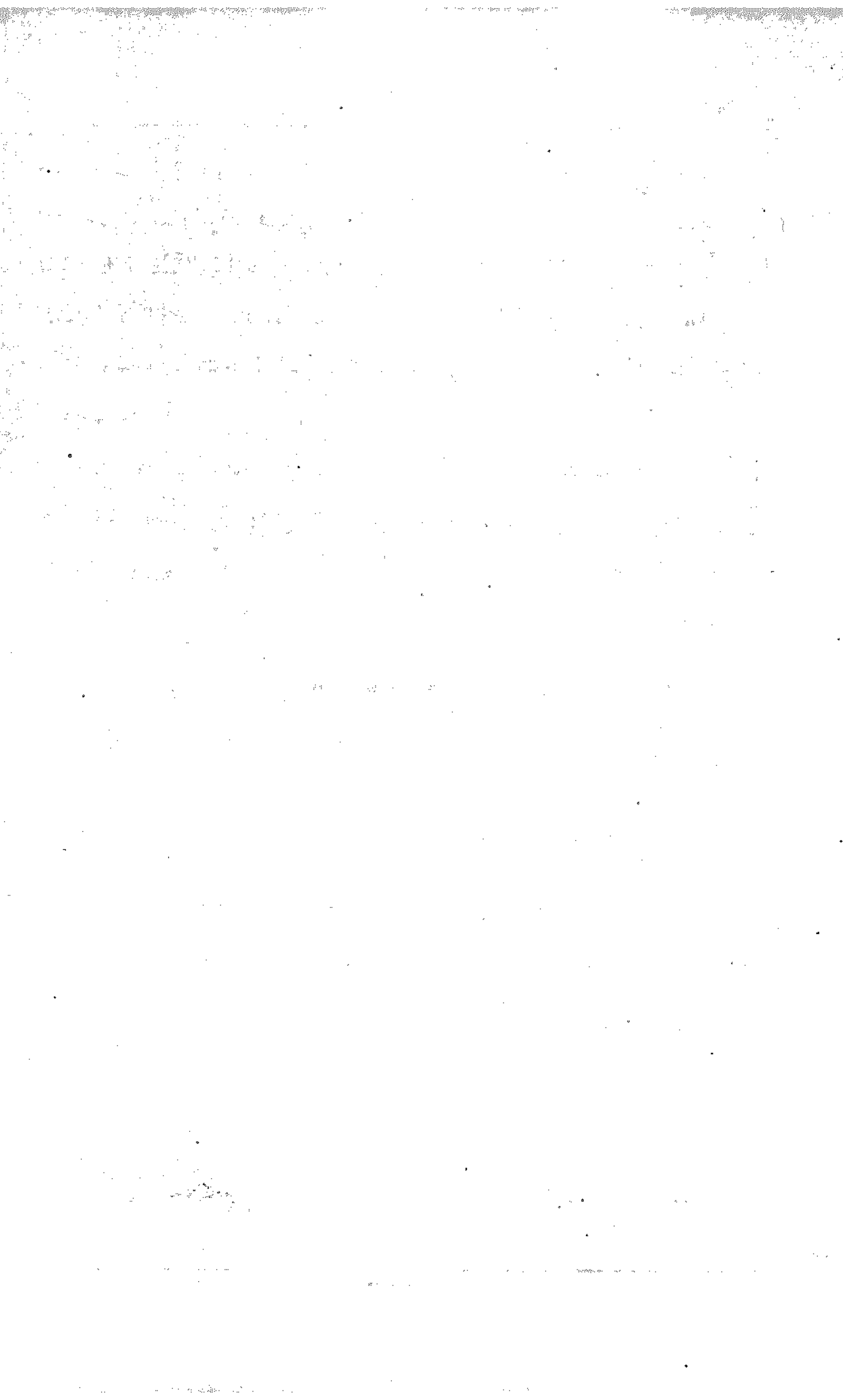
بعد هذا الرسم الكاريكاتوري لطبيعة شعراء المعارضة، والعرض السريع للخصائص الزمانية والمكانية والاجتماعية والنفسية لشعراء المعارضة في مختلف البيئات والعصور .. فإنني أرجو أن أكون قد نجحتُ في تشخيص حالتهم النفسية وطبيعتهم الحياتية، أوْ لعلّي أصبتُ جانباً من الحقيقة، أوْ اقتربتُ بعض الشيء فيما صبوتُ إليه، أوْ دنوتُ مما كنتُ أرغب في تبيانه فخانني التعبير!

جدير بالذكر، أن ننبه -القارئ- قبل إقدامه على قراءة «الفصل التالي» بأننا عمدنا إلى كتابة «مقدمات» عن هؤلاء الشعراء، كالحديث عن جانب من جوانب السيَر الذاتية لبعضهم، والتعرّض لبعض الإشكاليات في حياتهم أو في شعرهم وقصائدهم، كما حاولنا عقد المقارنات النقدية فيما بينهم ... فإذا كانت هذه

«المقدمات» لا تُرضي القارئ، أو قد تتعارض مع وجهة نظره، فهذا من حقه المكفول شرعاً وعرفاً، فإنني لمْ أقل -ولا ينبغي لي أن أقول- إنَّ رأيي صواب لا يحتمل الخطأ! ولمْ أزعم أن هذا هو الكلام الأخير، ولمْ أدَّعِ أنني أتيتُ بما لم يستطعه الأوائل، فميدان الأدب تتضارب حوله الآراء، وتتباين في شأنه الرؤى، وتختلف فيه وجهات النظر أكثر مما تختلف في شيء غيره .. ورحم الله امرءًا أهدى إلينا عيوبنا.

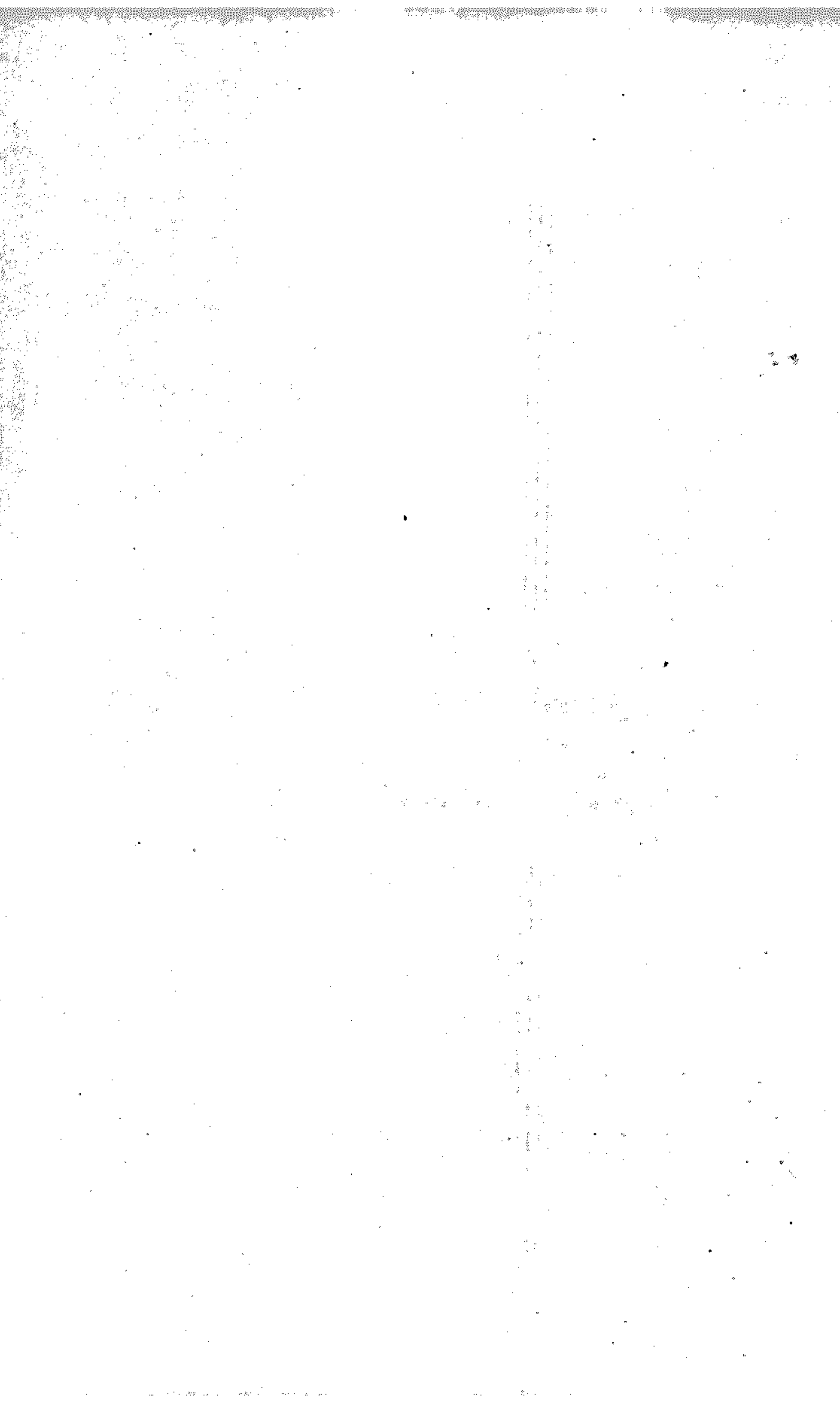
الآن .. لا يبقى أمامنا سوى قراءة نماذج حية لهذه القصائد السياسية الغاضبة التي خلّفها الشعراء الفحول، والتي عانوا منها أشدّ المعاناة، وتحمّلوا من أجلها ما لا يُحتمل، ودفعوا في سبيلها ثمناً باهظاً .. وبذلك أطلقنا عليها **(قصائد لها تاريخ)**!





الفصل الخامس

قصائد لها تاريخ



فتى بني تغلِب

ما أحوج العرب -في هذا الزمان- إلى رجولة فذة كرجولة (عمرو بن كلثوم)!

نعم .. ما أحوجنا إلى مثل هذه الفتوة النادرة، كَيْ نذيب بها طبقات الجليد المتراكم على مشاعرنا منذ سنين بعيدة، أيْ منذ أن «دخلت الخيل الأزهر» ومنذ بدأنا عصر «الاستدانة الفكرية» وارتضينا بقمامة الفكر الغربي، وفتات الآخرين!

إنني كلما تذكرتُ (فتى بني تغلب) دعوتُ ربي أن يرزقنا بفتى مثله يُجدِّد عزائمنا، ويستردّ حقوقنا السليبة، ويعيد لنا كرامتنا المهدَرة!

ولِمَ لا؟! فعندما كان (عمرو بن كلثوم) حياً؛ كان العرب -الأُمة الوحيدة- التي تُعاتِب المَلِك الجبّار بسيوفها إذا صَعَّر خده للناس!

لوْ كان بيننا -الآن- مثل هذا الفتى، ما كانت حرائر «العراق» و«فلسطين» تُفارِق أوْ تهونا!

فما منع الظعائن مثل ضرب ترى منه السواعد كالقُلينا!

لوْ كان هذا الفارس بيننا -في الوقت الراهن- لاقتحم حصون «حيفا» و«يافا» ودكَّها على من فيها وما فيها، وأصدر الرايات حُمْراً قدْ روينا!

إنه منذ ستة عشر قرناً من الزمان وإلى يومنا هذا - وسيرة (عمرو بن كلثوم) يتردد صداها هنا وهناك .. وأخباره في حرب البسوس معروفة، حيث أبلى فيها بلاءً حسناً، واشتُهِر بأنه أعظم فُتّاك العرب، حتى ضُرِبَ به المثل، فقيل: أفتك من «عمرو بن كلثوم»!

لعلَّ معلقة عمرو بن كلثوم- تكشف عن مدى مبلغ العرب في الفخر بالأنساب والأحساب! ومدى فروسيتهم وشجاعتهم التي لم تعرف الدنيا لها مثيلا! كما

تكشف لنا عما بلغته اللغة العربية من نضج وتألّق رفيع لم تستطع أية لغة أن تجاريها في ذلك!

وذلك بخلاف ما ذهب إليه الدكتور «طه حسين» في كتابه (الشِّعر الجاهلي) الذي شكّك في أمر هذا الشِّعْر، واستبعد نسبته إلى الجاهليين!

وقد اعترف «طه حسين» بعد ذلك، بأنَّ هذه الآراء التي أثارها، لم تكن من اجتهاده، إنما سرقها من كتابات المستشرقين اليهود المتعصبين، أمثال: مارجليوث، وجولد زيهر، وديكارت، وأستاذه دور كايم، وغيرهم.

***

(عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب التغلبي) كانت أُمه «ليلى» بنت مهلهل – الزير سالم كما أُطلِق عليه– وأخو كُلَيْب، نشأ عمرو في قبيلة تغلب بالجزيرة العربية، وساد قومه وهو ابن خمسة عشر عاماً، وقاد الجيوش مظفراً، لم يشتهر إلا بمعلقته هذه، التي قامت له مقام الشِّعر الوفير لحسن لفظها، وانسجام عباراتها!

أمَّا عن قصة قتله للمِلك عمرو بن هند –ملك الحيرة– فيروى أن هذا الملك قد وصل به الكِبْرُ والجبروت إلى أنه أراد إذلال العرب جميعاً، فقال لندمائه ذات يوم: هل تعلمون أحداً من العرب تأنفْ أُمه من خدمة أُمي؟ فقالوا: لا نعلم إلاَّ «ليلى بنت مُهلهل». قال: ولِمَ ذلك؟ قالوا: لأنّ أباها «مهلهل بن ربيعة» وعمها «كُليب بن وائل» أعزّ العرب. وزوجها «كلثوم بن مالك بن عتاب» أفرس العرب. وابنها «عمرو بن كلثوم» سيد قومه. فأرسل المِلك إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويطلب أن يزير أمه .. فلما كانت أمه عند أُم الملك (وأُم المَلِك هي هند عمّة امرئ القيس الشاعر) قالت أُم الملك لها: يا ليلى ناوليني ذلك الطبق فردّت عليها: إن صاحبة الحاجة هي التي تقوم إلى حاجتها، فلما ألحَّتْ عليها صاحتْ ليلى: وا ذلاّه يا تغلِب .. فسمعها ابنها عمرو بن كلثوم، فثار الدم في وجهه، فقام إلى سيف معلّق في

الرواق، فضرب به رأس المَلِك. ثم قام ومن معه فسار نحو الجزيرة .. وهو يقول بأعلى صوته:

بـأيّ مشـيئةٍ عمـرو بـن هنـدٍ ... تُطيـع بنـا الوشـاة وتزدرينـا
تُهـدِّدنا وتوعِـدنا، رويـداً ... متـى كُنّـا لأُمّـكَ مقتوينـا؟

المهم، أن معلقة عمرو بن كلثوم، نالت من الشهرة أكثر من غيرها من المعلقات الأخرى، وظلّ بنو تغلب يرددونها ليل نهار، جيل بعد جيل، لِمَا حملته من الفخر والشرف الكبير لمآثرهم وأسلافهم .. لدرجة أنهم عافوا العمل في الرعي والزراعة وغيرها من موارد الرزق والمعيشة حتى أصاب أحفادهم العوز والفقر الشديد .. مما جعل شاعر بني بكر –وهو من أعدائهم يهجوهم– قائلاً:

ألْهَى بني تغلب عن كل مكرمةٍ ... قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم
يفاخِرون بها مُذْ كان أولهم ... يا للرجال لِشِعْرٍ غير مسئوم

وها نحن نعرض بعضاً من معلقة فتى الفتيان، وفارس الفرسان (عمرو بن كلثوم التغلبي):

ألاَ هُبّي بصحنكِ فاصبحينا !

أَلاَ هُبِّـي بِصَحْنِكِ، فاصبَحينا ... ولا تُبْقـي خُمُـور الأَنْـدَرينا
مُشَعْشَعَةً كَأَنَّ الحُصَّ فيها ... إذا ما المـاءُ خالطها سَخِينا
تَجُور بـذي اللُّبانَةِ عن هواه ... إذا ما ذاقها، حتى يَلِينا
تَرىَ اللَّحِزَ الشَّحِيح، إذا أُمِرَّتْ ... عليه، لماله فيها مُهينا
كأنّ الشُّهبِ في الآذانِ منها ... إذا قَرَعوا بِحَافتها الجُبِينا
صَدَدْتِ الكأسَ عنا، أُمَّ عَمْرٍو ... وكان الكأسُ مَجْراها اليمينا
وما شَرُّ الثلاثـة أمَّ عَمْرٍو ... بِصَاحِبك الذي لا تَصْبَحِينا
وكأسٍ قد شَرِبتُ بِبَعْلَبَك ... وأُخْـرِى في دِمَشْقَ، وقاصرِينا

إذا صَدَتْ حُمَيَّاها أريباً ... من الفِتْيَان، خِلْتَ به جُنُونا
فما بَرِحَتْ مَجَال الشَّرْبِ حتى ... تغالوها، وقالوا قد رَوِينا
وإنَّا سوف تُدْرِكنا المنايا ... مُقَدَّرةً لنا ومُقَدَّرينا
وإنّ غداً، وإنَّ اليوم رهن ... وبعد غَدٍ بما لا تعلمينا
قِفي قبل التفرّق، يا ظَعينا ... نُخَبِّرْكِ اليَقينَ وتُخْبرينا
بيوم كَرِيهةٍ ضرباً وطعناً ... أقَرَّ به مواليكِ العيونا
قِفي نَسْأَلْكِ هل أحْدثتِ صَرْماً ... لِوَشْكِ البَيْنِ أمْ خُنْتِ الأمينا
أفي لَيْلَى يُعَاتِبُنِي أبوها ... وإخْوَتُها وهم لي ظالمونا
تُرِيكَ، إذا دَخَلْتَ على خَلاء ... وقد أمِنَتْ عيون الكاشِحينا
ذِرَاعَيْ عَيْطَلٍ أَدْماءَ بِكْرٍ ... تَرَبَّعَت الأجارع والمُتونا
وَثَدْياً مثل حُقِّ العاج رَخْصاً ... حَصَاناً من أكُفِّ اللامِسينا
وَنَحْراً مثل ضوء البدر وَافَى ... بأَتْمَامٍ أناساً مُدْلِجينا
ومَسْتَنَيْ لَدْنَةٍ طالت ولانت ... رَوَادِفُها، تنوء بما يلينا
وَمأكَمَةً يضيق الباب عنها ... وكَشْحاً قد جُنِنْتُ به جنونا
وسالِفَتَيْ رُخَام، أو بَلَنْطٍ ... يَرِنُّ خَشَاشُ حَلْيِهما رَنِينا
تَذَكَّرْتُ الصِّبا،واشتقتُ لَمَّا ... رأيتُ حُمُولها أصُلاً حُدِينا
وأعرضَتِ اليمامةُ واشْمَخَرَّتْ ... كأسيافٍ بأيدي مُصلتينا
فما وَجَدتْ كوجْدِي أُمُّ سَقْب ... أضَلَّتْه فَرَجَّعَت الحنينا
ولا شمطاءُ لم يَتْرُك شَقاها ... لها من تسعةٍ إلا جنينا
أبا هِنْدٍ، فلا تعجل علينا ... وأنْظِرْنا نُخَبِّرْكَ اليقينا
بأنَّا نُوردُ الراياتِ بِيضاً ... ونُصدرهنّ حُمراً قد رَوِينا
فإنَّ الضِّغْن بعد الضِّغْنَ يَفْشو ... عليكَ، ويُخْرج الداء الدفينا

وأَيَّامٍ لنا غُرٍّ، طِوالٍ ... عَصَيْنا المَلْكَ فيها أن نَدِينا
وسَيِّدِ معشرٍ قد توجوه ... بتاج المُلْكِ يَحمي المُحْجَرِينا
تركنا الخَيلَ عاكفةً عليه ... مُقَلَّدةً أعِنَّتَها صُفُونا
وقد هَرَّت كِلابُ الحيِّ منا ... وشَذَّبنا قَتادة من يلينا
وأنزلنا البيوت بذي طُلُوحٍ ... إلى الشَّامات ننفي المُوعِدينا
نَعُمُّ أُناسنا، ونَعِفُ عنهم ... ونحمل عنهمُ ما حَمَّلونا
ورِثْنا المجدَ، قد عِلمت مَعَدٌّ ... نُطاعن دونه حتى يبينا
ونحن: إذا عماد الحرب خَرَّت ... على الأحفاض، نمنع من يلينا
نُطاعِن ما تراخَى الناس عنَّا بسُمْرٍ من ... ونضرب بالسيوف، إذا غُشِينا
قَنا الخطِّيِّ لُدْنٍ ... ذوابلَ، أو بِبِيضٍ يعتلينا
نشق بها رؤوس القوم شقا ... ونختلب الرقاب فيختلينا
تخال جماجم الأبطال منهم ... رسُوقا بالأماعِز يرتمينا
نَجُذُّ رؤوسهم، في غير وِترٍ ... ولا يدرون ماذا يتقونا
كأن ثيابنا منا ومنهم ... خُضِبن بأُرْجُوان أو طُلِينا
كأن سيوفنا فينا وفيهم ... مَخاريقٌ بأيدي لاعبينا
إذا ما عَيَّ بالإسنافِ حيٌّ ... من الهول المُشَبِّهِ أن يكونا
نصبنا مثل رهْوة ذات حدٍّ ... مُحَافَظَةً وكنا السابقينا
بفتيان يرون القتل مجدا ... وشِيبٍ في الحروب مُجَرَّبينا
يُدَهْدون الرؤوس كما تُدَهْدِي ... حَزَاوِرَةٌ بأبطحها الكُرِينا
حُدَيَّا الناس كلِّهم جميعا ... مقارَعةً بنيهم عن بنينا
فأمَّا يوَم خشيتنا عليهم ... فتصبح خيلُنا عُصَباً ثُبِينا
وأمّا يوَم لا نخشى عليهم ... فنُمْعِن غارة، مُتَلَبِّبينا

بـرأسٍ مـن بنـي جُشَـم بـن بكْـر ... نـدقُّ بـه السُّـهولة والحُزُونـا
بـأيِّ مشـيئةٍ عَمْـرِو بـنَ هِنـدٍ ... نكـون لِقَـيْلكُم فيهـا قَطينـا
بـأيِّ مشـيئةٍ عمـرو بـن هنـد ... تـرى أنَّ نكـون الأرْذلينـا
بـأيِّ مشـيئةٍ عمـرو بـن هنـد ... تطيـع بنـا الوُشَـاةَ وتزدرينـا
تُهـدِّدنا وتوعِـدنا، رُوَيْـدًا ... متـى كنّـا لأُمّـكَ مَقْتَوينـا؟
وإنَّ قناتنـا يـا عمـرو أعيـتْ ... عـلى الأعـداء قبلـكَ أنْ تلينـا
إذا عَـضَّ الثِّقـافُ بهـا اشْـمَأزَّت ... وولَّتْـه عَشَـوزَنَةً زَبُونـا
عَشَـوْزَنَةً إذا غُمِـزَتْ أرَنَّـتْ ... تَشُـجّ قفـا المُثَقِّـف والجبينـا
فهـل حُـدِّثْتَ عـن جُشَـمِ بـن بكـر ... بِـنَقْضٍ في الخُطُـوب الأولينـا
ورِثنـا مجـد عَلْقَمَـةَ بـن سَـيْفٍ ... أبـاح لنـا حُصُـون المجـد دينـا
ورِثْـتُ مُهَلْهِـلاً، والخَـيْرَ منـه ... زُهَـيْراً، نعـم ذُخـر الـذاخرينا
وعَتَّابـاً وكُلْثُومـاً جميعـاً ... بهـم نِلنـا تُـراث الأكرمينـا
وذا الـبُرَةِ الـذي حُـدِّثْتَ عنـه ... بـه نُحمَـى، ونَحمْـيِ المُحْجَزِينـا
ومنّـا قِبَلـةُ السـاعى كُلَيْـبٌ ... فـأيّ المجـد إلا قـد وَلِينـا
متـى تُعْقَـد قَرِينَتُنَـا بحبـلٍ ... تَجُـذّ الحبـل أو تَقِـص القرينـا
ونُوجَـد نحـن أمـنَعَهم ذِمـارا ... وأوفـاهم إذا عقـدوا يمينـا
ونحـن غـداة أُوقِـدَ في خَـزَازَى ... رفَـدْنا فـوق رِفْـد الرافـدينا
ونحـن الحابسـون بـذى أُراطٍ ... تَسَـفُّ الجِلَّـةَ الخُـورَ الـدَّرِينا
فكُنَّـا الأيمنـينَ إذا التقينـا ... وكـان الأيسريـن بنـو أبينـا
فصـالوا صَـولة فـيمن يلـيهم ... وصُـلْنا صـولة فـيمن يلينـا
فـآبوا بالنِّهـابِ وبالسـبايا ... وأُبْنـا بـالملوك مُصَـفّدينا
إلـيكم يـا بنـى بكـرٍ إلـيكم ... أَلَـمَّا تعلمـوا منـا اليقينـا

ألَّا تعلموا منا ومنكم ... كتائبَ يطَّعِنَّ ويرتمينا
نقود الخيل دامية كُلاها ... إلى الأعداء لاحِقَةً بُطُونا
علينا البَيْضُ واليَلَب اليماني ... وأسياف يَقُمْن وينحنينا
علينا كل سابغة دِلاصٍ ... تَرَى تحت النِّجاد لها غُضُونا
إذا وُضِعَتْ عن الأبطال يوماً ... رأيتَ لها جُلود القوم جُونا
كأنَّ مُتُونَهُنّ متون غُدرٍ ... تُصَفِّقها الرياح إذا جَرينا
وتحملنا غداة الرَّوْعِ جُرْد ... عُرِفْنَ لنا نقائِذَ وافتُلِينا
وَرَدْن دَوَارِعًا وخرجن شُعْثًا ... كأمثال الرصائع قد بَلينا
ورِثناهن عن آباء صدقٌ ... ونُورِثها إذا متنا بنينا
وقد علِمَ القبائل غَيْرَ فخر ... إذا قُبَب بأبْطَحِها بُنينا
بأنّا العاصمون، إذا أُطِعْنا ... وأنّا الغارمون، إذا عُصِينا
وأنّا المُنْعمون، إذا قَدَرْنا ... وأنّا المهلكون، إذا أُتِينا
وأنّا الحاكمون بما أردنا ... وأنّا النازلون بحيث شينا
وأنّا التاركون لما سَخِطنا ... وأنّا الآخذون لما هَوِينا
وأنّا الطالبون، إذا نَقَمْنا ... وأنّا الضاربون إذا ابْتُلِينا
وأنّا النازلون بكل ثَغْر ... يخاف النازلون به المُنُونا
ونشربُ، إنْ وَرَدْنا الماء صفواً ... ويشربُ غيرنا كَدَرًا وطينا
ألاَ سائل بني الطَّمّاح عنّا ... ودُعْمِيًّا فكيف وجدتمونا
نزلتم منزل الأضياف منا ... فَعَجَّلْنا القِرَى أن تَشْتُمونا
قَرَبنَاكُم، فعجَّلْنا قِراكم ... قُبَيْل الصبح سِرْداةً طَحُونا
متى ننقل إلى قوم رَحَانا ... يكونوا في اللقاء لها طحينا
يكون ثِفَالُها شَرْقِيَّ نَجْدٍ ... ولُهُوَتُها قُضَاعَة أجمعينا

عـــلى آثارنـــا بِـــيضٍ حســـانٍ ... نحـــاذِر أن تفـــارق أو تهونـــا
ظَعَـائِنُ مـن بنـى جُشَـم بـن بكـر ... خَلَطْـــنَ لِمِيسَـــم حَسَـــباً وَدِينـــا
آخـــذْنَ عـــلى فوارســـهنّ عهـــداً ... إذا لاقَـــوْا فـــوارس مُعْلِمِينـــا
لَيَسْـــتَلبُنّ أبـــدانا وبيضـــا ... وأسرى في الحديـــد مُقَرَّنينـــا
إذا مـــا رحـــنَ يمشـــين الهُـــوَيْنَى ... كـــما اضـــطربت مُتُـــون الشـــاربينا
يَقُتـــدن جِيَادَنـــا وَيَقُلْـــنَ لســـتم ... بُعُولتنـــا إذا لم تمنعونـــا
إذا لم نَحْمِهِـــنّ فـــلا بقينـــا ... لشيءٍ بعـــدهن ولا حيينـــا
ومـــا منـــع الظعـــائنَ مثـــلُ ضربٍ ... تـــرى منـــه الســـواعد كالقُلِينـــا
إذا مـــا المَلْـــكُ ســـام النـــاس خَسْـــفاً ... أبينـــا أن نقـــرّ الخسْـــف فينـــا
ألاَ لا يَجْهَلَـــنْ أحـــد علينـــا ... فنجهـــل فـــوق جهـــل الجاهلينـــا
ونعـــدو حيـــث لا يُعْـــدَى علينـــا، ... ونضرب بالمَواسِـــيِ مـــن يلينـــا
ألاَ لا يحســـب الأعـــداء أنّـــا ... تَضَعْضَـــعْنا، وأنّـــا قـــد فَنِينـــا
ترانـــا بـــارزين، وكُـــلُّ حَـــيٍّ ... قـــد اتخـــذوا مخافتنـــا قرينـــا
كأنّـــا، والســـيوف مُسَـــلَّلات ... ولـــدنا النـــاس طُـــرًّا أجمعينـــا
ملأنـــا الـــبر حتـــى ضـــاق عنّـــا ... كـــذاك البحـــر نملـــؤه ســـفينا
إذا بلـــغ الفِطـــامَ لنـــا رضـــيعٌ ... تخـــرُّ لـــه الجبـــابرُ ســـاجدينا
لنـــا الـــدنيا، ومـــن أضـــحى عليهـــا ... ونـــبطش حـــين نـــبطش قادرينـــا
تنـــادى المصـــعبان وآلُ بكـــر ... ونـــادَوْا يـــا لَكِنْـــدَةَ أجمعينـــا
فـــإنْ نغْلِـــب فغلاّبـــون قِـــدْمًا ... وإنْ نُغْلَـــب، فغـــير مُغَلَّبِينـــا

القصيدة التي سَجَنَتْ صاحبها

(الفرزدق) شاعر لا يحتاج إلى تعريف، فهو قامة سامقة بين شعراء العربية الكبار، قال عنه صاحب الأغاني: «لولا الفرزدق لضاع ثلث اللغة العربية».

ولمّا رثاه خصمه اللدود (جرير) قال فيه: «فلا ولدتْ بعد الفرزدق حاملٌ ...»!

لكن .. من أسف، فإنَّ المسئولين عن التعليم والقائمين على العملية التربوية في بلادنا، عندما يُقدِّمون شِعْر الفرزدق لتلاميذ وطُلاَّب المدارس والجامعات، لا يذكرون لهم إلاَّ أنه كان هَجّاءً فقط، ونسوا -أوْ تناسوا- أن هذا الشاعر الكبير طرق جميع الأغراض الشعرية، وأجاد في المدح والوصف والرثاء وغيرها .. فلماذا لا يُقدّمونه إلاَّ في أسوأْ أشكاله؟

فيا واضعي سياسة التعليم في بلادنا .. إلى متى سيظل الفرزدق يهجو ابن عمه جريراً؟!

وماذا يفيد هذا اللون الشعري «النقائض» في حياتنا العملية والتربوية التي نسعى من خلالها إلى التدرج في معراج النهضة، والأخذ بأسباب الحضارة؟!

كذلك الحال .. عندما يقدِّمون شعراء آخرين، مثل: أبي تمام، أو البحتري، أوْ المتنبي .. فلا يقدّمونهم إلاَّ من خلال قصائد المديح .. ويغفلون القضايا المهمة الأخرى التي طرحها هؤلاء الشعراء من خلال رحلتهم الإبداعية .. كأن القوم عندنا يطالبون الناشئة والأجيال الجديدة بأن يصبحوا (مدّاحين) للحكام، وحواشي للسلاطين والأنظمة المعاصرة!

أليس ذلك دليلاً كافياً على أننا في حاجة ماسة وضرورة ملحّة لمراجعة مناهجنا التربوية ومقرراتنا التعليمية، وتقديم النافع والمفيد فقط، والتخلص مما علق بها من

أخطاء وخطايا؟!

أمَّا القصيدة التي سجنت «الفرزدق» فهي المُسمّاة «بالنونية» ولها حكاية طويلة، ينبغي أن تُحكَى!

يقول عنها الشاعر الأديب سيد سليم: «إنها من أهم القصائد التي قيلتْ في حُب السادة آل البيت وبيان فضلهم، ذلك لأنها وليدة موقف عصيب من أهم المواقف التي تعرّض لها الفرزدق وبرز فيها إبداعه الإلهامي الذي ينمّ عن شعور صادق وعاطفة جياشة وحب كامن أظهره الموقف وحرّكه الحال، كما تمثّل تلك القصيدة الرجولة الإيمانية في أعلى مراتبها وأسمى معانيها، إنها لحظة صدق عاطفي لمْ يتمالك الشاعر أمامها إلاَّ التعبير الفوري عما يجده في صدره، حيث لم يكن في طوقه أن يحبس تلك العاطفة أو يطمس ذلك الإلهام، إنها إبداع لم يعُق رغم بريق الذهب الأموي المغري أو التنكيل المتوقع».

وردت مناسبة تلك القصيدة في مصادر تاريخية وأدبية كثيرة مفادها أن هشام بن عبد الملك ذهب إلى الحج في ولاية أبيه، وكان معه وفد من أعيان أهل الشام، ولما طاف بالبيت جهد أن يصل إلى الحجر الأسود ليستلمه، فلم يقدر على ذلك لكثرة الزحام، فنُصِبَ له كرسي وجلس عليه ينظر إلى الناس، فبينما هو كذلك إذْ أقبل الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين، فطاف بالبيت، فلما انتهى إلى الحجر تنحّى له الناس حتى استلم الحجر، فقال رجل من أهل الشام لهشام: من هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة؟ فقال هشام: لا أعرفه –وهو يعرفه– مخافة أن يرغب أهل الشام في علمه وفقهه وخلقه، فتلتف الناس حوله، وتنجذب إليه.

وكان الفرزدق حاضراً (ضمن بعثة الحج الرسمية التي تنظمها الدولة) فغاظه رد هشام.

فلم يحتمل بطبيعته كشاعر .. فقال: لكني أعرفه، ثم اندفع فأنشد هذه القصيدة

التي أغضبت هشام، فأمر على الفور بتقييد الشاعر وحبسه بين مكّة والمدينة!

ولمّا عَلِم زين العابدين بما حدث للشّاعر أرسل إليه ثوباً ونقوداً، فردَّها الفرزدق قائلاً: يا ابن رسول الله .. والله ما مدحتكم لدنيا أطلبها، أمّا الثوب فإني أقْبله لأنه مَسَّ جسدك الشريف، فردّ الإمام النقود مرة أخرى إليه قائلاً: «لقد عَلِمَ الله نيّتك وأثابك عليها، ونحن -أهل بيتٍ- ما أخرجناه لا يرجع إلينا، ولو كان معنا غيرها لزدناك لأنك أنْصَفْتَ حقاً».

في تعقيبه على هذه الواقعة يقول العقاد: «.. فإذا تعلّقتْ القريحة بالجمال فلا جَرَمَ أن تزن الأمور بغير ميزان الحساب والصفقات، فتُعرِض عن النعمة وهي بين يديها، وتُقبِل على الألم وهي ناظرة إليه وتلزمها سجية العشق الآخذ بالأعنة فتنقاد له ولا تنقاد لنصيحة ناصح أو عذل عاذل، لأن المشغوف بالجمال ينشده ولا يبالي ما يلقاه في سبيله.

لقد تمثّلت سجية عاشق الجمال في كل شعر نظمه شعراء الحسيْن وذويه تعظيماً لهم وثناء عليهم فلم يتجهوا إليهم ممدوحين وإنما اتجهوا إليهم صوراً مُثلى يهيمون بها كما يهيم المحب بصورة حبيبه، ويستعذبون من أجلها ما يصيبهم من ملام وإيلام».

وإنْ كانت هذه القصيدة مدحاً في العِتْرَة الطاهرة، إلاَّ أنها تحمل من الدلالات السياسية التي لا تغيب عن أحد، وهو ما يُسمّى بالتعريض، وربما كان هذا جانباً من جوانبها التي دفعت بهشام بن عبد الملك أن ينتقم من الشاعر .. وإلى (**ميمية الفرزدق**):

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته!

هَذا الَّذِي تَعْرِفُ اَلْبَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ، والبَيْتُ يَعْرِفُهُ وِالْحِلُّ وَالْحَرَمُ

هَذا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ الله كُلِّهِمُ، هَذَا التقِّيُّ النَّقِّي الطَّاهِرُ الْعَلَمُ

هَذا ابْنُ فَاطِمَةٍ، إنْ كُنْتَ جَاهِلَهُ، بِجَدِّهِ أَنْبِيَاءُ الله قَدْ خُتِمُوا

وَلَيْسَ قَوْلُكَ: مَنْ هَذَا؟ بِضَائِرِه، الْعُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتَ وَالْعَجَمُ

كِلْتَا يِدَيْهِ غِيَاثٌ عَمَّ نَفْعُهُمَا، يُسْتَوكَفَانِ، وَلاَ يَعْرُوهُمَا عَدَمُ

سَهْلُ الخَلِيقَةِ، لاَ تُخْشى بَوادِرُهُ، يَزِيْنُهُ اثْنَانِ: حُسْنُ الخُلْقِ وَالشِّيَمُ
حَمَّالُ أَثْقَالِ أَقْوَامٍ، إذا افْتُدِحُوا، حُلْوُ الشَّمَائِلِ، تَحْلُو عِنْدَهُ نَعَمُ
مَا قَالَ: لا قُطُّ، إلاَّ في تَشَهُّدِهِ، لولاَ التَّشَهُّدُ كَانَتْ لاَءَهُ نَعَمُ
عَمَّ الْبرِيَّةَ بِالإِحْسَانِ، فَانْقَشَعَتْ عَنْهَا الْغَيَاهِبُ وَالإِمْلاَقُ وِالْعِدِمُ
إذَا رِأَتْهُ قُرَيْشٌ قَالَ قَائِلُهَا: إلى مَكَارِمِ هَذَا يَنْتَهِي الْكَرَمُ
يُغْضِي حَيَاءً، وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِه، فَمَا يُكَلَّمُ إلاَّ حِينَ يَبْتَسِمُ
بِكَفِّهِ خَيْزُرانٌ رِيحُهُ عَبِقٌ، مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ، في عِرْنِينِهِ شَمَمُ
يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانَ رَاحَتِهِ، رُكْنُ الحَطِيمِ إذاَ مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ
أَللهُ شَرَّفَهُ قِدْماً، وَعَظَّمَهُ، جَرَى بِذَاكَ لَهُ فِي لَوْحِهِ الْقَلَمُ
أَيُّ الخَلاَئِقِ لَيْسَتْ فِي رِقَابِهِمْ، لأَوَّلِيَّةِ هَذا، أَوْ لَهُ نِعَمُ
مَنْ يَشْكُرِ اللهَ يَشْكُرْ أَوَّلِيَّةَ ذَا، فَالدِّينُ مِنَ بَيْتِ هَذَا نَالَهُ الأُمَمُ
يُنْمَى إلى ذُرْوَةِ الدِّينِ الَّتي قَصُرَتْ عَنْهَا الأَكُفُّ، وَعَنْ إِدْرَاكِهَا الْقَدَمُ
مَنْ جَدُّهُ دَانَ فَضْلُ الأنبِيَاءِ لَهُ؛ وَفضَلُ أُمَّتِهِ دَانَتْ لَهُ الأُمَمُ
مُشْتَقَّةٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ نَبْعَتُهُ، طَابَتْ مَغَارِسُهُ وَالخِيمُ وَالشِّيَمُ
يَنْشَقُّ ثَوْبُ الدُّجى عَنْ نُورِ غُرَّتِهِ، كَالشَّمْسِ تَنْجَابُ عَنْ إِشْرَاقِهاَ الظُّلَمُ
مِنْ مَعْشَرٍ حُبُّهُمْ دِينٌ، وَبُغْضُهُمْ كُفْرٌ، وَقُرْبُهُمْ مَنْجى وَمُعْتَصَمُ
مُقَدَّمٌ بَعْدَ ذِكْرِ اللهِ ذِكْرُهُمُ، فِي كِلِّ بَدْءٍ، وَمَخْتُومٌ بِهِ الْكَلِمُ
إنْ عُدَّ أَهْلُ التُّقى كَانُوا أَئِمَّتُهِمْ، أَوْ قِيلَ: «مِنْ خَيْرُ أَهْلِ الأَرْضِ؟» قِيلَ: هُمُ
لاَ يَسْتَطِيعُ جَوَادٌ بَعْدَ جُودِهِمُ، وَلاَ يُدَانِيهِم قَوْمٌ، وَإِنْ كَرُمُوا
هُمُ الْغُيوثُ، إذا مَا أَزْمَةٌ أَزَمَتْ، وَالأُسْدُ أُسْدُ الشَّرَى، وَالْبَأْسُ مُحْتَدَمُ
لاَ يُنْقِصُ الْعُسْرُ بَسْطاً مِنْ أَكُفِّهِمُ؛ سِيَّانِ ذَلِكَ: إن أَثْرَوْا وإنْ عَدِمُوا
يُسْتَدْفَعُ الشَّرُّ وِالْبَلْوى بِحُبِّهِمُ؛ وَيُسْتَرَبُّ بِهِ الإِحْسَانُ وِالنِّعَمُ

شاعر الهاشميين

ما استحقَّ (الكُمَيْت بن زيد الأسدي) لقب «شاعر آل البيت» و«شاعر الهاشميين» إلاَّ لأنه ضرب بسهمٍ وافر في هذا الباب، وأخباره المتواترة تدلنا على مدى شهرته في هذا الباب، وفيها أخبار مع بني هاشم وشهادتهم له ودعاؤهم واعتزازهم به وحرصهم عليه، وما تسبب له من الآلام وما مرَّ به من المخاطر، كل ذلك يدفع بالكميت إلى مكانة الصدارة بين شعراء عصره، بلْ بين شعراء العربية أجمعين، ليكون أول من فتح باب الجدال للشيعة.

وقد اجتمعت في الكُميت خصال لم تجتمع في شاعر سواه: فكان خطيب بني أسد، وفقيه الشيعة، وحافظ القرآن، وكان ثبت الجنان، وكان كاتباً حسن الخط، وكان نَسّابة، وكان جدلياً، وهو أول من ناظر في التشيُّع مجاهراً بذلك، ولعلَّ ديوان شعره لوْ وصل إلينا لكان ترجمان حركة الشيعة وأدبهم، إذْ أنه كان من الغزارة بمكان، فأبو الفرج يذكر أن شعره يوم مات كان خمسة آلاف ومائتين وتسعة وثمانين بيتاً، لم يصلنا منها غير ما يقل عن ستمائة بيت، والقصائد التي وصلتنا من الهاشميات تنهج نهجاً يكاد يكون مطّرداً فيها جميعاً في الحديث عن آل البيت وعن أعدائهم الأمويين وما أصابوا به أهل البيت من المنكرات والفظائع، وعن الحق السليب في الخلافة، وبهذا تكون هذه القصائد من جهة «القائمة السوداء» ويوضعون تحت الرقابة الصارمة، تحسب لأي تحرك يضع السيف منهم فوق الرقاب.

من هنا نجد الكُميْت يحرص على ستر هذه القصائد وإخفائها وكتمها خوف أن يفتضح فيها عند بني أمية -حيث كان يتهمهم بالكفر واغتصاب الحق من

أصحابه- ولاسيما أن له كثيراً من الأعداء، الذين يترصدون له، ويعدون عليه خطاه قبل خطاياه من أجل أن يسلموه لنهاية فاجعة تشفي عليهم منه.

كان الكميت بالكوفة، يتخذ مواقف غريبة ومتناقضة أحياناً، فهو خطيب وشاعر يميل إلى آل البيت بهواه وقلبه ولسانه، ومع هذا فهو يصاحب الطرماح - شاعر الخوارج- على ما بين الخوارج والشيعة من العداء! وهو أيضاً يتعصب للعدنانية على القحطانية أهل اليمن، ويعاديهم ويهجوهم، ويجاور بني أُمية تقية، وتصله عطاياهم وجوائزهم، في ذات الوقت الذي يصبّ عليهم جام غضبه ويستنزِل عليهم اللّعنات في قصائده التي يتوجّه بها لآل البيت!

وقد جعلت هذه المواقف جميعاً أعداء الكميت أكثر من أصدقائه، فنكب أكثر من مرة وامتُحِنَ بالسجن والطرد والهرب والتشريد والجلد بالسياط، وبمواقف الذلة والضعف، وانتهى به الأمر إلى القتل في اليوم الذي تنفّس فيه الصعداء ظناً منه أنه تخلص من أعدى أعدائه «خالد بن عبد الله القسري» الذي كان والياً على العراق، فعُزِل ووُلِّيَ بدلاً منه «يوسف بن عمر» فأقبل عليه الكميت يمدحه ويُعرِّض بخاله الذي كان شديداً عليه، وبأهل اليمن، فوضع الحرس -وكانوا يمانية يتعصبون لخالد- ذباب سيوفهم في بطنه، وقالوا له: تُنشِد الأمير ولمْ تستأمره؟! فلمْ يزل ينزف الدم حتى مات.

وكان الكُميْت طيلة حياته يصحب الخوف ويترقب المحن، بسبب حبه لبني هاشم الذين كان يؤثرهم بجيد شعره، ولا يطلب منهم جزاءً على ذلك ولا شكوراً، وكان شعره فيهم يتداول في أوساط الشيعة على حذر، ولا ينشدونه غيرهم وكان أكثرهم بالعراق والكوفة حين كان خالد بن عبد الله القسري بالبصرة والياً على العراق.

هذه الحياة العصيبة التي عاشها الكميت والظروف السياسية التي عاصرها،

جعلا الجهر بقصائده الهاشميات ضرباً من المخاطرة لا يقدر عليه إلاَّ مغامر، وقد أَذِنَ أهل البيت لشاعرهم بالتقية، وهي تتمثل هنا في مدح بني أمية جهراً مع اعتقاده بكفرهم باطناً، وكتم مديحه لآل البيت مع اعتقاده بولاياتهم وأحقيّتهم باطناً -كما يقول صاحب الأغاني! بينما يذهب -صاحب كتاب خزانة الأدب- إلى أن الكُميْت هو الشاعر الوحيد الذي لم يمدح بني أمية، ولوْ ببيتٍ واحد، بلْ «جاد بنفسه في آل البيت حين ضَنَّ الناس، وأظهر ما كتمه غيره من الحق».

أكثر ما يعنينا معرفته عن الكميت الأسدي في هذا الصدد -أنه كان يحرص على ألاّ يفتضح في شِعْرِه عن الإمام عليّ وآله «وأنه كان يستر الهاشميات» وأن شعر الكميت شاع بين الشيعة بعد وفاته سنة ١٢٦هـ وزوال مُلك بني أمية بعد وفاته بقليل، ولكن كثيراً من شعره ضاع بسبب الكتم، وهذا يؤكد على حقيقة أن الهاشميات لم يصل إلينا منها إلاَّ أقل القليل، وما عُرِفَ منها أقل مما ضاع بكثير، فالكميت كشاعر منهم لم يصلنا إلاَّ عُشْر شعره، أيْ القصائد التي افتُضِحَ فيها الكُميْت وكانت سبب نكبته، وباقي قصائده طوتها الصدور وغطاها التراب!

قصائد (الهاشميات) تتوافر فيها جميع الصفات التي اتسمتْ بها أشعار التوّابين والشيعة من الناحية الموضوعية كالحديث عن حق الهاشميين في الخلافة ومدحهم، وعن كفاحهم في سبيل استرداد هذا الحق، وما أصابهم على أيدي أعدائهم الأمويين، وخاصة ما أصاب الحسين وآله، ثم الهجوم على بني أمية والتشهير بهم وباغتصابهم الخلافة، ثم الحضّ على الثأر لمصارع آل البيت والطلب بدم من قُتِلَ منهم، ومواصلة الجهاد في سبيل القضاء على المغتصِب واسترداد هذا الحق وتأديته إلى أهله.

لعلَّ أشعار الكميت كانت اللبنة الأولى أوْ إرهاصاً بما تجلّى فيما بعد في أشعار المدائح النبوية وفي أشعار المتصوفة، ولاسيما فيما يتعلق بالمقدمات الغزلية الرمزية،

حيث إن الكميت قد أعرض في مقدماته كلها عن الغزل والوقوف بالأطلال، وكان إضرابه هذا مفعماً بالعاطفة التي يقر بوجودها في نفسه ولكنه يوجهها عمداً إلى محبوب آخر ليس هو ذلك المحبوب الذي يناجيه الشعراء عادة، وإنما هو «بنو هاشم» رهط النبيّ وآله. ولقد مكّن هذا للشعراء من بعده أن يمزجوا بين جناحي هذه العاطفة المتأججة في صورة رمزية تطورت حتى أضحت مذهباً في شعر الصوفية الذين اتخذوا من «سعاد» و«ليلى» رموزاً يشيرون بها إلى الحب الأسمى!

هناك منحى غريب في شعر الهاشميات، وهو تأخيره وصف الرحلة إلى خاتمة القصيدة، وكانت لها الصدارة فيما سبق، كما أنه يجعل الرحلة على الناقة تنتهي إلى بني هاشم أيضاً.

والحديث عن حق الهاشميين في الخلافة ينحو أحياناً نحو الحديث العاطفي الشجيّ المؤثر:

بلْ هوايَ الذي أُجَنُّ وأبدى　　　لبني هاشم فروع الأنام

هذا الحب يتقرب به الشّاعر إلى الله، ويتحمل كل أذى يتعرض له في سبيل هذه الغاية:

إلى النفرِ البيض الذين بحبهم　　　إلى الله فيما نالني أتقرّبُ

بني هاشم رهط النبيّ فإنني　　　بهمْ ولهمْ أرضى مراراً وأغضبُ

وعاطفة الكميت نحو آل البيت وتشيّعه، وتفقهه بمذهبهم لا تمنعه من أن يكون عادلاً في أحكامه، لذا نراه يصحح خلافة أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- ويعتذر عنهما في منعهما السيدة فاطمة ميراث فدك، فيقول:

أهوى عليّاً أمير المؤمنين ولا　　　ألومُ يوماً أبا بكرٍ ولا عمرا

ولا أقول -وإنْ لمْ يعطيا فدكا　　　بنت النبيّ ولا ميراثه- كفرا

الله يعلم ماذا يأتيان به　　　يوم القيامة من عُذْرٍ إذا اعتذرا

يقف (الكميت) في مقدمة الشعراء الذين اجتهدوا بعواطفهم وعلمهم في إثارة عواطف المسلمين تجاه أهل البيت، وذكر مصارعهم، وما كان من أمرهم. ولا ينسى الكميت في كل قصائده أن يكيل لبني أمية الصاع مليئاً بالسخط عليهم، بسبب اغتصابهم الخلافة، ونكب آل البيت، والسير بسيرة الجور في الناس، والتهتك والفساد الذي استشرى فيهم، فيلعنهم الشاعر لعناً كبيراً، ويتمنى أن يرى هاشمياً في مقعد الخلافة بدلاً منهم:

فقلْ لبني أمية حيث حلّوا ... وإنْ خفت المهنّد والقطيعا
ألاَ أُفٍّ لدهر كنتُ فيه ... هِداناً طائعاً لكم مطيعا
أجاعَ اللهُ منْ أشبعتموهُ ... وأشبعَ من بجوركم أُجيعا
ويلعنُ فذ أمته جهارا ... إذا ساس البرية والخليعا
بمرضى السياسة هاشمي ... يكون حيا لأمته ربيعا

إن هذه النغمة ليست مما يمكن أنْ يسكت عنه بنو أمية إذا وصلهم، وهذا ما كان يحرص الكميت على كتمه والإسرار به، وإلاَّ نالهُ من الحكام والولاة من الأذى ما لا يحتمل.

وبعد هذه الإطلالة السريعة على ملامح العصر الأموي، الذي شهد ألواناً شتى من الطغيان، والتي تركت جراحاً غائرة في ضمير الأمة، ليس أمامنا الآن سوى أن نستمتع ونعيش مع «بائية الكميت» لـ(شاعر الهاشميين أمير شعراء عصره):

بائية الكُمَيْت

طَرِبْتُ وما شوقاً إلى البِيض أطربُ ... ولا لعباً مني، أذو الشيب يلعبُ؟
ولمْ يلهني دارٌ ولا رسم منزلٍ ... ولمْ يتطربني بنانٌ مخضّبُ
ولا أنا ممن يزجر الطير همه ... أصاح غرابٌ أمْ تعرّض ثعلب؟

ولا السانحات البارحات عشية ... أمَرَّ سليم القرنِ أمْ مَرَّ أعضب؟
ولكنْ إلى أهل الفضائل والنهى ... وخير بني حواء والخير يُطْلَبُ
إلى النفر البيض الذين بحبّهم ... إلى الله فيما نابني أتقرّبُ
بني هاشم رهط النبيّ فإنني ... بهم ولهم أرضى مراراً وأغضبُ
خفضتُ لهم مني جناحي مودة ... إلى كنفٍ عطفاه أهل ومرحب
وكنتُ لهم من هؤلاء وهؤلاء ... مجناً على أني أُذمُّ وأقصب
وأرمي وأرمي بالعداوة أهلها ... وإني لأُوذَى فيهمُ وأُؤَنّبُ
فما ساءني قول امرئ ذي عداوة ... بعوراء فيهم يجتديني فيجدب
فقل للذي في ظل عمياء جَوْنَةٍ ... يرى الجور عدلاً أين لا أين تذهب
بأيّ كتاب أمْ بأيّة سُنّةٍ ... ترى حبهم عاراً عليّ وتحسبُ
أأسلم ما تأتي به من عداوة ... وبغضٌ لهم لا جير بلْ هو أشجب
فما لي إلاّ آل أحمد شِيعة ... وما لي إلاّ مشعب الحق مشعب
ومَنْ غيرهم أرضى لنفسي شيعة ... ومَنْ بعدهم لا مَنْ أجلّ وأرحب
إليكم ذوي آل النبيّ تطلعتْ ... نوازع من قلبي ظماء وأُلبب
فإني عن الأمر الذي تكرهونه ... بقوليَ وفعلي ما استطعت لأجنب
يشيرون بالأيدي إليّ وقولهم ... ألاَ خاب هذا .. والمشيرون أخيبُ
وطائفة قد أكفرتني بحبكم ... وطائفة قالوا مسيءٌ ومذنبُ
فما ساءني تكفير هاتيك منهم ... ولا عيب هاتيك التي هي أعيب
يعيبونني من خبثهم وضلالهم ... على حبكم بل يسخرون وأعجب
وقالوا ترابيّ هواه ورأيه ... بذلك أُدْعَى بينهم وأُلَقّبُ
على ذاك أجريّاي فيكم ضريبتي ... ولو جمعوا طراً عليّ وأجلبوا
وأحمل أحقاد الأقارب فيكمِ ... وينصب لي في الأبعدين فأنصب

بخاتمـك غصـباً تجـوز أمـورهم ... فلـم أرَ غصـباً مثلـه يتغصّب
وجـدنا لكـم في آل حـاميم آيـةً ... تأولهـا منـا تقـيٌّ ومعـرب
وفي غيرهـا آيـاً وآيـاً تتابعـتْ ... لكم نصب فيها لذي الشك منصب
بحقّكـم أمسـتْ قـريش تقودنـا ... وبالفـذ منهـا والـرديفين تركـب
إذا اتضـعونا كـارهين لبيعـه ... أنـاخوا لأخـرى والأزمـة تجـذب
رُدَافَى علينـا لم يُسـيموا رعيـةً ... وهمّهُـم أن يمتروهـا فيحلبـوا
لينْتَجِوهـا فتنـةً بعـد فتنـةٍ ... فيفتصـلوا أفلاذهـا ثـم يربُبُـوا
أقاربنـا الأدنـون مـنهم لِعَلَّـةٍ ... وساسـتنا مـنهم ضـباع وأذْؤب
لنـا قائـد مـنهم عنيـفٌ وسـائقٌ ... يُقحّمنـا تلـك الجـراثيم متعـب
وقـالوا ورثناهـا أبانـا وأمنـا ... ومـا ورثـتهم ذاك أم ولا أب
يـرون لهـم فضـلاً عـلى الناس واجباً ... سـفاهاً وحـقّ الهاشـميين أوجـب
ولكـن مواريـث ابـن آمنـة الـذي ... بـه دان شرقـي الـبلاد ومغـرب
فـدى لـك موروثـا أبي وأبـو أبي ... ونفسي ونـفسي بعـدُ بالناس أطيـب
بـكَ اجتمعـت أنسـابنا بعـد فِرقـة ... فـنحن بنـو الإسـلام نـدعى وننسب
حياتـك كانـت مجـدنا وسـناءنا ... وموتـك جـدعٌ للعـرانين مرعـب
وأنـت أمـين الله في النـاس كلهـم ... علينـا وفـيها احتـاز شرقٌ ومغـرب
ونسـتخلف الأمـوات غـيرك كلهـم ... وتعتـب لـو كنـا عـلى الحـق نعتـب
وبوركـتَ مولـوداً وبوركـتَ ناشـئاً ... وبوركتَ عند الشيب إذْ أنت أشْيبُ
وبـوركَ قـبرٌ أنـت فيـه وبوركـتْ ... بـه ولـه أهـل لـذلك يثـرب
ألمْ تـرني مـن حـب آلِ مُحمّـدٍ ... أروح وأغـدو خائفـاً أترقّـب
كـأني جـانٍ مُحـدِثٌ وكـأنما ... بهـم يتقـي مـن خشـية العُرّ أجـرب
عـلى أيّ جـرمٍ أمْ بأيـة سـيرةٍ ... أُعنّـف في تقـريظهم وأؤنّـبُ

أُنـاس بهـم عَـزَّتْ قـريشٌ فأصـبحوا   وفـيهم خبـاء المكرمـات المطّنـب
مُصفَّون في الأحساب مَحْضُونَ نَجرهُم   هُـمُ المحضُ منا والصريحُ المهـذَّب
لهـم رتـب فضـل على النـاس كلهـم   فضـائل يَسـتعلي بهـا في المترتّـب
مسـاميح مــنهم قـائلون وفاعــل   وسـبّاق غايـاتٍ إلى الخـير مُسـهِب
أولاكَ نبـــيّ الله مــــنهم وجعفــــر   وحمــزة ليــث الفيْلقــيْن المُجَـرّب



الشّاعر الذي ملأ الدنيا ..!

لَـمْ يحظَ شاعر في الدنيا بما حظيَ بـه (أبـو الطيـب المتنبـي) مـن الـذيوع والشـهرة المدوية، فلا يوجد إنسـان لا يحفـظ مـن أشـعاره ويتغنـى بحكمـه وأمثالـه، ولا تخلـو ندوة أو محاضرة من الحديث عنه أو الطواف حول ديوانه.

ولمْ يختلف الناس في شأن أحد مثل اختلافهم حول هـذا الشَّـاعر المثير للجـدل! فقد اختُلِفَ في اسمه، ونسبه، ومولده، وعمره، وحياته، وموته، ومذهبه، وشِعْره .. بلْ كل شيء حوله حتى أبيه وأُمه وجِدَّته!

نعم .. إنَّ كل شيء في حياة المتنبي يعتبر فريـداً في بابـه، فهـو مـن مـيلاده إلى موتـه عاش حياة عريضة أشبه ما تكون بقصة محكمة مثيرة للخيـال، وقـادرة عـلى التجـول في كل العصور، وفي ضوء هذا يكون نموذجاً متفرداً بين الشعراء، ذلـك لأنـه خـرج يطلب بالشِّعر المُلْك، فأصبح مَلِكاً على الشِّعْر لا مَلِكـاً عـلى الحيـاة، ومـن هنـا عـاش بين التوتر والسجن والخطر والكيد والهجرة، فقد جَرَّ عليه الشِّعْر الكثير، وكـان فـيما جرَّه القتل البائس الحزين، ولكنه عرف كيـف يقـوم مـن المـوت، ثـم يتجوَّل في كـل العصـور، لا كالنسـيم –عـلى عـادة كثـير مـن الشـعراء– ولكـن كالعواصـف التـي لا تتمسَّح بأشجار الكون، وإنما تقتلعها اقتلاعاً شديدا.

لقد كانت حياة المتنبي؛ حياة عاصفة، بسبب طموحه الغلاَّب، ورغبته العاتيـة في السلطة والسلطان، فلم يعرف إلى الراحة سبيلا، ولمْ يذق طعـم الاسـتقرار أبـداً، بـلْ عرف الطرق الوعرة، والمواقـف الصـعبة، وحاصرتـه مختلـف العـداوات مـن حيـث قصد .. وقد صوّر لنا حياته القلقة تصويراً بليغاً في قوله:

على قلقٍ كأنَّ الريح تحتي ... أُحرِّكها يميناً أوْ شِمالا !

المهم أنه ظلَّ دائماً يخلق حوله عاصفة، ربما بسبب نفسه المملوءة بالكبرياء، أوْ لأنه أراد أن يوائم بين نفسه المحتدمة وبين ثقافة عصره التي كانت مزيجاً ذكياً بين العديد من الحضارات، ولعله استطاع أن يفيد من هذا كله، فمن خلال شِعْره تفجرت عبقرية اللغة العربية، ووصلت إلى المدى الأسمى الذي يمكن أن تقدمه اللغة، بلْ يمكن القول بأنه عرف كيف يخاطب القارئ العربي بالطريقة التي ترتضيها مسيرة الحضارة ككل والتي نعني بها البساطة والحيوية.

وبهذا، فهو عَلَم الشِّعْر الأشهر في اللغة العربية، لمْ يبلغ أحد من شعرائها مبلغه من الشهرة في حياته ولا بعد مماته، أو -كما قال عنه ابن رشيق: هو «الشَّاعر الذي ملأ الدنيا وشَغَلَ الناس»! فقد شاع ديوانه -وهو بقيد الحياة- بين أرجاء الدولة الإسلامية من أقصى المشرق في فارس إلى أقصى المغرب في الأندلس، واحتفل أئمة اللغة بدرسه وتفسيره وتصحيح الأقوال في نقده، فلمْ يهمله مشتغل بالشِّعر من كبار النحاة واللغويين، منذ القرن الرابع إلى هذا العصر الأخير، وأقبل الناس على حفظ شعره وروايته إقبالهم الذي لا سلطان عليه للولاة ولا للمحكِّمين في الأدب من العلماء والنقاد. فكان «ابن العميد» وهو أديب ذو ولاية، ينقم عليه هذه الشهرة، ويشكو ضعف الحيلة في إخمال ذكره، والغض من قدره، قال بعض صحبه: «دخلتُ عليه يوماً فوجدته واجماً، وكانت قد ماتت أخته عن قريب، فظننته واجماً لأجلها. فقلتُ: لا يحزن الله الوزير، فما الخبر؟ قال: إنه ليغيظني أمر هذا «المتنبي» واجتهادي في أن أخمل ذكره، وقد ورد عليَّ نيف وستون كتاباً في التعزية ما منها إلاَّ وقد صدر بقوله:

طوى الجزيرة، حتى جاءني نبأ ... فزعتُ فيه بآمالي إلى الكذبِ

حتى إذا لم يدعْ لي صِدْقه أملاً ... شرقتُ بالدمع حتى كاد يشرق بي

فكيف السبيل إلى إخمال ذكره؟ قلت: القدر لا يُغالَب، والرجل ذو حظ من

إشاعة الذكر، واشتهار الاسم، فالأولى ألاَّ تشغل فكرك بهذا الأمر.

وليس الأمر للحظ، كما قال صاحب «ابن العميد» فإن أسبابه غير خفية في عصر الرجل وفي كفايته لتلك الشهرة، وكان سعي الأمراء إلى اكتساب مديح الشَّاعر المشهور أشدّ من سعي الشعراء إلى اكتساب جوائز الممدوحين! أو كما يقول العقاد: لقد ارتضى هؤلاء الأمراء من هذا الشَّاعر ما لم يكن يرتضيه ممدوح من مادح، في زمانه ولا قبل زمانه!

وحُقَّ للمتنبي أنْ يقول لممدوحه:

أجزني إذا أُنْشِدْتَ شعراً، فإنما بشعري أتاكَ المادحون مُردّدا

وقيل: إنَّ الأمير «طاهر بن الحسين» أقامه في مكانه، وجلس بين يديه ليستمع إلى مديحه فيه، وكان أكبر ما يخشاه الأمير منهم أن يتخطَّاه الشَّاعر فلا يقصد إليه، ولا يمدحه كما مدح أنداده، فقصدوه بالدعوة قبل أن يقصدهم بالمديح!

وليس هناك شاعر يمكن أن يكتب له هذا الخلود وتلك الشهرة الذائعة كما حدث للمتنبي، فهو أكثر الشعراء انفعالاً، وأحدّهم عاطفة، وأبعدهم تفكيراً، وأسدّهم رأياً، وأكثرهم ضرباً للحكمة والمثل، بالإضافة إلى أنه أشدّهم اتصالاً بالنفس الإنسانية في كافة حالاتها، وهناك من أرجع أسباب شهرته وعوامل خلوده إلى غلبة التشاؤم والحزن على شعره، والغناء الحار للبطولة، وحسن تعبيره عن طموحه واعتداده بنفسه.

على حين يرى العقاد «أن سبباً واحداً كان له نصيب في شهرة أبي الطيب، لم يكن لسبب آخر؛ هو الطبع العربي الذي أعانه على تمثيل أبناء قومه كما نقول في مصطلح العصر الحديث، فإنه عبر عن ذلك الطبع العربي أصدق التعبير في زمن «التنبه والحساسية القومية» وجاء تعبيره عن عالمه، حيث يشيع التعبير وتتجاوب أصداؤه في النفوس والخواطر قبل الألسنة والأقلام، لأنه كان يعبر عن العبقرية العربية في

معترك الحياة العملية، وهو جانب من حياة الأمة أقرب إلى الحس وأدعى إلى السيرورة بين أبنائها من كل جانب آخر تنطوي عليه عبقريتها، فقد كان البحتري والمعري عربيَّيْن يمثلان تلك العبقرية أحسن التمثيل، هذا في جانب الذوق الفني وهذا في جانب الفكر والتأمل، ولكنهما جانبان لا يحيطان بحياة أبناء الأمة كما يحيط بها جانب الحكمة العملية أو جانب الواقع الذي يشترك فيه الشاعر بحسه وخلقه وفكره، ويتلاقى فيه مع كل مشارك له من أبناء قومه، وفي سليقته ومنطق عقله ولسانه».

لذلك؛ فإن مثل أبي الطيب المتنبي لا تقف ولا تنتهي أبداً عنده الدراسات والأبحاث، فهو الشاعر الذي ارتفع بمستوى الإبداع الشعري في أسمى درجاته، وشغل الناس به طيلة هذه القرون ولا يزال .. وقد أعينت السليقة في «المتنبي» بمدد وافر من التعلم والصناعة، فكان أوسع الشعراء في زمانه معرفة باللغة وآدابها، وبالثقافة الأجنبية التي انتقلت إليها، وبُولِغَ في ذكائه وقدرته على الحفظ، وقيل: إنه كان يحفظ ديواني «أبي تمام» و«البحتري» وإنه جمع شعر ابن الرومي كله، وجمع غيره من شعر النوابغ المهملين المتقدمين على زمنه، وأضاف إلى علمه باللغة علماً بالفلسفة وأقوال المتكلِّمين والمعتزلة، كما يظهر من معانيها المتفرقة في قصائده الكثيرة.

وثمة سؤال يطرح نفسه بقوة كلما ذُكِرَ هذا الشاعر .. وهو: هل تنبأ أبو الطيب؟!

قيل: إنه آنس من نفسه قدرة يطمح بها إلى دعوى النبوة وهو في نحو العشرين، ولعل ظاهرة ادعاءه النبوة حيّرت القدماء والمحدثين!

فهناك فئة قبلت ادعاء النبوة كالبغدادي، وابن خلكان، والسمعاني، والبديعي، والخطيب البغدادي.

وهناك فئة متحفظة لم تستبعدها كالثعالبي، الذي ذكر أمر تنبئه كرواية لا يتحمل مسؤوليتها، وأورد قصة خروجه طمعاً في السلطان. ويشاطره في هذا الرأي عباس

العقاد -أيضا- الذي يقول: لا يبعد أن يكون الرجل قد فعلها في دفعة الصبا والغرور، لأنه نشأ في عصر المغامرات في طلب الرياسة ديناً ودنيا، وشهد بعينه من الفتن الدينية على عهد القرامطة ما يوسوس للطامع على غراره بتجربة حظه في إحدى مغامراتها .. فإن كانت هذه الغواية أمراً لا يستبعد من الرجل في دفعة صباه وغروره، فلنذكر كذلك أن افتراءها غير بعيد على خصومه، وأن العلاَّمة «ابن جني» ربما كان قد ذكر الصواب حين قال: إنه لُقِّبَ بالمتنبي بقوله:

أنا في أُمة تداركها الله … غريبٌ «كصالحٍ» فيثمود

ما مقامي بأرض نخلة … إلاَّ كمقام «المسيح» بين اليهود

أمَّا الفئة الثالثة: وهي فئة معارضة تُنكِر على المتنبي أمر تنبئه، ومنهم المعري، وابن جِنِّي، والجرجاني، والرافعي، وطه حسين، ومحمود شاكر، وعبد الوهاب عزام، ومصطفى الشكعة،هذا إلى جانب كثير من المستشرقين أمثال: بلاشير، وبروكلمان، وماسينون .. وغيرهم.

والذي نراه في هذا الصدد، أن هذه فرية حيكتْ له من خصومه الألدّاء الذين كانوا لا يغفلون عن مناوأته، ولا يكفّون عن محاربته، ولا ينامون عنالكيد له، والعمل على تشويه محاسنه، وانتحال العيوب له، فقد عاش عمره كله يعاني منهم ويحتمل من شرورهم ويشكو أذاهم .. بسبب تعاليه على الأقران، وزعمه في نفسه أن الله قد ميزه عن المعاصرين له، وخصَّه بشيء من الفضل على سواه، واعتقاده أن شعره آيات محكمات يرويها الدهر، ويحفظها التاريخ،ويزدان بها جِيد الزمن، وتنتشي برحيقها الدنيا، وأثر هذا الترفُّع واضح في شعره حيث يقول:

ما نال أهلُ الجاهليةِ كُلّهم … شِعْري ولا سمعتْ بسحري بابلُ

وإذا أتتكَ مَذمّتي من ناقصٍ … فهي الشهادةُ ليبأنّي كاملُ

وقوله:

سيعلمُ الجمعُ مِمّنْ ضمَّ مجلسنا ... بأنّني خيرُ من تسعى بهِ قَدَمُ !

أمّا أشهر قصائده -في باب المعارضة- وأكثرها تداولاً بين شداة الأدب وعشّاقه؛ هي التي وصم بها كافور الإخشيدي، ولم تستطع الليالي والأيام أن تمحوها من ذاكرة التاريخ، والتي هجاه بها في يوم عرفة قبل مسيره من مصر بيوم واحد سنة خمسين وثلاثمائة:

عِيدٌ بأيّة حالٍ عُدْتَ يا عِيدُ؟!

عيدٌ بأيّةِ حالٍ عُدتَ يا عيدُ ... بَما مَضَى أمْ لأمْرٍ فيكَ تجْديدُ
أمّا الأحِبّةُ فالبَيْداءُ دونَهُمُ ... فَلَيتَ دونَكَ بِيداً دونَهَا بِيدُ
لَوْلا العُلَى لم تجُبْ بي ما أجوبُ بهَا ... وَجْنَاءُ حَرْفٌ وَلا جَرْداءُ قَيْدودُ
وَكانَ أطيَبَ مِنْ سيفي مُعانَقَةً ... أشْباهُ رَوْنقه الغِيدُ الأمَاليدُ
لمْ يَتْرُكِ الدّهْرُ مِنْ قَلبي وَلا كبدي ... شَيئاً تُتَيّمُه عَينٌ ولا جِيدُ
يا سَاقِيَيَّ أخَمْرٌ في كُؤوسِكُما ... أمْ في كُؤوسِكُما هَمٌّ وَتَسهيدُ؟
أصَخْرَةٌ أنَا، ما لي لا تحَرّكُني ... هَذِي المُدامُ ولا هَذي الأغَارِيدُ
إذا أرَدْتُ كُمَيْتَ اللّوْنِ صَافِيَةً ... وَجَدْتُهَا وَحَبيبُ النّفسِ مَفقُودُ
ماذا لَقيتُ منَ الدّنْيَا وَأعْجَبُهُ ... أنّي بمَا أنَا شاكٍ مِنْهُ محْسُودُ
أمْسَيْتُ أرْوَحَ مُثْرٍ خَازِناً وَيَداً ... أنَا الغَنيّ وَأمْوالي المَواعِيدُ
إنّي نَزَلْتُ بكَذّابِينَ، ضَيْفُهُمُ ... عَنِ القِرَى وَعَنِ التّرْحالِ محْدُودُ
جُودُ الرّجالِ من الأيدي وَجُودُهُمُ ... منَ اللّسانِ، فَلا كانوا وَلا الجُودُ
ما يَقبِضُ المَوْتُ نَفساً من نفوسِهِمُ ... إلاّ وَفي يَدِهِ مِنْ نَتْنِهَا عُودُ
مِنْ كلّ رِخْوِ وِكَاءِ البطنِ مُنْفَتِقٍ ... لا في الرّجالِ ولا النّسوانِ معدودُ
أكُلّما اغتالَ عَبدُ السّوْءِ سَيّدَه ... أوْ خانَهُ فلَهُ في مصرَ تَمْهِيدُ
صارَ الخَصِيُّ إمامَ الآبِقِينَ بِهَا ... فالحُرّ مُسْتَعْبَدٌ والعَبْدُ مَعْبُودُ

نامَتْ نَواطيرُ مِصر عَنْ ثَعالِبها ... فَقَدْ بَشِمْنَ وما تَفنى العَناقيدُ
العَبْدُ لَيْسَ لِحُرٍّ صَالِحٍ بِأَخٍ ... لَوْ أَنَّهُ في ثِيابِ الحُرّ مَوْلودُ
لا تَشْتَرِ العَبْدَ إلاَّ والعَصَا مَعَهُ ... إنّ العَبيدَ لأنْجاسٌ مَناكِيدُ
ما كُنتُ أَحْسبُني أَحْيا إلى زَمَنٍ ... يُسيءُ بي فيهِ عَبْدٌ وَهْوِ مَحْمُودُ
ولا تَوَهمتُ أنّ النّاسَ قَدْ فُقِدُوا ... وَأنّ مِثْلَ أبي البيَضْاءِ مِوْجودُ
وَأنّ ذا الأَسْوَدَ المَثْقوبَ مِشْفَرُهُ ... تُطيعُهُ ذي الغضاريطُ الرّعايدُ
جوْعانُ يأكُلُ مِنْ زادي ويمُسِكني ... لِكَيْ يُقالَ عظيمُ القَدرِ مُقْصُودُ
إنّ إمرأً أمَةٌ حُبْلى تُدبّرهُ ... لمُستضامٌ سخينُ العيْنِ مفؤودُ
وِيْلُمّهَا خُطّةً وَيْلُمّ قَابِلِهَا ... لِمِثْلِها خُلِقَ المَهْرِيَّةُ القُودُ
وعِنْدَها لَذَّ طَعْمَ الموت شَارِبُهُ ... إنّ المَنِيّةَ عنْدَ الذّلّ قِنْديدُ
مَنْ عَلّمَ الأَسْوَدَ المَخصِيّ مكرُمَةً ... أَقَوْامُه البِيضُ أمْ آباؤه الصِّيدُ
أمْ أذْنُه في يَدِ النّخّاسِ دامِيَةً ... أمْ قَدْرُه وَهْوَ بالفَلْسَينِ مَرْدودُ
أوْلى اللّئام كُوَيْفِيرٌ بمَعْذِرَةٍ ... في كلّ لُؤمٍ، وَبَعضُ العُذرِ تَفنيدُ
وذَاكَ أنّ الفُحُولَ البِيضَ عاجِزَةٌ ... عنِ الجَميلِ فكَيفَ الخِصْيةُ السّودُ؟

هجاء (نوبار)!

يعد (محمود سامي البارودي) أحد الشعراء الفرسان الذين أنجبتهم الأُمَّة، كعبد الله بن رواحة، وأبي فراس الحمداني، وأسامة بن منقذ، وغيرهم .. فقلّما نجد شاعراً اعتزَّ بنفسه وفنّه ورسالته في الحياة، مثل (البارودي).

فقد تغنَّى بحب مصر كثيراً، ووصف من جمالها ما لم يسبقه إليه أحد، وقد صوّر هذا الجمال في دقة تدل على إخلاصه وصدق محبته. وهناك كثير من غير المصريين الذين عاشوا في مصر فكانوا أكثر حُباً وولاءً، وأشدّ حميّة وفداءً من أبنائها الأصليين .. فلا أحد ينسى الشاب السوري «سليمان الحلبي» الذي كان يدرس في الجامع الأزهر، والذي خلّدتْ مصر اسمه في سجل الخالدين، بعدما طعن الجنرال «كليبر» القائد الثاني للحملة الفرنسية، ثأراً لمصر وشعبها.

أيضاً، أمير الشعراء «أحمد شوقي» الذي ينحدر من أصول شركسية، فقد تغنى بمصر غناءً حاراً، وأقام لها الدنيا بأسرها في شعره الخالد. كذلك، الأديب الحضرمي «علي أحمد باكثير» الذي أحبَّ مصر حُباً ملك عليه شغاف قلبه، ولعلّ أعماله الأدبية تغنينا عن الشرح والتفصيل.

من قبل هؤلاء جميعاً، عمرو بن العاص ومن رافقوه في مسيرة الفتح الإسلامي، مروراً بصلاح الدين الأيوبي، وسيف الدين قطز، والظاهر بيبرس، حتى نصل إلى محمد علي باشا، وغيره من الذين صنعوا المعجزات على أرض مصر، وصدوا عنها كيد الكائدين.

هذا إنْ دلَّ على شيء؛ فإنما يدل على أن مسألة المواطنة والانتماء، لا تتأصل بالمكاسب الدنيوية، ولا تتأتى بالرشاوى المادية، إنما يصنعها الدين المتين ويعززها

الضمير النابض.

عمل (البارودي) وزيراً للحربية في عهد الخديوي توفيق، ثم أصبح رئيساً للوزراء، وحين قامت ثورة عرابي كان من ضمن ثوارها الكبار، وحين قضى الإنجليز على هذه الثورة حكموا عليه وعلى أحمد عرابي وغيرهما بالنفي إلى جزيرة «سرنديب» الهندية. وعاش البارودي هناك سبعة عشر عاماً، وفي فترة المنفى سجل البارودي قصائده الخالدة، التي يسكب فيها آلامه وحنينه إلى الوطن، ويرثي من مات من أهله وأحبابه وأصدقائه.. ومضتْ أيامه في المنفى ثقيلة، حيث اجتمعتْ عليه العلل والأمراض، وفقدان الأهل والأحباب، فساءت صحته، واشتدتْ وطأة المرض عليه، حتى سُمِحَ له بالعودة بعد أن تنادتْ الأصوات وتعالتْ بضرورة رجوعه إلى مصر، وقد عاد ومكث فيها إلى أن لقي ربه الكريم .. وترك لنا ديواناً شعرياً تزيد عدد أبياته على خمسة آلاف بيت، وقصيدة طويلة عارض فيها البوصيري، أطلق عليها «كشف الغُمّة في مدح سيّد الأُمة». وله أيضاً كتاب «قيد الأوابد» وهو كتاب نثري سجّل فيه خواطره ورسائله بأسلوب مسجوع، فضلاً عن «مختارات البارودي» وهي مجموعة انتخبها الشّاعر من شعر ثلاثين شاعراً من فحول الشعر العباسي، عدد أبياتها ٤٠ ألف بيت.

فسلامٌ على البارودي في الأبطال المجاهدين .. وسلام عليه في الأدباء الصادقين.

نعم .. إنه شاعر مصر الأول، وضمير العروبة والإسلام.

فهو رائد النهضة الشعرية في الوطن العربي كله، وأصل الشجرة الوارفة الظلال التي تفرعتْ من أغصانها دوحة الشِّعْر العربي الحديث. فقد كان يدرك جيداً رسالة الشعر في الحياة، لذلك لا يفتأ يذكرنا بهذه الرسالة، ويلحّ في الفخر بوظيفة الشِّعْر:

للشِّعْر في الدهر حكم لا يغيّره ... ما بالحوادث من نقص وتغيير

يسمو بقومٍ، ويهوي آخرون به ... كالدهر يجري بميسورٍ ومعسور

صحائف لمْ تزل تتلى بألسنةٍ ... للدهر في كل نادٍ منه معمور

فكمْ بها رسختْ أركان مملكةٍ ... وكمْ بها خمدتْ أنفاس مغرور

كتب الدكتور/ محمد حسين هيكل عن البارودي، يقول: «.. وحسب البارودي ديوانه آية لمجده وتراثاً للأجيال بعده، فهذا الديوان تمثال عبقرية خالدة، وهو باق لذلك بقاء الأبد أيّاً كان الشاعر الذي يُنسب إليه. فما بالك وهو صورة صادقة لحياة صاحبه! أوَ تستطيع الفنون مجتمعة أن تقيم تمثالاً يخلّد من هذا الشاعر الملهم ما يخلّده شعره النابض بالحياة وأنغامها، والذي بعث العربية خلقاً جديداً؟ أدع الجواب لأرباب الفنّ ولقرّاء الديوان».

كان البارودي يرى أن الشعر صورة عن صاحبه، وتعبير عن حالته السلوكية، يقول:

إذا شئتَ أنْ تدري خليقة شاعرٍ ... فخذها من الشِّعْر الذي هو قائله

وطالما أن الشِّعر يعبر عن صاحبه، فإنَّ شعر البارودي ينضح بالشعور بالعزة والكرامة التي هي تعبير عن فروسية الشاعر وثقافته:

ومنْ يرضى بالعيش الذليل فإنني ... أعيشُ كما أهوى بصدر حسامي

والحياة الكريمة لا تكون إلاَّ تحت ظلال السيوف، فلا مجد بغير القوة والشجاعة والقتال، ويذهب الشاعر إلى حد تقديس الشجاعة والفروسية، حين يقول:

هو العز أو ترك الحياة فإنها ... حياة الفتى في الذل موت المناقب

وإنّا أُناسٌ لا تهاب نفوسنا ... لقاء الأعادي أوْ قراع الكتائب

لقد كانت (الفروسية) مفتاح شخصية البارودي، فكان يضيق ذرعاً بالصفات الذميمة الراكدة كالكذب والجُبن والخديعة والنفاق، ويفرّ من أصحابها، كفر السليم من الأجرب! فمثلاً نراه في أكثر من موضع يُعرِّض برؤساء الجند الذين تخاذلوا في الثورة العُرابيّة، فيقول:

لأيّ خليـــلٍ في الزمـــان أُرافـــقُ ... وأكثــرُ مــنْ لاقيــتُ خِــبٌّ منــافقُ؟
بلـوتُ بنـي الـدنيا، فلـم أرَ صـادقاً ... فأين-لَعَمْري- الأكرمون الأصادق؟
أضـعتُ زمـاني بـين قـومٍ لـوَ أنّ لي ... بهـم غـيرهم، مـا أرهقتنـي البوائـقُ
معـاشِرُ سـادوا بالنفـاق، ومـا لهـم ... أصـــولٌ أظلّتهـــا فـــروعٌ بواســـقُ
فـأعلمهم عنـد الخصـومة جاهـل ... وأتقـــاهم عنـــد العفـــاف فاســـقُ
فـــلا رحـــمَ الله امـــرءًا بـــاع دينـــه ... بـــدنيا ســـواه وهـــو للحـــق رامـــقُ
فتيّـاً لهـم مـن مـعشر لـيس فـيهمُ ... رشـــيدٌ، ولا مـــنهم خليـــلٌ مُصـــادِقُ
أُســودٌ لـدى الأبيـاتِ بـين نسـائهمْ ... ولكـــنهم عنـــد الهيـــاجِ نَقَـــانِقُ!

للبارودي قصائد وطنية ملتهبة بالحماس، من هذه القصائد تلك التي قالها عندما ساءت الأحوال وانفرط عقد الوزارات المتعاقبة .. وتمّ عزل البارودي، ومجيء وزارة «رياض باشا» التي لم تمكث طويلاً حتى أتتْ وزارة «شريف باشا» ثم تنحية هذه الوزارة، ثم يؤمر البارودي بتشكيل الوزارة! فكتب البارودي قصيدة طويلة هازئاً وساخراً، قيل إنه وجهها إلى الخديوي توفيق، وقيل وجهها إلى إسماعيل:

لكنّنـــا غـــرضٌ لـــلشر في زمـــنٍ ... أهـل العقـول بـه في طاعـة الحمـل
قامـتْ بـه مـن رجـال السوء طائفة ... أدهى على النفس من بؤس على ثكل
ذلّتْ بهم مصر بعد العزّ واضطربتْ ... قواعـد الملـك حتـى ظـل في خلـل
وأصـبحت دولـة الفسـطاط خاضـعة ... بعـد الإبـاء وكانـت زهـرة الـدول

....

بئسَ العشـير وبئسـتْ مصر من بلـدٍ ... أضحتْ مناخاً لأهـل الـزور والخطل
أرضٌ تأثّـل فيهـا الظلـم وانقـذفتْ ... صـواعق الغـدر بـين السـهل والجبـل

....

لمْ أدرِ ما حلّ بالأبطال من خورٍ بعد المراس وبالأسياف من فَلَلِ
أخنى الزمان على فرسانها فغدتْ من بعد منعتها مطروقة السبل

ومن القصائد التي بدتْ فيها شدة المعارضة، تلك التي هجا بها (نوبار باشا)– ولا ندري لماذا اختفت هذه القصيدة من ديوان البارودي؟! و«نوبار» هو رجل أرمني الأصل، كانت له صلة قرابة بـ«بوغوص» و«إرتين»– وزيريْ محمد علي باشا، دعاه الأول إلى مصر، فعمل في الترجمة ... وهذا هو نص قصيدة البارودي:

هجاء نوبار !

وصالُكَ لي هَجْرٌ، وهجركَ لي وَصْلُ فزدني صدوداً ما استطعتَ، ولا تألُ
إذا كان قُربي منكَ بُعداً عن المنى فلا حُمّتِ اللُّقيا، ولا اجتمعَ الشَّمْلُ
وكيف أودُّ القربَ من متلوّنٍ كثير خبايا الصدر، شيمته الختلُ
فليتَ الذي بيني وبينك ينتهي إلى حيثُ لا طَلْحٌ يرفُّ ولا أثلُ
خبثتَ، فلو طُهّرتَ بالماء لاكتسى بك الماءُ خُبثاً لا يحلُّ به الغَسْلُ
فوجهك منحوسٌ، وكعبكَ ساقلٌ وقلبكَ مدغولٌ، وعقلكَ مُختلٌّ
بكَ اسودّتِ الأيام بعد ضيائها وأصبح نادي الفضل ليس به أهلُ
فلو لم تكن في ... ما انقضّ حادثٌ بقوم، ولا زلّتْ بذي أملٍ نَعْلُ
فما نكبةٌ إلاَّ وأنت رسولها ولا خيبةٌ إلاَّ وأنت لها أصلُ
أذُمُّ زماناً أنت فيه، وبلدةً طلعتَ عليها، إنهُ زمنٌ وَغْلُ
ذِمامُكَ مخفورٌ، وعهدك ضائعٌ ورأيك مأفونٌ، وعقلك مُختلٌّ
مخازٍ لوْ أن النجم حُمّلَ بعضها لعاجله من دون إشراقهِ أفْلُ
فسرْ غير مأسوفٍ عليك، فإنما قصارى ذميم العهد أن يُقطع الحبلُ

الشَّاعر الغاضِب!

شاعرنا الكبير (حافظ إبراهيم) المعروف بـ«شاعر النيل» عاش حياته غاضباً من كل شيء حوله، بسبب فساد المجتمع، وتردِّي الأوضاع السياسية والاجتماعية .. بالرغم من أنه عاش في زمن كان المرء فيه يجد على الحق أعواناً .. فعصره كان يضم رجالاً أكفاءً، أمثال: الإمام محمد عبده، ومصطفى كامل، وعبد الله النديم، والشيخ سليم البشري، وغيرهم .. فهؤلاء رافقهم -شاعرنا- وجلس إليهم، واستمع إلى خطبهم ودروسهم، ووجد ضالته عندهم، فاستلهم آراءهم، وسار على نهجهم، واكتسب منهم أجمل المعاني، وأرقى المبادئ والقيم، كالشجاعة، والوطنية، والعصامية .. فما أجلّها من قيم ومواريث، وما أحوج الناس إليها في دينهم ودنياهم. فلو توافرتْ هذه الأخلاقيات بين البشر، لما تاهَ الناس في فلوات التيه والضلال، وما عمَّ الظلم والاستبداد، وما أصابهم من الذل والقنوط واليأس ما أصابهم.

عندما أُلْحِقَ (حافظ إبراهيم) بسلاح المدفعية بالسودان، تبرّم وضاق ذرعاً بالعيش هناك، فأرسل كتابيْن إلى الإمام محمد عبده يشكو فيهما سوء حاله، وأنه حلّ حلول «الكليم» في التابوت، و«المغاضِب» في جوف الحوت بين الضيق والشدة، والوحشة والوحدة .. لا بلْ حلول الكافر في يوم الحساب بين ناريْن: نار القيظ، ونار الغيظ. فاستنجد بالإمام ليتوسط لدى المسئولين لنقله إلى القاهرة.

لَمَّا عاد إلى مصر ازدادت صلته بالإمام توثقاً، فكان يجالسه كثيراً في دروسه، وكان الإمام دائماً يعطف عليه ويمده بما يحتاج. وقد روى العقاد نقلاً عن حافظ إبراهيم نفسه أن الإمام محمد عبده تسلّم من حافظ أكثر نسخ قصة «البؤساء» بعد

صدور الجزء الأول، ثم أسلم حافظ من ثمنها ما يكفيه سنوات! لولا أن رزق السنوات -كما يقول العقاد- لا يتجاوز في يدي حافظ مدى الشهور، وظل عائشاً في كنفه وبره خمس سنوات قلّما كان يفارق مجلسه فيها، فأفاد منه علماً وخُلُقاً وإدراكاً صحيحاً لشئون الحياة، كما أفاد من مجلسه التعرف إلى عظماء مصر وكبار رجالاتها وقادة الرأي فيها أمثال: مصطفى كامل، ومحمد فريد، وسعد زغلول، وقاسم أمين، وغيرهم من زعماء السياسة والفكر والأدب.

لكن المثل الأعلى لحافظ هو «محمود سامي البارودي» رأس المدرسة الكلاسيكية الجديدة وباعث النهضة الشعرية وكان حافظ يدعوه بـ«أمير القوافي» ويرى نفسه تلميذه وفتاه، فتطاول طموحه منذ أخذ في نظم الشّعر إلى مقام البارودي. وهناك بواعث كثيرة قربت بينهما؛ فحافظ قد اختار حياة الجندية كما اختارها البارودي من قبله، وحافظ كان مفطوراً كصاحبه على إيثار الجزالة والإعجاب بالصياغة والفحولة في العبارة.

من هنا كان حافظ إبراهيم أقرب إلى «التراثية» من شوقي، بينما كان شوقي أقرب إلى «التجديدية» والتأثّر بالثقافات الأجنبية من حافظ، فوجد حافظ في العبارة القرآنية المثل الأعلى في التراثيات فطعّم بها شعره .. أوْ كما قال العقاد: «كان مفطوراً بطبعه على إيثار الجزالة والإعجاب بالصياغة والفحولة في العبارة».

كان حافظ من أشد الشعراء حرصاً على اختيار اللفظ وتذوق الجرس الذي يقع في أذنه وفي نفسه حين يختاره، وكان حريصاً على أن تكون ألفاظه فخمة تحرك المشاعر وتثير العواطف، وكان أشد ما يكون حرصاً على ذلك في مطالع قصائده، وقد وجد في الكلمة القرآنية والأسلوب القرآني مثله الأعلى الذي يُغذّي هذا الطابع لديه، ولعلّ هذا كان ثمرة من ثمار مجالسته وحضوره دروس الإمام محمد عبده، إذْ يقول حافظ: «فقد كنتُ ألصق الناس بالإمام، أغشى داره وأرِد أنهاره وألتقط

ثماره ...». فاستعمل -شاعرنا- ألفاظ القرآن ليجذب بها القلوب ويتصيّد بها المشاعر لما لها في الأسماع من نغم محبوب جذاب.

لكن، مهما تحدث المتحدثون، ومهما كتب الكاتبون، عن الصفات النادرة والشمائل الجميلة التي اتسم بها (شاعر النيل) فلا أحد يستطيع أن يغفل شجاعته وجرأته، فلا يجاريه أديبٌ في إقدامه وشجاعته، وذلك في مختلف أطوار حياته ومواقفه. هذا هو السبب الذي غاب عن كثير من الناس في سرّ العلاقة المتينة التي ربطت العقاد بحافظ إبراهيم .. فكلاهما كانا يتسم بـ(العصامية) وهذه الصفة لا يقدر عليها إلاّ أولو العزم من الرجال.

فهؤلاء عاشوا كراماً، لمْ يتسلّقوا مع المتسلّقين، أوْ يرقصوا مع الراقصين! بلْ عُرِضَتْ عليهم المناصب الرفيعة فرفضوها، وأداروا لها ظهورهم، في سبيل أن يقولوا كلمتهم غير مكترثين بجاه أوْ سلطان .. وذلك عكس كثير من أدباء هذا الزمان الذين يتاجرون بقضايا أوطانهم وأمتهم، ويُسوِّقون النظريات الفاسدة باسم «الاشتراكية» و«العلمانية» و«الحداثة» و«التنوير» و... ويَصعدون بالرشاوى والكذب والعمالة، بلْ يصعدون على أكتاف الضعفاء، وجماجم الموتى، ويبيعون آخرتهم من أجل عرض زائل، وسراب خادع!

من مواقف «حافظ» السياسية؛ أنه حمل على السلطان التركي عبد الحميد حملة شعواء، وأسرف في هجائه إسرافاً شديداً، بسبب ضعفه وترهل كيان الأمة في عهده، فقال في هجائه:

بُـيحَ حِماهـا وانطـوى مجـد ربهـا	وقامت على البيت الحميدي نوائبه
ولمْ يغنِ عن عبد الحميد دهاؤه	ولا عصمتْ عبد الحميد تجاربه
ولمْ يحمهِ حصنٌ ولم ترمِ دونه	دنانيره والآمر بالآمر حاز به
ولمْ يخفهِ عن أعين الحق مخدعٌ	ولا نفق في الأرض جم مساربه

وأصبح في منفاه والجيش دونه يغالب ذكرى ملكه وتغالبه
يناديه صوت الحق ذقْ ما أذقتهم فكل امرئ رهنٌ بما هو كاسبه

....

مضى عهد الاستبداد واندكَّ صرحه وولّتْ أفاعيه وماتتْ عقاربه

كما حمل حافظ بشدة على كثير من البدع والضلالات التي تسيء إلى الدين، حمل أيضاً بشدة على صنف من العلماء والفقهاء الذين لمْ يراعوا قيمة العلم وقداسة الفقه، فسلكوا طريق النفاق والكذبْ والفتن والوقيعة في سبيل تحقيق أهداف وغايات دنيا، فيقول:

كمْ عالمٍ مدّ العلوم حبائلاً لوقيعةٍ وقطيعةٍ وفراقِ
وفقيه قومٍ ظل يرصد فقهه لمكيدةٍ أو مستحل طلاق
يمشي وقدْ نُصبت عليه عمامة كالبرج لكن فوق تل نفاق!
يدعونه عند الشقاق وما دروا أن الذي يدعون شقاق

تظهر وطنية حافظ في مناوأته للظلم والظالمين، فالظلم هو شر الظلمات وأبعدها أثراً في المجتمعات، فالظالمون لا يرعون حق المواطنة، ولا حق الدين، فعلى أيديهم يخرب الوطن ويدمر بنيانه، ويسلطون جورهم على أبناء وطنهم وأبناء دينهم، وفي ذلك يقول حافظ:

لحى الله عهد القاسطين الذي به تهدّم من بنياننا ما تهدما
إذا شئت أن تلقى السعادة بينهم فلا تكُ مصرياً ولا تكُ مسلما
سلام على الدنيا سلام مودّع رأى في ظلام القبر أُنساً ومغنما

في أشعاره يتغنَّى حافظ برأي الجماعة الذي يعتمد على قاعدة الشورى، فهي سرّ سعادة الأمم، أمّا الانفراد بالرأي والاستبداد به، فيجلب لها الشقاء والخراب:

رأيُ الجماعة لا تشقى البلاد به رغم الخلاف ورأيُ الفرد يشقيها

ويفصّل حافظ ملامح الشورى ويعدّد فضائلها، فيقول:

الفضل للشورى وتلك هي التي ... تزع الهوى وترد كل جماع

هي لا تضل سبيلها فكأنما ... خلق السبيل لها بغير نواحي

هي لا براح ترد كيد عدوكم ... وتفل غرب الغاصب المجتاح

فتكنفوا الشورى على استقلالكم ... في الرأي لاتوحيه نزعة واحي

ويد الإله مع الجماعة فاضربوا ... بعصا الجماعة تظفروا بنجاح

لحافظ إبراهيم عدد كبير من القصائد الساخطة على الأوضاع الاجتماعية والسياسية في مصر، يكشف فيها عن مدى الفساد والانحلال الذي أصاب كيان الأمة، وأوهى عزيمتها، وأذل فرسانها .. فكأنما -شاعرنا- يتحدث عن أيامنا هذه، فلا تغيير ولا تبديل، إلاّ في الأسماء والألقاب، بلْ حتى الأسماء تتكرر مرة أخرى بمرور الليالي والأيام. فاستمع إلى -حافظ- من قصيدة في شؤون مصر السياسية، قالها في عهد وزارة إسماعيل صدقي باشا .. وقد نظمها حافظ بعد إحالته إلى المعاش في سنة ١٩٣٢ وكانت تبلغ نحو مائتي بيت لمْ نعثر منها إلاَّ على هذه الأبيات:

قَدْ مَرَّ عامٌ يا سُعادُ وعامُ ... وابنُ الكِنانَةِ في حِماهُ يُضَامُ

صَبُّوا البَلاءَ على العِبادِ فنِصْفُهُمْ ... يَجْبِى البِلادَ ونِصْفُهُمْ حُكّامُ

أَشْكُو إلى (قَصْرِ الدُّبارَةِ) ما جنى ... (صِدْقِي الوَزِيْر) وما جَبَى (عَلامُ)

ثم ينتقل في الحديث مخاطباً الإنجليز:

قُلْ للمُحايِدِ هَلْ شَهِدتَ دِماءَنا ... تَجْرِي وهَلْ بَعْدَ الدِّماءِ سَلامْ؟

سُفِكَتْ مَوَدَّتُنَا لَكُمْ وبَدَا لَنَا ... أَنّ الجِيادَ على الخِصامِ لِئامُ

إنّ المَراجِلَ شَرُّها لا يُتَّقَى ... حتّى يُنَفِّسَ كَرْبَهُنَّ صِمامُ

لَمْ يَبْقَ فِينا مَنْ يُمَنِّي نَفْسَه ... بِوِدادِكُمْ فَوِدَادُكُمْ أحْلامُ

أَمِنَ السِّياسَةِ والمُرُوءَةِ أَنّنا ... نَشْقَى بُكُم في أَرْضِنَا ونضامُ؟

إنّـــا جَمَعْنـــا للجهـــادِ صُـــفُوفَنا ‌‌ ‌ سَـــنمُوتُ أَوْ نَحْيَـــا ونَحْـــنُ كِـــرامُ

ويختتمها مخاطَباً إسماعيل صدقي باشا:

ودَعَـــا عليـــكَ اللهَ في مِحْرابِـــهِ ‌ ‌ ‌ الشـــيْخُ والقِسِّـــيسُ والحاخـــامُ

لا هُـــمَّ أَحْـــي ضَـــمِيرَهُ ليَـــذُوقَها ‌ ‌ ‌ غُصَصًـــا وتَنْسِـــفَ نَفْسَـــهُ الآلامُ

خاتمة رياض باشا!

لقد كان من حظ الشِّعْر العربي أن يُرزَق بشاعرٍ كبير كـ(أحمد شوقي) ولولا - هذا الأمير - لحلَّ بالشّعر نقصان كبير، ولخَسِر الأدب خسارة فادحة.

ولِمَ لا؟! فهو المبدع المتعدّد المواهب الذي كتب في جميع الأغراض، ومختلف الألوان، وشتى القضايا .. حتى خلعوا عليه كثيراً من الألقاب والكنى؛ كشاعر مصر، وشاعر الإسلام، والشاعر المسرحي، ومادِح الرسول ﷺ، وأمير الشعراء. كما يُصنَّف شِعره -كذلك- بمسميات عديدة؛ كإسلاميات شوقي، وطنيات شوقي، أندلسيات شوقي، مدائح شوقي، ديوان شوقي للأطفال، مسرحيات شوقي، معارضات شوقي، مناسبات شوقي، غزليات شوقي، وغيرها.

بلغت بعض قصائده مائة بيت أوْ يزيد، من الشّعر الراقي الذي خاض به كل مجالات الحياة، كالقضايا الوطنية، والتحريض على الجهاد، ومحاربة المستعمرين، وتسجيل آثار ومعالم مصر والعالم العربي والإسلامي، فضلاً عن الأشعار الدينية، إلى غير ذلك.

لمْ يكن القصر الذي عاش شوقي في حِماه، يمنعه يوماً من الوقوف إلى جانب الشعب والجماهير المطالبة بالحرية والكرامة وسيادة الدستور، ومنازلة الإنجليز ومقاومتهم بكل الحيل والوسائل، ولمْ يدعْ مناسبة إلاَّ وحرّض الشباب على الجهاد، والمطالبة بجلاء الاستعمار:

يا مصرُ أشبالُ العرين ترعرعتْ	ومشتْ إليكِ من السجون أُسودا
طلبوا الجلاءَ على الجهاد مثوبةً	لم يطلبوا أجْر الجهاد زهيدا
والله ما دون الجلاءِ ويومِه	يومٌ تسميهِ الكنانةُ عيدا

وجـد السـجينُ يـداً تحطّـمُ قيْـدهُ مـــن ذا يحطـــمُ للـــبلاد قيـــودا
يـا فتيـة النيـل السـعيد خـذوا المدى واســـتأنِفوا نفـــسَ الجهـــادِ مديـــدا

ولمْ تكن مصر وحدها التي تشغل فؤاد أمير الشعراء، بلْ وجّه قصائده إلى جميع الثوّار في العالم العربي والإسلامي، كيّ يضحوا بكل ما استطاعوا في سبيل تخليص أوطانهم من قبضة الاستعمار .. ففي أثناء نكبة دمشق، صدح شوقي بقصيدة ردّدها وراءه العالم العربي كله:

ســـلامٌ مـــن صـــبا (بَـــردى) أرَقّ ودمـــعٌ لا يُكَفْكَـــفُ يـــا دمشـــقُ
دَمُ الثّـــوّار تعرفـــه فرنســـا وتعلـــم أنـــه نـــورٌ وحـــق
بـــلادٌ مـــات فتيتُهـــا لتحْيـــا وزالـــوا دون قـــومهم ليبقـــوا
نصـــحتُ ونحـــن مُختَلِفـــون داراً ولكـــن كلنـــا في الهـــم شرق
وللأوطـــان في دم كـــل حُـــر يـــدٌ ســـلفتْ ودَيْـــنٌ مســـتحق
ومـــن يســـقي ويشرب بالمنايـــا إذا الأحـــرارُ لم يُسْـــقوا ويَسْـــقوا؟
ولا يبنـــي الممالـــك كالضـــحايا ولا يُـــدني الحقـــوقَ ولا يُحِـــق
وللحريـــة الحمـــراء بـــابٌ بكـــل يـــدٍ مضرّجـــةٍ يُـــدَقُّ
جـــزاكم ذو الجـــلال بنـــي دمشـــقٍ وعِـــزُّ الشرق أوّلُـــهُ دمشـــق

لعلَّ من شواهد الوطنية التي ميزت شوقي، مهاجمته الشديدة لصنيعة الإنجليز «رياض باشا» رئيس وزراء مصر وقتئذ، الذي ألقى خطاباً في افتتاح مدرسة محمد علي الصناعية سنة 1904 وتملّقه اللورد كرومر، الذي كان حاضراً في هذه المناسبة فنحى عليه (شوقي) باللائمة وسَمّاه «خَطْباً لا خطِيباً» لَمَّا أثنى على الإنجليز، وكفر بنعمة مصر عليه!

***

خاتمة رياض!

كبيرَ السابقينَ مِنَ الكرامِ ... برَغْمي أنْ أنالكَ بالملامِ
مقامُكَ فوقَ ما زعموا، ولكنْ ... رأيتُ الحقَّ فوقكَ والمقامِ
لقدْ وجدوكَ مفتوناً، فقالوا ... خرجتَ منَ الوقارِ والاحتشامِ
وقالَ البعضُ: كيدُكَ غيرُ خافٍ ... وقالوا: رَمْيةٌ منْ غيرِ رامِ
وقيلَ: شَطَطْتَ في الكفرانِ، حتى ... أرَدْتَ المُنْعِمينَ بالانتقامِ
غَمَرْتَ القومَ إطْراءً، وحَمْداً ... وهُمْ غمروكَ بالنِّعَمِ الجِسامِ
رأوا بالأمسِ أنفكَ في الثُّرَيّا ... فكيفَ اليومَ أصبحَ في الرَّغامِ؟
أمَا واللهِ ما علِموكَ إلاَّ ... صغيراً في ولائكَ، والخصامِ
إذا ما لمْ تكنْ للقولِ أهْلاً ... فما لَكَ في المواقفِ والكلامِ؟
خطبْتَ فكنتَ خَطْباً -لا خطيباً- ... أُضيفَ إلى مصائبنا الْعِظامِ
لَهِجْتَ بالاحتلالِ وما أتاهُ ... وجُرحُكَ منهُ -لوْ أحْسَسْتَ- دامي
وما أغناه عمّنْ قالَ فيهِ ... وما أغناكَ عنْ هذا التَّرامي
أحَبَّتْكَ البلادُ طويلَ دهْرٍ ... وذا ثَمَنُ الولاءِ والاحْتِرام
حَقَرْتَ لها زِماماً كُنْتَ فيهِ ... لَعُوباً بالحكومةِ والذِّمام
محاسنهُ غِراسُكَ والمَساوي ... لَكَ الثَّمرانِ: مِنْ حَمْدٍ، وذام
فهلاّ قُلْتَ للشُّبّانِ قولاً ... يليقُ بحافلِ الماضي الهُمام
يَبُثُّ تجاربَ الأيامِ فيهمْ ... ويدْعو الرابضينَ إلى القيام

***

خَطَبْتَ على الشَّبيبةِ غَيْرَ دارٍ ... بأنكَ مِنْ مشيبكَ في منام
ولولا أنَّ للأوطانِ حُبّاً ... يُصِمُّ عنِ الوشايةِ كالغرام
جَنَيْتَ على قلوبِ الجمعِ يأساً ... كأنَّكَ بيْنهُمْ داعي الحِمام

أراعَكَ مقْتلٌ مِنْ مِصرَ باقٍ فقُمْتَ تزيدُ سهماً في السِّهام؟
وهلْ ترَكَتْ لَكَ السبعونَ عَقْلاً لِعِرْفانِ الحلالِ من الحرام؟
ألا أُنْبيكَ عن زَمَنٍ تَوَلّى فتذكُرَهُ ودمعُكَ في انْسِجام؟
سَلِ «الحلمية» الفيحاءَ عنهُ وسَلْ داراً على «نور الظلام»
وسَلْ مَنْ كانَ حَوْلَكَ عبْدَ جاهٍ يُريكَ الحُبَّ، أوْ باغي حُطام
رأوا إرْثاً سيذهبُ بعدَ حينٍ فكانوا عصبةً في الاقْتِسام
ونالوا السَّمْعَ من أُذُنٍ كَريمٍ فنالوا مِنْهُ أنواعَ المَرامِ
هُمُ حزبٌ، وسائرُ مصرَ حزبٌ وأنتَ أصَمُّ عن داعي الوئام
وكيفَ ينالُ عوْنَ الله قومٌ سَراتُهُمُ عواملُ الانقسام
إذا الأحلامُ في قومٍ تولّتْ أتى الكُبَراءُ أفعالَ الطَّغام
فيا تلكَ الليالي، لا تعودي ويا زَمَنَ النِّفاقِ، بِلا سَلام

***

أُحِبُّكِ مصْرُ، من أعماقِ قلبي وحُبُّكِ في صميم القلب نامِ
سيجمعني بكِ التاريخُ يوماً إذا ظهرَ الكِرامُ على اللئام
لأجلكِ رُحْتُ بالدنيا شقيّاً أصُدُّ الوجهَ، والدنيا أمامي
وأنْظُرُ جنّةً جمعتْ ذئاباً فيَصْرِفُني الإباءُ عن الزِّحام
وَهَبْتُكِ -غيرَ هيّابٍ- يَراعاً أشدَّ على العدوِّ مِنَ الحُسام
سَيَكْتُبُ عنكِ فوقَ ثرى رياضٍ وفي التاريخ صفْحةُ الاتهام
أفي السبعينَ، والدنيا تولّتْ ولا يُرْجَى سوى حُسْنِ الخِتام
تكونُ -وأنتَ أنْتَ رياضُ مصرٍ- عُرابي اليومَ في نظرِ الأنام؟

المنفلوطي يهجو الخديو!

كان (مصطفى لطفي المنفلوطي) نابغة في الإنشاء والأدب، انفرد بأسلوب نقي غاية النقاء، كما كانت أشعاره تتميز بالرقة والعذوبة، وهو ثالث ثلاثة من أصحاب الأساليب: (الزيات، والرافعي، والمنفلوطي).

وقد عاش «المنفلوطي» و«الرافعي» عَلَمَيْن سامقيْن، في مجال الأدب الإنشائي، وإنْ سبق المنفلوطي صاحبه، ومع ذلك فقد وقع بينهما الخلاف، وحدثت الخصومة، وإنْ كانا قد جريا في نطاق مذهب واحد هو الترسّل والكتابة المنمقة، بلْ لعلَّ الرافعي قد تأثّر بالمنفلوطي، كما تأثّر بالزيات.

أمَّا الخِلاف بين المنفلوطي والرافعي فقد كانت له جذور بعيدة، فقد كان الرافعي ينافس على زعامة الشِّعْر، ثم كان المنفلوطي بعد ذلك أثيراً لدى سعد زغلول ومن كُتّابه، وكان الرافعي يطمع في ذلك، وكان الخلاف في فترة ما قبل الحرب يتمثل في إعجاب الرافعي بالكاظمي وجاويش، ولذلك هجاهما المنفلوطي!

لا ننسى -أيضاً- أن المنفلوطي كان قد تألق فجأة بمقالاته في «المؤيد» فأثار ثائرات عند كثيرين، منهم طه حسين والرافعى والمازني .. فقد حمل عليه كل هؤلاء!

لكن؛ العجيب في معركة المنفلوطي والرافعي أنه برغم الخصومة الشديدة، إلاَّ أنها لم تظهر في معارك أدبية أوْ مساجلات على صفحات الصحف، ولكنها عاشت في أطراف الكلمات ومن وراء العبارات المبهمة، وفي رسائل خاصة ومن بين السطور، كل منهما يلذع الآخر بالكلمة الجارحة .. ويمضي! وقد بدأ المعركة الرافعي مُستتِراً في مقالته الشهيرة «طبقات الشعراء» التي نشرتها مجلة «الثريا» سنة ١٩٠٥ وقد وضع الرافعي نفسه في الطبقة الأولى، بينما وضع المنفلوطي في الطبقة

الثالثة، وقال عنه: «قصائد هذا الشّاعر كشفت عن عين سارقة لا بارقة، وليس له معنى ينفرد به ولا هو ممن تشفع لهم الكثرة»!

في هذه الأثناء .. أفردت صحيفة «الظاهر» صفحاتها يومين متتاليين لمقال المنفلوطي في الرد على صاحب مقال «الثريا» وكان مقاله عنيفاً، فقد هاجم الكاتب بشدة، ووصفه بصاحب «الحقد الناري الذي أحرقه فتصاعد منه هذا الدخان الأسود الكثيف».

وقال: «إنَّ هذا المجهول لما ضاق أمره وقصرت به خطاه عن مجاراة أدباء العصر، حاول أن يضع نفسه في صف الفحول، وأجرى هذه الموازنة الحمقاء، ووضع نفسه في الطبقة الأولى، وأنه لا يوجد أديب واحد يرى له هذه المنزلة التي أنزل فيها نفسه وإنْ اختفى وراء قليل ممن وصفهم في الطبقة الأولى تستُّراً وتلصُّصاً». وقال: «إنه لا يعرف بين الشعراء شاعراً واحداً ينفث على الشّعراء مواهبهم ويلهبهم بذمهم سواء، ذلك إلى ركاكة أسلوبه وغموض بيانه الذي أعرفه له في كل ما وقفتُ عليه من نظمه ونثره ..».

ودهش من أن هذا –الكاتب– هو من لا يعرف له العامة اسماً ولا يحفظ له الخاصة بيتاً يتطاول إلى شوقي الشاعر الفحل، أوْ الجلوس بجانب «حافظ» صاحب المعاني المعجزات.

وقال: إنه أغفل فحول الشعراء أمثال/ أحمد مفتاح، وعثمان زناتي، وعبد الرحمن قراعة، وإبراهيم اليازجي.

وقال: إنها نفثة من نفثات الحقد، ووصفه بأنه فاسد الذوق .. وانتهى إلى القول بأن ما جاء في رسالتك عني فإني لا أذهب بك بعيداً عن الخطة التي مهدتها لنفسي من قولي:

إذا ما سقيته نالني منه قادح ... من الذم لمْ يجرح بموقفه صدري

لمْ يقف الأمر بالمنفلوطي في هجومه على الرافعي عند هذا الحد .. كلاًّ !

فبعد مرور عام –وبينما معركة طبقات الشعراء مستعرة– نشر المنفلوطي في مجلة «سركيس» ١٩٠٦ مقالاً تحت عنوان «طبقات الشعراء» رتّب فيه الشّعراء ووضع نفسه في الدرجة الخامسة بعد شوقي والبكري والبارودي وصبري وحافظ، ووضع الرافعي في الدرجة الرابعة عشر، وقال عن الرافعي: «طلب المعنى فأعياه واستهان باللفظ فانتقم لنفسه منه وعزّ عليه السكوت (فما تكاد تراه صامتا) فهزئ بمضحك التشبيه وبارد التصوير، وشبه السماء بالكنيسة، والنجوم بالراهبات، والبدر بالأسقف تارة والمصحف أخرى».

وكان هذا هو الرد الخفي، فمقال المنفلوطي كان –أيضاً– موقّعاً بتوقيع رمزي حتى كشف عنه ١٩١٠ عندما أعاد نشر المقال في الطبعة الأولى لكتابه «النظرات».

في نفس العام ١٩١٠ نشر المنفلوطي مقالاً تحت عنوان «طبقات الكُتّاب» في مجلة «سركيس» بتوقيع رمزي، وأبدى رأيه في كثير من الكُتّاب، وكان له أثر كبير ودوي واسع، فقد تجاهل فيه الرافعي تماما، وهاجم فيه عبد العزيز جاويش وتناوله في عبارة قاسية قال: «لولا مقامه في اللواء ومذهبه في الهجاء لكان هو وفريد وجدي سواء».

وقد تعرض الرافعي لهذه القصة كلها في «رسائل الرافعي» التي أرسلها إلى «محمود أبو رية» والتي نشرت عام ١٩٥٠ ففي خطاب منه يقول: كلمات المنفلوطي في «طبقات الكُتّاب» لها خبر، وذلك أنه ظهرت منذ ثلاثة عشر سنة مقالة عن الشعراء في مجلة الثريا كان لها دويّ بعيد، واشتغلت بها الصحف والمجلات كلها ونُسِبت هذه المقالة إليّ أنا، ووصلت إلى الخديو فقام شوقي وقعد، ثم شمّر لها السيد محمد توفيق البكري وهو الذي أوعز إلى المنفلوطي أن ينقضها واستأجره لذلك .. وهذا هو السبب في ذم المنفلوطي إيايّ بتلك العبارة التي كتبها عني، أمّا قبل ذلك

«فكان الرجل يقرظني و... ينافق لي على أنه من يومئذ طرحته ولم أعد أكلّمه، لأني لا أتمسك بشيء كالأخلاق، ولذلك لا أرجع عن كلمة قلتها .. ومتى انصرفتُ عن شيء لا أقبل عليه آخر الدهر، فأنت ترى أن المنفلوطي لا يكتب عن بحث ولا روية، وإنما هي كلمات يصور بها ما في نفسه، وإني أعجب لسخافة كلمته في الشيخ جاويش وفريد وجدي، وهما عالمان من كبار أهل الفضل ...».

لَّما مات المنفلوطي كتب عنه الرافعي في رسالة إلى أبي رية، يقول:

«حياة الرجل كانت كلها موت له»!

بعيداً عن تلك الخصومات الأدبية الطاحنة التي دارت رحاها بين هؤلاء الأدباء .. فهم جميعاً قامات عالية، وقمم سامقة في ميادين الفكر والأدب.

فقد حدثت تحولات فكرية ومذهبية لدى عدد كبير منهم، فمثلاً: تحوّل العقاد من الانتماء إلى الأحزاب وكتابة المقالات السياسية إلى الاعتكاف في بيته والاتجاه نحو الكتابة الإسلامية، وتحوّل لطفي السيد من الدعوة إلى العامية إلى الدفاع عن الفصحى، وتحول شوقي من مدائح الخديوية إلى الانضمام لجانب الشعب، وتحول إسماعيل مظهر من التغريب إلى الدفاع عن الإسلام والروحية .. كذلك تحول بعض الأدباء من كتابة الشعر إلى ميدان النثر، حتى أصبحوا أعلاماً عليه، وعلى رأس هؤلاء: المنفلوطي، والرافعي.

والسؤال -الآن-: **لماذا تحوَّل المنفلوطي من كتابة الشِّعر إلى كتابة النثر الفني؟!**

لمْ يكن المنفلوطي شاعراً فاشلاً، أوْ مدّعياً، أوْ متسلّقاً -ككثير من شعراء هذا الزمان، بلْ كان المنفلوطي قامة سامقة بين القمم الشعرية في عصره، ولا أدلّ على صدق ما أذهب إليه من ديوان المنفلوطي نفسه، وشهادة مجايليه له بالعبقرية!

فلماذا تراجع عن الاستمرار في مواصلة المسيرة الشِّعرية كغيره من المبدعين؟!

لعلَّ الإجابة عن هذا السؤال تكمن في أن المنفلوطي كان صاحب ذائقة فنية

نادرة، فأدرك أنه موهوب في كتابة النثر الفني موهبةً تتجاوز موهبته الشعرية، فاتجه إلى النثر دون رجعة إلى الشعر، وأخلص لهذه القضية أيّما إخلاص، فبرّز في هذا الميدان حتى أصبح فارسه الأول بلا منازع، وذاع صيته، واتسعت شهرته في كل مكان، لدرجة أن كثيراً من الناس لا يعلمون أنه كان شاعراً مرهفاً له ديوان ضمّت دفتاه قلائد اللؤلؤ والمرجان.

من هنا، فإننا ندعو الشعراء ذوي القامات القصيرة، أوْ أنصاف الشعراء، أوْ غير الموهوبين- أن يعتزلوا هذا الميدان، وأن يتركوا هذا الفن لأربابه، وينأوا بأنفسهم عن سخرية الناس بهم، ويبحثوا لهم عن ميدان آخر يتسولون فيه، ويتسكّعون على أرصفته!

أخصُّ في هذا الباب طائفة «الأكاديميين» فالواحد منهم يظن -جهلاً- أنه مادام تعلّم العروض وبحور الشعر، فإنَّ عليه واجباً قومياً ليصبح شاعراً !

لا، يا هذا .. فالشِّعر ليس مجرد بحور وأوزان وقوافي، إنما هو موهبة خلاّقة يُولدُ الإنسان مُزوّداً بها، ومنْ لمْ يخلقه الله شاعراً، فلن يكون شاعراً أبداً.

إن المجتمع لا يريد منك -يا هذا- أن تكون شاعراً، ولا يطلب منك أن تحرق عمرك، وتفني طاقتك، في كتابة هذا الغثاء الذي سوّلتْ لك به نفسك الأمارة بالسوء، فاعتقدت أنه شِعْر أوْ إبداع. هيهات .. هيهات! إن المجتمع يطلب منك أن تكون أستاذاً بارعاً، ومُعلّماً أميناً، فتكون في قاعة الدرس فارس الحلبة، وأن توجِّه تلامذتك إلى التي هي أهدى وأقوم قيلا.

***

إن الحقبة التاريخية التي عاش فيها المنفلوطي، ظهر الشِّعر الوطني، أوْ شِعْر المقاومة والدعوة إلى الحرية، فانبرى الشعراء في مقاومة الاستعمار الإنجليزي واستبداد الخديوية، ونظم الشُّعراء كثيراً من القصائد الجارحة في مهاجمة الاستعمار

واللورد كرومر، ونظم المنفلوطي قصيدته (قدومٌ .. ولكن لا أقولُ سعيد) في مهاجمة الخديوِ سعيد، الذي كان عائداً من سفره، ولما كان المنفلوطي وثيق الصلة بالإمام محمد عبده، فسُجِنَ بسببه ستة أشهر، لِمَا في القصيدة من تعريض بالخديوِ عباس حلمي، وكان على خلاف مع محمد عبده! وإلى القصيدة:

قدومٌ ..ولكن لا أقولُ سعيدُ

قدومٌ ولكن لا أقولُ سعيدُ ... ومُلكٌ وإنْ طالَ المدى سيبيدُ

لأضرابه بيتٌ من اللؤمِ عامرٌ ... على فاجرٍ هجوَ الملوكِ يُريدُ

بعدتَ وثغر الناس بالبشرِ باسِمٌ ... لما عَلِمت بالقخر أن ستعودُ

تناءيتَ عن مصرٍ فسُرَّ عدوُّها ... وعدتَ وحُزنٌ في الفؤادِ شديدُ

تمر بنا لا طرفَ نحوكَ ناظرٌ ... من الخَصمِ إلاَّ واعتراهُ جُمُود

أَعاديكَ لا تحنُو عليكَ لغيظِها ... ولا قلبَ من تلك القلوبِ ودُودُ

علام التهاني هل هناك مآثِرٌ ... نعم هي للعباس ليس تَبِيدُ

فيا وغدُ قلي هل سُعودٌ بِغيره ... فنفرحَ أوْ سعيٌ لديكَ حميدُ

إذا لم يكن أمر ففيمَ مواكبٌ ... على جمعنا تُبدي الهَنا وتُعِيدُ

برغمِكَ عن أمر الخديوي تجنَّدَت ... وإن لم يكن نَهيٌ ففيمَ جنود

تُذكّرنا رؤياك أيام أُنزِلَت ... على آل مُوسى نعمةٌ وسُعُودُ

وقال الأعادي إذْ رأوكَ تَنَزَّلت ... علينا خطوبٌ من جُدودِكَ سُودُ

رمتنا بكم مقدونيا فأصابنا ... رخاءٌ عن الجدبِ المُبيدِ بعيدُ

وأردى معادينا وقد رامَ ذلَّنا ... مُصوبُ سهمٍ بالبلاءِ سديدُ

فلمّا توليتم طغيتم وهكذا ... بحارُ الندى تطغى ونحنُ وُرُودُ

فَشيدتُمُ العدلَ القويمَ كذلكمْ ... إذا أصبح التركي وهو عميدُ

فكمْ سُفِكتْ منا دماءٌ بريئةٌ ... من الحقّ ليست للأمانِ تُريدُ

طغَت وبسيفِ العدلِ سالت دماؤها ... وكمْ ضُمّنَت تلك الدماءَ لحودُ
وكمْ ضَمَّ بطنُ البحرِ أشلاءَ جمَّةً ... تروجُ بما فيه الخراب يزيدُ
رماها القضا في البحر عدلاً فأصبحت ... تُمزّقُ أحشاءٌ لها وكُبُودُ
وكمْ صارَ شملٌ للعبادِ مُشتّتا ... فنظّمه فخرُ الملوكِ سَعيدُ
وكمْ شاد إسماعيلُ في القُطرِ جامعاً ... وخُرّبَ قصرٌ في البلاد مشيدُ
وسيقَ عظيمُ القومِ منّا مكبلاً ... صدقتَ وهذا القولُ منكَ سديدُ
عتا واعتدى فاغتاله العدلُ فانبرى ... له تحت أثقالِ القُيودِ وئيدُ
فما قام منكم بالعدالة طارقٌ ... كذبتَ وأيمُ الله أنتَ كئودُ
عدلنا بكم نسلاً فنسلاً لحلمنا ... ولا سار منكم بالسداد تليدُ
كأني بقصر الملكِ أصبح بائداً ... توهمتَ معكوساً عليكَ يعودُ
فبيتُ الذي عادى الملوكَ مُدمّرٌ ... من الظلمِ والظلمُ المبينُ مُبيدُ
وينذُبُ في أطلاله البومُ ناعباً ... ذويها وبالدمعِ الهتونِ يجودُ
يصيح فلا يلقى مجيباً سوى الصدى ... له عند ترديدِ الرثاءِ نشيدُ
أعباس ترجو أن تكون خليفةً ... لتوفيقنا فاسلم ونحنُ عبيدُ
سيمنحكَ السلطانُ أكبر منحةٍ ... كما ودَّ آباءٌ ورامَ جُدودُ
فيا ليتَ دنيانا تزولُ وليتنا ... نموتُ إذا فينا سواك يسود
فَدُمْ ودعِ الأعدا يقولون ليتنا ... نكون ببطن الأرض حين تسودُ
أعباسُ لا تحزن على الملك إنه ... كما رُمْتَه باقٍ وكيفَ تُريدُ
وإن الذي عاداكَ لا شك عمرُهُ ... تقضى فهذا الحزن ليس يفيدُ
أعباسُ صار المُلكُ في يد عادلٍ ... وإنك تبني صرحهُ وتشيدُ
وإن أمير المؤمنينَ بسيفهِ ... يذُبُّ الردى عن حوضهِ ويَذُودُ
وقد كان جفنُ الدهر وسنانَ هاجداً ... على شَرٍّ عادٍ هدمَ مِصرَ يُريدُ

تـيقظَ عبـاسُ الخـديوي لقمعـهِ ... وهـا هـو هـبَّ اليـومَ منـه هجـودُ
بريطانيـا لا زالَ أمـركِ نافـذاً ... عـلى خـائن الأوطـان فهـو جَحُـودُ
ويـا دولـة العبـاس دُمـتِ عزيـزةً ... وظلـكِ في أرجـاءِ مصرَ مديـدُ
ليصبح شـملُ الأمـرِ وهـو مـنظمٌ ... لسـلطاننا المنصـور وهـو حميـد
ويعتـزُّ بالعـدل الخـديوي قطرنـا ... ويصبحَ عنـه الظلـمُ وهـو طريـدُ
أيجـرؤ ذِئـبٌ أن يـدوس برجلـهِ ... بـلاداً بعبـاس الأمـير تسـودُ
بهمتـه مصر العدالـة أصـبحت ... عرينـاً وفي ذاكَ العـرينِ أسـودُ
فأنتِ احتللتِ القُطرَ والقطرُ دارسٌ ... فوافـاك جمعـاً شـيخه ووليـدُ
أتـاهُ خـديوينا فشـادَ صُروحـه ... فأضحى بفضل العدلِ وهـو جديد
متـى مـا أرى الأعـلامَ يخفـق ظلُّهـا ... وتـنشرُ للمـولى الحميـدِ بنُـودُ
وعسـكرهُ السـامي وحكُـم أميرنـا ... عـلى أرضِ مصرٍ إنّنـي لسـعيدُ



ثورة «شاعر البادية»

(محمد عبد المطلب) ذلكم الشَّاعر البدوي البليغ، والمجاهد الوطني، كان نموذجاً حياً للأديب الملتزم. ولِدَ سنة 1870 بمدبنة جرجا بصعيد مصر، درس في الأزهر، ثم انتقل إلى دار العلوم، وتخرج فيها عالماً أديباً. وتولَّى التدريس بمدارس الحكومة، وفي مدرسة القضاء الشرعي، وفي مدرسة دار العلوم. والملاحظ أن شعره يجمع بين الجزالة وروعة الأسلوب حتى أصبح من فطاحل الشعراء في القرن العشرين، ولُقِّبَ بـ(شاعر البادية)!

كان يجنح في شعره إلى تناول الموضوعات الجادة ويعالجها بطريقته الخاصة، ولعلّ في هذا دافعاً حدا به إلى نظم مطولته (العلوية) الخاصة بمآثر ومناقب الإمام علي بن أبي طالب «ع».

وقيل إنَّ الذي دفع الشَّاعر إلى نظم مطولته هذه، ما رآه من تراجع الحضارة الإسلامية، وما أصاب المسلمين من نكسات وهزائم في مطلع القرن العشرين. بينما يرى «العقاد» أن محمد عبد المطلب لم ينظم هذه القصيدة إلاَّ تحدياً لعُمرية «حافظ» التي نُظِمَت وأُنْشِدَتْ قبل العلوية بقرابة عام، ونالت من الشهرة ما نالت!

لعلَّ حرص عبد المطلب على إثبات وجوده الذاتي جعله يلتمس لقصيدته وجوهاً وعناصر تحقق لها التفوق على عُمرية حافظ، وقد اهتدى إلى طلبته في الاستهلال والطول، فقد بلغ عدد أبياتها ٣٠٧ بيتاً .. استهلّ مطولته بوصف الطائرة ليلتقي بالإمام عليّ «ع» فوق السحاب:

فهبْ لي ذات أجنحةٍ لعلّي ... بها ألقى على السُحْب الإماما
إمامُ بني الهُدَىَ وهو ابنُ تسعٍ ... وأول مسلمٍ صلّى وصاما

لَمَّا قامت ثورة ١٩١٩ ساعدها بشعره وأدبه وجهاده، وخلّد حوادثها بقصائده. وكان حُجّة في الأدب واللغة يُرجع إليه .. وتغلب على شعره الروح الوطنية المتدفقة، وله ديوان ضخم في «الوطنيات». وتُوفي سنة ١٩٣١م. قال في قصيدته (وثبة مصر) التي ألقاها سنة ١٩٢٠م.

تكلّم وادي النيل فليسمع الدهرُ ... وأملى على الأيامِ فليكتب الشعرُ
فحسب العوادي نهمة النيل زاجراً ... وحسبُ الليالي أن يقال صحتْ مصرُ
لعمركَ ما صبر الأبيُّ مهانةً ... ولكن صمت الليث يعقبه الزأرُ
فلا تحسبوا أن ونيْنا عن العُلَى ... ولا زهدتْ فينا مناقبنا الغرُّ

....

لئن كان ماضينا فخاراً فإنما ... بحاضرنا تعلو المحامد والفخرُ
وقفنا لريْب الدهر حتى تغللتْ ... مضاربه وانشقّ عن ليله الفجرُ
حرام علينا أن نعيش أذلةً ... وذو الذلِّ أولى ما يكون به القبرُ!

أمَّا القصيدة التي أحدثت صدىً واسعاً، وعمّت بعدها مظاهرات عارمة، تلك التي ألقاها لما اشتدّ عدوان الإنجليز في قمع ثورة ١٩١٩ وكانت بعنوان (فظائع الإنجليز في قمع الثورة):

يا مصرُ ما بالُ الأسى لكِ حالا ... لو أنّ مفجوعاً يردّ سؤالا
ظلم الزمانُ بنيّ في أحداثه ... وعدا عليهم بالخطوب وَصالا
يا ناشري علَم السلام، ألمْ تروا ... للسلم في أرجاء مصر مجالا
ما العدل؟ ما حرية الأمم التي ... سارت رسائلكم بها أرسالا؟
ما عهد (ولسن) أين ولسن هل درى ... أنّا بمصر نكابدُ الأهوالا؟
أَمِنَ العدالة عنده أن يبتلى ... شعب يريد بأرضه استقلالا؟

سفراء ولسن هل لكم أن تبلغوا ... عن مصر صوتاً بالشكاة تعالى؟

صرخات أهل النيل من أحلافكم ... طار الزمانُ لوقعها إجفالا؟

أضحت شعوب الأرض في بحبوحةٍ ... يتفيئون من السلام ظلالا

لكنهم سيموا الردى فتواردوا ... شِرَعَ المنايا مُسرعين عجالا

تعسوا بحكم الإنجليز وطالما ... اعتمدوا عليه وخادعوا الآمالا

ما بالُ أبناء الحضارة أوغلوا ... في أرض مصر نكاية ونكالا؟

وثبوا على القطريْن وثبة قاهرٍ ... هتك الستور ومزق الأوصالا

نزلوا بأرض النيل منزل غادرٍ ... نصب الخداع حبائلاً وحبالا

حلفوا لأهل الأرض حِلفةَ فاجرٍ ... لبس المسوح مُرائياً محتالا

أن يبسطوا ظل الحضارة فوقه ... ويعلّموا من أهله الجهّالا

حتى إذا ملكوا أزمّة أمره ... ساموا بنيه الضيْم والإذلالا

واستنزفوا ثمرات مصر كأنها ... خُلِقَتْ لهم ثمراتها أنفالا

فإذا بدا وجه الخداع وأشرقت ... شمس العدالة في الورى تتلالا

نغضوا رؤوسهمُ لغيلة أُمةٍ ... خُلِقتْ تعافُ الغادر المغتالا



تعِستْ أماني الحُكْم!

إذا كان تاريخنا الأدبي حفل بقائمة طويلة من «الشعراء الصعاليك» أمثال: عروة ابن الورد، والشنفري، وتأبط شرا، والسُّلَيْك، وغيرهم، إلاَّ أنَّ (عبد الحميد الديب) يظل هو العلم الأشهر، بالرغم من أنه الشَّاعر الوحيد من بين هذه الكتيبة –كتيبة العُصَاة– الذي لمْ يُجمَع شِعره بعد .. ولا أحد يدري سرّ هذا التجاهل لهذه الموهبة؟! وكأنّ هذا الشاعر كان لديه إحساس قوي بإهماله في حياته وبعد مماته، مما دفعه إلى أن يقول:

لقد جهِلوا يومي ولنْ يُكرِموا غدي
ويا حرّ قلبي من شقائي في أمسي!

من عجب؛ أنه عندما يجيء ذكر الشاعر (عبد الحميد الديب) فلا يذكره الناس إلاَّ بالشاعر البائس، أوْ الشاعر الحزين، أوْ الصعلوك، أوْ ما شابه ذلك من الصفات التي خلعوها عليه، أوْ التي كانت سمة مميزة من سماته الشخصية، لكن .. لماذا يتجاهلون صفاته الأخرى كلها، ولا يخلعون عليه حتى لقباً واحداً منها ... كأن يقولوا مثلاً: الشّاعر العبقري،أوْ الثائر، أوْ الجريء، أوْ المعتدّ بنفسه ..!

ولمّا كان الشِّعر ترجمة حية لشخصية صاحبه، فإنّ شاعرية عبد الحميد الديب تعبّر عن شخصيته ونفسيته تعبيراً واضحاً جليّاً، فقد كانت نفسه أبيّة تعاني الألم في غير مذلّة، وتتجمّل للحوادث، وتخشى شماتة الأعداء، استمع إليه يخاطب نفسه وكيف يريدها أن تظهر الوجه السمح الكريم الذي يتهلّل للندى ويبشّ لصنع المكرمات إذا صادفتْ كريماً معوزاً متعفّفاً عن الشكاية، يظهره الإباء بمظهر القويّ القادر:

أقِمْ وجهكَ السمحَ في المكرمات ... لكل كريم عصي الشكاة
فكمْ معوزٍ قدْ كساهُ الإباء ... حصانة ذي القُدر الغالبات

لا، بلْ استمع إليه يخاطب غرفته وقد سترت أوصابه وأحزانه وآلامه وفقره وشكايته عن الناس، ولاسيما ذوي اللؤم منهم، حتى لقد ظنّ بعضهم لفرط تجلده وتجمله غنياً، وما غناه إلاّ سراب خادع يتظاهر به أمام الناس ليصون كبرياءه، ويحفظ كرامته، ولأن الناس لا يعظّمون إلاّ الأغنياء:

يا غرفتي ما عشتُ أحبوكِ الرضا ... فلقد حجبتِ عن الورى أوصابي
وقيتني في مدمعي، وشكايتي ... أُذُن اللئيم ونظرة المرتاب
قالوا استقام لكَ الزمانُ، وإنّما ... أوهمتُ حُسّادي بلمع سرابي
حصّنْتُ بالكِبر العظيم كرامتي ... وأنا النبيل الشهم بين صحابي
والناس إنْ لمحوا الغِنَىَ في كائنٍ ... رفعوهُ فوق مراتب الأرباب!

فهذه نفسٌ توفّر لها من عوامل القوة ومجالدة الألم والصبر عليه، كما توفّر لها من عوامل القوة نلمسه في تلك النفس المتألمة، وهو شعورها بمواهبها السامية وتقديرها لتلك المواهب، وإنْ تجاهلها الناس .. ولطالما أضفى عبد الحميد الديب على الناس من ظله، ومنحهم رضاب بيانه فاتّجروا به وأُثروا وهو يتلوى مسغبة وفاقة، وكم من أديبٍ لمع نجمه وتألّق وكان يستمد ضوءه وإشراقه من نفس الديب التي صهرها الألم فتوهّجت وإنْ بقيت راسبة في البوتقة:

يا أمةً جهلتني وهي عالمةٌ ... أنّ الكواكب من نوري وإشراقي
أعيشُ فيكم بلا أهلٍ ولا وطنٍ ... كعيْش منتجع المعروف أفّاق
وليس لي من حبيبٍ في ربوعكم ... إلا الحبيبيْن: أقلامي وأوراق

بلْ استمع إليه وهو يبالغ في تقدير نفسه، ولا تعجب، فإنه عزاء من جفاه الحظ السعيد، وهو يرى من تغذّوا بقلمه قد سعدوا وظل شقياً، وأُثروا وما فتئ ذا متربة:

أأبكي وشِعْري بين قومي يُغرّد ... وأفنى وذِكْري في الوجود مُخلّد
وأشقى شقاء الربع جانبه الحيا ... وفي الكونِ آلافٌ بعلمي تسْعدُ
ولوْ لمْ يخافوا اللهَ قالوا صراحةً: ... أعبد الحميد إيّاكَ نعبدُ!

بلْ إنّهُ يبلغ به الأمر أعلى درجات التمرّد والجرأة السافرة، حين يقول:

وشِدْتُ كما شادَ النبيون شِرعة ... تنزّل فيها الوحيُ شِعراً مردّدا
وقلتُ وقال الناس لمْ يبق قولهم ... بياناً ولا سحراً، فأربيتُ مُنْشِدا

لقد كان يُنزل نفسه منزلة أعلى مما قدّر لها الناس، وهذا نوع من القوة تلجأ إليه النفوس المكلومة المتألمة، ليزيدها منعة في كفاحها وصراعها ويعزيها في محنتها وبلواها، فلا تعجب حين يقول:

أنا مَلِكٌ عبقريّ الجلال ... وإنْ صَدَفَ التاجُ عن مفرقي!

بلْ يصل الشَّاعر إلى ذروة الغضب وقمة الغيظ من الواقع المحيط به، فكأنه يقف في وسط الطريق شاهراً سيفه على الناس، قائلاً بأعلى صوته:

يميناً لئنْ لم يؤمنوا بقضيتي ... لأمضي إليهم سهم ظلمي مسددا
سأرقبُ عدلاً من قضائي، فإنْ أبوْا ... أبتْ قوتي في الهجوْ أن تتقيدا

ويتساءل الديب: لِمَ خُلِقَتْ العقول إذا كان أصحابها مُقتّراً عليهم في الرزق، بينما يتمتع الجُهّال برزقٍ وفير ويتغلّبون في ميدان الحياة:

ويا ربِّ فيم خلقتَ العقول ... إذا كان للجاهلين الغَلَب؟!

فضلاً عن الآلام الحسية، فقد كانت له شكاية من الآلام المعنوية، التي كان مصدرها في الغالب الشعور بعدم التقدير وبنكران الجميل من أُناسٍ أسدى إليهم معروفاً، وأعانهم بأدبه حتى برزوا في الحياة ثم تنكروا له، فكانوا مثلاً في عدم الوفاء .. استمع إليه يصوّر نكران الجميل:

بين النجوم أُناسٌ قدْ رفعتهمو إلى السماء فسدّوا باب أرزاقي
وكنتُ سفين نوحٍ أنشأت حرماً للعالمين فَجَازَوْني بإغراقي !

إذن؛ من الطبيعي أن نراه يتعجب من عدم الوفاء في الإنسان! ويوازن بين الإنسان وبين الكلب الذي لا يدعْ سيّده مهما حلّ به من فقر، فلا يشكو الجوع أو يتسول، بلْ يشاركه شظف العيش:

ليتَ العبادَ كلابٌ إنّ كلبتنا لمْ تزلْ لحفاظ الودّ عنوانا
تحمّلتْ قسطها في البؤس صابرةً لمْ تشكُ جوعاً ولمْ تستجدِ إنسانا

وقدْ عُوتِبَ -الشَّاعر- لأنه لمْ يقل شعراً في زفاف الملك فاروق، كما قال غيره من الشعراء .. فنراه يُنكِر أنه من شعب المليك، وإلاَّ لنظر إليه ورعاه كما رعى غيره من بطانة السوء ... وكيف ينظم الشاعر وهو الذي يحس بأنه سيُزّف إلى الموت عما قريب!:

أأصوغُ في عُرس المليك قصيدةً وأنا إلى الموت الرهيب زفافي؟
لوْ كنتُ من شعب المليك نظمتها من أدمعي وجوانحي وشغافي

هذا، وقدْ عاش «عبد الحميد الديب» في ظل الظروف السياسية والاجتماعية السيئة التي سادتْ البلاد، حيث عمّتْ البلاد الفوضى والاضطراب والفقر والمجاعات بسبب الاحتلال البريطاني الذي دام أكثر من سبعين عاماً، فثار الديب ثورة عارمة، بلا خوفٍ ولا وجل .. فما الذي يخاف عليه هذا الشاعر (المحروم) في هذه الدنيا؟! فليس له بيتٌ يُخربْ، ولا زوجة تُرمّلْ، ولا ولدٌ يُيتّمْ .. فأخذ الديب يتمرد ويدعو إلى الثورة العارمة على الاحتلال، فيقول:

واهتف بشعبكَ أنْ يثور مجاهدا مازال خطب الغاضبين خطيرا
القيد ضُوعِفَ وزنه وإساره والسجن أصبح للبلاد سعيرا

كما تناول الشَّاعر القضية المزمنة «قضية فلسطين» حينما وُضِعتْ تحت الانتداب البريطاني سنة ١٩٤٠ حيث يقول في قصيدته (فلسطين الدماء):

تيهي «فلسطين الدماء» على الورى إنَّ الملائك والملوك بنوكِ
فلرُبَّ ظبيٍ من بنيكِ مُهفهف بجماله وحسامه يفديكِ

لقد كان هذا الشَّاعر البائس عاشقاً للحرية، إنه مستعد بأنْ يُضحِّي بحياته ثمناً للحرية والكرامة:

اليوم إمّا أنْ نعيش أعزةً أوْ أنْ نموت أعزة الأموات
هي ضجعةٌ روحي بها في جنّة ماذا يهمُّ إذا فقدتُ رُفاتي؟

ورغم بؤس الشاعر وعوزه وفقره الشديد و... إلاَّ أنَّ ذلك لم يفتّ في عضده، ولمْ يحجب وطنيته أوْ يجعله يساوم عليها -مثلما يفعل ضعفاء النفوس- بلْ نراه يُراهن على مستقبل وطنه وآمال الشباب:

إنّا لنرقبُ للكنانة دولة ملء البسيطة قوة وظهورا
يبني الشباب جلالها وجمالها ويذود عنها غدوة وبكورا

وتتجلى روح الوطنية في أسمى معانيها، عندما يجأر الشَّاعر من صلف الاستعمار وجبروته، فالسجن عنده أخفّ وطئاً من العيش تحت ذُل الاحتلال:

إلى السجون أو نرى استقلالنا فالسجن للأحرار جنّات النعيم
ونفّذوا إنْ شئتموا إعدامنا فعيش الاستعباد في نار الجحيم

في ذات الوقت يتهم الوزراء ويحمّلهم المسئولية، ويهاجمهم هجوماً عنيفاً، ويتهكّم بسخرية لاذعة بسبب انصرافهم عن معاناة الشعب وآلامه ومشاكله، وانشغالهم بملذاتهم ومطامحهم الشخصية، فيقول:

أَمَا تستحون لهذا الخراب وقد هلك الطفل والمرضع
فهذا هو الهول يوم الوعيد وكلكم راح يستمتع
رئيس الوزارة فوق السفين يغنّي بليلاه أو يسمع

تُكـال لـه المتـع الوافيـات ... وللـوطن المـوت والمصرع
دعـوا الحُكـم لسـتم كفـاءً لـه ... ومـا في هـواكم لنـا مطمـع

نعم .. لقد كان الديب شاعراً صادقاً مع نفسه، كما كان صادقاً مع فنه، حيث صوَّرَ لنا خلجات نفسه، وآلامه، وآماله لمصر وأبنائها .. ولعلَّ قصيدة (تعِستْ أماني الحكم) التي كتبها سنة ١٩٣٨ خير مثال على ذلك، فهي من أشعاره السياسية، حيث كان الشَّاعر ساخطاً فيها على سوء الحكم والفساد السياسي الذي كان مسيطراً على مصر في تلك الحقبة – كما في الحقب التي قبلها والتي بعدها أيضاً! فماذا قال عبد الحميد الديب؟:

تعِستْ أماني الحكم !

لا ضـاربٌ مـنكم ولا مضروبُ ... أنـتم جميعـاً مـعشرٌ مغلـوبُ
وإذا العصيّ غـدتْ سلاح حكومـةٍ ... فمـن الأعابـد شـعبها المنكـوب
كـل الشعوب سلاحها مـن معـدنٍ ... وسـلاح مصر حجـارة أو طـوب
والشـاة إنْ زكـتْ العـداوة بينهـا ... عـوتْ الثعالـب فرحـة «والـذِّيب»
يـا خـائبين تـذكروا آلامكـم ... إنَّ العـدوّ مـن البلاد قريـب
تعِسـتْ أمـاني الحكـم فهـي مذلّـة ... ومطـامع منهـا الإلـه غضـوب
مستوزرون ومـا بكـم مـن صـالح ... لـبلاده بـلْ مـاكرٌ ومريـبُ
والحكـم إن يقصـد بـه أخلاقـه ... فسـناؤه فجـر بـمصر كـذوب
خلُّـوا الحكومـة واكسـبوا أرزاقكـم ... مـن غيرهـا، ومـن المـآثم توبـوا
أبكـل يـوم معـركٌ وتظـاهرٌ ... والخصـم يرسـل سـهمه فيصـيبُ
لسـتم لنـا الأكفـاء أنـتمعصـبةٌ ... مـا في جهادكُـم لمصـر نصيـب
حـتماً سـيأخذكمْ عـلى أعنـاقكم ... يـومٌ بأخـذ الظالميـن رهيـب
يـوم الشـباب الطـامحين وإنـه ... كغـدٍ لمـن يرجـو سـناه قريـب

شاعر في (رَحِم) السجن!

عاش (عباس محمود العقاد) حياة مملوءة بالجد والصرامة، فلم يعرف للراحة موضعاً، ولا للعيش الرغيد سبيلاً ... وتراثه الذي بين أيدينا أصدق من شهادة الشهود .. بلْ إن سائر آرائه ومواقفه، تتجلّى فيها آيات العبقرية التي عاش معانقاً لها، وشغوفاً بها، ومفتوناً بمن توافرتْ فيهم تلك الصفة النبيلة، مما جعله يجمع أخبار العباقرة والعظماء، ويقرأ سِيَرَهم، ويكتب عنهم ما شاء له أن يكتب، أوْ على حد قوله: «عندما أكتب عن واحد منهم فكأنني أكتب عن نفسي»!

نعم .. لقد استطاع -العقاد- الذي لم يحصل إلاَّ على «الشهادة الابتدائية» أن يستوعب مسيرة البشرية الفكرية، ويطلع على مختلف النظريات والفلسفات والآداب العالمية ويهضمها، ثم يتخذ منها موقفاً انتقادياً، فرفض أغلبها، واتفق مع أقلها، وكوّنَ لنفسه رأيه الخاص، فكان صادقاً حينما قال: «لمْ أتأثر بأحد لأنني أردتُ أن أكون أنا نفسي».

ذلكم -العبقري- الذي لمْ يرَ الناس في العصر الحديث كاتباً يفري فريّه! إذْ ذاع صيته، واشتهرت مقالاته ومؤلفاته، وتخطت آراؤه وأفكاره اليابس والماء، وجنى ثمرة نبوغه وعبقريته وهو على قيد الحياة، حتى خلع عليه القراء من الألقاب والصفات ما هو أهل له وجدير به، فوصفوه بالعملاق، والكاتب الجبّار و...

إلى جانب هذه الألقاب التي اشتهر بها -العقاد- هناك لقب جدير به، ربما لم يأخذ حقه كما ينبغي، وهو (الشّاعر) مع أن له أكثر من عشرة دواوين مطبوعة! ولعل السر وراء ذلك هو أن كثيراً من الناس لم يستطيعوا أن يرتقوا إلى «شاعرية العقاد» المتسمة بالتأمل العميق، والمفعمة بالوجدانيات، والممزوجة بالفلسفة في

شتى أغراضها، ومختلف أطوارها .. والتي تتجلى في عناوين دواوينه التي حملت من المعاني والدلالات وجوهاً كثيرة، ومن هذه الدواوين: يقظة الصباح، وهج الظهيرة، أشباح الأصيل، أعاصير مغرب، ما بعد الأعاصير، أشجان الليل، وحي الأربعين، وغيرها.

كان (العقاد) يرى أنَّ «الشِّعر هو التعبير الجميل للشعور الصادق». فانطلق بالفعل من تلك الرؤية، وكتب الشِّعر في كل أمر من أمور الحياة، حتى الأشياء التي لا تلفت النظر قال فيها شِعْراً .. ففي ديوانه (عابر سبيل) نراه ينظم الشعر في سلع الدكاكين، وفي المنازل، وفي الطريق، وفي عسكري المرور، وساعي البريد، وكوّاء الثياب، وفي المتسوّل، وفي الفنادق، وغير ذلك من الأشياء التي ربما لا تستوقف غيره! وأول قصيدة نظمها العقاد وهو صغير كانت في فضل العلوم. ويرى بعض النقاد أن شاعرية العقاد أبرز من كتاباته النثرية!

هذا، ويؤكد صاحب كتاب «تأملات في شعر العقاد» أن شعر العقاد يمتاز بالشاعرية الفياضة ذات الجوانب المتعددة، فمن خلال قراءة شعره نجد لمسات ذات دفقات ذهنية وعقلية وإنسانية بعيدة المدى، فهو يضمن شعره معان جديدة وفلسفات مغايرة لم يألفها متذوق الشعر من قبل، كما يجنح العقاد إلى الإتيان بكل ما هو طريف وجديد في عالم القصيد من صور وألفاظ وتراكيب وأخيلة.

إنه شاعر تتدافع فيه تيارات الآداب العالمية عربية وغير عربية، وهي -كما يرى الدكتور/ شوقي ضيف- لا تتدافع هذا التدافع الظاهر الملموس في بعض المعارضات وبعض الإشارات والترجمات فحسب، بلْ هي تتدافع في دخائل الشاعر وتتجاوب أصداؤها تجاوباً نفذ منه إلى الصورة السوية لشعرنا الحديث، صورة تخرج به من نطاقه التقليدي الضيق الذي كان يرضي طائفة محدودة من الأمة إلى نطاق الحياة الفسيح الذي يأخذ منه كل فرد في الأمة بحظ ونصيب، وهو نطاق

ينساب رحيقه الإلهي الخالد في روح الشاعر وعقله، وسرعان ما ترفع الأسدال بينه وبين خفايا الحياة في جميع مظاهرها الكونية والإنسانية، فإذا هو ترجمان صادق لها، وإلى ذلك يشير العقاد حيث يقول:

الشِّعْر من نفس الرحمن مقتبس ... والشّاعر الفذ بين الناس رحمنُ

والشِّعْر ألسنة تفضي الحياة بها ... إلى الحياة بما يطويه كتمانُ

لولا القريض لكانت وهي فاتنة ... خرساء ليس لها بالقول تبيانُ

مادام في الكون ركن للحياة يرى ... ففي صحائفه للشعر ديوانُ

في بعض الأحايين، يخيّل إلينا أن العقاد أراد أن يكون شاعراً فيلسوفاً وحكيماً، كابن الرومي، والمتنبي، اللذيْن كتب فيهما من آيات الإعجاب أجمل ما كتب .. فانظر إلى ما جادت به قريحته في وصف الغِنَى والسعادة:

لا تحسدنَّ غنياً في تنعّمه ... قد يكثر المال مقروناً به الكدرُ

تصفو العيون إذْ قلّت مواردها ... والماء عند ازدياد النيل يعتكرُ

هذا، وقد أجمع كثير من النقاد على أن ديوان «هدية الكروان» من أرق وأعذب أشعاره، ففي هذا الديوان نظم العقاد طائفة من القصائد في هذا الطائر الشادي ليلاً بأغانيه وترنيماته الشجية -وكان ولع العقاد بعالم الطير يرجع إلى عهد طفولته وصباه- وصوّر هذا الولع في مقدمته لهذا الديوان «هدية الكروان» قائلاً: «إذا لم يشعر الشاعر بتغريد الطير على اختلافه فبماذا عساه يشعر؟ إن الطير المغرد هو الشعر كله، لأنه هو الطلاقة والربيع والطرب والعلو والتعبير والموسيقية، فمن لم يأنس به لم يأنس بما في هذه الدنيا من طبيعة شاعرة ولم يختلج له ضمير بما في هذه الحياة من فرح وجيشان وتعبير». وقد جعل فاتحة الديوان قصيدته الشهيرة في ذلك الكروان:

هل يسمعون سوى صدى الكروان ... صوتاً يرفرف في الهزيع الثاني

العقاد شأنه شأن الفلاسفة، لا يستطع الناس أن يدركوا مرامي كلامهم، وفحوى رؤاهم .. فكثيراً ما يعمدون إلى التلميح والرمز والإشارة، أكثر من التصريح والسرد والتفصيل، فالمعنى عندهم عميق غاية العمق، بعيد إلى أبعد مدى. أيْ بلغة «عبد القاهر الجرجاني» المعنى الذي يبذل فيه صاحبه جهداً ومشقة، والذي يُحوِجكَ إلى إعمال الفكر وتحريك الخاطر!

فانظر إلى –العقاد– عندما يرثي نفسه، قبيل رحيله، فلم يجعل من الرحيل فجيعة ولا مأساة، ولمْ يقم مناحة –كما فعلت نائحة بني سليم عند رثائها لأخيها صخر! بلْ اعتبر «الموت» كأساً شهية! وصَوَّر «النعش» كأنه مهد الطفولة!:

إذا شيعوني يوم تقضى منيتي	**وقالوا أراح الله هذا المعذّبا**
فلا تحملوني صامتين إلى الثرى	**فإني أخافُ اللحد أن يتهيبا**
وغنّوا فإنّ الموت كأس شهية	**ومازال يحلو أن يغنى ويشربا**
وما النعش إلا المهد مهد بني الورى	**فلا تحزنوا فيه الوليد المغيّبا**
ولا تذكروني بالبكاء، وإنما	**أعيدوا على سمعي القصيد فأطربا**

خلاصة القول في شاعرية –العقاد– أنه شاعر فريد، صاحب مدرسة في الشعر الحديث (مدرسة الديوان) ساهم بمقالاته ومؤلفاته على تجديد اللغة العربية وتوسيعها لاحتمال المعاني الجديدة وأدائها .. وتعلو عنده الشاعرية حتى تصل مداها عندما يخلص لطبيعته الحسية، أيْ حينما ينسى أنه العقاد المفكر والفيلسوف والمبارز الذي لا تلين قناته ... لذلك يقال إن أرقّ وأعذب قصائده التي جاءت في العاطفة والرثاء، كرثائه لصديقيْه: حافظ إبراهيم، والمازني، ورثائه –أيضاً– لميّ زيادة، وقصيدته في ذكرى الأربعين لسعد زغلول ... حيث استسلم في هذا الغرض –بالذات– للحزن، ولم يستسلم للزهو!

وتتجلّى عبقرية –العقاد– في شموخه عندما وقف خطيباً في البرلمان المصري،

وأنحى باللائمة على أعداء الأمة وأعداء الدستور، ونطق بعبارته الشهيرة: «إن الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس يخون الدستور أوْ يعتدي عليه».

وقد قُدِّمَ الكاتب العملاق إلى المحكمة ليُعاقَب بتسعة شهور في سجن مصر العمومي، بتهمة العيْب في أكبر رأس في البلاد. فلمّا خرج من السجن، زار قبر «سعد زغلول» وألقى قصيدته الشهيرة، مؤكداً فيها بقاءه على العهد، وتأييده لقضايا الحرية وخصامه لأعداء الشعب .. إذْ يقول:

خرجتُ له أسعى وفي كل خطوةٍ ... دعاءٌ يُؤدّى أوْ ولاء يؤكَّدُ
لأوّل من فكّ الخطى من قيودها ... أوائل خطوي يوم لا يتقيدُ
وأعظم بها من حرية زيد قدرها ... لدن فقدت أو قيل في السجن تفقدُ
عرفتُ لها الحبين في النفس والحمى ... وكان لها حبّ وإن جلّ مفردُ
وكنتُ جنين السجن تسعة أشهرٍ ... فها أنذا في ساحة الخلد أُولدُ
ففي كل يوم يُولَدُ المرءُ ذو الحِجَىَ ... وفي كل يوم ذو الجهالة يُلْحَدُ
وما أفقدت لي ظلمة السجن عزمة ... فما كل ليلٍ حين يغشاك مرقدُ
وما غيّبتني ظلمة السجن عن سنىً ... من الرأي يتلو فرقدا منه فرقدُ
عداتي وصحبي لا اختلاف عليهم ... سيعهدني كل كما كان يعهدُ!

نعم .. إن البيئات التي تستمتع بمقادير كبيرة من الحرية هي التي تنضج فيها الملكات، وتنمو المواهب العظيمة، وهي السند الإنساني الممتد لكل رسالة جلية وحضارة نافعة .. ومرة أخرى نردّد قول العقاد:

هو الحق مادام قلبي معي ... ومادام في اليد هذا القلمْ!

المُلاكِم الأدبي !

الدكتور (زكي مبارك) من عجائب الدهر ونوادر الزمن، فقد كان غريب الطباع، متقلِّب المزاج، ولا يعجبه العجب -كما يقولون! فله آراء عنيفة، وأحكام قاسية في أدباء عصره .. خاصة فيما كتبه في حق الدكتور هيكل، وأحمد أمين، وتوفيق الحكيم، والرافعي، والزيات، وطه حسين، والعقاد، والمازني، والمنفلوطي، وغيرهم.

لقد كان «الدكاترة» مُصاولاً عنيفاً، ومبارزاً عنيداً، وقد وصفه «الزيات»: بأنه لاعب يلبس القفاز السنتريسي -نسبة إلى قرية سنتريس- وأنه يضرب ذات اليمين وذات اليسار وأنه باعتباره الحكم في الحلبة -والحلبة هنا هي حلبة «الرسالة» التي كان يصدرها الزيات- قد عجز وعجزتْ صفارته عن رده إلى الصواب!

كما وصفه «أحمد أمين» بأنه رجل مشاغب يحمل عصا، ويتعرض بها للمارّة!

وذات مرة؛ علّقتْ إحدى المجلات الثقافية على صورة لزكي مبارك -يظهر فيها أشعث أغبر، مُكْفهر الوجه، مقطّب الجبين، شاخص البصر، ملوحاً بيديه- قائلة: «ليست هذه صورة مصارع أوْ ملاكم عالمي .. إنما هو الدكتور زكي مبارك في إحدى محاضراته»!

ترى، ماذا يمكن أن يحدث إذا تحالفا المصارِعان -الرافعي وزكي مبارك- على أحد من البشر، خاصة إذا كان هذا المسكين «أعمى» كالدكتور طه حسين؟!

وماذا لو اصطدما هذان (الملاكمان) -لا قدَّر الله- أحدهما بالآخر .. وهما قريبا الشبه في الطباع العنيدة، وفي المزاج النفسي المحتدم؟!

بلا شك، سيحدث ما لا يُحمد عُقباه ... وقد حدث بالفعل!

يقول زكي مبارك: ولدتني أُمي في الخامس من أغسطس، فأُضِيفَ إلى الوجود

خيرٌ جديد، وشرٌ جديد!

ويقول على صفحات جريدة البلاغ في الثالث من نوفمبر 1947: «أنا لا أفتعل الشِّعر، كما يصنع بعض الناس، وإنما آخذهُ من دم قلبي مدفوعاً بعواطف لا يمكن صدها بحال من الأحوال. والشِّعر عندي ليس صناعة، وما كنتُ أريدُ أن أكون شاعراً، لأنّ الشِّعر غِناء، وشواغلي العملية كانت تحول بيني وبين الغناء، فالأعوام التي قضيتها في التدريس والتفتيش كانت أيام تعب، والتعب ينهك الأعصاب فيمنع الشاعر من الغناء .. وحين تلطّف الله فخرجتُ من عملي بوزارة المعارف صار وقتي ملك يدي فلستُ مسئولاً عن ذرع فضاء الله في جميع البلاد المصرية لتفتيش المدارس الأجنبية، وهو عمل أضناني سنين .. وعملي في البلاغ أصعب من عملي في وزارة المعارف .. ففي أيام التفتيش كنتُ مسئولاً أمام شخص واحد هو كبير المفتشين، وأنا في البلاغ مسئول أمام أُلوف القُرّاء، ولكن هذه المسئولية تؤنسني أعظم الإيناس وتقوي روحي وترهف عقلي وتذكي فؤادي .. ثم إن الحرية التي ظفرتُ بها أعطتني فرصة أخلو فيها إلى مكتبي وإلى قلمي حين أريد».

لكن ما تأثير الزمان والمكان على زكي مبارك الأديب والشاعر؟

وهل هناك أوقاتاً معينة لنظم الشعر عند زكي مبارك؟

يقول زكي مبارك على صفحات جريدة البلاغ في العاشر من ديسمبر 1946: «أعصابي تتأثر تأثراً شديداً بالزمان والمكان، فهناك قصائد لا أنظمها إلاَّ في أزمنة كان لي في أمثالها ذكريات .. أمّا تأثير المكان فهو عندي أقوى من تأثير الزمان، فقد أمضيتُ مدة طويلة وأنا أتأهّب لتأليف كتاب عن عبقرية الشريف الرضي، ولكن لم أنجز الكتاب إلا حين عشت سنة كاملة في المكان الذي عاش فيه الشريف الرضي وهو بغداد .. وللأشياء مثل ذلك التأثير على أعصابي، فإنْ كتبتُ مقالة عن باريس كتبتها بقلم اشتريته من باريس وعلى أوراق كنت قد أحضرتها معي يوم فراق

باريس، وإنْ كتبتُ مقالة عن بغداد كتبتها بقلم اشتريته من أسواق الكاظمية».

سأل عبد الرحمن شكري -ذات مرة- الشاعر زكي مبارك: ما هي أوقات النظم عندك؟

أجاب الدكاترة: «حين أجد المعنى، فإنْ لم أجد المعنى اعتصمتُ بالصمت».

ولمّا مات زكي مبارك رثاه صاحب «البلاغ» الصحفي الكبير محمد عبد القادر حمزة، في كلمة بعنوان: (البلاغ يفقد أديبه الأول) جاء فيها:

«يعزّ على البلاغ أنْ يودّع أديبه الأول، وقد كانت صفحاته ميداناً لفحولة هذا الرجل الذي قلَّ أن يدانيه في مصر من كان يعلم علمه بأدب العرب .. ويعزّ على هذه الصفحة أيضاً ألا يتوجها الكلام الذي كانت تسطره يد زكي مبارك في كل أسبوع، وأن ينقطع هذا المعين الطيب عن ذهن كان عبقرياً في إنتاجه بلْ كان معلماً حتى للعلماء .. كان زكي مبارك كنزاً من كنوز الأدب العربي، لا أظن أن مصر سترى له مثيلاً بعد عشرات السنين .. ولقد قلت إن البلاغ فقده، ولكن يعزيه عن هذا الفقد أن صفحاته سجل حافل بآيات الفقيد وبآثار عبقريته ومعاركه الأدبية التي انتصر فيها، وكلها ثروة تعتز بها مصر، بلْ تعتز بها اللغة العربية كل الاعتزاز». كما رثى زكي مبارك عدد كبير من شعراء مصر والشعراء العرب، وممن رثاه الشاعر اليعقوبي في قصيدة جاء فيها:

وأراكَ قدْ كثرتْ خصومك والفتى ... من كان حسّادٌ لهُ وخصومُ

ما ضرّ فضلكَ ناقدٌ أوْ جاحدٌ ... فلطالما جحد الجميل لئيمُ

كنْ حيث شئتَ بمصر أوْ في غيرها ... فجميلُ ذكركَ في العراق مقيمُ

ورثاه -أيضاً- شاعر العراق عبد الرحمن البناء، في قوله:

يا ابن العروبة فذّها ونصيرها ... أرضَيْتَ في إنتاجك الأجدادا

ووجدت منا في وجودك بيننا ... حباً ذكياً خالصاً ووِدادا

شرّفتَ بغدادَ العُلا وكأنما ... مصر العلا قدْ شرّفتْ بغداد

كما رثاه الشّاعر علي الشامي، في ذكرى رحيله بقصيدة بعنوان «الفارس» يقول في آخرها:

يا فارساً عادتْ الذكرى تواكبها ... رؤى معارككم بالأمس في صخبِ
إذا انبعثتَ خيالاً طاف ساحتهم ... لاذَ الشويعر والكُتّابُ بالهربِ
فما استطاعوا لك استظهار قوتهم ... واستظهروها وأنت الآن في التربِ
عاشوا، وعشتَ فهم أموات عيشتهم ... وأنت رغم البِلى حيٌ لدى الحجبِ

أمّا عن شاعرية زكي مبارك، فلهُ أشعار وقصائد كثيرة، لعلّ أعذبها ما جاء في كتابه «قصائد لها تاريخ» حيث اختار منها القصائد التي راقتْ لهُ في حياته، أوْ التي اعتبرها الشاعر من عيون شعره، أوْ التي أقربها لنفسه .. فمثلاً له قصيدة بعنوان «محاسبة النفس» يقول فيها:

يقولون في التجريب نفعٌ وعبرةٌ ... فهل نفعتني في حياتي التجاربُ؟
أفي كل يوم غلطة بعد غلطة ... كأني بهذا الدهر في الليل حاطبُ
إذا حاسبتني النفس يوماً أطعتها ... وأصبح لا أدري علام تحاسبُ
تعلمني الأيام ما أنا جاهلٌ ... ولكنني أنسى فتأتي النوائبُ
وهل ترعوي نفسي من الجهل مرة ... وكيف وفي نفس الجهول شوائبُ
ويلعب قوم مرتين ومرة ... وأيام عيشي كلهنّ ملاعبُ

للدكاترة مواقف سياسية يُجسّد عليها في حزمه وعزمه وشجاعته، فكما كان يسخر من الملك وحاشيته والحكومات المصرية المتعاقبة قبل ثورة يوليو، كذلك كان يوجه سهامه إلى الإنجليز والأمريكان وغيرهم، بسبب ما كان ينبعث في نفسه من الغيظ والغضب، فيقول: «أنا لا أنظم الشِّعْر إلاَّ حين تأتي دواعيه، وأنا في هذه الأيام غضبان، وأخبار الإنجليز معنا أخبار تثير غضب الحليم .. ولذا كتبتُ هذه القصيدة»:

رأينـــا أعصراً مـــرت علينـــا ... بـــمصر يُضـــام فيهـــا الأبريـــاءُ
ورام الإنجليـــز لنـــا شـــقاء ... لأنهمـــــو أنـــاس أشــــقياء
تحررنـــا فقـــالوا قـــدْ ظلمنـــا ... وقتـــل الحـــر يرضـــاه الظلـــوم
دعونـــا منهمـــو إنـــا شـــقينا ... بـــما صـــنع الرجـــال أولـــوا الفـــداء
لهـــم في مصر أعـــوام كثـــار ... بهـــا كـــانوا مثـــالاً في الجنـــون
وضـــاع عليهمـــو في كـــل أرض ... مكـــان الحـــر في البلـــد الغريـــب
إذا لمْ نســـقهم كـــأس المنايـــا ... فلســـنا مـــن بنـــي فرعـــون كنـــا
وشـــئنا ماضـــياً يومـــاً فكنـــا ... لقتلهمـــو حـــلالاً قـــدْ أردنـــا
بريطـــان لهـــم في الصـــدق رأي ... كـــما كنـــا قرأنـــا أوْ ســـمعنا
لقـــد كـــذبوا فـــما لهمـــو كـــلام ... بـــه صـــدق يقـــالُ لـــه كـــلام
وعودهمـــو جميعـــاً كاذبـــات ... فقـــل مـــا شـــئتَ في وعـــد النســـاء
«تشرشـــل» كـــاذب في كـــل قـــول ... أيصـــدق ذلـــك الـــذئب العجـــوز؟
فريـــــد في المـــــآثم يبتغيهـــــا ... ويجهـــل مـــا الفضـــائل في الشـــمائل

كان –الملاكم الأدبي– لا يهدأ لهُ بال، ولا تقر له عين إزاء تلك الأجواء المضطربة بالفساد السياسي من ناحية، وبظلم الاحتلال من ناحية أخرى، فقذائفه الشعرية طالتْ كبار الساسة ورجال الدولة، منها قصيدته التي جاءت بعنوان «وليس بغير مصر لي مقام» التي هجا فيها وسخر سخرية لاذعة من النقراشي باشا. وعن حكاية هذه القصيدة يقول الدكاترة: انزعجتُ من خُطَب محمود فهمي النقراشي في مجلس الأمن، وإنْ لمْ أقرأ نصوصها كاملة، والنقراشي باشا ليس خصمي كما يتوهم فريق من القراء، فأنا تحدّيتُ عبد الرزاق السنهوري باشا عامداً متعمداً ليشير عليه النقراشي باشا بإخراجي من وزارة المعارف، وقدْ هداه الله فسمع وأجاب!

وهذه قصيدة (الملاكم الأدبي) التي وجَّهها إلى النقراشي باشا في ١/ ١٢/ ١٩٥١

وليس بغير مصر لي مقام!

على أمريكة وعلى بنيها ... سلامٌ لا يماثله سلامٌ
إليها حجّ إخوان بمصر ... وقالوا إنها البلد الحرام
غريب الدار «نقرش» قال قولاً ... وأسهب والكلام هو الكلام
سمعنا صوته فما سمعنا ... فما ندري زئيرٌ أم بُغام
إذاعتنا روتْ ما ترتضيه ... وترضاه صحابته الكرام
سمعنا القول طنّاناً طروبا ... ولكن ما وراءك يا «عصام»
شكوتَ الإنجليز إلى رجال ... لهم في كل معضلة مقام
بمحكمة يفرّ العدل منها ... ويذهب لا ينال ولا يرام
يقول الناقلون، برئت منهم ... بأنك في يدي مصر حسام
إذا كنت الحسام فإن مصرا ... حطام لا يضارعه حطام
إذا ما محنة نزلت بقوم ... فمدفعها الأسنة والسهام
ولكن أنت يا هذا ظريف ... خفيف الروح مدفعه الكلام
تفُوهُ بخطبةٍ وتقول أخرى ... بثغر لا يفارقه ابتسام
جميلٌ أنت يا هذا بديعٌ ... كأنك في فم الدنيا مدام
أتتْ صور جميلات لطاف ... تقول بأنّك البدر التمام
وتشهد أن عصراً أنت فيه ... صبوح الوجه يحسده الغلام
أتشكو الإنجليز ولا تبالي ... بما تجدي العداوة والخصام؟
أكان عميدهم أوحى إليكم ... بأنّ الحرب أولها كلام

«وكادوجان» هذا ما شجاه ... وما أهلوه والدنيا ظلام
وقفت إليه بسّاماً ضحوكاً ... كأنكَ حالم والحرب جام
برئت من التبسّم في حياة ... يطل بوجهها وجه جهام
أتشكو الإنجليز وأنت تدري ... بما يشكوه من يدك الأنام
تعال إلى هنا تشهد وتنظر ... مشاهد حسنها عيب وزام
رأى الأهلون فيما قدروه ... بأن الظلم في مصر عقام
إذا قال الفتى قولاً سديدا ... فإنّ جزاءه ذاك العكام
نيابة مصر تلحظنا برفق ... فلا عيب هناك ولا ملام
ولا سجن نساق إليه كرها ... ولا عزل يجوز به الخصام
تَمُنُّ انجلترا كذباً علينا ... وهذا المنّ ممقوت حرام
تمنُّ بأنَّ مصراً صار فيها ... لكل خليقة صبحاً طعام
نعم، في مصر «فول» عسجدي ... وفي مصر «فلافلة» جسام
يفوح الزيت منها كل صبح ... كأنّ عبيره فينا بشام
أكلتم مالنا ورضعتموه ... ولم يسبق لكم يوماً فطام
مضتْ ستون أو سبعون عاما ... وعمر الدهر يوم ثم عام
وأنتم جاثمون على صدور ... كرام الروح يحكمها لئام
أكانت هذه الدنيا إليكم ... وخلق الله في يدكم سوام؟
بأيّ شريعة وفدت علينا ... شراذمةٌ كما يفِد الطعام؟
أكانوا أوصياء على صغار ... ضعاف الرشد في فمهم لجام؟
فرضنا المستحيل فما بقاهم ... وقدْ أوفى على الشَّيب الغلام؟
أسن الرشد ستون وخمس ... كما أفتى «كادوجان» الإمام؟
أأهل الكهف نحن؟ لقد كذبتم ... غداً يستيقظ القوم النيام
إذا المصري صار غداً عليكم ... رأينا منْ يُضيم ولا يُضام

ســـــــــنبعثها شراراً في شرار — لهـــا مـــن كـــل جانحـــة ضرام
ألاَ جـــيش يطـــاردكم بـــمصر — فيطـــــردكم وينقطـــع الكــــلام؟
وذا الســـودان مـــا يـــدكم عليـــه — وأنــــتم فـــوق صـــدريه ســـهام
لكـــم في كـــل حـــاضرة كنـــيسٌ — حوائطـــــه يضيء بهـــا الرخـــام
ومســـــجدنا مفارشـــــه حصـــير — لـــــه ســـقف يعـــيش بـــه الـــيمام
وقـــد مُنعـــتْ صـــلاة الصـــبح فيـــه — عـــلى قـــوم بحـــب الله هـــاموا
إذا صـــاح المـــؤذن خلتمـــوه — كإسرافيـــــل صـــيحته زؤام
أتلـــك قيامـــة قامـــتْ؟ أجيبـــوا — ففـــي أيـــديكمو حجـــج ركـــام
لقـــد كنـــا ضـــياء الشرق يسري — بأوديـــة يحـــيط بهـــا الظـــلام
فثـــار جماعـــة منـــا علينـــا — وأرجـــف مـــعشر مـــنهم نغـــام
بيـــاض الحـــق عنـــدهمو ســـواد — ونـــور الحـــق عنـــدهمو قتـــام
سياســـيون ماضـــيهم مجيـــد — وفارســـهم هـــو الرجـــل الهـــمام
إلى «سعدٍ» أجيبوا أين «سعدٍ»؟ — ألا يـا «سـعد» مـا هـذا الكـلام؟
لقـــبرك يلجـــأون إذا أُهينـــوا — كأنـــك منســـك وهـــم الحـــمام:
يرفـــرف «نقـــرش» يبغـــي أمانـــا — وفي جنـــب الضريـــح لـــه ســـلام
تضعضـــع في نخاميـــه بـــروح — لـــه في الجنـــة العليـــا مقـــام
إذا «سعد» صحا من بعد موتٍ — «فنقـــرش» عنـــده طفـــل يُـــلام

.... — ....

بكـــى شـــعراؤنا يومـــاً فرنســـا — عـــلى أحرارهـــا منـــي الســـلام
وهـــذا الشِّـــعْر أســـكبه لـــدار — بهـــا أهـــلي وإنْ ظلمـــوا كـــرام
أفـــرّ إليهمـــو مـــنهم إلـــيهم — فـــما لي عـــن محبـــتهم فصـــام
هـــي الـــدنيا ومـــا آلـــتْ إليهـــا — ولـــيس بغـــير مصر لي مقـــام
أغـــاظ القـــيظ في مصر نفوســـاً — ومـــن قلبـــي عـــلا هـــذا الضرام!

شاعر الإسلام

يعد (أحمد مُحرَّم) أحد شعراء مدرسة «البعث والإحياء» في الشِّعْر العربي، التي حمل لواءها البارودي، وشوقي، وحافظ، وأحمد نسيم .. أولئك الذين ساهموا في تجديد الديباجة الشِّعرية، وإعادتها إلى بهائها السالف في عهد الشّعراء الكبار كأبي تمام والبحتري والمتنبي.

عاش -أحمد محرم- حياته في مدينة دمنهور بعيداً عن أضواء العاصمة، مُترفعاً عن السير في ركاب الحاكمين والوزراء، أوْ التزلّف إلى أصحاب الجاه والسلطان، وكانت فيه عفة وإباء، فلم يمدح مَلِكاً، أوْ يتملق رئيساً، فلمْ يعرف في الحق مهادنة وليناً.

ربما كان لعزوفه عن الشهرة وبعده عن العاصمة، واعتزازه بنفسه وكرامته أثر في ألاَّ يأخذ ما يستحقه من التقدير والتكريم في الوقت الذي تمتع من هو أقل منه موهبة وعِلْماً بالشهرة العريضة، وملأ الدنيا ضجيجاً!

لكن، يبقى لمحرم أنه يُمثّل الفريق الجاد من أدباء الأُمة وشعرائها، أمثال: أبي فراس الحمداني، والبارودي، وحافظ، وبدوي الجبل، وغيرهم .. الذين يوجهونها ويأخذون بزمامها إلى المثل العليا وكرائم الفعال، فيعلن في صراحة أنه اتخذ من كتاب الله إماماً يأتمر بأوامره وينتهي بنواهيه، فيقول:

أقولُ لصاحبيَّ -وعاهداني	كتاب الله بينكما وبيني
فكونا صادقيْن ولا تخونا	فإنّ لنا لإحدى الحسنيينِ
ولستُ ببائعٍ نفسي وديني	ولوْ أُوتيتُ مُلك المشرقينِ
هذا سلطة ولتلك أخرى	فما بالي وبال السلطتين؟!

لعلَّ القارئ لشعر محرم يلحظ أثر البيئة واضحاً جلياً على شخصيته الشعرية، فقد تعهده والده منذ صباه بحفظ القرآن الكريم، إلى جانب قراءة فصول السيرة النبوية، والتاريخ، وتعلّم النحو واللغة والأدب .. فلمّا تفجّر ينبوع الشّعر على لسانه، كان الإسلام وما يتصل به من أخلاق كريمة ومثُل عليا ودعوة وجهاد محور شعره كله.

كما أسلفنا القول: كان محرم شاعراً عزيز النفس، زاهداً في الدنيا وما فيها، فلمْ يمدح أحداً، ولمْ يتقرب بشعره إلى مَلِكٍ ولا وزير، بلْ كان يسخر بشدة ويتهكم من طُلاَّب الدنيا وعبيد نياشينها وألقابها:

كذب الملوكُ ومن يحاول عندهم ... شرفاً ويزعم أنهم شرفاءُ
رتبٌ وألقابٌ تغُرُّ وما بها ... فخرٌ لحاملها ولا استعلاءُ
آناً تُباعُ وتارة هي خدعة ... تُمنى بشرِّ سُعاتها الأمراءُ
كمْ رتبةٍ نعم الغبيُّ بنيْلها ... من حيث جلّلها أسىً وشقاءُ

كان محرم يرى في (الجامعة الإسلامية) رمزاً لجمع شمل المسلمين، وظلاً يستظل به العالم الإسلامي، فوقف إلى جانب الخلافة العثمانية، مطالباً المسلمين بالالتفاف حولها، مهاجماً أعداءها، مُندداً بالثائرين عليها، ومُحذراً من التشتّت والضياع الذي يريده أعداؤهم، فيقول من قصيدة له:

هُبّوا بني الشرق لا نومٌ ولا لعب ... حتى تعد القوى أوْ تُؤخذ الأُهبُ
ماذا تظنون إلاَّ أن يحاط بكم ... فلا يكون لكم منجى ولا هربُ
كونوا بها أُمة في الجهر واحدة ... لا ينظر الغرب يوماً كيف نحتربُ

المتأمل في رؤيا «محرم» الشِّعرية –الذي رحل عن الدنيا منذ أكثر من نصف قرن من الزمان ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م– يُخيّل إليه أنه يخاطب العصر الذي نعيشه الآن .. فهو يُحذِّر من الفرقة والشتات، ويدعو المسلمين إلى الوحدة والتضامن، ويقارن بين

الضعف والترهّل والعجز والوهن الذي أصاب أمتنا، وبين سطوة العدوّ وقوته وتفوقه العسكري والتقني، الذي سدّ الأفق بجيوشه وجحافله الغازية، وملأ البحار والمحيطات بالبوارج والأساطيل المرعبة!

إنها -حقاً- قضية غاية في الخطورة ..!

ففي كل يوم نقرأ عن سباق التسلح، والبرامج النووية، وما أسموه بحرب النجوم والكواكب! فأتعجبكثيراً ... وأقول في نفسي: سبحان الله! هذه الدول التي تتسابق في صناعة الصواريخ، واحتكار التكنولوجيا العسكرية. ويملأون البحار والمحيطات بالبوارج والأساطيل .. أليستْ هذه الدول التي يسمونها «دولاً مسيحية» أوْ كما هم يزعمون؟!

أليس هؤلاء الذين قال لهم شرعهم: (منْ لطمكَ على خدك الأيمن ،أدِرْ له الآخر)؟

فلماذا يفعلون ما يخالف وصايا وتعاليم دينهم؟!

ثم قارنتُ بينها وبين حال أمتنا-تلك الأمة التي ما خُلِقَتْ إلاَّ للجهاد، والتي يقول دستورها: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ .

فما بالها لمْ تُفلِح حتى في استيراد هذه التكنولوجيا العسكرية المتقدمة؟! بلْ لمْ تنجح حتى في صناعة قوارب الصيد المتطورة؟! أليست أُمتنا هي الجديرة بامتلاك القوة العسكرية لحماية الحق وبسط الأمن في ربوع العالم؟

ترى .. متى تستيقظ أُمتنا من نومها؟ ومتى تفيق من غفلتها؟ ومتى تدرك أن الحق في حاجة إلى قوة تحميه؟ أو -كما يقول الشاعر فاروق جويدة:

السِّلْم أنْ يحرس الفرسان رايتنا ... وأنْ نصونَ الحِمَى بالسيف والقلمِ

لعلَّ هذا الذي جعل «محرم» يندب حظ أُمته ويسخر من أوضاعها المتردية، إذْ يقول:

نحـــــن الضـــــعافُ وللعـــــدوِّ صرامـــــةُ الأُســـــدِ الغضـــــوبُ
الجـيـش صـعـب البـأس والأســـ ـــسطول مرهـــوب الوثـــوبُ
أيـــــن البـــوارجُ والكتائـــبُ للمعـــــــارِكِ والحـــــــروبُ
صـــدق الــرئيسُ وجــاء في الإ قنـــاعِ بالعجـــب العجيـــبُ
يـــا ســـوء منقلـــبِ الرئيـــ ـــسِ وحزبــه الفــرحِ الطــروبُ
اليـــوم تهنئـــةُ العـــرو سِ وفي غـــدٍ شـــقّ الجيـــوبُ!

عندما زار أبو الطيّب المتنبي «مصر» منذ ألف عام قال ساخراً وهازئاً ضمن ما قال:

وكَــمْ ذا بــمصر مــن المضــحكات لكنـــه ضـــحك كالبكـــاء!

وجاء حافظ إبراهيم في القرن العشرين ليؤكد قول صاحبه، فقال مخاطباً اللورد كرومر أثناء رحيله عن مصر:

وإذا سُئِلتَ عـن الكنانـة، قـلْ لهـم: شــعبٌ ينــوحُ وأُمــةٌ تــترنّمُ !

وها نحن نرى ذات المعنى يلحّ عيه مُحرم في قوله:

ويـحَ الكنانــةِ كيــف تلعــبُ أمــةٌ شــمطاءُ واهيــةٌ وشــعبٌ أشــيبُ

....

ذهــب الأُلى كــانوا الغيــاثَ لأمــةٍ حــاق الــبلاءُ بهــا وضــاق المــذهبُ
صدعت تصاريفُ الخطوب رجاءها فهــوى وطــاح بهــا الزمــان القُلّــبُ
يــا نيــلُ والموفــون فيــكَ قلائــلٌ ليـتَ الزعـافَ لمـن يخونـكَ مشربُ

جميع أشعاره تؤكد على عمق ثقافته الدينية، وقدرة استلهامه للقيم الإسلامية، فكأني بالشاعر وهو يضع أمامه الآية الكريمة : ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ فيقول:

ذنب الملوكِ رمى الشعوب بنكبةٍ جُلّى تنوءُ بحملها الغبراءُ
لا المجد مجدٌ بعدما عبثتْ به أيدي الملوكِ ولا السناءُ سناءُ
رفعوا الطغام على الكرام فأشكلتْ قيم الرجال ورابتِ الأشياءُ
وإذا الرعاة تنكّبتْ سبل الهدى غوتِ الهداة وطاشت الحكماءُ
رفعوا العروش على الدماء وإنما تبقى السفينة ما أقام الماءُ

ينفرد (أحمد محرم) بين شعراء العربية بتصوير البطولة الإسلامية تصويراً رائعاً، فيعمد إلى سيرة الرسول الأعظم ﷺ فينظمها في نحو ثلاثة آلاف بيت، مصوراً فيها حياة النبي الكريم ﷺ، منذ ولادته حتى وفاته، ملتزماً التسلسل الزمني، فأطلق عليها «مجد الإسلام» أوْ «الإلياذة الإسلامية» حيث أراد الشاعر أن يُحاكي بذلك أصحاب الملاحم عند اليونان والإغريق، وبخاصة إلياذة هوميروس المعروفة وهي ملحمة شعرية، تبلغ آلاف الأبيات، نُظمت من وزن واحد لم تخرج عنه، وتستلهم الأسطورة وصراع الآلهة التي تتدخل في الحرب، والشياطين، والشهب، والزلازل والخوارق. لكن شاعرنا استلهم الوقائع الثابتة، والأحداث الصادقة، والمعارك والغزوات، فصوّرها في لغة صافية، وخيال راق، وإيمان قوي، بعيداً عن الخيال الواهم والأحداث المفتعلة .. وما كاد ينشر بواكير هذا العمل الخالد على صفحات جريدة البلاغ، وجريدة الفتح، ومجلة الأزهر، حتى استقبلته أقلام الكُتّاب في مصر والشام والعراق بالثناء والتقدير.

وها هي قصيدة (**يا دولة من بقايا الظلم**) من بين عشرات القصائد الوطنية والسياسية التي خلّفها وراءه «شاعر الإسلام»:

يا دولة من بقايا الظلم !

يـا دولـةً مـن بقايـا الظُّلـم طـاف بهـا عـادي الفنـاءِ فأمسـى نجمهـا غَرَبـا
زولي فـما كنـتِ إلاَّ غَمـرةً كُشِـفَت عـن النفـوسِ وإلاَّ مأتمـاً حُجُبـا
زولي إلى مُغـرِقٍ في البعـدِ مُنقطـعٍ لا يسـتطيعُ لـهُ مُسـتَعتبٌ طلبـا
عنايـةُ الله لا تُبقـي عـلى دُوَلٍ يلقـى الخلائـقُ منهـا الويـلَ والحَرَبـا
تـرى الشـعوبَ عبيـداً لا ذمـامَ لهـا وتَحسَـبُ الحـقَّ في الـدنيا لمـن غَلَبـا
لابـدّ للشـعبِ والأحـداثُ تأخـذهُ مـن غضبـةٍ تُفـزِعُ الأفـلاكَ والشُّـهُبا
مـا أيـدَ المُلـكَ واسـتبقى نضـارتهُ كـالرفقِ والعـدلِ ماداما ومـا اصطَحَبا
ما أضيع التاجَ يرمي الشعبَ صاحبهُ بالمُحفظـاتِ ويؤذيـه بـما كسـبا
يبنـي المعاقِـل مُغـتَرّاً بِمَنعَتِهـا ويَحشُـدُ القُـذَّفَ الفَوهـاءَ والقَضـبا
ويجلـبُ الصـافِناتِ الجُـردِ يُطرِبُـهُ صـهيلُها ويُعـدُّ الجحفـلَ اللجِبـا
حتـى إذا انتفضـتْ بالشـعبِ سورتُهُ أذلَّـه مـا احتـوى منهـا ومـا جَلَبـا
أهيَ الشعوبُ تسوسُ الأرضَ أمْ نَعَمٌ يسوسُـها النَحـرُ لا يرجـو لهـا عَقِبـا
اليـومَ يـنعمُ بالأوطـانِ مُغـتَرِبٌ مـا هـزَّه الشـوقُ إلاّ أنَّ وانتَحَبـا
يفـرِّقُ الـنفسَ في شـتى مُفَرَّقَـةٍ مـن البقـاعِ ويطـوي العـيشَ مُرتَقِبـا
ورُبَّ ناشـئةٍ في الحـيّ باكيـةٍ أَخـاً ترامـت بِـهِ أيـدي النَـوى وأَبـا
مَهـلاً فـما ثَـمَّ للبـاكين مـن شَـجَنٍ زال الشـقاءُ وأمسـى الضُرُّ قـدْ ذَهَبـا
يـا مُنهِضَ المُلـكِ إذ ريعَـت لكبوتـهِ نُفوسُـنا ومُجـيرَ الشـعبِ إذ نُكِبـا
أدركـتَ مِـن مَجـدِهِ مـا كـان مُسـتَلَباً وصُـنتَ مِـن عِـزِّهِ مـا كـانَ مُنتَهبـا
إنَّ الجماهـيرَ في الآفـاقِ هاتفـةٌ تُثنـي عَليـكَ وترجـو عنـدكَ القُربـا
جـزاكَ ربـكَ خـيراً إنمـا لَيَـدٌ مَـنْ ظـنَّ أنْ سـوف يجزيهـا فقـد كـذبا

فلسفة الثعبان المقدس!

كان (أبو القاسم الشابي) شاعراً موهوباً، وفناناً صادقاً، ظهر في مرحلة تحتاج إلى الثورة والتغيير الشامل في ميادين الفكر والمجتمع والشعور- فتبنّى هذه الثورة وتبنى الدعوة إلى التغيير العميق، ولقيَ بسبب ذلك آلاماً كثيرة، زادت من آلامه الطبيعية التي كان يعانيها بسبب مرضه الخطير الذي قضى عليه وهو ابن الخامسة والعشرين من عمره.

بالرغم من رحيل الشابي في سن مبكرة، إلاَّ أن فنه الراقي وضعه في مصاف شعراء العربية الكبار، فالموهبة لا يصنعها الهِرَم وطول العمر، ولا ينقصها الرحيل المبكر، فهي طاقة كامنة يُولد الإنسان مُزوّداً بها، كسائر الحواس الأخرى، وتظل ترافقه طوال حياته، في طفولته وشيخوخته معاً.

من هنا؛ لا نرى أن عامل السن عُذْراً لضعاف الموهبة والمُجدّفين، فالمبدع يُولدُ من بطن أُمه مبدعاً، ومن لم يخلقه اللهُ شاعراً فلن يكون شاعراً أبداً، فالمواهب والفضائل لا تُورّث!

كما أن الثراء أوْ النياشين لا تصنع الموهبة ولا تزيدها، كذلك الفقر والعوز لا يحجبها، ولا يقلّل من عطائها، فالصعاليك تركوا وراءهم عيون الشِّعر وجواهره.

ولا تستطيع الدعاية الكاذبة، والبريق الإعلامي والتقريظ والنفاق الفج أن يفرض شعراً على أذواق الجماهير، مثلما حاول المغرضون -في السنين الأخيرة- أن يفرضوا على الناس شعراء الحداثة وعبيد الشِّعر الحر، ففتحوا لهم الفضائيات والقنوات التلفزيونية والإذاعات بمختلف مسمياتها، وأصدروا لهم صحفاً خاصة تنشر كناستهم التي أسموها -زوراً وبهتاناً- «إبداعاً»! وعقدوا من أجلهم الندوات

والمؤتمرات المحلية والعالمية، ورصدو، لهم الجوائز ومنحوهم الأوسمة ... لكن، لم تشفع لهم كل هذه المراهنات المكشوفة، فلم يستطيعوا جميعاً -إنسهم وجنهم، طالحهم وفاجرهم- أن يكتبوا قصيدة واحدة، كقصائد حافظ إبراهيم، أوْ أحمد محرم .. أوْ حتى عبد الحميد الديب .. ولا أطيل الحديث في هذه القضية، فقد كشفنا أبعاد هذه «المؤامرة» في كتابنا «سقوط الحداثة».

معارك الشابي

القارئ لشعر الشابي يدرك مدى التوقُّد الذهني، والثورة المشتعلة، التي تمور بوجدانه، ففي حياته القصيرة التي عاشها خاض كثيراً من المعارك الثقافية والاجتماعية، ولقي من الإنكار والخصومة والمعارضة، ما يلقاه دائماً أصحاب دعاوى التجديد والإصلاح، إذن، فلا غرو أن يكون الشابي هو الذي قاد حركة طلاب «الزيتونة» التي كانت تهدف إلى إصلاح مناهج التعليم في الكلية، وتزعّم إضرابهم عن الدروس بوطنية أصبحت مضرب المثل!

يروي الأديب التونسي محمد النيال. أن أديباً تونسياً كان معاصراً للشابي كتب يقول: إنه قرأ للشابي قصيدة في إحدى الصحف التونسية، فسأل صاحب الصحيفة عن الشاعر، فقال له الصحفي: «إنه شاب من طلاب جامع الزيتونة أقلقني بمقطوعاته المكدسة بمكتبي يرجو نشرها، وقد رأيت أن آخذ بخاطره فأنشر له هذه القطعة».

عندما كتب الشابي قصيدته المشهورة، التي مطلعها:

إذا الشعبُ يوماً أراد الحياة ... فلابدّ أن يستجيب القَدَر

ولابدّ لليل أنْ ينجلي ... ولابدّ للقيد أنْ ينكسِر

ثار عليه رجال الدين وأثاروا الصحف وحرضوا الجماهير ضده، إذْ كيف يقول الشاعر «لابد أن يستجيب القَدَر». كيف يستجيب القَدَر لقوة الشعب .. فالقَدَر

لا يستجيب إلاَّ لقوة الله؟

لقد اعتبروا الشابي كافراً بمفاهيم القدر والقضاء، وحاربوه وأقاموا الدنيا ضده ولم يقعدوها.

وعندما نشر الشابي قصيدته «صلوات في هيكل الحب» التي يقول فيها:

أنتِ أنشودة الأناشيد   غنّاكِ إله الغناء ربّ القصيد
أنتِ قدسي ومعبدي وصباحي   وربيعي ونشوتي وخلودي
يا ابنة النور إنني أنا وحدي   من رأى فيكِ روعة المعبودِ

عندما نشرت هذه القصيدة، اتهموا الشابي بأنه وثني، يؤمن «بإله الغناء» ومعنى ذلك أن يؤمن بآلهة أخرى كثيرة مثل: إله الحب، وإله المطر، وغير ذلك مما كان شائعاً عند الإغريق والعصور الجاهلية ... فتعرّض الشابي -حينئذ- لهجوم شديد!

أيضاً، تعرض الشابي لحملة شعواء من أصحاب العقليات الجامدة في عصره، عندما أعلن رأيه في الأدب العربي وقال فيه: «لا ينبغي لنا أن ننظر إلى الأدب العربي كمثلٍ أعلى للأدب الذي ينبغي أن يكون، بل ينبغي أن نعده كأدب من الآداب القديمة التي نعجب بها ونحترمها، ليس غير. أمّا أن يسمو هذا الإعجاب إلى التقديس والعبادة والتقليد فهذا ما لا نسمح به لأنفسنا، لأنّ لكل عصر حياته التي يحياها، ولكل حياة أدبها الذي تنفخ فيه من روحها».

فلم يعجب هذا الرأي المقلّدون وأصحاب الفكر القديم والعقلية القديمة أوْ العقلية البدوية.

وصدق من أطلق على الشابي لقب «شاعر الحب والثورة» فكما غنّى للحب غناءً عذباً، غنّى كذلك للثورة غناءً حاراً، راجياً نهضة الشعب، ومنتظراً الصباح الذي يبدد الظلمات، يقول في قصيدة «سر النهوض»:

لا ينهض الشعبُ إلاّ حين يدفعه عزمُ الحياة، إذا ما استيقظتْ فيه
والحبُّ يخترق الغبراء، مندفعاً إلى السماء، إذا هبّتْ تناديه
والقيدُ يألفهُ الأمواتُ، ما لبثوا أمّا الحياةُ فيُبْليها وتُبْليه

في ديوان أبي القاسم الشابي، قصيدة تنحو منحى فلسفياً رمزياً، وإنْ كان البيت الأخير من القصيدة يكشف ما استبطنه الشاعر من دلالات الفلسفة ومعاني الحكمة، عبر الحوارية الطويلة بين الثعبان والشحرور!

فلسفة الثعبان المقدس !

فلسفة الثعبان المقدس هي فلسفة القوة المثقفة في كل مكان، وكما تحدّث الثعبان في القطعة التالية إلى الشحرور بلغة الفلسفة المتصوفة حينما حاول أن يزيّن له الهلاك الذي أوقعه فيه، فسماه «تضحية» وجعله السبيل الوحيد للخلود المقدس.

كذلك تتحدّث اليوم سياسة الغرب إلى الشعوب الضعيفة بلغة الشِّعر والأحلام حينما تحاول أن تسوغ طريقتها في ابتلاعها والعمل لقتل مميزاتها القومية فتسميها: «سياسة الإدماج» وتتكلم عنها كالسبيل الوحيد الذي لا معدى عنه لهاته الشعوب إذا أرادت نيل حقوقها في هذا العالم، وبلوغ الكمال الإنساني المنشود، ولكن الفناء حقيقة شنيعة، مبغضة، لا ينقص من فضاعتها وكرهها كل ما في التصوف والفلسفة والشِّعر من خيال وأحلام».

كان الربيع الحيُّ روحاً، حالماً غض الشباب، معطّرَ الجلباب
يمشي على الدنيا، بفكرة شاعرٍ ويطوفها، في موكبٍ خلاّب
والأُفْقُ يملأه الحنانُ، كأنّه قلبُ الوجود المنتجِ الوهاب
والكون من طهر الحياة كأنما هوَ معبدٌ، والغابُ كالمحراب
الشاعر الشحرورُ يرقص، منشداً للشمس، فوق الوردِ والأعشاب

شعرَ السعادة والسلام، ونفسهُ ... سَكْرى بسحْرِ العالَمِ الخلاّب
ورآه ثعبانُ الجبال، فغمَّه ... ما فيه من مَرَحٍ، وفَيْض شباب
وانقضّ، مضْطَغِناً، كأنّه ... سوطُ القضاء، ولعنةُ الأرباب
بغِيت الشقي، فصاح في هول القضا ... متلفِّتاً للصائل المُنْتَاب
وتدفقَ المسكينُ يصرخ ثائراً: ... « ماذا جنيتُ أنا فحق عقابي! »
« لا شيء، إلاّ أنني متغزلٌ ... بالكائنات، مغردٌ في غابي »
« ألقى من الدنيا حناناً طاهراً ... وأبثُّها نجوى المحبِّ الصابي »
« أيُعَد هذا في الوجود جريمةً؟! ... أين العدالةُ يا رفاقَ شبابي؟ »
« لا أين؟ فالشرعُ المقدَّسُ ها هنا ... رأيُ القويِّ وفكرةُ الغلاّب
« وسعادةُ الضعفاء جُرمٌ .. ماله ... عند القويّ سوى أشدّ عقاب! »
« ولتشهد الدنيا التي غنّيْتُها ... حلمَ الشباب وروعةَ الإعجاب »
« إنّ السلام حقيقةٌ، مكذوبةٌ ... والعدلَ فلسفة اللهيب الخابي »
« لا عدلَ، إلاَّ إنْ تعادلتْ القُوَى ... وتَصَادمَ الإرهابُ بالإرهاب »
فتبسّمَ الثعبانُ بسمةَ هازئٍ ... وأجاب في سَمْتٍ، وفرْطِ كِذَابِ:
« يا أيها الغِرُّ المثرثر، إنني ... أرثي لثورة جهلك التلاّب »
« والغِرّ يعذره الحكيمُ إذا طغى ... جهلُ الصِّبا في قلبه الوثّاب »
« فاكبحْ عواطفَكَ الجوامحَ، إنها ... شردتْ بلُبِّكَ، واستمعْ لخطابي »
« إني إلهٌ، طالما عَبَدَ الورى ... ظلِّي، وخافوا لعنتي وعقابي »
« وتقدّموا لي بالضحايا منهمُ ... فرحين، شأنَ العابد الأوّاب »
« وسعادةُ النفسِ التقيّة أنها ... يوماً تكونُ ضحيّة الأرباب »
« فتصير في رُوح الألوهةِ بضعة، ... قُدسيةً، خلصتْ من الأوشاب»
« أفلا يسرُّكَ أنْ تكون ضحيتي ... فتحُلُ في لحمي وفي أعصابي»

« وتكـون عزمـاً في دمـي، وتوهُّجـاً في نـاظريَّ، وحـدّةً في نـابي»
« وتـذوبَ في روحـي التـي لا تنتهـي وتصيرَ بعضَ ألـوهتي وشـبابي .. ؟»
« إني أردتُ لـك الخلـودَ مؤلهـاً في روحـيَ البـاقي عـلى الأحقـاب ..»
فكِّـرْ، لتـدركَ مـا أريـدُ، وإنّـه أسـمى مـن العـيش القصـير النـابي»
« فأجابه الشحرورُ، في غُصصَ الرّدى والمـوتُ يخنقـه: «إليـك جـوابي:»
« لا رأيَ للحقّ الضعيف، ولا صدى، والـرأيُ، رأي القـاهرِ الغـلاّب»
« فافعـلْ مشـيئتكَ التـي قـد شـئتها وارحمْ جلالكَ من سماع خطابي ..»

* * *

وكـذاك تُتخَـذ المظـالمُ منطقـاً عـذْباً لتُخفِـي سَـوْءةَ الآراب

شاعر خلف القضبان!

كثير من الناس يأتون إلى هذه الدنيا كما يخرجون منها، لا تكترث بهم الخلائق، ولا تسمع بهم الأرض، فلا أثر لهم، ولا ذكرى من بعدهم، وكأنهم لم يُخلقوا أصلاً، أوْ كأنهم قضوا في عالم الأرحام، فسواء محياهم ومماتهم، وهناك قلة بخلاف ذلك تماماً، لا يرحلون إلاَّ إذا أقاموا الدنيا، ولا يقعدونها حتى بعد مماتهم!

كان (سيّد قُطب) من هؤلاء الرجال الذين ملأوا الدنيا وشغلوا الناس!

لقد كان شاعراً، وقاصاً، وناقداً، وعالماً، ومفسّراً .. وشهيداً !

المتأمل في حياة هذا الرجل؛ يدرك أنه أمام شخصية خصبة، إنها شخصية مفكر وفيلسوف وباحث متجرد لفكرة واحدة عاش لها حياته، لا يتطلع إلى أيِّ شيء سوى أن يقول كلمته!

ليس بِدعاً أن ينزوي اسم سيد قطب ويتلاشى صداه عن الحياة الأدبية والثقافية، التي قضى فيها شطراً كبيراً من حياته، بسبب انسحابه عن هذا المجال، فنفض يديه من الشِّعر والأدب، واتجه اتجاها إسلامياً صرفاً، ووصف حياته الأولى بأنها ضرب من ضروب اللهو! ثم انخراطه بعد ذلك في ميدان العمل السياسي والإسلامي الذي صار بعد ذلك ركناً من أركانه، وواحداً من رموزه الأساسية.

لعلَّ تحول (سيد قطب) عن الحياة الأدبية، يجرّنا لمناقشة قضية تحول الأدباء والمثقفين والمفكرين من فكرٍ إلى فكر، أوْ من منهج إلى آخر .. فقلّما نجد مثقفاً أوْ كاتباً سائراً في طريق واحد دون أن يتحول عنه، وقد يكون هذا التحوّل في الأسلوب، أوْ في المضمون، أوْ في التخصص، وقد يكون التحوّل جزئياً أو كلياً، صراحة أو ضمناً، وقد يكون التحول تحت ضغط ظروف سياسية، أو أحداث

وأزمات معينة، وقد يكون التحول بحثاً عن الحق والصواب، أوْ بحثاً عن الشهرة والدويّ الإعلامي، وكثير من المثقفين تحولوا مع تحوّل الأنظمة الحاكمة وتغير أوضاع الحكومات والأحزاب الجديدة، ككثير من «المتأمركين» وهم بقايا اليسار المنهزم الذي تصدعت أركانه في العقدين الماضيين تحت معاول الرأسمالية والعولمة الأمريكية.

ليست عملية تحوّل المثقفين وليدة اليوم أوْ الأمس القريب، إنما هو شأن المثقفين والأدباء والمفكرين وديدنهم منذ القِدَم، فمثلاً .. عندما جاء الإسلام تحول الشعراء في رؤاهم وأفكارهم من الأغراض التي مارسوا الإبداع بها سنيناً طويلة في العصر الجاهلي: كالهجاء الفاحش، والفخر المذموم، والغزل الصريح، وغير ذلك، وراحوا يوظّفون أشعارهم لخدمة الدعوة الإسلامية، كما حدث مع حسان بن ثابت، وكعب ابن مالك، وكعب بن زهير، وغيرهم.

وفي العصر الأموي، تعتبر أشهر حادثة في هذا الباب، هي قصة **الفرزدق** الذي كان واحداً من شعراء النظام الأموي، فقد تحول بالمدح والثناء إلى الإمام زين العابدين/ عليّ بن الحسين «ع» في قصيدته الميمية الشهيرة، مما جعل هشام بن عبد الملك يشتاط غيظاً، ويأمر في الحال بحبس الفرزدق ومعاقبته على هذه القصيدة أشد العقاب!

وفي العصر العباسي، رأينا في مجال الفكر كيف تحول الإمام «**أبو الحسن الأشعري**» من الفكر الذي اعتنقه سنوات عديدة، وتراجع عن آرائه وأصدر كتاباً يعترف فيه بخطئه الأول!

كما تحول كثير من الشعراء المخضرمين من مديحهم لبني أمية إلى مدح خلفاء بني العباس!

لكن تتضح هذه الصورة جلية في القرن العشرين على وجه الخصوص، حيث

أخذت قضية تحوّل المثقفين وانقلابهم الفكري مناحي متعددة، وزوايا عديدة، وأشكالاً مختلفة، وأبعاداً جديدة، ربما بسبب انتشار وسائل الإعلام الحديثة والمتطورة، وتقدم وسائل الطباعة والنشر، وظهور كثير من الأحزاب والنظريات والفلسفات والأيديولوجيات الوافدة والراكدة .. إلخ.

أعجب ما في الأمر أنَّ هؤلاء المثقفين قد غيّروا آراءهم التي نافحوا عنها بضراوة، وأشعلوا بسببها نيراناً، كما تحولوا عن آرائهم حول مفاهيم الأدب ومناهج النقد التي وضعوها.

فمثلاً؛ غيّر «طه حسين» رأيه في دراسة الأدب، بعد أن دعا في كتابه (ذكرى أبي العلاء) إلى دراسة الأدب على أساس علمي محض، فعاد بعد ثلاثة عشر عاماً في كتاب (الشعر الجاهلي) فقال: إن الأدب لا يستطيع أن يعتمد على مناهج البحث العلمي الخالص وحدها، ولابد من اعتماده على الذوق الخاص .. وتحول طه -كذلك- عن نقده للمنفلوطي، كما تحول عن رأيه في شوقي، وتحول -أيضاً- فكرياً وصحّح موقفه بكتابه «على هامش السيرة» وبذلك حوّل أنظار الناس عن مفاهيمه في كتاب (الشِّعر الجاهلي) كما صَحّحه سياسياً بالخروج من حزب الأحرار والانضمام إلى الوفد.

كذلك؛ بدأ الدكتور «زكي مبارك» حياته منبهراً بالثقافة الغربية وآراء المستشرقين، ثم ارتدّ عن سائر هذه الآراء، وأقلع عنها وصار يهاجمها بضراوة شديدة!

يعد «لطفي السيد» من أبرز المثقفين الذين تحولوا فكريا تحولاً كبيراً، وتراجع عن ماضيه الحالك -أو كما يقول عنه أنور الجندي: إن هذا الذي أسموه «أستاذ الجيل» قد خدع الجيل كله، بل خدع الأجيال حين قدم لها الأفكار الخاطئة التي عرضها في «الجريدة» سنة ١٩١٣ مدافعاً عن العامية، تكريساً للخطة الاستشراقية التبشيرية

التي قاد زمامها (ويلكوكس، ومولار) كما كان معارضاً لفكرة التعليم العام، وقصر التعليم على أبناء الأعيان فقط، وكان كارهاً ومعارضاً للتضامن العربي والإسلامي وحائلاً دون قيام الجامعة الإسلامية، لدرجة أنه عارض بشدة مساعدة المصريين لجيرانهم في طرابلس الغرب أثناء الاستعمار الإيطالي سنة 1911 ونعرته الإقليمية بأن «مصر للمصريين»! هذا في الوقت الذي كان يمدح فيه اللورد كرومر الذي أذلّ المصريين ويقول عنه: «إنه من أعظم عظماء الرجال ويندر أن نجد في تاريخ عصرنا نداً له يضارعه في عظائم الأمور»!

أمَّا أمير الشعراء «**أحمد شوقي**» فقد اعترف صراحة أن نقطة التحول الرئيسة في حياته تتمثل في نفيه من مصر إلى أسبانيا خلال الحرب العالمية الأولى، وقال في ذلك لصديقه حافظ إبراهيم: «أعترف لكَ -يا حافظ بك- أنني استفدتُ من تجربة المنفى استفادة كبرى، ما كنتُ أتوقعها، فربَّ ضارة نافعة، فبرغم فراق الأحبة واشتياقي المستمر إليكم، إلا أن هذه الغربة القسرية كانت بعيدة الأثر في تطور حياتي الأدبية والثقافية، فقد أُتيح لي خلال هذه السنوات الخمس التي قضيتها هناك أن أعكف على قراءة كتب الأدب العربي، وقد طالعتها حتى أكاد أقول إنه ليس في الأدب العربي كتاب لم أستوعبه خلال السنين الخمس التي مكثتها بأسبانيا، وتوفرت على رياضة ذهنية من ثمرات القرائح العربية منثورها ومنظومها وحصلت على ثروة لم أفز بها من قبل .. كما جادت عليَّ فترة المنفى بشيءٍ آخر وهي تعلُّمي أبعاد الوطنية التي صارت الآن عندي هي أهم من كل شيء، أهم من القصر بمن فيه وما فيه».

أمَّا الفيلسوف «**محمد فريد وجدي**» فيرى أن حادث التحول في حياته هو حادث الشك في العقيدة الذي ساوره في مطالع الشباب، نتيجة لحيلولة والده دون مناقشته في مسائل الكون والخالق، فقد كان إذا تعرض لذلك أقفل باب المناقشة، وأمره ألا يخوض في المسائل الدينية، يقول: «وهنا تزلزلت عقيدتي وشرع الشك

يتسرب إلى نفسي». غير أنه لم يلبث أن تناول بالقراءة والدرس جميع الكتب الدينية والكونية وسائر ما يتعلق منها بعلم النفس، فيقول: «ولقد أفادني الشك استقلالاً في التفكير واعتماداً على النفس ورغبة في استيعاب ما يقع تحت يدي من الكتب».

ولا شك أن كتابات «**العقاد**» عن الإسلام وعباقرته هي تحول خطير في اتجاهه لم يلبث أن تعمق واتسع وأصبح له طابع واضح، وصار عَلَماً عليه، وقد أغرى هذا الإنجاز الفكري الكثيرين إلى احتذائه ونهجه من كُتّاب وأدباء الجيل الماضي، أمثال: د. محمد حسين هيكل، وطه حسين، وعبد الرحمن الشرقاوي، وخالد محمد خالد.. وغيرهم.

ويعد المفكر الراحل «**خالد محمد خالد**» أنموذجاً واضحاً للمثقف الشجاع والمجتهد، الذي بدأ اجتهاده بكتاب (من هنا نبدأ) دعا فيه إلى فصل الدين عن السياسة تماماً، وانتهى إلى موقف واضح يدعم تماماً حق الإسلام كدين ينظم شئون الحياة، حكومة وشعباً .. وقد أوضح «خالد محمد خالد» سبب تغير موقفه عندما قال في كتابه (الدولة في الإسلام): «كان الخطأ في المنهج نفسه، فقد جعلتُ ما تأثرت به قراءاتي عن الحكومة الدينية في المسيحية، وما تأثرت به من تحول بعض الشباب المسلم من نُسّاك إلى قتلة، جعلت هذا وذاك (مصدر) تفكيري لا (موضع) تفكيري، وفارق كبير بين أن تجعل الحدث أو الشيء (مصدر) تفكيرك وبين أن تجعله (موضع) تفكيرك. فعندما يكون مصدر تفكيرك فإنه يقودك في طريقه هو لا في طريق الحقيقة، وتبصر نفسك -من حيث لا تشعر- مشدوداً إلى مقدمات وسائراً نحو نتائج لم يأخذ الاستقلال الفكري حظه في إمعان دراستها. أمّا حين يكون الشيء موضع تفكيرك المحايد والمستقل بكل اعتبارات القضية المدروسة دون أن يلزمك بحكم مسبق يتحرك الفكر داخل إطاره الحديدي الصارم فإن النتيجة تختلف حتما. إلى هذا السبب الجوهري أردُّ خطئي فيما أصدرته قديماً من حكم ضد

الحكومة في الإسلام، هذه التي أسميتها خطأ بالحكومة الدينية».

بعد هذا الاعتراف الفكري الشجاع، أصبح خالد محمد خالد من أعظم المدافعين عن الإسلام وعلاقته الوطيدة بالسياسة والحكم والديمقراطية.

ويُعد الدكتور «مصطفى محمود» من أشهر المفكرين المعاصرين الذين تحولوا من فكر إلى فكر آخر، ومن القلائل الذين أحدثوا دوياً في عالم الكتابة، ربما بسبب تأثير مقالاته سواء في السياسة أو الأدب أو غير ذلك من المؤلفات العديدة التي أنتجها طوال رحلته التي امتدت إلى أكثر من نصف قرن من الزمان.

وهكذا .. فإنَّ حياة الكُتَّاب لا يمكن أن تسير في طريق واحد، فكثرة المطالعة وطول الخبرات والتجارب من شأنها أن تحول الإنسان من رأي إلى آخر، ومن فكر إلى فكر مغاير، وقلما تستمر حياة المثقف في طريق واحد من المنبع إلى المصب، وليس هذا عيباً يشين المفكر أوْ الأديب، خاصة إذا كان هذا التحول من الخطأ إلى الصواب، ومن الشك إلى اليقين، ومن الهدى إلى الضلال، ومن هنا نفهم مقاصد الآية الكريمة: «.. ومنكم من يُردُّ إلى أرذل العُمر لكيْ لا يعلم من بعد علم شيئاً».

فالاجتهاد البشري بطبيعة الحال فيه الصواب والخطأ، وليس أحد من البشر يمتلك الحقيقة المطلقة. وهناك العشرات، بلْ المئات من العلماء والمفكرين والأدباء والشعراء الذي تراجعوا عن معتقداتهم وآرائهم وأفكارهم التي اعتنقوها في بداية مشوارهم العلمي، لدرجة أننا نجد مذهب الشافعي في مصر يختلف عن مذهبه السابق في العراق في كثير من القضايا والمسائل الفقهية.

كذلك، تحوّل (سيد قطب) صوب الإسلام، فتخلّى عن أشعار الطفولة والصبا والقرية والربيع، وتوجه إلى كتابة الشعر السياسي، كما في قصيدته (هُبل هُبل) التي يقول فيها:

هُبل ... هُبل رمز السخافة والدجل

من بعد ما اندثرت على أيدي الأُباة

عادت إلينا اليوم في ثوب الطغاة

وثن يقود جموعهم .... يا للخجل

هُبل ... هُبل

رمز السخافة والجهالة والدجل

لا تسألن يا صاحبي تلك الجموع

لمن التعبد والمثوبة والخضوع

دعها فما هي غير خرفان القطيع

معبودها صنم يراه العم سام

وتكفل الدولار كي يضفي عليه الاحترام

وسعى القطيع غباوة .... يا للبطل

هُبل ... هُبل

رمز الخيانة والجهالة والسخافة والدجل

هُتافة التهريج ما ملّوا الثناء

زعموا له ما ليس ... عند الأنبياء

ملَكٌ تجلبب بالضياء وجاء من كبد السماء

هو فاتح ... هو عبقري ملهمٌ

هو مرسلٌ ... هو عالمٌ ومعلمٌ

ومن الجهالة ما قتل

هُبل ... هُبل

رمز الخيانة والعمالة والدجل

صيغت له الأمجاد زائفة فصدقها الغبي

واستنكر الكذب الصراح وردة الحر الأبي

لكنما الأحرار في هذا الزمان هم القليل

فليدخلوا السجن الرهيب ويصبروا الصبر الجميل

وليشهدوا أقصى رواية ... فلكل طاغية نهاية

ولكل مخلوق أجل ... هُبل ... هُبل

هذا، ولسنا بصدد الحديث عن الشاعر (سيد قطب) أكثر من ذلك، لأن الشاعر الذي لا يُقدِّمه شعره وفنه، فلن يفلح في ذلك الكُتّاب والنقاد أبداً، ولوْ كان بعضهم لبعض ظهيراً .. وحسبنا في هذا المقام أن نقدم له القصيدة التالية:

أخي أنت حرٌّ

أخي أنت حر وراء السدود ... أخي أنت حر بتلك القيود

إذا كنتَ بالله مستعصماً ... فماذا يضيركَ كيد العبيد

أخي ستبيد جيوش الظلام ... ويشرق في الكون فجر جديد

فأطلق لروحك إشراقها ... ترى الفجر يرمقنا من بعيد

أخي قد أصابك سهم ذليل ... وغدراً رماك ذراع كليل

ستبتر يوماً فصبر جميل ... ولم يدم بعد عرين الأسود

أخي قد سرتْ من يديك الدماء ... أبتْ أن تشلّ بقيد الإماء

سترفع قربانها للسماء ... مخضبة بوسام الخلود

أخي هل تراك سئمت الكفاح ... وألقيتَ عن كاهليكَ السلاح

فمن للضحايا يواسي الجراح ... ويرفع رايتها من جديد

أخي هل سمعت أنين التراب ... تدكّ حصاه جيوش الخراب

يمـــزق أحشـــاءه بـــالحراب ... وتصـــفعه وهـــو صـــلب عنيـــد
أخـي إنني اليوم صـلب المراس ... أدكّ صـــخور الجبـــال الـــرواسِ
غـــداً سأشـــيح بفـــأس الخـــلاص ... رؤوس الأفـــاعي إلى أن تبيـــد
أخـــي إنْ ذرفـــت عـــليّ الـــدموع ... وبللـــت قـــبري بهـــا في خشـــوع
فأوقـد لهـم مـن رفـاتي الشـموع ... وسـيروا بهـا نحـو مجـد تليـد
أخـــي إن رمـــت نلـــق أحبابنـــا ... فروضـــات ربي أُعـــدّت لنـــا
وأطيارهـــا رفرفـــت حولنـــا ... فطـــوبى لنـــا في ديـــار الخلـــود
أخـي إنـني مـا سـئمت الكفـاح ... ولا أنـــا ألقيـــتُ عنـــي الســـلاح
وإنْ طـــوقتني جيـــوش الظـــلام ... فـــإني عـــلى ثقـــة بالصـــباح
وإني عـــلى ثقـــة مـــن طريقـــي ... إلى الله ربّ الســـــــنا والشروق
فـــإنْ عـــافني الســـوق أو عقّنـــي ... فـــإني أمـــين لعهـــدي الوثيـــق
أخـــي أخـــذوك عـــلى إثرنـــا ... وفـــوج عـــلى إثـــر فـــوج جديـــد
فـــإنْ أنـــا مِـــتُّ فـــإني شـــهيد ... وأنـــت ســـتمضي بـــنصر جديـــد
قـــد اختارنـــا الله في دعوتـــه ... وإنـــا ســـنمضي عـــلى ســـنّته
فمنّـــا الـــذين قضـــوا نحـــبهم ... ومنـــا الحفـــيظ عـــلى ذمتـــه
أخـــي فـــامضِ لا تلتفـــتْ للـــوراء ... طريقـــك قـــد خضـــبته الـــدماء
ولا تلتفـــتْ هـــا هنـــا أو هنـــاك ... ولا تتطلـــع لغـــير الســـماء
فلســـنا بطـــير مهـــيض الجنـــاح ... ولـــن نســـتذل ولـــن نســـتباح
وإني لأســـمع صـــوت الـــدماء ... قويـــاً ينـــادي الكفـــاح الكفـــاح
ســـأثأر لكـــن لـــربٍّ وديـــن ... وأمضي عـــلى ســـنّتي في يقـــين
فإمّـــا إلى الـــنصر فـــوق الأنـــام ... وإمّـــا إلى الله في الخالـــدين

جلاَّد الكِنانة !

(هاشِم الرفاعي) شاعر من كوكبة الشعراء الذين داهمهم الموت في سن مبكرة، أمثال: طَرَفَة بن العبد، وامرؤ القيس، والهمشري، والشابي، والشرنوبي، وبدر شاكر السياب، وأمل دنقل، وغيرهم من الذين رحلوا وتركوا رصيداً هائلاً من التجارب الإبداعية.

حاولت «نازك الملائكة» أنْ تجد تفسيراً في ضوء التحليل النفسي لظاهرة الموت المبكر عند هؤلاء الشعراء، فتقول: إن ذلك يرجع إلى حدة الإحساس أوْ القدرة على الانفعال العنيف، وهذه صفة لا يملكها المتوسطون من الناس، ولعل هذا من حسن حظ الإنسانية، وذلك أن الانفعال إسراف في الطاقة لا ترضاه الطبيعة، والحق أن الطبيعة تمقت الإسراف في الجهات كلها وتعمل جاهدة على رد الحياة البشرية إلى الاعتدال الذي يضمن لها البقاء.

وهذه المبالغة في بذل القوى النفسية لابد أن تؤدي بالشاعر إلى أن يستنفد قواه الروحية والشعورية في بضع سنين، ثم يقف لاهثاً فجأة، ويضطر إلى أن يموت! فالانفعالية تشبه الاحتراق، لأنها تجعل الشاعر ضعيفاً إزاء مظاهر الحياة المحيطة به، فكل جمال يعصف بقلبه، وكل إنسان يملأ مشاعره بالحماسة الطافحة، وهذه حالة تصبح فيها قيمة الأشياء المحيطة بالشاعر أغلى من حياته نفسها.

بمناسبة الحديث عن (هاشم الرفاعي) سوف نطرح قضية جديرة بالبحث .. قد يختلف البعض بشأنها، فحواها أن هناك عشر قصائد مطبوعة بعنوان (**الديوان الممنوع .. القصائد العشر في جراح مصر**) منسوبة للشاعر هاشم الرفاعي. مَن يتأمل في لون هذه القصائد، ومضامينها السياسية، ورؤاها الفكرية، والإرهاصات

التي صاحبتها، إلى جانب لغة الخطاب الشّعري فيها .. يدرك على الفور أنه يقرأ لشاعر آخر غير «هاشم الرفاعي» المعروفة لغته وثقافته وقاموسه الشعري .. هذا من ناحية.

من ناحية أخرى؛ معروف من سيرة (هاشم الرفاعي) أنه توفي سنة ١٩٥٧ أيْ قبل أن تتضح معالم وأسرار العهد الناصري وأبعاد تلك الحقبة السياسية في مصر، بلْ إن «هاشم الرفاعي» له في تلك المرحلة قصائد، يمدح فيها الرئيس جمال عبد الناصر! فكيف يهجوه ويلعنه في سنة ١٩٥٤، ١٩٥٥ حسب ما جاء في «القصائد العشر بالديوان الممنوع»؟ في حين نراه يمدحه في السنوات التي بعدها حسب ما سجّله ديوانه؟!

ناهيك عن أن حقبة «الخمسينيات» من القرن الماضي كانت فترة الإنجازات الحقيقية للرئيس عبد الناصر، حيث أنشأ عدداً من المشاريع الصناعية والتنموية، وأقام عدة مؤسسات كبرى، وتصدّى للعدوان الثلاثي، وساعد بعض حركات التحرّر في أفريقيا وغيرها .. فلم يكن عبد الناصر طاغية في تلك الفترة .. بلْ كان جديراً بالاحترام، وذلك بشهادة خصومه!

لذا؛ فإن المرء تتمالكه الدهشة، عندما يقرأ «القصائد العشر» التي كُتِبت في فترة «الخمسينيات» أيْ في وقت كانت الجماهير مفتونة بهذا الحلم وتلك الهالة التي أحاطت بالزعيم؟

لا، بلْ إنّ (هاشم الرفاعي) كان من المقربين والمحسوبين على النظام الناصري؛ وقد اقترب كثيراً من «كمال الدين حسين» أحد الضباط الأحرار، ووزير التعليم آنذاك، بدليل أنه شارك في «مهرجان الوحدة العربية بين مصر وسوريا» وألقى قصيدة بين يديّ عبد الناصر عام ١٩٥٨ في دمشق! بلْ أبعد من ذلك؛ فقد أقام له «كمال الدين حسين» حفل تأبين له، في قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة

يوم ٢٧ أكتوبر ١٩٥٩ ألقى فيها كمال الدين حسين نفسه كلمة في تأبينه!!

فكيف -إذن- يُصنّف بأنه عدوّ للنظام الحاكم .. وأنه هجاه في شِعره؟!

من وجهة نظري؛ إن «القصائد العشر» ليست لها أية علاقة قريبة أو بعيدة بهاشم الرفاعي، وإنما نُسِبتْ إليه، والأرجح أن تكون كُتِبتْ في أواخر «الستينيات» بعدما كُشِف القناع عن وجه عبد الناصر، خصة بعد «محنة الإخوان المسلمين» وما حلّ بهم على يديه من نكبات، وبعدما تجرّع «ناصر» هزيمة حزيران.

كما يُشتَم من رائحة هذه «القصائد العشر» أن يكون صاحبها من «الإسلاميين» الذين عاشوا هذه الحقبة، سواء في السجون أو خارجها، ولم يستطع أن ينسبها إلى نفسه. فتمت نسبتها إلى هاشم الرفاعي! وليس هذا بعجيب في عالم الفكر والإبداع، فهناك كثير من المؤلفات والقصائد التي نُسِبتْ إلى غير أصحابها.

لذلك نجد «الانتحال» واضحاً حتى في العناوين والتواريخ، لإثبات أن هذه القصائد كتبها هاشم الرفاعي في حياته! فعلى سبيل المثال: نجد قصيدة (مصر بين احتلالَيْن) مؤرخة بسنة ١٩٥٤ -أيّ العام الذي نُصّب فيه عبد الناصر رئيساً للبلاد- ويصفه الشاعر بالطاغية، ونحن لا ندري ما هو وجه الطغيان آنذاك؟ يقول الشاعر في هذه القصيدة:

قالوا: الجلاء .. فقلتُ: حُلْم خيالٍ ... لا تطمعوا في نيْل الاستقلال

ليس الجلاءُ رحيل جيشٍ غاصبٍ ... إنّ الجلاء تحطّمُ الأغلالِ

ما كان هذا الأجنبيُّ ببالغٍ ... في البطش مبلغ سالمٍ وجمالِ

*** ***

عُذْ يا جمالُ بما تشاءُ مُظَفَّراً ... إنّ الطغاةَ قصيرةُ الآجالِ

واظلمْ كما تهوى .. فظلمكَ سائغٌ ... لا تستكِن لبوادر الزلزالِ

وارْمِ البلادَ لكيْ تظلّ تسومنا ... خسْفاً، بمثل مكيدة العُمّالِ

كذلك، نرى في -الديوان الممنوع- قصيدة (جمال .. يعود من باندونج) المؤرخة بتاريخ سنة ١٩٥٥ بلغ فيها الشاعر ذروة غضبه وسخطه على (عبد الناصر) بلْ راح يحثو التراب في وجهه، ويهجوه هجاءً مُرّاً .. ونحن نتساءل: لماذا يُهجَى عبد الناصر العائد من قمة زعماء الحياد التي انعقدت في باندونج، ويُتهَم بأنه فاق الطغاة ضراوة، وأنه صَبَّ البلاء على العباد .. فأين البلاء والرعب في هذه الفترة؟ جاء في القصيدة:

مَنْ ذلك الصنديدُ ردّدتْ اسمهُ ... هذي الألوفُ وقلّدتهُ وِساما؟
أوليس من فاق الطغاةَ ضراوةً ... وأحلّ مِنْ حُرّ الدماءِ حراما؟
أوليس مَنْ صبّ البلاء مضاعفاً ... وأثارَ للرعبِ البغيض قَتَاما؟
أوليس مُنْكِرُ كلّ حقٍ حولهُ ... ولوِ استطاعَ لأنكرَ الإسلاما؟
قدْ كان أولى بالبلاد لو أنّها ... مِنْ حُزْنها خَفَضَتْ لذاكَ الهاما

إنْ كنا لا نختلف مع هذا المضمون الشعري بحال من الأحوال، لكن نختلف على الفترة الذي سُجّل فيها، فلا يمكن أن يكون هذا الخطاب الشعري نتاج «الخمسينيات» بلْ بعد ذلك بسنوات. فهو يؤرخ لحقبة مظلمة من القهر والطغيان، فمثلاً نجد قصيدة (مع الثورة .. في ربقة القيد) والموقعة بتاريخ سنة ١٩٥٥ يذكر المعتقلات والسجون التي اكتظت بالنزلاء والمشانق التي نُصبت فوق الرءوس .. أليستْ هذه صورة واقعية لحقبة الستينيات؟! يقول:

هو الظلم يا ابن النيلِ بالنيل نازلُ ... تمرُّ بكَ الأعوامُ والليلُ شاملُ
صباحكَ ديجورٌ .. وحقّك ضائعٌ ... وعهدكَ مخفورٌ .. فما أنتَ فاعلُ
خداع ومكرٌ واعتداءٌ وفتنةٌ ... تموجُ بها أرضٌ، ويطفحُ ساحلُ
أرى كل يوم للطغاة مكيدةٌ ... فلا الحقُّ موضوعٌ ولا الجوْرُ زائلُ
سجونٌ قدْ اكتظّتْ بمن نزلوا بها ... ومعتقلاتٌ أفعمتها الجحافلُ

وقد نُصِبتْ فوق الرؤوس مشانقٌ   لِمَنْ يبتغي دفْعاً لهُمْ أو يحاولُ!

الملاحظ في «القصائد العشر» أنها تخلو من روح الشاعرية، وينعدم فيها الخيال، إذْ هي أشبه ببيانات وخطب سياسية، أو هي قريبة الشبه بلغة صحافة المعارضة، بما فيها من شدة ألفاظها وقوة عباراتها. فانظر إلى قصيدة «نواب الأُمة» وهي صورة حية لفترة «الستينيات» التي تَفَرْعَنَ فيها عبد الناصر بالفعل، وليست فترة «الخمسينيات» كما كُتِبَ في القصيدة. فشاعرها يرسم صورة حية لنواب البرلمان «أهل الثقة» الذين يصير ولاؤهم للحاكم أكثر من ولائهم لدينهم وأمتهم وشعوبهم! فهاهو الشاعر (المجهول) يرسم بريشته صورة لهذا البرلمان .. في قصيدته (نوّاب الأمة) المسجلة بتاريخ سنة ١٩٥٧ فيقول:

ها هُم كما تهوى .. فحرّكهم دُمَى   لا يفتحونَ بغير ما ترضى فَماً
إنّا لنعلمُ أنهم قدْ جُمّعوا   ليُصفّقوا إنْ شئتَ أنْ تتكلما
وهمُ الذين إذا صببتَ لنا الأسى   هتفوا بأنْ تحيا لمصرَ وتسْلما
لمْ تلقَ خيراً منهمو ليُشرّعوا   ما تشتهي، ويكبّروا لكَ كلّما
قد كنتَ مكشوف النوايا فاتخذْ   منهمْ لتحقيقِ المطامعِ سُلّما
وسطوْتَ قبل اليوم تحذرُ لائماً   فالآنَ تسطو لا تخافُ اللُّوّمَا

على جانب آخر؛ فإننا عندما ننظر في ديوان «هاشم الرفاعي» نجد أغلبه من الشّعر الرديء، وجل قصائده تدور حول القرية والمدرسة والمناسبات الإجتماعية والدينية، فلا علاقة بين شاعريته، وشاعرية صاحب «القصائد العشر» المجهول!

وهذه قصيدة من (الديوان الممنوع) بعنوان «جلاد الكنانة» كُتِبَت عام ١٩٥٥ تكشف لنا حقيقة الانتحال في شعر هاشم الرفاعي، وتؤكد صحة ما ذهبنا إليه آنفاً.

***

جلاّد الكنانة

أَنْزِلْ بِهَذَا الشَّعْبِ كُلَّ هَوَانِ وَأَعِدْ عُهُودَ الرِّقِّ لِلأَذْهَانِ
واقْتُلْ بِهِ مَا اسْطَعْتَ أيَّ كَرَامَةٍ وافْرِضْ عليهِ شَرِيعَةَ القُرْصَانِ
أَطْلِقْ زَبَانِيَةَ الجَحِيمِ عَلَيْهِ مِنْ بُولِيسِكَ الحِزْبِيِّ وَالأَعْوَانِ
واصْنَعْ بِهِ ما شِئْتَ غَيْرَ مُحَاسَبٍ فَالْقَيْدُ لَمْ يُخْلَقْ لِغَيْرِ جَبَانِ

* * *

يَا بَاعِثَ الوادي .. أَمَا مِنْ جَنَّةٍ لِلمُتَّقِينَ بِجَانِبِ النِّيرَانِ
هَدَّمْتَ صَرْحَ فَسَادِهِ .. لَكِنْ عَلَى حُرِّيَةِ الأَرْوَاحِ والأَبْدَانِ
مَا بَيْنَ مَحْكَمَةٍ تُقَامُ وأُخْتِهَا مُنِيَ الضَّمِيرُ بِغَفْوَةِ النَّعْسَانِ
الشَّعْبُ يَلْعَنُهَا، وتُقْرَنُ باسْمِهِ أَرَأَيْتَ كَيْفَ تَبَجُّحُ الْبُهْتَانِ
فيها القُضَاةُ هُمُ الخُصُومُ، وإنَّهَا لَعَدَالَةٌ مُخْتَلَّةُ الْمِيزَانِ

* * *

هَبنِي خُدِعْتُ بِكُلِّ ما زَيَّفْتَهُ عَنْ سَادَةِ الأحْزَابِ والإِخْوَانِ
هَلْ خَانَ قائِدُنَا «نَجيبٌ» عَهْدَنَا أَمْ رَاحَ نَهْبَ الحِقْدِ والأَضْغَانِ
لَمْ يَرْضَ بِالحُكْمِ انْفِراداً غَادِراً بَعْدَ الْعُهُودِ وَبَيْعَةِ الرِّضْوانِ
أَوَ كُلُّ شَهْمٍ لاَ يَطِيقُ خِدَاعَكُمْ أَضْحَى لَدَيْكُمْ خَائِنَ الأَوْطَانِ؟
إِنَّ الشَّهِيدَ قَتِيلَكُمْ .. وَطَرِيدَكُمْ حُرٌّ .. وليس سَجِينُكُم بِمُدَانِ

* * *

كفَلُوا لِكُلِّ مُواطِنٍ حُرِّيَّةً فِي الرَّأْيِ .. إِنْ أَثْنَى عَلَى الطُّغْيَانِ
مَنْ ذَا الَّذِي يَخْشَى الْكَلاَمَ وهَا هُوَ قَدْ أَطْلَقُوا لِلزُّورِ كُلَّ لِسَانِ
هَذِي الصَّحَافَةُ حُرَّةٌ أَقْلاَمُهَا فِي جَوْفِ أَرْبَعَةٍ مِنَ الجُدْرَانِ
لَمْ تَخْشَ بَأْسَ رَقَابَةٍ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَلْقَوْا بِهَا في ظُلْمَةِ الْقُضْبَانِ

أَمّـا الإِذَاعـةُ فَهْـيَ بُـوقُ دَعَايَـةٍ عَـادَتْ بِـدَاء الـوَقْرِ لِـلآذَانِ
مُلِئَـتْ بِكُـلِّ مُخَـدِّر ومضـلِّلٍ مِـنْ مَـائِعَ الأَخْبَـارِ والأَلْحَـانِ

*** ***

زَعَمُـوهُ عَهْـدَ تَقَـدُّمٍ نَحْـوَ الْعُـلاَ جَعَـلَ المُـوَاطِنَ صَـاحِبَ السُّـلْطَانِ
فَعَجِبْـتُ كَيْـفَ يُرِيـدُ مَجْـدَ بِـلاَدِهِ مَـن رَاحَ يَطْبَعُهَـا عَـلَى الخُـذْلاَنِ
جَلَبُـوا الشَّـقَاءَ لَنَـا.. فَـأَيُّ نَقِيصَـةٍ لَم تَنْـتشِرْ يَوْمَـاً بِكُـلِّ مَكَـانِ؟
وَصَـفُوا الـدَّوَاءَ لِرِشْـوَةٍ مَذْمُومَـةٍ فَـإِذَا بِهَـا أَنْكَـى مِـنَ السَّرطَـانِ
وَتَظَـاهَرُوا بِفَنَـاءِ مَحْسُـوبِيَّةٍ وَشُـيُوعُها مَـا احتَـاج لِلبُرْهَـانِ
وَدَعَـوْهُ عهْـد تَحَـرُّرٍ مِـنْ قَيـدِنَا لَبَسُـوا مُسُـوحاً فيـه للرُّهْبَـانِ
فَرَأَيْـتُ شَـعْباً مُسْـتَذَلاً صَـاغِراً نَحْـوَ السُّـجُونِ يُسَـاقُ كالقُطْعَـانِ
يَسْـتَعْمِلُ الأَشْرارُ فِي تَعْذِيبِـهِ مَـا فَـاقَ كُـلَّ وَسَـائِلِ الشَّـيْطَانِ
الرِّفْـقُ بِـالحَيَوَانِ أَصْـبَحَ وَاجِبَـاً أَفَـلا نَنَـالُ الرِّفْـقَ بِالإِنْسَـانِ؟

*** ***

قَـالُوا: القَضَـاءُ عَـلَى الفَـوَارِقِ بَيْنَنَـا وإِزَالَـةُ الأَلْقَـابِ مُقْتَرِنَـانِ
أيُّ الـتِّمَارِ أَصَـابَ بَعْـدَ زَوَالِهَـا مَـنْ بَـاتَ يَجْـرَعُ سَـابِقَ الحِرْمَـانِ
قَـدْ أُبْـدِلَ الْبَاشَـا الْقَـدِيمُ بِسَـيِّدٍ والشَّـعْبُ بَيْـنَهُمَا المَـرِيضُ الْعَـانِي
كَـمْ جَـائِعٍ قَـدْ خـاف جَـلاَّداً لَـهُ فَـأَسَرَّ بالشَّـكْوَى إِلى عُرْيَـانِ
ومُعَـذَّبٍ سَـمِعَ الـدُّجَى أَنَّاتِـهِ مُـتَعَلِّلاً بالصَّـبرِ والإِيمَـانِ
مَـارَدَّ جُوعَـاً .. أَوْكَسَـا عُرْيَـاً بَـدَا تَحْدِيـدُهُمْ مِلْكِيَّـةَ الأَطْيَـانِ
المَـالُ قَـدْ أَفْنَـوْهُ كَـيْ يَتَظَـاهَرُوا بِتَتَـابُعَ التَّشْـيِيدِ والْعُمْـرَانِ
مَـاذا أَفَـادَ النيـلُ مِـنْ كُورنيشـهِ إنْ كَـانَ يَشْـكُو ذِلَّـةً وَيُعَـانِى
إِنَّ السَّـجِينَ إِذَا ارْتَـدَى مِـنْ سُـنْدسٍ فِي الْقَيْـدِ لاَ يَرْتَـاحُ لِلسَّـجَّانِ

شَغَلَ الكُمَاةُ الغُرُّ كُلَّ وَظيفَةٍ ... مَدَنِيَّةٍ تَرْنُو لَهَا الْعَيْنَانِ
وَتَرَبَّعُوا في دَسْتِ كُلِّ وَزَارَةٍ ... وَتَسَلَّمُوْا في النِّيلِ كُلَّ عَنَانِ
حَتَى كَأَنَّ بِمِصْرَ كُلِّ كَفَاءَةٍ ... قَصُرَتْ عَلَى أَبْطَالِهَا الفُرْسَانِ
وَأَرَى الْعَدُوَّ بِبَابِنَا مُتَرَبِّصاً ... وَيَكَادُ أَنْ يَنْقَضَّ كالعِقْبَانِ
كَمْ شَنَّ عِنْدَ حُدُودِنا مِنْ غَارَةٍ ... قَدْ قُوبِلَتْ بالصَّفْحِ والغُفْرانِ
فَالْجُيْشُ مَشْغُولٌ بِإِذْلالِ الحِمَى ... هَلْ خَوْضُ مَعْرِكَتَيْنِ في الإِمْكَانِ؟!
يَكْفِيهِ عَرْضُ الجُنْدِ في حَفَلاتِهِ ... وَالْكَشْفُ عَمَّنْ فِيهِ مِنْ شُجْعَانِ
لَنْ نُدرِكَ النَّصْرَ الْمُرَادَ إِذَا الْتَقَى ... يَوْمَاً بإِسْرَائيلَ في مَيْدَانِ
أَنُرِيدُ مِنْ جَيْشٍ هَزِيلٍ قَادَهُ ... «صَاغٌ» دِفَاعَاً سَاعَةَ العُدْوَانِ

* * *

جَلادَ مِصْرَ.. وَيَا كَبِيرَ بُغَاتِهَا ... مَهْلاً، فَأَيَّامُ الخَلاصِ دَوَانِي
مِنْ أَيِّ غَابٍ قَدْ أَتَيْتَ بِشرْعَةٍ ... مَا إِنْ يُسَاسُ بِهَا سِوَى الحَيَوانِ؟
وبِأَيِّ قَانُونٍ حَكَمْتَ فَلَمْ تَدَعْ ... شَيئاً لِطَاغِيَةٍ مَدَى الأَزْمَانِ؟
أَبِرَأْيِكُمْ ؟ واللهُ يَشْهَدُ أَنَّهُ ... فِيهِ الهَوَى والغيُّ يَلْتَقِيَانِ
أَمْ ذاكَ رأي الشعب .. وهو مكبّلٌ ... فحياته والمَوْتُ يستويانِ؟
قَدْ بَاتَ مِثْلَ الزَّوْجِ مَخْدُوعَاً .. مَتَى ... يَعْلَمْ فَبَعْدَ تَحَدُّثِ الجِيرَانِ
لَوْ كَانَ عَهْدُكَ قَبْلَ عَهْدِ «مُحَمّدٍ» ... لَلُعِنْتَ يَا فِرعَوْنُ في الْقُرْآنِ!

* * *

في ظِلِّ فَتْرَةِ الانْتِقَالِ بِنَا إِلَى ... دَارِ الْبَقَاءِ وَرَحْمَةِ الدَّيَّانِ
هَجَرَ الْقَضَاءَ الْحُرَّ مَجْلِسُ دَوْلَةٍ ... قَدْ نَامَ مِلءَ العَيْنِ والأَجْفَانِ
وأُضِيعَ دُسْتُورُ البِلادِ وحَقُّهَا ... في بَرْلَمَانٍ ثَابِتِ الأَرْكَانِ
نِيرونُ لَوْ قِيسَتْ بِهِ أَفْعَالُكُمْ ... سَيَكُونُ رَبَّ الخَيرِ والإِحْسَانِ

يــا رُبَّ مَغْلُــوبٍ يَنَــامُ عَــلَى الأَذَى ... لَكِــنْ بِمُقْلَــةِ سِــاهِرٍ يَقْظَــانِ

لا يُغْرِيَنَّكُمُــــو بِضَرْبِ رِقَابِنَــــا ... هَـــذَا السُّـــكُونُ فَإِنَّـــهُ لأَوَانِ

ومَــنَ الْعَوَاصِــفِ مَــا يَكُــونُ هُبُوبُهَــا ... بَعْـــدَ الْهُـــدُوْءِ وَرَاحَـــةِ الرَّبَــانِ

إِنَّ احْتِــدامَ النَّــارِ فِي جَــوفِ الثَّــرَى ... أَمْـــرٌ يُثِــيرُ حَفِيظَـــةَ الْبُرْكَــانِ

وتَتَــابُعَ القَطَــرَاتِ يُنْــزِلُ بَعْــدَهُ ... سَـــيْلٌ يَلِيـــهِ تَـــدَفُّقُ الطُّوفَــانِ

كَــمْ مِــنْ قَــوِيٍّ ظَــالِمٍ قَــدْ نَالَــهُ ... مِــنْ شَــعْبِهِ مَــا لَــيْسَ فِي الْحُسْبانِ

فَتَّشْـــتُ لَمْ أَرَ مُسْـــتَبِدًّا نَاجِيَـــاً ... دَمْــعُ الضَّــحَايَا فَــاحِشُ الأَثْــمَانِ

عَــرَفَ «الشيشــكلي» قَــبْلكم فِي سُــورِيَّا ... مَـــاذَا وَرَاء الصَّـــمْتِ والإِذْعَـــانِ

فَــاروق لم يَكُــنْ الخيــالُ يَــرَاهُ فِي ... يَــوْمِ الْخُــرُوجِ يُجَــرُّ فِي الأَحْــزَانِ

مَــا كَــانَ فِينَــا حَــالِمٌ بِنُزُولِــهِ ... عَــنْ عَرْشِــهِ فِي لَحْظَــةٍ وَثَــوَانِ

لكنَّـــهُ ظُلْـــمُ الطغَّـــاةِ شُـــعُوبَهَا ... جَعَــلَ الْحَيَــاةَ تَــدِبُّ فِي الْجُــثْمانِ!



رسالة في ليلة التنفيذ!

قصيدة (رسالة في ليلة التنفيذ) يعرفها كل الناس، بعدما ترددت في كل مكان، ونالتْ حظاً من الذيوع أكثر من أيّ قصيدة أخرى في العصر الحديث .. وهي منسوبة -أيضاً- للشاعر الشاب هاشم الرفاعي! وعندما بحثنا عن تاريخ القصيدة تضاربت التواريخ بطريقة تكشف عن مغالطات مقصودة!

إنه من المستحيل، أن يكون الشّاعر الذي مات في مقتبل عمره (24 عاماً) صاحب هذه القصيدة، لاسيما إذا علمنا أنه كان ممن لهم حظوة خاصة لدى النظام المستبد الحاكم آنذاك! وله قصائد مثبتة في ديوانه يمدح رأس النظام وحواشيه!

وهل من المعقول أن تظهر قصيدة مثل هذه في ظل الظروف السائدة في ذلك العصر، الذي كانت المخابرات والبوليس الحربي يتنصّتون على ما في بطون الحوامل؟!

الأهم من ذلك كله؛ لماذا خلا ديوان «هاشم الرفاعي» من أيّة قصيدة مشابهة لقصيدة «رسالة في ليلة التنفيذ»؟ بلْ إنّ الفجوة عميقة جداً، والهوّة سحيقة للغاية بينها وبين بقية قصائد الديوان!

كما أنها تختلف في روحها ومشاربها وقاموسها الشعري عن «القصائد العشر» التي أسلفنا الحديث عنها.

إن قصيدة «رسالة في ليلة التنفيذ» لابد أن تكون لشاعر غاص في أعماق الصراع السياسي والمذهبي، ولديه إلمام واسع جداً بفلسفة الحياة وألاعيب السياسة ودهاليزها آنذاك، وليس لشاعر شاب ضحل الثقافة، لم تكتمل ملكاته الشعرية، ولم يتمكن من أدواته الإبداعية.

أكتفي بهذه الشواهد، ويكفي من القِلادة ما يحيط بالعنق! وإلى القصيدة:

رسالة في ليلة التنفيذ

أبتـاهُ، مـاذا قـد يخـطُّ بنـاني ... والحبـلُ والجـلاّدُ منتظـرانِ

هـذا الكتـاب إليـك مـن زنزانـةٍ ... مقـرورةٍ صـخريةِ الجـدرانِ

لم تبـقَ إلاَّ ليلـةٌ أحيـا بهـا ... وأحـسُّ أنّ ظلامهـا أكفـاني

سـتمرُّ يـا أبتـاهُ -لسـتُ أشـكُّ في ... هـذا- وتحمـل بعـدها جثماني

***

الليـلُ مـن حـولي هـدوءٌ قاتـلٌ ... والـذكرياتُ تمـورُ في وجـداني

ويهُـدّني ألمـي، فأنشـدُ راحتـي ... في بضـع آيـاتٍ مـن القـرآنِ

والـنفسُ بـين جـوانحي شـفّافةٌ ... دبَّ الخشـوعُ بهـا فهـزّ كيـاني

قـدْ عشـتُ أومـنُ بالإلـهِ، ولمْ أذق ... إلاَّ أخـيراً لـذّة الإيـمان

شـكراً لهـم، أنـا لا أريـدُ طعـامهم ... فليرفعـوه، فلسـتُ بالجوعـان

هـذا الطعـامُ المُـرُّ مـا صـنعتهُ لي ... أُمـي، ولا وضـعوه فـوق خِـوانِ

كـلاَّ، ولم يشـهده يـا أبـتِ معـي ... أخـوان لي جـاءاه يسـتبقانِ

مـدّوا إليّ بـه يـداً مصـبوغةً ... بـدمي، وهـذي غايـة الإحسـان

والصـمتُ يقطعـه رنـينُ سلاسـلٍ ... عبثـتْ بهـنّ أصـابع السـجّان

مـا بـين آونـةٍ تكـرُّ وأُختهـا ... يرنـو إليَّ بمقلتـيْ شـيطانِ

مـن كـوّة بالبـابِ يرقـبُ صـيده ... ويعـودُ في أمـنٍ عـلى الـدورانِ

أنـا لا أحـسُّ بـأيِّ حقـدٍ نحـوه ... مـاذا جنَـى؟ فتمسّـه أضـغاني

هـو طيـب الأخـلاق مثلـكَ يـا أبي ... لمْ يبـدُ في ظمـأٍ إلى العـدوان

لكنـه إنْ نـام عنـي لحظـةً ... ذاق العيـالُ مـرارة الحرمـانِ!

فلـربما -وهـو المـروّعُ سِـحْنةً- ... لـوْ كـان مـثلي شـاعراً لرثـاني!

أو عاد -مَنْ يدري- إلى أولاده ... يوماً، وذُكِّرَ صورتي لبكاني
وعلى الجدار الصلب نافذةٌ بها ... معنى الحياة، غليظة القضبانِ
قد طالما شارفتها متأملاً ... في السائرين على الأسى اليقظان
فأرى وجوماً كالضبابِ مُصوِّراً ... ما في قلوب الناس من غليانِ
نفس الشعور لدى الجميع، وإنْ همُ ... كتموا، وكان الموت في إعلاني
ويدور همسٌ في الجوانح ما الذي ... بالثورة الحمقاءِ قد أغراني؟
أوَ لم يكن خيراً لنفسي أن أرى ... مثل الجميع أسيرُ في إذعاني؟
ما ضرّني لوْ قد سكتُّ، وكلما ... غلبَ الأسى بالغتُّ بالكتمان؟
هذا دمي، سيسيلُ، يجري مطفئاً ... ما ثار في جنبيَّ من نيرانِ
وفؤاديَ الموّار في نبضاته ... سيكفُّ في غَدِهِ عن الخفقان
والظلمُ باقٍ، لنْ يحطّم قيده ... موتي، ولن يُودي به قرباني
ويسيرُ ركبُ البغي ليس يضيره ... شاةٌ إذا اجتُثّتْ من القطعان

* * *

هذا حديث النفس حين تشفُّ عن ... بشريّتي، وتمورُ بعد ثواني
وتقولُ لي: إنّ الحياة لغايةٌ ... أسمى من التصفيق للطغيانِ
أنفاسكَ الحرّى وإنْ هي أُخمِدتْ ... ستظلُّ تغمرُ أفقهم بدخانِ
وقروحُ جسمكَ وهو تحت سياطهم ... قسماتُ صبحٍ يتقيه الجاني
دمعُ السجينِ هناكَ في أغلالهِ ... ودمُ الشهيدِ هنا سيلتقيانِ
حتى إذا ما أُفعِمتْ بهما الرُّبَى ... لمْ يبقَ غير تمرد الفيضان
ومن العواصف ما يكونُ هبوبها ... بعد الهدوءِ وراحة الرّبّانِ
إنّ احتدام النّار في جوف الثرى ... أمرٌ يثيرُ حفيظة البركان
وتتابع القطرات ينزلُ بعده ... سيلٌ يليه تدفّق الطوفان

فيموجُ، يقتلعُ الطغاةَ مُزمجِراً ... أقوى من الجبروتِ والسلطان

أنا لستُ أدري، هل ستذكرُ قصتي ... أمْ سوف يعروها دُجى النسيان؟

أوْ أنني سأكونُ في تاريخنا ... متآمراً أمْ هادمَ الأوثان؟

كلّ الذي أدريه أنّ تجرعي ... كأس المذلّة ليس في إمكاني

لوْ لم أكن في ثورتي متطلباً ... غير الضياء لأُمتي لكفاني

أهوى الحياةَ كريمةً، لا قيْد، لا ... إرهابَ، لا استخفافَ بالإنسان

فإذا سقطتُ، سقطتُ أحمل عزتي ... يغلي دمُ الأحرار في شرياني

* * *

أبتاهُ، إنْ طلع الصباحُ على الدُّنا ... وأضاء نورُ الشمسِ كل مكانِ

واستقبل العصفورُ بين غصونه ... يوماً جديداً مشرقَ الألوان

وسمعتَ أنغام التفاؤل ثرّةً ... تجري على فمِ بائع الألبانِ

وأتى -يدقُّ كما تعوّد- بابنا ... سيدقُّ باب السجنِ جلّادانِ!

وأكونُ بعد هُنيْهةٍ متأرجحاً ... في الحبلِ مشدوداً إلى العيدانِ

ليكنْ عزاؤك أنَّ هذا الحبلَ ما ... صنعته في هذي الربوعِ يدانِ

نسجوه في بلدٍ يشعُّ حضارةً ... وتُضاءُ منه مشاعل العرفان

أو هكذا زعموا، وجيء به إلى ... بلدي الجريح على يد الأعوانِ

أنا لا أريدكَ أنْ تعيش مُحطّماً ... في زحمة الآلام والأشجان

إنّ ابنكَ المصفودَ في أغلاله ... قدْ سِيقَ نحو الموتِ غير مُدانِ

فاذكر حكاياتٍ بأيام الصبا ... قدْ قلتها لي عن هوى الأوطانِ

وإذا سمعتَ نشيجَ أُمّي في الدّجى ... تبكي شباباً ضاع في الريعان

وتكتّم الحسرات في أعماقها ... ألماً تواريه عن الجيرانِ

فاطلبْ إليها الصفحَ عني، إنّني ... لا أبتغي منها سوى الغفران

إنني ما زال في سمعي رنين حديثها ... ومقالها في رحمةٍ وحنانِ
أبُنيَّ: إني قد غدوتُ عليلةً ... لمْ يبقَ لي جلَدٌ على الأحزان
فأذِقْ فؤادي فرحةً بالبحث عن ... بنت الحلال ودعكَ من عصياني
كانت لها أُمنيةٌ ريّانةٌ ... يا حُسنَ آمالٍ لها وأماني!
غزلتْ خيوط السعدِ مخضلاً ولم ... يكن انتقاض الغزلِ في الحسبان
والآن لا أدري بأيّ جوانحٍ ... ستبيتُ بعدي أمْ بأيّ جنانِ

***

هذا الذي سطّرته لكَ يا أبي ... بعض الذي يجري بفكرٍ عانِ
لكن إذا انتصر الضياءُ ومُزّقتْ ... بيد الجموع شريعةُ القرصانِ
فلسوف يذكرني ويُكْبِرُ هِمّتي ... مَنْ كان في بلدي حليفَ هوانِ
وإلى لقاءٍ تحت ظل عدالةٍ ... قُدسيّةِ الأحكامِ والميزانِ!

رسالة في ليلة النصر!

صاحب هذه الرسالة، هو الشهيد «شكري مصطفى» أحد أبناء الحركة الإسلامية بمصر في النصف الثاني من القرن العشرين. وبعيداً عن مدى صواب أوْ خطأ هذه الحركة، وما كان من أمرها، ولتقلبات الفكرية والسياسية التي مرتْ بها، فليس هذا موضوعنا، إنما نحن بصدد لونٍ معين من الشّعر، اختلفت أهداف وغايات أصحابه، وتباينت مشاربهم -أوْ كما أوضحنا في مقدمة الكتاب- بأننا لسنا طرفاً في الصراعات الكلامية والمذهبية التي دارتْ رحاها بين الشّعراء والحكّام، فربما نختلفُ مع كثير من هؤلاء الشّعراء في آرائهم وفلسفاتهم، كما لا نوافقهم في كثير من مواقفهم .. خاصة إذا علمنا أنهم غير راضين عن أنفسهم، ولا عن بعض أشعارهم. فكثيراً ما كانوا ينتقدون أنفسهم، ويعيدون كتابة قصائدهم أوْ يتخلّصون من بعضها إذا لزم الأمر!

إذن، فلا جناح عندما ننقل أشعارهم أوْ نستشهد بقصائدهم، وحسبنا القاعدة التي تقول: (ناقل «الشِّعر» ليس بكافر)!

فنحن لا نستطيع أن نُكمِّم أفواه الشعراء، ولا نملك أن ننْتزع منهم مواهبهم وملكاتهم الخلاّقة، فالشاعر كائن غريب أوْ غير طبيعي، غالباً ما تدفعه نفسه الأمّارة بالشِّعر دفعاً إلى التهلكة، وتسوقه رغماً عنه إلى مصيره المحتوم!

نعود إلى قصيدة (رسالة في ليلة النصر) لشكري مصطفى، التي بمجرد سماع القارئ لعنوانها، سرعان ما تستحضر ذاكرته قصيدة (رسالة في ليلة التنفيذ) المجهولة المصدر، والمنسوبة خطأً للشاعر هاشم الرفاعي، والتي أسلفنا الحديث عنها. فقصيدة (رسالة في ليلة النصر) ما هي إلاَّ معارضة لقصيدة (رسالة في ليلة

التنفيذ) ليس في الوزن والقافية فحسب، بلْ حتى في الغرض والمضمون والرسالة التي حملتها إلى القارئ، ومع أن صاحب (رسالة في ليلة النصر) كان شاعراً متميزاً، لكن ظاهر الأمر أنه كان ولهاناً بقصيدة (رسالة في ليلة التنفيذ) فتأثّر بها كثيراً، واستلهم منها كثيراً من الألفاظ والمصطلحات والصور والمعاني.

لكن هناك فوارق كثيرة بين القصيدتيْن أوْ بين الشاعريْن، سواء في شخصية كل منهما وطبيعته النفسية، أوْ في ثقافة كل منهما وقدرته على التعبير، أوْ على المستوى الفني في القصيدتيْن، أوْ في مدى التأثير والانتشار لكل من القصيدتيْن .. ومن ثمّ النتائج التي يمكن أن تترتب على هذه القصيدة أوْ تلك!

- قصيدة **(رسالة في ليلة التنفيذ)** تتغلغل فيها الجوانب الإنسانية في أدق معانيها، فهي لسان حال أيّ سجين، وفي أيّ زمان وأيّ مكان. أمّا قصيدة **(رسالة في ليلة النصر)** فتتدفق في جنباتها النزعة الدينية في أسمى درجاتها-أوْ بمعنى آخر- يطغى عليها الجانب «الأيديولوجي» كأشعار الخوارج والشيعة وذوي الانتماءات الدينية والعقدية الصرفة.

- يُشتمُّ من نفسية صاحب **(رسالة في ليلة التنفيذ)** أنه كان أكثر تسامحاً وغفراناً مع خصومه وسجّانيه، بلْ نراه يتلمّس لهم الأعذار، رغم الصورة القاتمة والموحشة التي رسمها لزنزانته وكأنها في قعر الجحيم. بينما نجد صاحب **(رسالة في ليلة النصر)** أكثر حنقاً وغيظاً من خصومه، مما جعله يرميهم بأقذع الألفاظ وأشنع الصفات، رغم الصورة الوردية التي رسمها لزنزانته، أوْ كما وصفها بأنها روضة!

- نونية **(رسالة في ليلة التنفيذ)** بمثابة صورة من صور الصراع الاجتماعي المحتدم بين الظالم والمظلوم، والقاتل والمقتول. بينما تحوّل الصراع في «نونية» صاحبه إلى صراع عقدي، بين الكفر والإيمان.

- صورة «السجين» في (رسالة في ليلة التنفيذ) يبدو في غاية الذعر والرهبة

والاضطراب من لحظة الإعدام، خاصة عندما يتذكر الصبا والشباب ونداء أمه والأماني العِذاب. أمّا (شكري) فكانت تملؤه الطمأنينة وتتنزّل عليه السكينة، بلْ في غاية الشوق والترقّب للحظة الخلاص، لأنه سيصل إلى بر الأمان، ومرفأ السلامة!

- قصيدة (رسالة في ليلة التنفيذ) ألقتْ الرعب في نفس قارئها، وأصابت الجماهير بالذعر، والهزيمة النفسية، وهذا من شأنه يقلل من فرص الجهاد، أو المواجهة مع الطغاة. أمّا قصيدة (شكري) فهي بمثابة دعوة للجهاد والمُضي قُدُماً نحو تحرير الإنسان من الخنوع والاستعباد.

- نجح صاحب (رسالة في ليلة التنفيذ) بامتياز في الوصف ورسم الصور البيانية. لكن (شكري) جانبه الصواب عندما حمّل قصيدته بالفكر والمضامين العقائدية على حساب الفن.

- أثر البيئة الذي يتمثل في «الريف المصري» يتجلّى واضحاً في (رسالة في ليلة التنفيذ) مثل: بائع اللبن الذي يترنّم بالألحان، وصورة الأم اللاهثة في طلب «بنت الحلال» لفلذة كبدها. على حين تختفي هذه الملامح في (قصيدة شكري) فمن السهل أن تكون قصيدته لسان حال أحد المعتقلين في سجون العراق أو سوريا أو غير ذلك.

- صاحب (رسالة في ليلة التنفيذ) مملوء بالفزع والرعب والقلق الشديد والتوجس والوحشة والآلام التي تحاصره وذكريات الماضي .. كل تلك الرؤى حبستْ أنفاس القارئ مما جعله يتعاطف معه مهما كانت جنايته. في حين نجد مبالغة (شكري) في مناوأته لخصومه، وإسرافه في التحدّي، ورباطة الجأش، أفقده جانباً كبيراً من تعاطف القارئ معه، لأنّ التعاطف غالباً ما يكون مع الضعيف أكثر منه مع القوي، حتى وإن كان الاثنان في نفس المحنة.

- تسلسل المواقف والأحداث في (رسالة في ليلة التنفيذ) كان تسلسلاً درامياً،

يصل بالقارئ إلى غايته دون عناء ذهني، رغم كل المشاهد والرؤى التي تخللت «النونية». بينما انفرط عقد نونية صاحبه، سواء في تقديم المشاهد وتأخيرها، أو في الحوارية التي بينه وبين أبيه.

- امتازت (رسالة في ليلة التنفيذ) بتنوع المشاهد، واختلاف المناظر، وتباين الرؤى، والقفز عبر الزمان والمكان، واستحضار الشخصيات. بينما امتازت (رسالة في ليلة النصر) بشحذ الهمم، وعدم الاكتراث بالعواقب، والتحريض على مقاومة جيش البغي، وكأن صاحبنا يلقي خطاباً لجنوده قبل بدء المعركة.

-(رسالة في ليلة التنفيذ) فيها استلهام واضح للفلسفة الحياتية والقصص والحكايات الشعبية. بينما اتكأ (شكري) بقوة على التراث الإسلامي بتاريخه وثقافته الخصبة.

- أيضاً، نلاحظ أن (رسالة في ليلة التنفيذ) قد خلتْ من التكرار والغموض، فلا يوجد فيها السجع المتكلّف أو الألفاظ الغريبة. بينما تلعثم صاحبه في التعبير عن بعض المعاني التي كان يبحث عنها، كما أجبرته القافية على الإتيان بغريب الألفاظ أو ما يمكن أن نسميه «الألفاظ غير الشاعرية»!

ولعلنا نستطيع أن نوجز الفارق بين الشاعريْن .. فنقول: صاحب (رسالة في ليلة التنفيذ) كان ينحت في صخر. بينما كان (شكري مصطفى) يغرف من بحر!

- وكما هو الحال في جميع «المعارضات الشعرية» فالأفضلية دائماً تكون في صالح الأسبق أو الأقدم زمناً، فقد فاق ابن زيدون شوقي في «النونية». وفاق البوصيري كل من جاءوا من بعده. لكن هذا لا ينفي أن الشاعر «الثاني» أيْ الذي عارض مَنْ سبقه، قد يأتي ببعض الصور والمعاني والرؤى التي تكاد تذهب بالأبصار، وتتفوّق على ما جاء به «أستاذه الأول» .. وهذا الذي سوف نراه في قصيدة «رسالة في ليلة النصر» والتي كنا نتمنى أن يكون عنوانها (رسالة في ليلة الشهادة) لأن الشاعر

استُشهِد بالفعل، وكما هو دارج أو متعارف عليه أن لقب النصر لمن عاش على قيد الحياة، وأن لقب الشهادة لمن مات أو قُتل. وإنْ كان «الشاعر» يرى أن موته –في حد ذاته– نصر له، أو كما قال: أنا في دمي نصري ..!

جدير بالذكر أن (شكري مصطفى) له ديوان فيه قصائد كعقود الجمان، أخرجه وقدّم له الأديب ياسر غريب. لكن قبل أن نقرأ قصيدته التي نحن بصددها، نحاول الاقتراب من فنه أكثر، ليتسنّى لمن شاء الحكم على منزلته الأدبية، ومكانته الشعرية، ورؤاه الفكرية وخواطره وثقافته الحياتية، فنلتقط بعض الأبيات من قصيدته (من قبل الطوفان) التي يقول فيها:

من قبل الطُّوفان اسمعني يا عبد الله

واخرج من أرضك واتبعْني

في أرض فلاه

أرض في قلبي لم يُعبد فيها الشيطان

....

صدِّقني ، في الأرض الواسعة أمان

فتعالَ الله تعالى يا عبد الله

ماذا يعنيكَ من الدنيا بعد الإسلام؟

....

أنا لنْ أستسلم، سأحارب جيش الأصنامِ

سأكرُّ على جيش الطاغي أهدمه

في غير كلام

سأموتُ شهيداً منصوراً، ديني الإسلام

....

سأنوِّرُ بالحق الدنيا

لنْ أشكو، لن أذرف دمعات الثكلى

خلف القضبان

الناس ستشهد جندياً للحق يداه

ضمّت كفاه على التقوى، رسختْ قدماه

....

فالأرض الواسعة بلادي

وسأخرج من تلك الدنيا

رَغْمَ الدُّنيـــــا ..

وبعد، فهذه هي (نونية) شكري مصطفى .. التي تظهر -للقارئ- لأول مرة!!



رسالة في ليلة النصر

أبَتَـــاهُ لاحَ الشــــطُّ للرُّبَّـــانِ ... ودنـــا الأمـــانُ لقلبِـــهِ الحـــيران
وتـــلألأَتْ بـــين النّجـــومِ رســـالةٌ ... للفجـــرِ.. مـــن نـــورٍ ومـــن تحنـــان
وبـــدَتْ تباشـــيرُ الصَّـــباحِ تـــزفُّ لِي ... بشرى لحـــوقِ الركـــبِ بالركبـــان
ياتائهـــاً بـــين الـــبلادِ مِغُرَّبـــاً ... أبشرْ فســـاعاتُ اللّقـــاءِ دواني
دارُ الســـلامِ كـــما علمـــتَ ازَّيَّنَـــتْ ... مـــن يومهـــا للشـــائقِ الولهـــان
لم يبـــقَ فيـــه الشَّـــوقُ إلاّ ومضـــةً ... عذريـــةً جـــادت بهـــا العينـــان
وبقيَّـــةً مـــن أدمـــعٍ لم تُمـــتَهن ... أبـــدا.. ولم يُشرِقْ بهـــا خـــدَّان
محبوســـةً في القلـــب فاضـــت دفعـــةً ... كـــدمِ الشـــهيدِ هنـــاك أحمـــرَ قـــاني
مهـــما أطـــالَ الظـــالمون عذابَـــه ... فعـــذابُ حُـــرِّ الـــنفسِ غـــير جبـــان
لا مـــوتَ في مـــوتِ الشـــهيدِ.. وقتلـــهُ ... نصرُ الحيـــاةِ .. وعمـــرهُ عُمـــران
هـــذا الكتـــابُ إليـــك سُـــطِّرَ يـــا أبي ... مـــن خاضـــعٍ للواحـــدِ الـــديَّان
أُمْليـــه أثْبَـــتُ مـــا تكـــون جـــوارحي ... وأبُّـــثُّ أرْبـــطُ مـــا يكـــون جنـــاني
في وقفـــةٍ للحـــق يسري في دمـــي ... رَيْعَانُهـــا ويمـــورُ في وجـــداني
مـــا قـــام غـــيرُ المســـلمين لمثْلِهـــا ... أبـــداً ولا اشـــتدَّتْ بهـــا كفَّـــان
ولـــربما أطَّ الزمـــانُ مخافـــةً ... مـــن ثِقلِهَـــا.. وتـــأوَّه الملَـــوان
أبتَـــاه مـــا أحـــلى الســـكينةَ كلـــها ... زاد العـــذابُ تزيـــدُ في الإســـكان
وأقـــولُ مـــات اللَّيـــلُ!! إلاّ ليلـــةً ... بقيـــت كليـــلِ الحـــرِّ في الليـــمان
مـــا بينهـــا والصُّـــبحُ -غـــير الصُّـــبحِ- وا ... شـــوقاهُ للصُّـــبحَ الرفيـــقِ الـــداني
بنقائـــهِ وبهائـــهِ وضـــيائِهِ ... وجلالـــهِ وجمالـــهِ النـــوراني

روحـــي ومــا كانــت إليــه مُشــوقَةً آن الأوان .. غـــــداً ســـــيلتقيان
فـــرَّ الأســـيرُ إلى أمـــانِ بـــلادهِ ومشـــى عـــلى أرضٍ بغـــيرِ هـــوان
فـــاليوم لا استضـــعافَ لا حـــذرَ من الـدنيا ..ولا خـوفَ مـن الخـذلان
طهَّـرتُ أثـوابي مـن الـدَّنسِ الـذي ألصـــقتُه في صُـــحبةِ الشـــيطان
ونفضـتُ عنِّـي الأرضَ لا أحبابُهـا رحبـــي ولا خلانُهـــا خـــلاني
في مســـجدٍ شـــيَّدتُهُ في مهجتـــي عطرتُـــهُ بالمســـكِ والريحـــان
وحلفـــتُ حـــين بنيتُـــه ..فـــأبرَّني ربِّي ولمْ تحنـــثْ إذاً أيْـــمَاني
ألاَّ يمـــرَّ عليـــه إلاَّ طـــاهرٌ ممـــا يُحِـــبُّ وخـــالصُ الإيـــمان
وقـــفٌ عـــلى الإســـلامِ طُهـــرُ ترابِـــهِ وأساسُـــهُ وبنـــاؤهُ ..والبـــاني

*** ***

أبتَـاهُ في قلبـي مشـاهدُ مـن رؤى بـــدرٍ تـــرفُّ وبيْعـــةُ الرضـــوان
وأعـيشُ سـاعاتٍ كعمـرٍ كامـلٍ ليســـت ككـــلِ دقـــائقٍ وثـــواني
مستصـــحباً للمســـلمين وواقفـــاً معهـــم أُكلِّمُهـــم بكـــلِ لســـان
مـــن أول الإســـلامِ لا أرضٌ تُفـــرِّقُنا ولا زمـــنٌ مـــن الأزمـــان
زنزانتـــي روضٌ إذا مـــا زارهَـــا غيـــثُ الهـــدى أو زارَهـــا إخـــواني
أبتَـــاهُ حتَّـــام التنقّـــلُ والسُّرى في مـــوحشٍ قفـــرٍ مـــن العمـــران
أبتَـــاهُ مـــا تلـــك الحيـــاةُ نعيشُـــها عـــيشَ الأســـيرِ ومرتـــعَ العُبـــدان
غايـــاتهم مـــلءُ البطـــونِ وقـــولُهم في الخلـــقِ في ســـجنٍ مـــن الكـــتمان
أرأيـــتَ كيـــف يســـوقُنا جلاَّدُنـــا ســـوقَ الرعـــاءِ غرائـــبَ القطعـــان
ويســيرُ جـيشُ البغـي فـوق جمـاجمٍ منَّـــا وفـــوق كرامِـــة الإنســـان
أنـــا لا أرى عـــيشَ الـــذَّليلِ بأرضِـــهم إلا اليـــدَ اليُمنـــى مـــن الطغيـــان
يبقـــى مـــع البـــاقين في استضـــعافِهم ويَعُـــضُّ في غـــيظٍ عـــلى الأســـنان

أنـــا يـــا أبي أعلنـــتُ أولَ هجـــرتي ... فرفعـــتُ للطـــاغي يـــدَ العصـــيان

قلبـــاً صـــبوراً زال عـــن أدرانـــهِ ... متـــيماً أرضـــاً بـــلا أدران

ومضى يَغُـــذُّ الســـيرَ يبلـــغُ شَـــعْفَةً ... أو واديـــاً مـــن تلكـــم الوديـــان

إنْ كـــان ســـيفي اليـــوم لـــيس بقـــاطعٍ ... أو كنـــتُ صـــفرَ الكـــفِّ مـــن أعـــواني

فلقـــد دفعـــتُ بكـــل مـــا ملكـــت يـــدي ... وتركـــتُ للجبَّـــار مـــا أعيـــاني

وحفظـــتُ محـــضَ الحـــقِ بـــين جـــوانحي ... وأحطْتُـــهُ بشـــغاف قلبـــي الحـــاني

وأبحـــتُهم جســـماً نهايـــةُ أمـــرِه ... عنـــدي غـــداً واليـــوم يســـتويان

ظهـــراً كعُرجُـــون النخيـــلِ وأضـــلعاً ... ويـــداً مقَّرنـــةً بهـــا الســـاقان

فليســـتبيحوا مـــا اســـتباحوا مـــن ... فتـــى جَلـــدٍ وصـــبَّارٍ عـــلى الأقـــران

متقلِّـــبٍ في الجمـــرِ مكـــويٍّ ... ومطبـــوعٍ عـــلى الجنبـــاتِ بـــالنيران

مـــاذا جنـــوا إلاَّ دمـــاً ســـفكُوه ... لا.. أمَّـــا الفـــؤادُ فلـــيس في الإمكـــان

***

أرأيـــتَ يـــا أبتـــاهُ لـــو أنَّ الـــذي ... ألقـــاهُ مـــن إيـــذائهم.. أرواني؟

بعصِـــيِّهم بســـياطِهم بكلابِهـــم ... أفنـــوا عـــلى الإســـلام جســـمي الفـــاني

أو حـــرَّروا ذاك النحيـــلَ يحوطُـــهُ ... صـــفَّان مـــن جنـــدٍ ومـــن ســـجَّان

كبقيـــةٍ للـــنسر أفضى جِســـمَهَ ... كسرُ الجنـــاحِ وعابـــثُ الغلـــمان

ورأيتنـــي في ســـاعةٍ يـــا والـــدي ... بـــين الْتقـــاءِ الحبـــلِ بالعيـــدان

وتـــأرجحَ الجســـمُ النحيـــلُ كهـــزةٍ ... ليـــدين مـــن إلفـــيْن يفترقـــان

ولقـــد شـــهدتُ بـــها شـــهدتُ مُصـــدِّقاً ... ورجعـــتُ للـــربِّ الـــذي ربَّـــاني

وبخفـــةٍ في الليـــلِ واروه الثَّـــرى ... كـــم في الثـــرى جـــرمٌ جنـــاه الجـــاني

وأتـــتْ مجـــلاتُ الصـــباحِ عليمـــةً ... بمحادثـــاتِ الصُّـــمِّ والعميـــان

لتـــزُفَّ للمتمـــدينين مصـــارعَ ... الجُهَّـــال بـــين مقـــابضِ الشـــجعان

لتزُفَّ للغيلانِ صَلبَ الحقِّ ما ... صَلبُوه بين أئمةِ الغيلان
ورأيتَهم قد صوَّروني يا أبي ... يوم القضاءِ مزعزعَ الأركان
أوْ صوَّروني يا أبي متهيِّباً ... للموتِ يا للإفكِ والبُهتان
لوْ لمْ يكن إذ ذاك إلا رفعتي ... في الصَّلبِ في ميدانهم لكفاني
ومشى بذمِّي من تقدَّمَ مَدْحُه ... متمسحاً في عسكرِ السلطان
وارتدَّ عنك الأقربون وشيجةً ... وتلوَّن الأصحابُ بالألوان
وتنكَّروا حتى الدموعُ تنكَّرت ... حتى عزاءاتٌ من الجيران
ولوَّوا عليك لسانَهم ولربَّما ... قُدِّمْتَ قُرباناً مع القربان
ولقد ألحَّ علي يوم الصَّلبِ ... إشفاقي على أمي من الأحزان
ولقد عجبتُ بأيِّ قلبٍ تتقي ... ذكري.. وكيف لمثْلهاِ نسياني
وحواك بيتُ قد تغّير عهدُه ... إلاَّ من الذكرى مع البنيان
في مستهلِ الدارِ في الشُرفُاتِ في ... الكواَّتِ في الراسي من العمدان
فيما عهدتَ هناك منذ صِبَاي ... من جِدَّي ومن لَعِبي مع الصبيان
وبما غزلتَ من المُنى ونسجتَ من حُلمٍ ... عليَّ وحُكتَ حُلوَ أماني
في كلِّ ركنٍ كنتَ تلقاني به ... أو آيةٍ حُفِرَتْ على الجدران
في طَرقةٍ بالبابِ تجري نحوها ... وتهبُّ ملهوفاً فلا تلقاني
في الصُّبحِ حين ترى ابتسامَ الزهرِ في ... سنِّي وفي عودي وفي رِيعاني
في الفجرِ في الأسحارِ في وهَجِ الضُحى ... في رنَّةِ العصفورِ في الأغصان
في الليلِ كم يا ليلُ فيك لواعجٌ ... للثَّاكلين وللأسيرِ العاني
عفواً أبي أنا ما أردتُ إثارةً ... للحُزنِ أوْ بحثاً عن الأشجان
لكنها بعضُ الخواطرِ زاحمت ... فكري وبعضُ توقعِ الحَدَثان
فلقد ترى ما كنتَ تنكرُ أنْ ... ترى ويجدُّ أمرٌ ليس في الحُسبان

إنَّ الـــذين -أبي- رمـــوني مفـــرداً ... بـــين الســـياطِ وضـــيِّقِ القضـــبان
لا تســـألنِّي عـــن عـــذابٍ زائـــلٍ ... واســـأل عـــن الإســـلام في البلـــدان
هـم مـن رمـى بـالأمسِ قلـبَ عقيـدتي ... ومشـــى برجْلَيْـــه عـــلى القـــرآن
قـــد ســـاوموني عـــن حيـــاةٍ غضّـــةٍ ... كحيـــاةِ ديـــوثٍ ببيـــت غـــواني
لأخـــونَ عهـــداً أو أبيـــعَ أُخـــوةً ... لا كنـــتُ ســـاعتَها وقُـــدَّ لســـاني
اخـــترْ لِحبـــكَّ يـــا أبي مـــاذا تـــرى ... إني قـــد اخـــترتُ الـــذي أحيـــاني
وغـــداً قُبيـــل الفجـــرِ يـــأتي حـــاملاً ... للحبـــلِ والتنفيـــذِ جـــلادان
ســـتُردُّ عاريـــةٌ ويبلـــو سَـــيِّدي ... -ســـبحانهُ- دينـــي ومـــا اســـترعاني
فـــارْفَعْ جُبينـــك لا تهُـــنْ لا تنثنـــي ... لا تنحنـــي أَسِـــفاً عـــلى جـــثماني
لا ألفَيَنَّـــكَ واجمـــاً في ســـاحِهم ... أو هاتفـــاً «قتلـــوه غـــير مُـــدان»
أنـــا باســـم هـــذا الحـــقِّ قـــد حـــاربتُهم ... وشُـــفيتُ في حـــربٍ بغـــير ســـنان
واليـــوم باســـمِ الحـــقِّ أرفـــعُ هـــامَتي ... منصـــورةً في ذلـــك الميـــدان
أنـــا في دمـــي نصري.. وفي طُغيـــانِهم ... أكفـــانهُم فلينســـجوا أكفـــاني
أنـــا لم أَمُـــتْ أبتَـــاهُ لـــيس بميِّـــتٍ ... مـــن بـــاع تـــلك الـــروحَ للرحمـــان
وغـــداً تـــرى الـــنصرَ الكبـــيرَ ورايتـــي ... (اللهُ أكـــبرُ) يومهـــا ســـتراني
إذْ ذاك يـــا أبتَـــاهُ تُرفَـــعُ رايـــةٌ ... لله لا للجِبْـــتِ.. والأوثـــان
واحمـــلْ إلى أُمـــي البشـــارةَ (لَمْ يمـــت) ... واستعصـــا بـــالله واحتســـباني



الخروج من السجن الكبير!

ليس المجاهد اليمني محمد محمود الزبيري (أبو الأحرار) شاعراً فحسب، ولا هو مناضلاً فحسب، بلْ هو كذلك صحفي، وزعيم وطني، وروائي، وكاتب ... وشهيد!

يقول الزبيري: «ومهما يكن الأمر فإنَّ الحقيقة الواقعة أنّ الشعر هو الذي أخرجني من القمقم، وقادني إلى غمار الحياة الواسعة الزاخرة بالمفارقات والمتناقضات»! ويقول مخاطباً الشعر:

حمّلتني آلامها ودموعها ... ومنعتَ عني وصلها ومنعتها
ناديتُ أشتات الجراح بأُمتي ... فجمعتها في أضلعي وطبعتها
ما قال قومي: آهٍ.. إلا جئتني ... فكويتَ أحشائي بها ولسعتَها

بدأ الزبيري حياته في السياسة وهو طالب في كلية دار العلوم بالقاهرة، وعاد إلى اليمن حاملاً مشعل التنوير من خلال جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي أسّسها بعد عودته، فكان جزاؤه السجن ثم الفرار إلى «عدن» عاصمة الجزء المحتل من البلاد آنذاك، وقد نجح مع بعض رفاقه في تكوين أول عمل صحفي من نوعه للتعريف بالأحوال في مملكة الإمام يحيى وفي دعوة المواطنين إلى الثورة، والقضاء على ذلك النظام العتيق، وقد نجحت الدعوة وأثمرت في الإطاحة بالإمام يحيى.

كما عاش الزبيري حيناً من الدهر بين الغربة والتشرد، يبكي مصرع الرفاق ويهدهد الحنين إلى الوطن، ويحرّض الثوار بشعره ونثره.

هكذا تقلبت الحياة بالزبيري من شاعر إلى صحفي إلى وزير، إلى مهاجر، إلى زعيم سياسي، وهو في كل موقف منها ذلك الوطني الجسور والثائر الزاهد، حتى

توّج حياته المتنوعة النضال بالشهادة، حين استقرت رصاصة غادرة في قلبه الكبير لتضع حداً لطموح شاعر كبير، ولتحقق حلماً قديماً ظل يراود الشاعر:

بحثتُ عن هِبَةٍ أحبوكَ يا وطني فلمْ أجد لكَ إلاَّ قلبيَ الدامي!

كان الزبيري يتألّم مما يراه من تقديس اشعب لحكامه الجبابرة، في الوقت الذي كان فيه يرثي فئة من المجاهدين الذين نالوا الشهادة في مصادماتهم مع السلطة، حتى تمنى الشاعر أن يلحق بهم، فيقول في كتابه (ثورة الشعر): إن الشعب كله كان يقدس هؤلاء الحكام، وكان كل من يملك شعراً أو نثراً لا يكاد يقدمه إلاَّ مدحاً للإمام أو نجله، وليس هناك فرق بيننا، وبين الكثيرين إلاَّ أننا تغيرنا ولم يتغيروا، وثرنا ولم يثوروا، وقدمنا حياتنا وشبابنا قرباناً في سبيل الحق، ومن أجل الشعب مع نفر قليل من زملائنا وشهدائنا، فإنَّ كنا لم نلاقِ مصيرهم فلم يكن ذلك لأننا أحرص على الحياة أو أبعد عن خطوة الموت أو أقل حظاً من الوفاء للشعب ولكنه سر الأجل العجيب، الذي جنّبنا مصيراً كمصير الشهداء ربما لكي نستطيع أن ننتصف لهم، أو نتمّم رسالتهم ونحيا في سبيل الله وسبيل الشعب الذي ماتوا من أجله، فنرثيه لمصرعه ونبعثه من مرقده:

ما كنتُ أحسبُ أنّي سوف أرثيه وأنّ شعري إلى الدنيا سينعيه
وأنّني سوف أبقى بعد نكبتهِ حياً أُمزّق روحي في مراثيه
فإنْ سلمتُ فإنّي قد وهبتُ له خلاصة العمر، ماضيه، وآتيه
وكنتُ أحرص، لو أنّي أموتُ له وحدي فداءً ويبقى كل من فيه
لكنه أجلٌ يأتي لموعدهِ ما كلُّ مَنْ يتمناه ملاقيه
وليس لي بعده عمرٌ، وإن بقيت أنفاس روحي، تفديه، وترثيه
فلستُ أسكن إلا في مقابره ولستُ أقتاتُ إلاَّ من مآسيه
وما أنا منه إلاَّ زفرة بقيتْ تهيم بين رفاتٍ من بواقيه

يمضي الشاعر (أبو الأحرار) قائلاً: وانتهت تجربتنا مع السيف أحمد ولي العهد إلى النهاية التي انتهت إليها تجربتنا مع أبيه الإمام يحيى .. وبذلك تمت عناصر اليقين الثوري، الذي يفرض علينا أن ننفض أيدينا من كل أمل في الوصول إلى تغيير الأوضاع تغيّراً سلمياً بأيدي الحكام. وقد أسلمتنا هذه التجربة إلى أمرين لا ثالث لهما: فإمّا أن نرضخ، وندفن رؤوسنا في المقبرة الموحشة التي دفن فيها الشعب، وندخل فيما دخل فيه الأكثرون .. فنأكل الجيف، ونمتص الدماء، ونعيش كما تعيش الدود في القبور .. أوْ نثور .. وآثرنا الأشق الأصعب .. ولكنه الأشرف .. وتمردنا .. وأنشدنا:

الخروج من اليمن .. السجن الكبير !

خرجنا من السجن شُمَّ الأنوف ... كما تخرج الأسْدُ من غابها
نمرّ على شفرات السيوفِ ... ونأتي المنيّة من بابها
ونأبى الحياةَ إذا دُنّستْ ... بعسْفِ الطغاة وإرهابها
ونحتقر الحادثات الكبار ... إذا اعترضتنا بأتعابها
ونعلم أنّ القضا واقعٌ ... وأنّ الأمور بأسبابها
ستعلم أُمتنا أننا ... ركبنا الخطوبَ حناناً بها
فإنْ نحنُ فُزْنا فيا طالما ... تذِلّ الصّعابُ لطلابها
وإنْ نلقَ حتْفاً فيا حبّذا ... المنايا تجيء لخُطّابها

*** ***

أنِفْنا الإقامة في عُصْبةٍ ... تُداسُ بأقدام أربابها
وسِرنا لنُفْلِتِ من خزيها ... كِراماً ونخلصُ من عابها
وكمْ حيّة تنطوي حولنا ... فننسلّ من بين أنيابها
ويا رُبَّ مملكةٍ كنتُ قد ... لَهَوْتُ بها وبأصحابها

تظـــنّ الســـموات تعْنـــو لهـــا ... وتجْثـــو خُشـــوعاً لأحســـابها
وأنَّ النبـــوءة إرثٌ لهـــا ... تتيـــهُ بهـــا وبألقابهـــا
وإنّـــا عبيـــدٌ خُلِقْنـــا لهـــا ... لنبقـــى سُـــجوداً بأعتابهـــا
وليســـتْ بشيء ســـوى أنهـــا ... عجـــوز تُجَـــنّ بألعابهـــا
تغـــذّي الـــبلاد بأســـواطها ... وتســـقي الرعيـــةَ مـــن صـــابها
رجـــالهمُ عنـــد ســـجّانها ... وأمـــوالهم عنـــد ســـلابها
لـــئن جرّعَتْنـــا مريـــر الحيـــاة ... فلابـــدّ تشربُ مـــن صـــابها
أترمـــي بنـــا في عميـــق السـجون ... ونصـــبح عُبّـــادَ أنصـــابها
وتطمـــع مـــن سُـــخفها أننـــا ... نكـــونُ كخُلّـــص أحبابهـــا
ولـــو عـــاملوا مثلنـــا الســـائماتِ ... لداســـت جِمـــاهم بأعقابهـــا

* * *

نصـــحْتَ فقـــالوا هـــدمتَ الـــبلاد ... وزلزلـــتَ بُنيـــانَ أقطابهـــا
ومـــا أنـــت والنصـــحَ في أسرةٍ ... تنـــالُ الســـماءَ بأنســـابها
وقـــد نـــزل الـــوحي مـــن أفْقهـــا ... وحَـــلَّ النبـــيّ بأثوابهـــا
ومـــا الحـــقّ والعلـــمُ والعـــالمون ... إلا قـــرابين محرابهـــا
حـــذَارِ الخطابـــةَ إنّ الســـجون ... تهِـــشّ إليـــكَ بترحابهـــا

* * *

فيـــا مَلِكـــاً لَـــجَّ في بطشـــه ... وداس الـــبلاد وأخْنـــى بهـــا
ودَبَّ لأمتـــــه في الظـــــلام ... دبيـــب اللصـــوص لأســـلابها
وذَرَّ الغُبـــار بأجفانهـــا ... وصـــبَّ الســـموم بأعصـــابها
وقـــال لهـــا مصر أُم الفجـــور ... تســـيلُ الخمـــور بأبوابهـــا
وبغـــداد عاصـــمة الملحـــدين ... ومكـــة نهْـــبٌ لســـلاّبها

ومــــا الأرضُ إلاَّ لنـــا وحـــدنا ولكــــــنهمْ غالطونــــــا بهــــــا

***

نهضــــتَ لتخريـــبِ عمْرانهــــا وقمـــــت لتحطـــيم ألبابهــــــا

ووطّــدتَ عرشــكَ فــوق القبــورِ وأزعجـــتَ رمــــة أصـــحابها

وشــــيّدتَ مملكـــــةً للفنـــــا تقــــوم القيامـــــة مـــن بابهـــا

ألمْ تخْــش مـــن أُمّـــةٍ أصـــبحت إليــــكَ تُــــكشّر مــــن نابهــــا؟

وتـــزأرُ غضـــبى زئـــير الأُســـود وأنــــت الملـــــوم بإغضــــابها

ســـتلقى مغبّـــة مـــا قـــد صـــنعتَ وتجنــــي المخالــــب مـــن غابهـــا



اللّعين الأول !

ليس «إبليس» المراد هنا باللّعين الأول!

فيا ليتَ كل «الملاعين» مثل إبليس! فلوْ كان الأمر كذلك لما شهدت البشرية ما شهدت من الجرائم والمخازي والمظالم التي يتورّع إبليس من سماعها، فضلاً عن اقترافها!

فالحسن البصري رأى إبليس -ذات مرة- فسأله: كيف حالك مع العباد يا إبليس؟ فأجابه: يا حسن .. في الماضي كنتُ أُعلّم الناس طرق الضلال، أمّا الآنَ فأنا أتعلّمُ منهم طرق الضلال!

نعم .. إننا لم نسمع -يوماً- أن إبليس الملعون أنشأ سجناً حربياً لسحق الشرفاء، أو أنه عَلَّقَ العلماء والدعاة والمصلحين في المشانق، أوْ سحق الناس ودفنهم في مقابر جماعية، أوْ حرق القرى والمدن بالغاز السام والسلاح الكيماوي، أوْ أحرق المصاحف وداسها بالنعال!

إن كيد شيطان الجن أهون وأضعف من ذلك بكثير .. وليس له من الصلاحيات ما لشياطين الإنس، فلا يمتلك قوات أمن، ولا أمن مركزي، ولا مباحث أمن دولة، ولا بوليس سري .. وليس عنده سجون ولا معتقلات، ولا يحزنون!

لكن، اللعين الأول -الذي يقصده شاعرنا- هو أنه كلما تخلص الناس من «لعين» جاءهم مَنْ هو «ألعن منه»! وعندما يقارنون بين ظلم اللعين الأول وظلم اللعين الذي يليه هتفوا بحياة الأول، لأنّ ظلمه إذا قيس بمن يليه عُدّ رحمة!

من يسترجع صفحات الماضي يلحظ هذه الظاهرة بوضوح؛ فقد تحسّر الناس

وترحّموا على معاوية بن أبي سفيان، بسبب العسف والجور الذي أصابهم في عهد ابنه «يزيد» الذي استباح الحرمات وارتكب الموبقات، وليس معنى ذلك أن معاوية كان يقطر رحمة ورقّة وحناناً، بلْ كان حاكماً مستبداً، وهو نفسه صرح بوضوح بأنه لم يتولَّ الخلافة بمحبة الناس ورضاهم «بلْ جالدتكم بسيفي هذا مجالدة»! بحسب أنه هو الذي زرع الشجرة الملعونة في التوراة والإنجيل والقرآن، ألا وهي شجرة «الملك العضوض» وأنه لم يتورع من أن يستخدم في سبيل هذه الغاية أحط السبل من غدر ورشوة وخيانة .. فكما يقول عنه أحمد شاكر في الجزء الرابع من التاريخ الإسلامي: « .. اتُهِمَ سيدنا معاوية بقتل سيدنا الحسن بن عليّ رضي الله عنهما بالسم الذي دُسَّ له عن طريق زوجته .... واتُهِمّ سيدنا معاوية بقتل الأشتر بدس السم في طعامه ... واتُهِمَ سيدنا معاوية بقتل عبد الرحمن بن خالد»!

كما ترحّم الناس على عهد عبد الملك بن مروان، بعدما اصطلوا بجحيم أبنائه الخلفاء، ولم يكن -يوماً- عبد الملك بالإمام العادل، فهو الذي عندما بُويع بالخلافة. أطبق المصحف الذي كان في حجره، وقال: هذا آخر عهدنا بك«! كما أعلن في أول خطبة له: « ... والله لا يأمرني أحدٌ بتقوى الله بعد مقامي هذا، إلاَّ ضربتُ عنقه»!

وتتوالى صفحات التاريخ على هذا النحو الأسيف، من السيئ إلى الأسوأ .. وبهذا يصدق الحديث الشريف: «**ما من عام يجيء إلا شر من الذي سبقه حتى تلقون ربكم**»!

ترحَّم الناس في عهد أسرة «محمد علي باشا» على «خلافة العثمانيين»! كما ترحّم الناس بعد ثورة يوليو على أيام الملكية .. وهكذا تتوالى صفحات التاريخ!

لذلك؛ كان -الشاعر- مُوفّقاً في اختيار الرمز بالاسم أولاً، فاللعين اسمه «جوان» فهو إذن غريب في انتمائه لهذا الوطن، وحتى لو كان اسمه اسماً عربياً أو إسلامياً، لأن واقع تصرفاته ولسان حاله تجعله ينتمي إلى جون وجوان .. فهو عربي

الاسم، لكن صليبيّ الفعل.

ثم وفِّقَ –الشاعر– مرة أخرى، في وصفه حفّاراً للقبور، حيث استطاع هؤلاء الظالمون الجبابرة أن يجعلوا الحياة كلها قبوراً، فقد حفروا قبراً للحرية، وآخر للفضيلة، وثالثاً للأمن، ورابعاً للكرامة، وخامساً، وسادساً ... فما أكثر القبور وما أظلمها التي حُفِرتْ في أرجاء الوطن الحزين.

أمّا صاحب هذه القصيدة، فهو الأديب والعالم المفكر السوري «محمد المجذوب» الذي انتقل إلى رضوان الله ورحمته في السنوات الأخيرة من القرن العشرين.

جدير بالذكر، أن هذه القصيدة الرمزية عُثِرَ عليها بتوقيع «الشاعر المجهول» لكن بعد سنين طويلة، تم العثور عليها كاملة في ديوان «همسات قلب» للشاعر محمد المجذوب.

اللّعين الأول !

كان جوان –ليته لم يكن– يزاول الدفن بإحدى المدن
وكان كل الناس يكرهونه لغير ذنب غير ما يحكونه
من كونه يجرد الأمواتا من كل شيء يستر الرفاتا
لذاك ضجّ الشعب من جرائمه فلا يرى ثمة غير شاتمه
حتى أتاه الموت فاستراحا وقومه من شره أراحا
ولم يكن بد من الحفَّار فساوموا ابنه فلم يمار
وخافت أمه عليه الضررا فحمّلته نصحها مختصرا
أورثنا أبوكَ أمس العارا يا ولدي .. وسوف يصلى النارا
فأكرمِ الأموات أن تسلبها وحاذر الأحياء أن تغضبها
تعش مكرّماً حميداً لا كما عاش أبوك وقضى مذمَّما

.. وأطــرق الفتــى هنــا يفتكــر — وأمـــه شاخصــة تنتظـــر

ثـــم مضى يعلنهـــا في غضـــب — «لأجعلـــنّ النـــاس يطـــرون أبي!»

ومـــرت الأيـــام والليـــالي — والنـــاس في بحـــر مـــن البلبـــال

إذْ فوجئـــوا بـــالمنكر الجديـــد — فقـــد جـــاوز الأحـــلام في التجديـــد

فالميّـتُ لا يعـرى فقـط مـن سـترهِ — بـــلْ تغـــرز الأوتـــاد وســـط دبـــره!

وهكـــذا لم يبـــق ثـــمّ ميّـــت — إلا وفي قفـــاه ســـهم مثبـــت

ونسي النـــاس الـــبلاء الغـــابرا — لمـــا رأوا هـــذا الوبـــاء الحـــاضرا

فـــانطلقوا يســـتغفرون للـــذي — قـــد طالمـــا ســـبوه بـــالقول البـــذي

وكلهـــم يضرع: لا هـــمّ انقـــلِ — ثناءنـــا إلى اللعـــين الأولِ!

مناقشات سياسية!

كانت مصر والعالم العربي في حقبة الستينيات مسرحاً للمد الشيوعي الماركسي، وقد تولى نشر هذه الدعوى جمهور عريض من «المغفّلين» منهم حكّام وساسة، ووزراء وعسكريون، وإعلاميون وكُتّاب، وفنانون ومثقفون، وأدباء وشعراء، وأناس من جلدتنا وأناس غرباء عنا!

سقط هؤلاء جميعاً ضحايا لموجة التدليس والتزييف العالمي، وكانت عملية التدليس شاملة ومتقنة ومحبوكة بحيث لم ينجُ منها أحد .. فالكذب كان عنواناً لهذه الحقبة المظلمة .. كانت الكتب تكذب .. وكانت الصحف والإذاعات تكذب .. وكانت التصريحات تكذب .. فكانت الستينيات هي عصر الكذب الشامل!

قال لي أحدهم: كان طلاب الجامعة يقارنون بين «الميثاق» و«القرآن»، ويُفضّلون «عبد الناصر» -الرئيس المهزوم دائماً- على الصادق الأمين «مُحمّدﷺ»! زاعمين أن أفكار عبد الناصر إبداع بشري، أمّا النبيّ «مُحمَّد ﷺ» فلم يأتِ بشيءٍ من عنده!

وقال لي المفكر الدكتور/ مصطفى محمود -بالحرف الواحد-: «عندما أصدرتُ كتابي «الله والإنسان» أيْ ذلك الإنسان الذي اختار الشك والإلحاد طريقاً، استقبلني الرفاق الماركسيون بالأحضان! وكتب محمود أمين العالم -حينذاك: إن هذا الكتاب يبشّر برائد فكري عظيم، فلمّا خرجتُ عن القافلة وانشققتُ على الصف رجموني بالحجارة .. وقالوا هذا درويش مخبول!ولم أستطع نشر كتابي «الماركسية والإسلام» في حقبة الستينيات: لأن أجهزة الرقابة والقمع كانت تتربص في كل مكان»!

إنهم طالبوا -صراحة- بإزاحة القرآن، وعزل الإسلام عن الوجود، لتخلو

الساحة لماركس ولينين وبقية آلهتهم وما كانوا يعبدون! ولسنا –في هذا المقام– بحاجة إلى فتح الملفات البالية، والصفحات السود، للمعسكر اليساري، بعدما أُسقِطَ «العجل» في أيديهم، وأيقنوا أنهم كانوا كاذبين!

***

الشاعر «محمد مصطفى حمام» الذي عاش في الفترة (١٩٠٤-١٩٦٤) صاحب «ديوان حمام» أحد الذين وقفوا في وجه «الزحف الأحمر» المدجّج بالمال والكلاشينكوف والكلاب البوليسية وأشياء أخرى. وسجّل قصيدته التي بين أيدينا «شهادة على العصر» والتي نشرتها مجلة «المسلمون» سنة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م لتحكي جانباً من هذه المناقشات التي احتدمت بين الإسلاميين والماركسيين .. أو بين الحق والباطل:

مناقشات سياسية !

أداروهـــا شـــيوعية	وســمّوها اشــتراكيهْ
وقـــالوا كُـــلّ ذي مـــالٍ	عريـــقٌ في اللصوصـيه
ومـــا قـــدْ نِلْـــت مـــن إرثٍ	فَنَهْـــبٌ وانتهازيـــه
نكفُّـــكَ عـــنَ إدارتـــهِ	بقبضـــتنا الحديديـــه
فأيّـــدْنا ولا تَـــكُ مِـــنْ	رَعيـــل الرأســـماليه
وإنْ خالفْـــتَ نزْعَتَنـــا	فنزعتُـــكَ انفصـــاليه
وإنْ ناقشْـــتنا دينـــاً	فثرثـــرةٌ ورجعيـــهْ
كـــم ابتـــدعوا لنـــا بِـــدَعاً	مـــن الأســـماء ســـحريهْ
وكـــم وَعَـــدوا بنـــي مِصْرَ	مســـاواةً حقيقيـــه

*** ***

وعنـــدي أنهـــم صـــدقوا	وصـــحّتْ مـــنهمُ النيّـــهْ

فكـــل النـــاس قـــد صـــاروا ... ســـــواءً في العبوديـــــةْ
وكـــلُّ النـــاس أحـــرارٌ ... لكـــــن في الإباحيـــــةْ
لُهُـــمْ في الخَمْـــر مـــا شـــاءوا ... وفي الرقصـــات عصريـــةْ
وفي النـــزوات والشـــهوات ... آثمـــــةً بهيميَّـــــةْ
ضـــلالاتٌ عـــن الفُسّـــاق ... والكُفَّـــار مرويـــةْ

***

وقـــالوا: هكـــذا الإســـلا ... مُ في نبضـــاتهِ الحيَّـــةْ
رســـمناه لكـــم فِلْـــماً ... بـــألوانٍ طبيعيـــةْ
فقلنـــا: اطـــووا كتـــابكُم ... إذا مـــا اســـطعتمو طيّـــةْ
فـــما الإســـلامُ غـــيرُ مُحَـــ ... جّـــةٍ بيضـــاءَ قُدسـِــيَّةْ
وأنـــتم ســـائرونَ بنـــا ... إلى حمـــراءَ روســـيةْ
وإن شـــئتم فقولـــوا ... إنهـــا صـــفراءُ صـــينيةْ
وإلا فهـــي في ظَنّـــي ... هـــدايا بلفراديَّـــةْ

***

وقـــالوا: هكـــذا القـــرآنُ ... في يُسْرٍ وحُريّـــــةْ
فكـــذّبنا وقلنـــا: ... هـــذه الآيـــاتُ مصريـــةْ
فـــلا مدنيَّـــةٌ كانـــت ... ولا هـــي قبـــلُ مكيَّـــةْ

***

عَهِـــدْنا مِصْرَ بالإســـلام ... هاديـــةً ومهديّـــةْ
متـــى تنجـــابُ غُمّتُهـــا ... ويـــترك شـــيخُها غيّـــةْ
وأيـــنَ لهـــا عصـــا موســـى ... لِتلْقَـــفَ هـــذه الحيَّـــةْ؟!

فرعون مصر!

مازالت الشعوب العربية تخشى أن تواجه أنفسها بالحقيقة، لأنها استمرأتْ الظلم، وعشِقتْ الحياة في ظل الديكتاتورية والأنظمة الشمولية. فهي شعوب لديها قابلية الاستعباد .. ولا أدلّ على ذلك من تحاشيها «المعارضة» وعدم وقوفها إلى جانب الذين يصدعون بالحق المر!

من هنا؛ لا نعجب عندما يتحاشى الأدباء والمثقفون أن يتحدثوا عن الشاعر السوري الكبير «محمد سليمان الأحمد» المعروف بـ(بدوي الجبل) وهو واحد من أعلام الشعر العربي في القرن العشرين. ولِد سنة ١٩٠٠ باللاذقية، ولقب «بدوي الجبل» أطلقه عليه صاحب جريدة «ألف باء» الدمشقية في العشرينات. وقد انغمس بدوي الجبل في حقل السياسة فانتُخِب نائباً في مجلس الشعب السوري ١٩٣٧ وأُعيد انتخابه عدة مرات، ثم تولى عدة وزارات منها الصحة والدعاية والأنباء. غادر سوريا ١٩٥٦ متنقلاً بين لبنان وتركيا وتونس قبل أن يستقر في سويسرا. ثم عاد إلى سوريا ١٩٦٢ حتى توفي في أغسطس ١٩٨١.

وقد هاجم «حزب البعث» أثناء هزيمة حزيران، كما أشاد بأبطال سوريين مثل إبراهيم هنانو، ويوسف العظمة.

الشَّاعر (بدوي الجبل) يمثّل السقف الأعلى في الشعر الكلاسيكي من حيث التوازن بين الخيال والفكرة، فامتزج شعره الروحي والصوفي بشعره السياسي المقاوم للاستعمار الفرنسي. إنه يمثّل مدرسة من مدارس الشِّعْر العربي. وقد تأثر بالمتنبي شعرياً حتى قيل: إنه متنبي القرن العشرين! ولعلَّ شعره الجميل دليل على أن الشِّعر العربي مطبوع وليس مصنوعاً إلاّ لدى الشعراء المتكلِّفين. ولعلّ أجمل

قصائده: اللهب القدسي، الكعبة الزهراء، البلبل الغريب، ابتهالات، خالقة، شقراءأ حنين الغريب، من وحي الهزيمة.

وهو ينتمي إلى بيت ديني عريق، كان له أثره في ثقافته، يظهر من قوله:

مسلمٌ كلما سجدتُ لربي   فاحَ من سجدتي الهُدى والعبير!

أوْ كما نلمس ذلك في ابتهالاته ومناجاته:

أنا لا أُرجّي غير جبّار السماء ولا أهابُ

بيني وبين الله من ثقتي بلطف الله بابُ

أبداً ألوذ به وتعرفني الأرائك والرّحابُ

لي عنده من أدمعي كنز تضيق به العبابُ

يا ربّ: بابك لا يردّ اللائذين به حجابُ

مفتاحه بيديّ يقين لا يلمّ به ارتياب

ومحبّة لك لا تكدّر بالرّياء ولا تشاب

وعبادة لا الحشر أملاها عليّ ولا الحساب

وإذا سألتَ عن الذنوب فإنّ أدمُعيَ الجواب

هيَ في يميني حين أبسطها لرحمتك الكتاب

إنّي لأغبط عاكفين على الذنوب وما أنابوا

لوْ لمْ يكونوا واثقين بعفوكَ الهاني لتابوا!

وكان (بدوي الجبل) معتزاً بعروبته اعتزازاً شديداً، إذْ يقول:

عربيٌ فلا حمايَ مباحٌ   عند حقدي ولا دمي مهدور

بلْ لا يكفّ عن تحريضه الشعوب والحكام للأخذ بالثأر ممن اغتصبوا الأوطان، فيقول في قصيدة (إني لأشمتُ بالجبار):

يا سامر الحيِّ هلْ تعنيكَ شكوانا؟ رقَّ الحديدُ وما رقّوا لبلوانا!
خَلِّ العتاب دموعاً لا غِناءَ بها وعاتب القوم أشلاءً ونيرانا
آمنتُ بالحقد يذْكي من عزائمنا وأبعدَ اللهُ إشفاقاً وتحنانا
ويلَ الشعوبِ التي لم تُسْقِ من دمها ثاراتها الحمر أحقاداً وأضغانا
ترنحَّ السوطُ في يُمنَى معذِّبها ريّان من دمها المسفوح سكرانا
تُغضي على الذّلِّ غفراناً لظالمها تألّق الذلُّ حتى صار غفرانا
ثاراتُ يعربَ ظمآى في مراقدها تجاوزتها سقاة الحيّ نسيانا
ألاَ دمٌ يتنزّى في سلافتها أستغفر الثأر، بلْ جفّت حميّانا
لا خالد الفتح يغزو الروم منتصراً ولا المثنّى على رايات شيبانا

كتب «بدوي الجبل» قصيدة طويلة في الرئيس عبد الناصر، أسماها (فرعون) مُتهكّماً من سياسته الخرقاء، ومُعرّضاً به وبزبانيته، ومتهماً إياه بارتكاب جرائم كبرى في حق أُمته، ويعدّد فيها أخطاءه وخطاياه، كحرب اليمن، وغيرها، يقول فيها:

يا ربّ عفوكَ إنْ سألتُ وأنتَ تعلمُ مَنْ أُريدُ
مِنْ أيّ طينٍ أُنشئ الظمآن للدمِ والحقود؟
ألَيّنونَ على العدوِّ وبأسهم فينا شديد؟!
جلَّ الوداد فكان من أسماء عزتك الودود
ألغير وجهكَ في كنانتك العبادة والسجود؟!
فرعون عاد فكيف .. كيف وقد عصفتَ به يعودُ؟!
ما للطغاة سيادةٌ يخشى الظلام ولا يسود
دنيا العروبة رجّها بالهول شيطان مَريدُ
صُبِغتْ بألوان الأذى فخطوبها حُمرٌ وسُود
أرض الكنانة ما بها إلاَّ المتوّجُ والعبيد

فرعـــونُ مصر، وأنـــتَ مَـــنْ ... رشَـــقَ المصـــاحف، لا الوليـــدُ
فرعـــون مصرَ، وأنـــتَ مَـــنْ ... قتـــلَ الهواشـــم، لا يزيـــد
سُـــمّيتَ فرعـــون الكنانـــة ... وهـــي تســـمية كنـــود
فرعـــونُ ذَلَّ بـــه اليهـــودُ ... وأنـــتَ عـــزَّ بـــكَ اليهـــود
طـــامِنْ غـــرورك، لم تـــدمْ ... عـــادٌ، ولا بقيـــتْ ثمـــودُ
ولـــئن ذُكِـــرتَ، فـــإنّ ذِكْـــركَ ... لا الزكـــيُّ ولا الحميـــدُ
ولـــئنْ حكمـــتَ، فـــإنّ عيشـــكَ ... لا الهنـــيُّ ولا الرغيـــدُ
تتناهـــب الأشـــلاء نومـــك ... والعواصـــفُ والرعـــودُ
وهـــواجس الـــيمن الســـعيد ... ورجّـــكَ الـــيمن الســـعيدُ

* * *

الغـــدرُ طبعـــكَ والدســـائسُ ... والخيانـــة والجحـــود
يتســـلل النـــذلُ الجبـــانُ ... دجـــى وتقـــتحم الأُســـود

* * *

أميّـــتم الأطفـــال، لا جَـــدٌ ... عنـــاكَ ولا حفيـــد
أُمٌّ ممزقـــــــــة وفي ... أحضـــانها هشـــم الوليـــد
شـــكت الأرامـــل والثكـــالى ... والطفولـــة والمهـــود
يـــا قـــاتلاً بـــأخٍ أخـــاهُ ... كِـــلا قتيلَيْـــكَ الشـــهيدُ!
أوَ لا تخـــافُ عـــلى بنيـــكَ ... وقـــد تعثّـــرت الجـــدود
أنْ يســـتجابُ دعـــاءُ ... ثاكلـــةٍ وأدمعهـــا تجـــود
فـــترى بنيـــكَ مُصرّعـــين ... ولا تضـــمّهم اللحـــود
كِـــدْ للنبـــيِّ ودينـــهِ ... اللهُ فوقـــكَ إذْ تكيـــد
بـــاد الطغـــاة جميـــعهم ... أمّـــا الشـــعوبُ فـــلا تبيـــد

خَـــلِّ الكرامـــة شـــأنها   خُلِـقَ الكـرامُ لكـي يسـودوا

كما هجا الرئيس (أنور السادات) هجاءً مُرًّا، بسبب صلحه مع الصهاينة، ومن ثمّ قطيعته للشعوب العربية. كما تنبأ باقتراب رحيله وزوال جبروته، وذلك في قصيدة بعنوان (كافور)! التي استلهم -الشَّاعر- فيها التاريخ برموزه ودلالاته التاريخية والسياسية، يقول:

كافور

كـــافورُ قـــد جُـــنَّ الزمـــانُ   وإليـــكَ آل الصـــولجانُ
خجـل السريـر مـن الـدَّعيّ   وكـاد يبكـي الأرجـوان!
أيـن الأهلّـة والكواكـب   والشـوامخ والرّعـان؟
الهاشـميون انطـووا   وأُميـة كـانوا فبـانوا
كـافور جمّـع حـول عرشـك   كـل مـن حقـدوا وهـانوا
مجـد البغـيّ تعـاف بهرجـه   المخـدّرة الـرزان
حـرّك دمـاك فـإنْ أردتَ   قسـوا وإنْ آثـرتَ لانـوا
الخاضـعون لمـا تشـاءُ   ومـا دروه ومـا اسـتبانوا
النـاعمون عـلى اليهـود   عـلى رعيّتـك الخِشـانُ
للعـفّ تخـوين بـدولتهم   وللـصّ ائـتمانُ

***   ***

أشْـبَعْتَ بالخُطَـب الجيـاعَ   فكـل هـادرةٍ خـوانُ
حفـل السـماط ومـن فرائـدكَ   الموائـدُ والجفـانُ
خُطَـب الـرئيس هـي الكرامـة   والعُـلَى، وهـي الضمان
هـي للجيـاع الطيبـات   وللعـراة الطيلسـانُ
هـي للعفـاة النـازحين   لُبانـةٌ وهـوىً وحـانُ

خُطَبٌ مصبّغة وتعرف ... من مباذلها القيانُ
من كل عاهرة وتحلفُ ... أنها الخود الحصانُ
اللحنْ وكرّر ما تشاءُ ... فإنها الخطبُ الحِسانُ
وإذا رطنْتَ فإنها ... عرباءُ خالصةٌ هجانُ
كافورُ قدْ عنتْ الوجوه ... فكيف لا يعنو البيانُ؟

***

الفكر من صرعى هواكَ ... ومن ضحاياك الجنانُ
يغْني الشآم عن الكرامة ... والنعيم المهرجان
حُشِدتْ لطلعتكَ الجموعُ ... فهوّن الخبر العيانُ
هتفوا فبين شفاههم ... وقلوبهم حرب عوان
غرثى ويُتْخَمُ من لحوم ... الأبرياء الخيزران
عضّتْ ظهورهم السياطُ ... فكل سوط أفعوان
الراكعون الساجدون عنوا ... لكَ والمناهل والجِنانُ
القاطفون كرومهم ولكَ ... السلافة والدنانُ
الحاضنون شقاءهم ولكَ ... المتارف والليانُ
الظامئون ويومهم شرس ... الهواجر أضحيان
المالكون قبورهم لمّا ... عصفتَ بهم فحانوا
لك عذرة العرس الحزين ... فما تعزو ولا تصانُ
ولك الظلال فبعض ... جودكَ أنْ يفيّئهم مكانُ
ودماؤهم لك والبنون ... فما الأباطح والرعانُ
ولكَ العبادة لا لغيركَ ... والتشهّد والأذانُ
كافورُ أنتَ خلقتهم ... كونوا -هتفتَ بهم- فكانوا

كافورُ من بعض الإماء   زبيدةٌ ... والخيزرانُ!

مروان عبدٌ من عبيدك   لا يُزانُ ... ولا يُشانُ!

للسوط جبهتُهُ إذا   استعلى وللقيد البنانُ

يا مُكرِمَ الغرباءِ   والعربيُّ محتقَرٌ .. مهانُ

تاريخُ قومي في يديكَ   يُدانُ حسبك ما يُدانُ

زوّرته وسطا على   الأقداس أرعنُ أُلعبانُ

ما عفّ في الموتى هواهُ   ولا الضميرُ ولا اللسانُ

يا عبقريّ الظلم فيه   لك ابتداعٌ وافتنانُ

* * *

نحن العبيدُ فلا تحركنا   الضغينةُ واللعانُ

لا الفقرُ يلهبُ في جوانحنا   الإباءُ ولا الهوانُ

فاسجِنْ وعذّب واستبح   حرماتنا ولكَ الأمانُ

هددتْ حميّتنا على   الجلى وماتَ العنفوان

مِنْ رقّ فتحكَ حازنا   سيف وأحْرزنا سنانُ

والذلُّ أطياب العبيد   فما البخورُ وما اللّبانُ

والظلم من طبع الجبان   وكل طاغية جبانُ

* * *

يا أيها الصنمُ المُدِلُّ   فما مناه وما المُدانُ

إنْ ألّهوكَ فربما   فضح الألوهة ثعلبانُ

* * *

أُمُزّق الأرحامِ لا يُبنىَ   على الحقد الكيانُ

غرّب وشرّق في هواكَ   وخُنْ فمثلهمُ يُخانُ

واغـــزُ الكواكـــب بـــالغرورِ فأنـــتَ منصـــور مُعـــانُ
بالخطبـــة العصـــماء تقـــتحم المعاقـــل والقنـــانُ
والشـــتمُ مـــن آلات نصرِكَ لا الضِّرابُ ولا الطّعـــانُ
كـــافورُ طاغيـــة وفي بعـــض المشـــاهد بهلـــوانُ
مـــن أنـــتَ في الحلبـاتِ تقحمهـــا إذا احتـــدمَ الرّهـــانُ؟
مَـــنْ أنـــتَ؟ لا المجـــدُ الأصـــيلُ، ولا شـــمائله اللـــدانُ
لا العبقريـــةُ فيـــكَ مُشرقـــة ولا الخُلُـــق الحِســـانُ
لا الفكـــر مؤتنـــفُ العطـــورِ ولا البيـــانُ ولا الجِنـــانُ
لا السِّرُ عنـــدكَ أريحـــيٌ المكرمـــات ولا العَـــلانُ
مَـــنْ أنـــتَ؟ إنْ ذُكِـــرَ العِظـــامُ ورنّـــح الـــدنيا افتنـــانُ

* * *

كـــافورُ عرشـــكَ للفنـــاءِ وربـــما آنَ الأوانُ
الخالـــدان -ولا أعـــدُّ الشـــمس- شِـــعْري والزمـــانُ!

قذائف «الحياة الأولى»!

الشيخ (مُحمّد الغزالي) واحد من كبار علماء الإسلام، له من الفضل ما لم يتوافر إلاّ للقليلين من أترابه، فهو العالم الفقيه، والأديب الخطيب، وهبه الله من نعمة الدعوة إليه -جلّ وعلا- على بصيرة، القدرة التي لم تتوافر إلاّ للقليلين من دعاة زمانه، وقد طار صيته إلى كل ركن من أركان المعمورة.

لقد عرف الناس عن الشيخ الغزالي تلك المواهب المعرفية الإسلامية التي أسلفنا ذكرها، وأمّا الذي لا تعرفه جمهرتهم -بلْ مجموعهم- هو أنه كان شاعراً، ذا موهبة خصبة، وقريحة معطاءة، وقلم مطواع، وبيان سائغ.

نعم .. إنَّ الشيخ الغزالي كان متمثلاً في حياته حكمة الإمام (الشافعي) في بيته المشهور:

ولولا الشِّعر بالعلماء يزري ... لكنتُ اليوم أشعر من لَبِيد

وقد قال الغزالي الشِّعْر في صباه، وعلى وجه التحديد في الثامنة عشرة من عمره:

ثماني عشرة مرت سهادا ... أردت على المنام..ولن أرادا

فكانتْ يقظةُ المُضْنَى بنائي ... كَرَى النوَّام أنْ يغفو اتئادا

وكانت في سبيل المجد تسعى ... تُغَالبُهو لا تألُو اطرادا

هكذا قال الغزالي الشِّعْر مبكراً، ولمْ يلبث أن أقلع عن قوله مبكراً أيضا، والرجل في حاليه -قول الشِّعْر والإقلاع عنه- يمثل مفاجأة لكثير من أصدقائه ومحبيه، ذلك أن هذه الكثرة من مريديه لم يعرفوا خبر شاعرية الشيخ وشعره إلاَّ حين جرى الإعلان عن طبع هذا الديوان ونشره، والذي قدّم له الأديب الدكتور مصطفى الشكعة.

ونحن لا تأخذنا الدهشة -كما يقولُ الدكتور الشكعة- فلماذا لا يكون الغزالي الإمام الداعية إلى الله الفقيه المحدث شاعراً، لقد سبقه فقهاء أعلام كثيرون في قول الشِّعْر الجاد، بلْ سبقه عدد من أئمة المسلمين في قول الشعر، منهم من التزم جادة الشعر الإسلامي في موضوعاته، ومنهم من تجاوز هذه الأغراض إلى المدح والرثاء والهجاء، بلْ منهم من عمد إلى الغزل الرقيق العميق الذي جرى ويجري بعضه على ألسنة الأسلاف والمعاصرين، وهم لا يدرون أن هذا الضرب من القول صادر عن أئمة أبرار وعلماء أخيار!

ألمْ يكن الإمام مالك شاعراً؟ ألمْ يكن الإمام الشافعي شاعراً متنوع فنون الشِّعْر؟ وكذلك عبد الله بن المبارك، والقاضي عياض، وابن حجر العسقلاني، والشهاب الحجازي، وابن حزم الأندلسي، ومحمود الوراق، وإبراهيم بن يوسف، والفيروز آبادي الشيرازي، وأبو بكر الشبلي، وأبو الوليد الباجي، وأبو العباس المرسي، وعمر بن الفارض، وغيرهم من العلماء والفقهاء.

موضوعات شِعر الغزالي

إنَّ المتأمل في شاعرية الغزالي يجد أنه تناول الموضوعات التي طرقها الشعراء الفقهاء، ولكنه لم يعج على الغزل، ولم يحاول أن يسمح لموهبته أن تجود عليه ببيت واحد منه كما فعل قبله فقهاء المتصوفة، وإنْ كان قد شارك المتصوفة، بلْ فاق بعضهم عندما اتخذ من الخمر رمزاً للحب الإلهي، فأنشأ قصائد أربعة تحمل كل واحدة منها عنوان «الخمرة الإلهية».

لقد طرق الشيخ الغزالي موضوعات الشعر النظيف التي أسهم بالقول فيها الشعراء من ذوي المروءة، وتعفف عن طرق الموضوعات التي لا يجمل بأصحاب المروءات الكتابة فيها، فلم يتورط الشيخ في قول الهجاء أوْ المديح المغلف بالنفاق أوْ الغزل، وإنما طرق أبواب الحكمة والإخوانيات، والتعبير عن ذاته وسلوكه،

والأخلاق بعامة ومكارم الأخلاق بخاصة، وعرّج على الموضوعات الإنسانية التي تغزو القلوب وتهذب المشاعر، كما وصف الطبيعة في حالاتها المختلفة، فوصف الفجر والشروق والشمس والنجوم والليل والبدر، بلْ وصف الطبيعة وخصها بالمناجاة العذبة والحنين الدافق، كما أفرد للوطنيات العديد من قصائده التي قليلاً ما ترق وكثيراً ما تلتهب، وهي ترصع كثيراً من صفحات الديوان، ثم من البدهيات قبل ذلك وبعده أن يكون للدِّين وشعائره نصيب وإن يكن غير وفير، وإنْ كان شعر مكارم الأخلاق هو الدين نفسه، وذلك مصداقاً لقول رسول الله ﷺ : **«إنما بُعِثتُ لأُتمّم مكارم الأخلاق»**.

ومن الحقائق الطريفة أن الشيخ الغزالي –رحمه الله– أطلق على ديوانه عنوان «الحياة الأولى» ولعله كان يقصد وصف حياته في المرحلة العمرية التي كتب فيها هذا الديوان، وكان إذ ذاك في الفرقة الرابعة الثانوية بمعهد الإسكندرية الديني.

الغزالي يقدّم نفسه للقرّاء

لقد اختار الشيخ الشاعر عنوان «نحو المجد» لأولى قصائد هذا الديوان، وبذلك طمأن الشيخ قارئ شعره من مجرد أن تقع عيناه على عنوان أولى قصائده، أنها سيرة ذاتية رفيعة المحتوى، بلْ هي منهج لسيرة ذاتية سوف يقوم الشيخ الشاب على التزامه في مسار نقي، ومضمار نظيف، سعياً إلى مستقبل مجيد، ومكانة رفيعة .. كل ذلك أطلقه الشاعر وهو ابن ثمانية عشر ربيعاً .. يقول الغزالي في قصيدته الأولى «نحو المجد»:

ثماني عشرة مرت سهادا ... أُرِدْتُ على المنام، ولن أُرَادَا

....

إلى أنْ أشرقَتْ هدياً جليلا ... شموسُ الصحْوِ في أفقي تَهَادَى

وأوضحت للورى عندي ظلالٌ ... مقلَّصةَ الرسومِ، نأتْ مِهَادَا !

عَنَاني ما قَلَوْه من عظيمٍ تَجافوْه وأعيانيا فتقادا
تَنَكَّرَ لي! ركودٌ ليس يفتأ يُثيرُ الصمتَ كيْ يطغَى فسادا

هذا القول الحكيم ما صدح به الشيخ الشاب عن سنواته الثماني عشرة الماضيات .. لله در هذا الفتى الشاب المعمَّم، ابن الثماني عشرة الطالب بالمرحلة الثانوية، إنها حِكَم ابن الثمانين، بلْ هي وبعض حِكَم «عمر الخيام» في رباعياته تتسابقان منطلقاً، وتتسامقان منطقا.

بعد هذا المنهج الذي رسمه الشيخ الشاب لحياته الأولى والسعي في طلب المجد، ينظر حوله في تروٍّ شديد، وينفذ إلى داخل نفسه في عمق وأناة، فيكتشف أنه يعيش دنياه فريداً، وأنه يحيا وحيداً، وأن هذه الوحدة خلصته من أوشاب سوء الحياة، فيقول في أبيات من قصيدته التي جعل عنوانها «دنياي»:

هي دنياي عِشْتُ فيها فريدا وانتأيتُ المأوى القصيَّ عتيدا
وبحسبي في عزلتي من سمير أنني ما حييتُ أبقى وحيدا
أخلصتني من كل أوشاب سوءٍ تبتغيني منذُ اقتحمتُ الوجودا

هذا، ولا يظننَّ ظان أن الشيخ الصبي الذي لم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره قد تخلّى عن الآمال العذاب، وانصرف عن البسمات البهيجات، فقد كانت الآمال الواعدة ماثلة في صدره، والحياة الباسمة مستقرة في فؤاده، وقد عبر عن هذه المشاعر المتناغمة في قصيدة جميلة جعل لها عنواناً من جنس نسيجها وأسماها «معاني الضاحك» يقول في مستهلها:

أستعرضُ الدنيا وإني الآملُ أبداً لمحْياها أنا المتفائلُ
قلبي يحدِّثُني حديثَ مؤكدٍ السعدُ في العيش المحبَّبِ ماثلُ
الحزنُ فيها قد نفاه لُبَّها لبٌّ جميلُ الزهوِ إذْ يتخايلُ!

غير أن الشاعر الغزالي الشاب لا ينسى الخير وهو يشدو، ولا يبتعد عن العفاف

وهو يغني، وإنما الخير قريب إليه، والسوء بعيد عنه، إذْ يقول في القصيدة نفسها:

تـفسي هواهـا الخـيرُ، فهـيَ غريبـةٌ عـن سـوءِ مـا يَهْـوى إليـه سـافلُ
نـاسٌ تهـومُ في مبـاءةِ عاصـفٍ نُكْـرُ الحيـاةِ بهـا مبيـنٌ غائـلُ

لقد لا زمتْ الحكمة الشيخ الغزالي طوال رحلة حياته، فلم تكن قاصرة على مراحله المتوسطة أوْ الأخيرة، ولكنها لازمته ورافقته منذ صغره، فكان حكيماً وهو دون التاسعة عشرة، وكان عميق التأمل ولَمَّا يكمل عقدين من سنيه .. إذْ يكتب الشيخ الغزالي قصيدته «النفس والكون» فيكتب لها مقدمة قصيرة في سطرين اثنين يغنيان عن صفحتين توطئة وتقديماً، يقول فيهما: «بين النفس والكون علاقة، فكأن عناصرها أخذت من كل آياته معانيها وترجمت في إحساسها به غوامضه» ثم ينطلق بعد ذلك مفصلاً هذه المعاني في قصيدته التي صاغها على هذا النحو العميق والفكر البديع:

مـن مديـد الفضـاء دقَّ عـن الفهـم وضـوحاً أو إدراكَ نهايـهْ
وإبْهـام الآفـاق عمقـاً بعيـدا مـا أحاطـتْ بـه وُهُـومُ درايـهْ
صـاغت القـدرةُ الصـناعُ نفوسـا مبـدعاتٍ فهـنَّ في الكـون آيـهْ

كان الشيخ الغزالي إبان كتابة ديوانه هذا، طالباً بالمعهد الديني بالإسكندرية، فشهد كبريات الأحداث السياسية في عقد الثلاثينيات، وكان عقد الثورة على الفساد الداخلي والاستعمار الخارجي، فأسهم بشخصه مع زملائه في العمل الوطني، فكتب عددا كبيراً من القصائد الوطنية التي تنبه الغافل وتلهب مشاعر اليقظان، ومن ذلك قصيدته الساخنة «إلى الأُمة الكريمة» التي تخاطب ضمير أبناء مصر، تستنهض هممهم، وتوقظ النوام من سباتهم، في ثوب من عبارات التقريع وكلمات التوبيخ، وفيها أيضاً يدعوهم إلى الثورة على مصائب التأخر وألوان الفساد، وهي قصيدة طويلة يستهلها بما يشبه الصدمة الكهربائية، قائلا:

مستمرئي الذل هلْ تدرون ما كانا — أخزاكمُ الله، ما تأتون بهتانا

وفيها -أيضاً- يدعو إلى الثورة دعوة صريحة، حين يقول:

دعوتُ للثورة الكبرى تؤجّ دماً — يأبى الحديدَ ويأبى النارَ شُطآنا

دعوتُ للثورة الكبرى إلى غرضٍ — يَنْفي السكون إذا ما سِيمَ إذْعَانا

سَكَتُّ محتسبَ الصيحاتِ في غضبٍ — لمّا رأيتكمُ للذلّ أخْدَانا

وقد بلغ افتتان الشاعر الشاب بالزعيم الوطني «أحمد عرابي» قمته في تقديسه لشخصه على النحو الذي جعله ينظم فيه أرق القصائد وأعذب الأشعار، كقوله:

قُدِّسْتَ مهزوماً تعفّر في الثرى — قُدّستَ مقهوراً كسير الناظرِ

قُدِّسْتَ يوم بكيت إذْ سقط الحمى — لا نصرَ يُرجَى لا دفاع مُغامرِ

كان الغزالي دائم التأمل، طويل الفكرة، كثير العبرة، لا تعجبه الشكليات، ولا ينخدع بالمسميات، ولا يقتنع بأنصاف الحلول .. فنراه يسْخر بشدة من «جيش مصر» الهزيل -آنذاك- الذي انتزعوا سلاحه وجرّدوه من عتاده، فكان أشبه بنكتة سياسية، ومن جملة ما قاله الغزالي:

سرّحوه إنها مهزلة — أضحكتْ سخريةً قلبَ الحزينْ

أيُّ جيشٍ قاده قاهرهُ — وعلتهُ وجماتُ المستكينْ

أيُّ جيشٍ كان للضعف وللّهْـ — ـوِ فما عن قدرة الجِدّ يبينْ

هذه بعض النماذج التي عرضناها من ديوان الشاعر الشاب محمد الغزالي .. والتي تشي إلى أنه -رحمه الله- كان شاعراً واعداً، أسهم بفنه الشعري الجاد في جميع قضايا زمانه، وتحدث في صراحة وإبانة -شِعْراً- عن قضايا نفسه.

لعلنا لا نعجب كثيراً من الداعية الإسلامي محمد الغزالي؛ فهذه هي طبيعته البشرية المفطور عليها منذ الطفولة والصبا، فلوْ قُدِّر له أن يواصل رحلته مع الشِّعْر، لا أقول: لكان أشعر من «لبيد» بلْ لأصبح من أئمة الشِّعْر العربي، بلْ أمير الشعر

السياسي، وسيد شعراء المعارضة .. وها هي إحدى قصائده السياسية بعنوان «إلى الأُمَّة الكريمة»:

رسالة إلى الأمَة

مستمرئي الذل! هلْ تدرون ما كانا — أخزاكم الله ما تأتون بهتانا
أكثرتم اللغو حتى جاء آجلكم — يبدي سريرة هذا الجبن إعلانا
أين المشاعر ولهى تغتلي حرجا — فترسل السيل تلو السيل غضبانا ؟!
بلْ أين مصرُ تريد النصر غايتها — أو إن مصر على الأيام ميدانا
يا ضيعة الأمس كم ذا سغتمو جرعا — تثير ذكراً يعير البأس من هانا
دم الضحايا أكان الماء منسكبا — مستمرئي الهون في وادٍ به ازدانا
دم العزيز لمصر جدٌّ مرتخصٍ — لو خلّف التعب المحزون شجعانا
«يا ليت لي بكم قوماً إذا ركبوا — شدّوا الإغارة فرسانا وركبانا»
يا للضعيف إذا سيم الحياة لقى — ولم يجد من وراء النصر نشدانا
آتي لأهتف من قلبي ألا فئةٌ — للنيل ما نكثَتْهُ العهد خذلانا
وفية السرّ للمجد الذي محقتْ — حضارة الهدم إفناءً ونكرانا
مستمرئي الهون قد طال الهوان فهل — يلقى حديثٌ عن الإعزاز نسيانا؟
دعوت للثورة الكبرى تؤج دماً — يأبى الحديدَ ويأبى النارَ شطآنا
دعوتُ للثورة الكبرى إلى غرض — ينفي السكون إذا ما سيم إذعانا
سَكَتُّ محتبسَ الصيحاتِ في غضبٍ — لَمَّا رأيتكمُ للذلِّ أخدانا

«أزهري» في مواجهة الاحتلال!

لَمْ يحظَ أحد من الدعاة بشهرة عالمية، خلال القرن العشرين، مثلما حظِيَ (إمام الدعاة) الشيخ محمد متولي الشعراوي .. فقد تخطّى عِلْمه اليابس والماء، واستمع إلى دروسه كافة الناس باختلاف أجناسهم وثقافاتهم ومذاهبهم ومعتقداتهم، سواء المادحين له أو الناقدين!

كما تمتع –الشيخ– بحس مرهف، وشفافية نافذة من خلال تعامله مع (القرآن) ولم تأخذه في الحق لومة لائم، إلى الحد الذي جعل إسرائيل تحتج عن طريق سفارتها بالقاهرة على تفسيره للقرآن الكريم! كما اشتكى «مناحم بيجن» رئيس وزراء إسرائيل الأسبق– بغضب شديد إلى الرئيس السادات من الشيخ؛ بأنه يهاجم اليهود، وأن هذا من شأنه أن يعطل عملية السلام! بلْ إن الصحف الأمريكية نشرت بالبنط العريض في عنوان رئيسي، تقول: «أسكتوا هذا الرجل»!

إنه (إمام الدعاة) العالم اللغويّ الذي لا تُجارى فصاحته، حيث كان عليماً بأسرار العربية، وخبيراً بدلالاتها ومراميها. ولِمَ لا؟! فهو الذي عرفه الناس في طفولته بشاعريته وفصاحته، حتى لقّبوه بـ«الشعراوي الشّاعر»! وكان عمره لم يتجاوز الثانية عشر بعد، واعترض على أمير الشعراء في قصيدة ألقاها «شوقي» بمناسبة انقضاء شهر رمضان، والتي مطلعها:

رمضان ولّى هاتِها يا ساقي   مشتاقةً تسعى إلى مشتاق!

فثارت حفيظة –الشيخ– ولم تهدأ، إلاَّ عندما أقنعه أحد الحاضرين، بأن الشّعراء يقولون ما لا يفعلون ..!

ما بين مولد «الشعراوي» في الخمس عشر من أبريل ١٩١١ ووفاته في السابع

عشر من حزيران ١٩٩٨ تاريخ حافل بالدعوة والعطاء، تخللته سلسلة من المعارك الفكرية!

وقد ضرب -الشيخ- أمثلة رائعة في الشجاعة منذ طفولته، فاشترك في المظاهرات ضد الاحتلال، عندما كان طالباً، حتى صدر قرار بالقبض عليه وزملائه، وحتى يجبروه على تسليم نفسه قبضوا على أبيه، ومن ثم ذهب الشاب محمد متولي الشعراوي وسلّم نفسه ليقضي بالسجن ثلاثين يوماً، وفي ذلك يقول: «علّمتني تجربة السجن أن أكون صلباً لا أضعف، وأن النصر للحق مهما طالت معارك الباطل وتكالبت جنوده».

لَمَّا أُودِعَ السجن، ألقوا القبض -أيضاً- على أخيه السيد، بذنب لم يجنِهِ سوى أنه أخو الشعراوي، فأثّر ذلك في نفسيته، فكتب قصيدته «إلى السجن» التي قال في آخرها:

طِبْ شقيقي فؤاداً قد كفى شرفاً	إنْ كنتَ بالسجنِ لكن غير مسجونِ
ولا يضركم مغيبي إنني رجلٌ	وديعةٌ بمكانٍ جِدٍّ مأمونِ!

حفظ الشيخ الشعراوي القرآن الكريم قبل أن يبلغ العاشرة، وذلك في كُتّاب قريته «دقادوس» بمركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية، ثم التحق بمعهد الزقازيق الديني الابتدائي ثم الثانوي، وانتقل إلى القاهرة ليلتحق بكلية اللغة العربية، حيث حصل منها على الشهادة العالمية عام ١٩٤١ ثم حصل بعدها على إجازة التدريس عام ١٩٤٣ وبعد تخرجه عُيّن في المعهد الديني بطنطا، ثم انتقل إلى المعهد الديني بالزقازيق، ثم المعهد الديني بالإسكندرية، وبعد خبرة تسع سنوات في المعاهد الدينية، انتقل -الشيخ- إلى العمل في المملكة العربية السعودية عام ١٩٥٠ ليعمل أستاذاً للشريعة بجامعة أُم القرى.

بعد عودته من المملكة عُيّن -الشيخ- مديراً لمكتب شيخ الأزهر الشيخ حسن

مأمون، ثم سافر –الشيخ– بعد ذلك إلى الجزائر رئيساً لبعثة الأزهر هناك، ومكث فيها لمدة سبع سنوات قضاها في التدريس .. وحين عاد الشيخ إلى القاهرة تنقّل في مناصب عدة، ثم عاد إلى السعودية مرة أخرى، حيث قام بالتدريس في جامعة الملك عبد العزيز، ثم اختير وزيراً للأوقاف بمصر .. لكنه سرعان ما قدّم استقالته، قائلاً: «أنا لا أعرف التصفيق لأحد»!

بعدها تفرغ الشيخ للعمل الدعوي الذي ظهرت فيه براعته على النحو الذي يعرفه الجميع.

أمّا عن شاعرية الشيخ الشعراوي، فهي تتمثل في ثلاثة أبعاد، هي: البعد الديني، والبعد السياسي، والبعد الوجداني. ويتغلغل البعد الديني في تجربته الشعرية ويتصدر هذه الرؤية، ويتغلغل في شرايينها، ويجري منها مجرى الدم في العروق. ولا تخلو قصيدة في ديوان الشعراوي من الحس الديني وظلال العقيدة الإسلامية مهما كان الغرض أو الموضوع، لأن العقيدة متأصلة في كيان الشيخ كله منذ نشأته الأولى تكويناً نفسياً وشعورياً وتعليمياً. وهو في الشعر يظل في دائرة التعبير المباشر الواضح، فلم يلجأ إلى الرموز الفنية أو على توظيف الشخصيات التراثية أو غير ذلك من ألوان التعبير المستحدثة في الفن الشعري، لن تجاربه الشعرية تعدّ كلها بدايات تمثّل رغبته الحميمة في مواصلة الطريق مع الشعر والشعراء. على أنه حين تفتّحت ملكات الشيخ ونضجت اتخذت مساراً فنياً أكثر رحابة وأجدى ثمرة وأكثر نفعاً للإسلام والمسلمين وهو مسار الدعوة إلى الله من خلال بيان جوانب الإعجاز في معجزة القرآن الخالدة، وأثرها في الارتقاء بالبشرية وإسعادها.

من قصائد الشعراوي الوطنية التي كتبها في مطلع شبابه –إبان الاحتلال الإنجليزي لمصر– والتي سبّبت له ولقريته كثيراً من الجور والاضطهاد، يقول في مطلعها:

ولاءٌ برغم العسف باقٍ مجدّدُ ... وذِكر على رغم المنايا خالدُ
وشجوٌ جليلُ الخطبِ يُزكي أُوارهُ ... فلا القلبُ يسلوه ولا النارُ تخمدُ
حرامٌ عليكم أن تنام عيونكم ... وغاصِبكم هذا على مصر سيّدُ

ومن قصائد الشعراوي النارية التي يستنهض بها هِمَم المسلمين، ويحثّهم على الوحدة، وعلى نصرة إخوانهم في فلسطين، تلك التي يقول فيها:

أيها المسلمون في أُمم الأرض ... أيرضي الإسلام ما هو جارٍ؟
كيف بالله تستقر نفوسنا ... والأشقاء بيننا في اشتجار؟
أنقولُ الإسلام -ظُلماً وجورا- ... وفلسطين لم تعد من ديار؟!
«إننا عائدون» تصرخ فينا ... صرخةٌ تستغيث معنى الشِّعار
كل دنيا تُبنَى على غير دين ... فبناءٌ على شفيرٍ هار!

شباب مات لتحيا أمته!

وعندما أصدر وزير الخارجية البريطاني (السير هور) تصريحاً بفرض الحماية على مصر عام 1935 كان الشعراوي -الشّاعر- من المُندّدين بهذا التصريح ومن المعارضين له، فلمْ يهدأ له بال! مما جعله ينشد قصيدته «شباب مات لتحيا أُمته» التي يقول فيها:

نداءٌ يا بني وطني مُجابُ ... دمُ الشهداء يذكره الشبابُ
وهُمْ نفسُ الضحايا والضحايا ... بهم قد عزّ في مصر المصابُ
شبابٌ برّ لم يفرق وأدّى ... رسالته وها هي ذي تُجابُ
فلم يجبنْ ولم يبخلْ وأرغى ... وأزبدَ لا تزعزِعه الحِرابُ
وقدّم روحه للحق مهراً ... ومن دمه المُراقِ بدا الخِضابُ
وآثر أن يموت شهيد مصر ... لتحيا مصر مركزها مُهابُ

يهـــون القيـــدُ في تحريـــر مصر ... وعَـــذْبٌ في قضـــيتها العـــذابُ

دمُ الشـــهداءِ بـــالمُهَج الغـــوالي ... مـــديراً كلـــه ظُفُـــرٌ ونـــابُ

ولم يرضـــوا الهـــوان وكـــل حـــرٍ ... يـــرى التعـــذيب حلـــواً أوْ حبـــابُ

أبـــوا عيْشـــاً تكـــون بـــه نعامـــا ... وأغنامـــاً تضـــلّلها الـــذئابُ

تـــرى العـــدل مملكـــةً تصـــدّتْ ... لســحق العــدلِ مــا هــذا العُجــاب؟

وأيـــمُ الحـــقِ إنْ لمْ ننتشـــلها ... فـــلا ســـاغَ الطعـــامُ ولا الشرابُ

شاعر الثورة

كان (وليد الأعظمي) (١٩٣٠-٢٠٠٤) أنموذجاً فريداً للشاعر المسلم فقد كان معروفاً بإخلاصه للدعوة الإسلامية ورجالها طوال حياته، وساهم بفعالية وحماس في الدفاع عن القضايا الإسلامية وحثّ الشباب على الاستماتة في سبيلها والجهاد من أجلها، وظل يشيد بالحركات الإسلامية العاملة على النهوض بالأمة.

كان (وليد الأعظمي) عضواً مؤسساً في الحزب الإسلامي العراقي سنة ١٩٦٠، وعضواً مؤسساً لجمعية المؤلفين والكتاب العراقيين، وعضواً مؤسساً لجمعية الخطّاطين العراقيين، وعضواً مؤسساً لمنتدى الإمام أبي حنيفة في الأعظمية.

كما عاش حياته محباً للشّعر والأدب، وقرأ الشِّعْر العربي بنهم شديد، وحفظ كثيراً منه، وتأثر أكثر ما تأثر بشاعريْن، أولهما: حسان بن ثابت -شاعر الرسولﷺ، والثاني: الشاعر العراقي معروف الرصافي المتوفي سنة ١٩٤٥ الذي حفظ ديوانه في شبابه.

لقد أوقف وليد الأعظمي شعره على التغنّي بالإسلام، والرد على المناوئين له، والفخر بالدعوة الإسلامية، فامتلأت دواوينه بالتغني بمبادئها وأهدافها والإشادة بقادتها ودعاتها.

المتأمل في شِعره يجد أن الموضوعات الأساسية التي غلبت عليه تتركز في بيان الفهم الصحيح للإسلام، كمنهج شامل لكل نواحي الحياة، وكمال شريعته ووجوب تطبيقها، ونبذ القوانين الوضعية القاصرة، كما حمل في أشعاره على التديّن السلبي والمنقوص لدى كثير من الناس، وحذّر من المؤامرات التي تحاك ضد الإسلام والمسلمين، في وعي عميق وفهم صائب لحقيقة الصراع وجذوره

العقائدية، كما في قوله:

هـا قـدْ تـداعى علينـا الكفـر أجمعـه ... كـما تـداعى عـلى الأغنـام ذؤبـانُ
والمسـلمون جماعـات مفرقـة ... في كـل ناحيـة ملـك وسـلطان
في (زنجبـار) أحاديـث مروعـة ... مثـل التـي فعلـت مـن قبـل أسـبان
ذبـح وصـلب وتقتيـل بإخوتنـا ... كـما أُعـدَّت لتشـفي الحقـد نـيران
مسـاجدٌ نُسـفت في (قـبرص) علنـاً ... فهـل تحـرك عنـد القـوم وجـدان
قـالوا: اختلـف تُـركٌ ويونـانٌ ... لا، بـلْ قـد اختلفـا .. كفـرٌ وإيـمانُ
حـرب صـليبية شـعواء سـافرة ... الشـمس مـا عازهـا قصـدٌ وبرهـانُ!

كما كانت لفلسطين-تلك الدرة المغتصبة- في قلب شاعرنا لوعة وحرقة وألم، يقول فيها:

أمّـا فلسـطين فسـيْلُ دمائهـا ... لم ينقطـع وعيونهـا لم ترقـد
اللاجئـون - وهـذه أكـواخهم ... كالعـار عـن أنظارنـا لم يبعـد
في كـل كـوخٍ لوعـة ومناحـة ... مـن طفلـة تبكـي وشـيخ مقعـد
وكريمـة عبـث اليهـود بطهرهـا ... وبهـا تمتـع رائـح أو معتـدي

أعرب الشاعر وليد الأعظمي عن أسفه وألمه لحال العرب إزاء الوضع في العراق وشعبه وهو يرزح تحت وطأة الاحتلال من قِبَل جيوش الولايات المتحدة وحلفائها، فأنشد قائلاً:

في كـل مـؤتمرٍ تبـدو مبـادرة ... فيهـا لشـباننا الأبطـال تخـذيل
يقـرّرون ويحتجُّـون لاهيـة ... قلـوبهم فهـي أدوار وتمثيـل
لا ينسـبون بحـرف فيـه بارقـة ... مـن الصـمود ليسـتقوي بهـا الجيـل
يهرولـون لـيرضى (بـوش) سـيدهم ... عنهم ويشـكرهم «موشـى» و«رابيـل»
هـم الأسـود عـلى أبنـاء أُمـتهم ... وعنـد (شـارون) أقـزام مهازيـل

كانت آخر قصيدة نظمها الشاعر –وأُلقيتْ بالنيابة عنه بسبب مرضه– في احتفالية البُرَدَة النبوية التي أُقيمتْ في مدينة الموصل شمال العراق، يقول فيها:

أعاهد ربّي أن أظل مجاهداً ... أشدو بميلاد النبيّ قصائدا
أدعو الأنام بها إلى سُبُل الهُدَى ... مستنهضاً منهم شعوراً خامدا
وأبثُّ في روح الشباب عزيمةً ... تذكي بأعماق القلوب مواقدا
لتقوم تجتث الفساد بِهِمّةٍ ... تبقي لهيب ضرامها متصاعدا

لقد كانت جل أشعاره في الجانب الوطني والسياسي، وأهم ما يميزها الوضوح الشديد، والزجر والتقريع ومناوأة الاستبداد والطغيان والقهر السياسي، حتى إنه كان يُلقّب بـ(شاعر الثورة)! ففي قصيدته «نداء السجين» التي كتبها سنة ١٩٦٠ نراه يدعو إلى الثورة على البغي والتمرد على الطغاة، فالموت لدى الحر أهون من البقاء في ظل هذه الأنظمة العميلة .. ولعلّ هذا المعنى تواتر لدى شعراء الرفض والمقاومة في كل العصور، فنجد ذات المعنى يتردد كثيراً عند البارودي، وحافظ، والزبيري، وأمل، ونزار، والسماوي .. وغيرهم من الشعراء العرب .. يقول وليد الأعظمي:

ثوروا على الباغي الذليل ... واحموا تعاليم الرسول
وابغوا الحياة كريمة ... في ظل دستورٍ نبيل
وتمرّدوا فالحر يأ ... بى أنْ يساوى بالذليل
والموتُ أهون عند نفـ ... ـس الحر من حكم الدخيلْ

لعلَّ القاسم المشترك بين شعراء المعارضة أنهم (كلهم في الهمّ شرق) فجميعهم يُندّدون بضراوة الأنظمة الحاكمة، وبشاعة الاستبداد السياسي، وأساليب القمع والتنكيل، وقوانين الطوارئ التي يسنّها الطغاة المستبدون الحاكمون بأمرهم!

فالبردوني والزبيري والشميري يستصرخون «صنعاء»، ونزار قباني وعمر أبو ريشة يستصرخون «دمشق»، والبارودي وحافظ ومحرم ودنقل يستصرخون «أُم

الدنيا»! والشعراء العراقيون -أيضاً- يستصرخون «بغداد»! فها هو الشاعر وليد الأعظمي ينادي على بغداد أن تهزّ قلاع الظالمين المستبدين:

بغــــداد يـــا دار الرجـــو ... لـــة والبطولـــة والعقـــول
بغــــداد يـــا أُم الحيــــ ... ة وربـــة المجـــد الأثيـــل
هــــزي قـــلاع الظالميــــ ... ـــن السـالكين خُطـى المغـول
المســـتبدين الطغـــا ... ة الحـاكمين بـلا أُصـول
الحاقـــدين عـــلى معـــا ... ني الخـــير والخُلُـــق الجميـــل

نِهايَةُ الظّلم!

مـــآتم الظلـــم تتلـــوهنَّ أَعيـــاد ... إيـــاكِ أَن تجزعـــي إِيـــاكِ بغـــداد
أَمـس اسـتبدَّ بأَهليـك الطغـاةُ أَذى ... وراح يمـــتحن الأَحـــرار جـــلاَّد
فهــب أَبنــاؤك الأَحــرار في همــم ... تغــار منهــا لــدى الْهيجــاءِ آســاد
فلــم يــرعهم رصــاص الْخــائنين ولا ... قيــد وحــبس وتعــذيب وإِبعــاد
حتــى تَهــدَّم صرح الظلــم وانكفــأَتْ ... قِــدرٌ الْفســاد وأهــل الظلــم قــد بــادوا
ورفرفـــت رايـــة الإســـلام عاليـــة ... وحَـــنَّ للعـــزِّ أَشراف وأَمجـــاد
و«الله أَكـــبر» قـــدْ راحـــت ترددهـــا ... بعـــد المنـــابر أَغـــوار وأَنجـــاد
ودمــدمتْ ســور القــرآن صــارخة ... كأَنهـــا مُقـــلَ ترنـــو ومرصـــاد

*** ... ***

أَشــبال بغــداد يــا سِرّاً تضــمنه ... صــدر الزمــان بــه أَجــدادنا ســادوا
وحطمــوا كــل طــاغوت ومختــل ... طغــي عــلى قلبــه غــلٌّ وأحقــاد
بغـداد أَنـتِ حِمـى الإِسـلام تحرسـه ... مــن عاديــات الليــالي الســود أَجنــاد
يــا شــامةً في جبــين الــدهر رائعــة ... بهــا جمــال الْعــلى والْمجــد يــزداد
يــا روضــةً مــن ريــاض الْعــز زاهــرة ... للطــير فيهــا عــلى الأَغصــان إِنشــاد

ويبسم الْفجر من ريَّا نوافِجها ... ما اهتز رَوْح وريحان وأَوراد
يا قلعةً من قلاع الْحق خالدة ... ما راعها قط إِبراق وإِرعاد
باتتْ على هامة التاريخ رافعةً ... نورَ النبيِّ لمن زاغوا ومن حادوا
عَمِّ البرايا سلامٌ من حضارتها ... وأَمَّها من جميع الخْلق قُصَّاد
فاضت ينابيعها براً ومرحمة ... وروح نهضتها هَديٌ وإِرشاد
إيِاك أَن تجزعي إِياك بغداد ... شدي الوثاق فصرح الْظلم ميَّاد
سُدِّي ثغور الْعدى واستجمعي هماً ... لنا مع الْفجر يا بغداد ميعاد
غداً يدوِّي نداءُ الحق ثانية ... فتستجيب مدى الآفاق أَمداد
هدارةً كسيول طمَّ زاخرها ... يطفو عليها من الأَخباث أَزباد
وتدمغ الْباطلَ المذبوح حجتُنا ... فينثني زاهقاً تبكيه أَوغاد
إِسلامنا لا يرى فينا له تبعاً ... إِذا رآنا لأَهل الظلم ننقاد
صلاتنا لا يراها الله قائمة ... ويحكم الناسَ فُسَّاقٌ وفُسَّاد
تشقى الْملايين من أَبناءِ أُمتنا ... فيستبد بتالي الأَمر أَفراد
الحكم لله لا يطغى به أَحد ... والشرع أَولى إِذا حكامنا حادوا
شريعة الله لا نرضى بها بدلاً ... وإن تَمَيَّزَ من دعواي حسَّاد
فالغرب ما انفكَّ يسبينا ويظلمنا ... والشرق كالغرب «زمَّار وعوَّاد»
شريعة الله تُحيينا وتسعدنا ... وما سِواها فتضليل وإِفساد
كفى نفاقاً كفى غشاً كفى كذباً ... منكم تبرَّأَ دين الله والضَّاد
قد حصحص الْحق فاسودَّت وجوهكم ... كما تلجلج نهَّاز وصياد
عند الصباح لكم رأي يناقضه ... رأْي المساءِ فإِصدار وإِيراد

* * * ... * * *

يا فتية الْحق إِنّ الله ناصركم ... زوروا الأَعادي كما أَجدادكم زاروا

آن الأَوان فشـــدوا مــن عــزائمكم ... فـــأَنتُمُ لحــماة الـــدين أَحفـــاد

وجــردوا عــن سـيوف الْحــق إِن لهــا ... جمــاجم الْكفــر عنــد الــروع أَغــماد

تـــزوَّدوا للقـــاءِ الله وانطلقـــوا ... لــنصرة الْحــق والتقــوى هــي الــزاد

آباؤَنـــا صـــانوا ديننـــا قـــدماً ... ودونــــه بـــذل الأَرواحَ أَجـــداد

ونحـــن أبنـــاؤهم لا نـــرتضي أَبـــداً ... ذلا ولـــو كبَّلتنـــا الْيـــوم أَصـــفاد

مــا كــان للظلــم أَن يمحــو عقيــدتنا ... ولـــن يـــروق لنـــا كفٌّــر وإِلحـــاد

نهايـــة الظلـــم يـــا بغـــداد واحـــدة ... الله والْحـــق والتـــاريخ أشـــهادُ

أديب الدعوة!

أديب الدعوة وشاعرها- هو عالم أزهري، يعد من أبرز الدعاة المعاصرين، وأحد دعاة «الوسطية الإسلامية» التي تجمع بين الأصالة والمعاصرة، وتوازن بين الثوابت والمتغيرات، ولا تنسى الماضي ولا تنعزل عن الحاضر ولا تغفل المستقبل .. إنه الدكتور/ يوسف القرضاوي- وصفه الذين كتبوا عنه بأنه من المفكرين الإسلاميين القلائل الذين يجمعون بين مُحكمات الشرع ومُقتضيات العصر، وبأن كتاباته تميزت بدقة الفقيه، وإشراقة الأديب، ونظرة المُجدِّد، وحرارة الداعية.

ذلكم الداعية المجدد، الذي تربو مؤلفاته على مئة وخمسين كتاباً، وقد لاقتْ قبولاً حسناً في العالم العربي والإسلامي، وقد طبع بعضها عشرات المرات، كما تُرجِمَ عدد كبير منها إلى اللغات الإسلامية واللغات العالمية المختلفة.

هذه الجوانب يعرفها كل الناس عن الشيخ يوسف القرضاوي، لكن القليل منهم الذي يعرفه شاعراً، مع أنه بدأ حياته وعُرِفَ بين زملائه وإخوانه بالقرضاوي الشاعر!

فالقرضاوي شاعر من شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث الذين عايشوا الحركة الإسلامية في صميم جهادها وتفاعلوا معها، ورافقوها في طريقها المحفوف بالمكاره والمحن!

وكانت أول محاولة للتأليف عنده مسرحية شعرية بعنوان «يوسف الصديق» ترسّم فيها خُطَى أحمد شوقي في «مجنون ليلى» و«مصرع كليوباترا» وكان وقتها طالباً بالمرحلة الثانوية.

شعر القرضاوي -كما يقول عنه الشيخ حسني جرار: شعر صادق منبثق من

الواقع؛ فكرة وتجربة وأسلوباً .. شعر يحمل معاناة إنسانية من خلال المفاهيم والتصورات الإسلامية .. شعر يتحدث عن آلام الناس، ويدعو إلى إزالة المظالم، وإصلاح الفساد .. شعر يتحرك في إطار الإسلام، ويلتزم المنهج الإسلامي .. إنه شعر دعوة في كل قصيدة من قصائده، بلْ وفي كل بيت من أبيات القصيدة .. إنه زاد من زاد الدعاة، وأداة تحمل من الطاقات كل عجيب ..

ومن ميزات شعره: السلاسة والتدفق، والصدق في الإحساس والتصوير، والأسلوب القصصي، والالتزام بعقيدة التوحيد وبالفكر الإسلامي الذي يبدو الاعتزاز به والانتماء إليه في كل قصيدة من قصائده .. فهو يعتقد أن الإسلام حيثما حلّ ملازم للتحرر والتحرير .. يحرر الأرض من العدوان، والإنسان من الطغيان، وهو السبيل الوحيد لتحرير الأرض المغتصبة والأوطان المسلوبة.

القرضاوي شاعر عبقري البيان، صادق العاطفة والإحساس .. ذو خيال خصب، وموهبة حقيقية، وأداء جميل، وتوفيق كامل ومؤثر في رسم الصور والمشاعر .. تبدو في شعره سلاسة العرض، وفصاحة الأسلوب، وطول النفس .. وتتجلى فيه روح صاحبه: رجل العلم والفكر والدعوة.

وقد كتب في معظم أغراض الشعر ومجالاته، خاصة الجانب الوطني والسياسي، مثل قصيدته في توديع كتائب الأزهر إلى القناة للاشتراك في المعارك التي قادها الشباب ضد الاحتلال الإنجليزي، القصيدة بعنوان «يا أزهر الخير» نظمها سنة ١٩٥١ وقال فيها:

دع المداد وسطّر بالدم القاني — وأسْكِت الفم واخْطُب بالفم الثاني
فم المدافع في صدر العداة له — من الفصاحة ما يُزري بسحبان

.... — ....

يا أزهر الخير قُدها اليوم عاصفة — فإنّما أنت من نور ونيران

وله أشعار في المناسبات الإسلامية، كقصيدته «النونية» في ليلة القدر التي ألقاها في معتقل الطور في رمضان ١٣٦٩هـ، و«الرائية» في ذكرى الهجرة ١٣٧٠هـ ومطلعها:

سهِرتُ ليْلي حتى ملّني السهرُ ... وشفّني ذِكرُها والصَّبُّ يدّكِرُ

وقصيدته النونية الشهيرة في ذكرى مولد الهدى سنة ١٣٧٠هـ التي يقول فيها:

قالوا: إلى السجن، قلنا شعبة فُتِحَتْ ... ليجمعونا بها في الله إخوانا

قالوا: إلى الطور، قلنا الطور مؤتمر ... فيه نقرّر ما يخشاه أعدانا

فهو المُصلَّى نربي فيه أنفسنا ... وهو المصيف نقوي فيه أبدانا

وقصيدته الرائية بمناسبة مرور عشرين عاماً على الدعوة، نظمها عام ١٩٤٨ يقول فيها:

هل هذه شُعَبٌ أمْ هذه شُعَلٌ ... تكوي وتهدي ففيها النار والنور

تكوي أناسيَّ أعْيا الطبُّ داؤهُم ... والكيُّ آخر ما تأتي العقاقير

وترسل النور يهدي من لهُ بصرٌ ... والعُمْيُ تُنكرُ والخُفّاشُ مذعورُ

....

يا دعوة الحق قصي ما لقيتِ فكم ... يُؤذى الهدى ويُعانُ الباطل البور

وكمْ زعيم عدا نحوي لينطحني ... فعاد من صخرتي والقرن مكسور

ومنها قوله الذي يصف فيه شباب الدعوة:

للغرب هُمْ أجل، للشرق هُمْ أمل ... للدين نصرٌ وللأوطان تحرير

ظنوا وراء اللِّحَى وهْناً ودروشةً ... مَهْلاً فخلف اللِّحَى أُسدٌ مغاوير

لكن، تظل «الملحمة النونية» أوْ «ملحمة الابتلاء» هي أهم وأطول وأشهر قصائد القرضاوي على الإطلاق .. فمن أراد أن يعرف مكانة القرضاوي الأدبية ومنزلته الشعرية، فليقرأ هذه الملحمة، ففيها تتجلّى ثقافة القرضاوي التاريخية

والفقهية واللغوية .. ولولا طولها، لضمنتها هذا الكتاب، لكن بحسب أن ننقل بعضاً من أبياتها:

ثار القريض بخاطري فدعوني أُفضي لكم بفجائعي وشجوني

أحداث عهد عصابةٍ حكموا بني مصر بلا خلق ولا قانون

أنستْ مظالمهم مظالم منْ خلوا حتى ترحّمنا على «نيرون»!

في ساحة «الحربيّ» حسبكَ باسْمِهِ من باعثٍ للرّعب قدْ طرحوني

ما كدتُ أدخل بابه حتى رأتْ عيناي ما لمْ تحتسبه ظنوني

في كل شِبرٍ للعذاب مناظر يندي لها -والله- كل جبين

فترى العساكر والكلاب معدّة للنهش طوع القائد المفتون

هذي تعضّ بنابها وزميلها يعدو عليك بسوطه المسنون

ومضت عليّ دقائق وكأنها مما لقيتُ بهن بضع سنين

عجباً! أسجنٌ ذاك أمْ هو غابةٌ برزتْ كواسرها جياع بطون؟

هذا هو «الحربي» معقل ثورة تدعو إلى التحرير والتكوين!

فيه زبانية أُعِدُّوا للأذى وتخصّصوا في فنه الملعون

لا فرق بينهمو وبين سياطهم كلٌّ أداة في يدي مأفون

يتلقفون القادمين كأنهم عثروا على كنزٍ لديك ثمين

بالرجل .. بالكرباج .. باليد.. بالعصا وبكل أسلوب خسيسٍ دونِ

أترى أولئك ينتمون لآدمٍ أمْ هم ملاعين بنو ملعون؟!

لا دين يردع .. لا ضمير محاسب لا خوف شعب .. لا حِمَى قانون

منْ ظنّ قانوناً هناك فإنما قانوننا هو «حمزة البسيوني»!

جلّاد ثورتهم وسوط عذابهم سمّوهُ زوراً قائداً لسجون!

....

يا منْ أجبتَ دعاء نوح «فانتصر» وحملته في فلكك المشحونِ
يا منْ أمرتَ الحوت يلفظ يُونساً وسترته بشُجيْرة اليقطين
يارَبِّ إنّا مثله في كربة فارحم عباداً كلهم «ذو النون»

أمّا قصيدته (يا مرشداً قاد بالإسلام إخوانا) فهي قصيدة من شعر المناسبات، نظمها القرضاوي عام 1947 وكان وقتها طالباً في المرحلة الثانوية بمعهد طنطا .. حيث كان من عادة الإمام «حسن البنّا» أن يزور مراكز الدعوة ويتفقدها .. مرشداً وموجهاً .. وفي إحدى الزيارات نظم القرضاوي هذه القصيدة وألقاها بحضور المرشد بطنطا، وبعد سماع القصيدة قال الإمام البنّا: هذا شاعر فحل!

يا مرشداً قاد بالإسلام إخوانا

يا مرشداً قاد بالإسلام إخوانا وهزّ بالدعوة الغرّاء أوطانا
يا مرشداً قدْسَرَتْ في الشرق صيحتهُ فقام بعد منام طال يقظانا
فكان للعرب والإسلام فجر هُدىً وكان للغرب زلزالاً وبركانا
ربّيتَ جيلاً من الفولاذ معدنه يزيده الضغط إسلاماً وإيمانا
أردتَ تجديد صرح الدين إذْ عَبَثَتْ به السنونُ فهدّت منه جدرانا
فقمتَ تحمل أنقاضاً مكدّسةً وعشتَ تُعلي لدين الله أركانا
ترسي الأساس على التوحيد في ثقةٍ وترفع الصرح بالأخلاق مزدانا
حتى بلغت الأعالي مُصلِحاً بطلاً تُطلُّ من فوقها كالبدر جذلانا
وثلّة الهدم في السُّفلى مواقعهم صبُّوا عليكَ الأذى بغياً وعدوانا
ترميكَ بالإفكِ أقلامٌ وألسنةٌ خانتْ أمانتها، يا بئس من خانا
وتنشر الزُّور أحزابٌ مضلِّلةٌ تغلي صدورهمو حقداً وكفراناً
كذاك لابُدَّ للبنَّاء من حجر يصيبه أوْ يصيب الطين أردانا [1]

(١) كان تعليق الإمام البنا حين سمع هذا البيت: ياربّ سلّم.

ولمْ نلمهم فهذا كُلُّه حسدٌ ... والغلُّ يوقدُ في الأحشاء نيرانا

انظر ليوسف إذْ عاداه إخوته ... فجرّعوه من الإيذاء ألوانا

رأوه شمساً وهم في جنبه سُرُجٌ ... رأوا أباهم بهذا النور ولهانا

فدبّروها بظلماءٍ مؤامرةً ... ليبعدوا عنه وجهاً كان فتّانا

ألقوه في الجُبِّ لمْ يرعوا طفولته ... باعوه كالشاة لمْ يرعوا له شانا

وعاش يوسف دهراً يخدم امرأةً ... عبداً، وكان له في السجن ما كانا

فإنْ يكن نسلُ يعقوبَ كذا فعلوا ... فلا تلمْ نسلَ فرعونَ وهامانا[1]

وَدَعْ أذاهم وقلْ: موتوا بغيظكمو ... فالغربُ مولاكمُ والله مولانا

***

آذوك ظلماً فلمْ تجْزِ الأذى بأذىً ... وكان منكَ جزاءُ السوء إحسانا

وكنتَ كالنخل يُرمى بالحجارة من ... قوم فيرميهمو بالتمر ألوانا

قدْ أوسعوكَ أكاذيباً ملفّقة ... وأنتَ أوسعتهم صفحاً وغفرانا

وقلتَ: ربِّ اهدهم للحقِّ واهْدِ بهم ... واجعلهمو للهدى جُنداً وأعوانا

وَمَنْ تكن برسول الله أُسوته ... كانتْ خلائقه رَوْحاً وريحانا



(١) وكان تعليقه هنا: نسل يعقوب أمكر وأغدر!

خذني إليك ..!

مازالت تتوالى صرخات الضعفاء وأنّات المظلومين، الذين لا حول لهم ولا قوة في هذه الدنيا، فسياط الجلادين لا ترحم طفلاً ولا شيخاً، وسجون الطغاة لا تمتلىء أبداً، فكمْ من الأطفال يُتّموا .. وكمْ من الشيوخ أُهينوا .. وكمْ من العلماء اقتيدوا .. وكمْ من الأبرياء أُعدموا .. وكمْ من الرءوس التي فُصِلَتْ عن أجسادها .. وكمْ من عشرات الألوف– سيقوا إلى السجون والمعتقلات بلا محاكمة ولا سؤال .. وكمْ من المصاحف مُزّقَتْ .. وكمْ من البيوت هُدِّمَتْ .. وكمْ من المساجد خُرّبتْ .. وكمْ .. وكمْ ..؟!

إنها دساتير الطغاة المتألّهين، وسُنَن الجبابرة الفراعين التي تواصوا بها .. فالكل مُتّهم عندهم، من قبل ومن بعد، ففي عهد الثورية الاشتراكية، وفي ظل الأنظمة البعثية والعلمانية، لا صوت يعلو فوق صوت الزعيم المُلهَم، لا رادّ لقضائه، ولا معقّب لحكمه .. إنه زعيم واحد لا شريك له .. مَلِك الناس، إله الناس!

لسنا بحاجة هنا إلى الحديث عما جنته الأنظمة الثورية على أمتنا، فقد أسهبنا في ذلك عند الحديث عن «الشّعر السياسي». فها نحن أمام صرخة مدوية للشاعر الأديب الدكتور/ محمود خليفة غانم– يكشف لنا فيها عن ألوانٍ صارخة من الممارسات القمعية، والانتهاكات المشينة التي تلطّخت بها سنين القهر والاستعباد .. مما اضطرّ «الشّاعر» أن يدعو على نفسه بالهلاك، والرحيل عن هذه الدنيا –ولوْ إلى الجحيم!

جدير بالذكر، أن هذه القصيدة التي بين أيدينا –بمثابة– مطولة، جُمِعَتْ في مجموعة شعرية مستقلة، ونظراً لطولها اكتفينا بنقل بعض فقراتها، أيْ «بعض

ما أُمكِنَ نشره» ويكفي من القلادة ما يحيط بالعنق!

قبل أن نستمع إلى صرخة الشّاعر الأعزل من خلف القضبان .. أراني مضطراً في هذا المقام لأتساءل: لماذا لا يُؤخَذ (الشِّعر) كوثيقة تاريخية لمن يتصدون لكتابة تاريخ أوطاننا؟ إذْ كيف يعتمد المؤرخ –فقط– على مانشيتات الصحف والمقالات التي يُسوّدها كُتّاب السلطة وخُدّام النظام؟ أوْ يتكئ على شرح متن السيرة الذاتية للطاغية وتفسير خطب الديكتاتور .. متجاهلاً الرأي الآخر، الذي هو صوت الشعب، وضمير الأُمة، ونبض الجماهير؟!

ما زلنا نتساءل: لماذا يطوف المؤرخون بأقلامهم وتسجيلاتهم وكاميراتهم حول (القصور) فقط، ليسجّلوا وقائعها، وينقلوا أخبارها، ولا يكترثوا ببقية الأُمة التي هي صانعة الحضارة، والتي عمرها أطول من عمر الحُكّام والأنظمة؟

إذْ .. كيف نسمع ونعلم عن نساء وجواري ومحظيّات الخليفة أوْ السلطان أكثر مما نسمع عن العلماء والمفكرين والمجاهدين؟!

فمثلاً .. من يتصفح المراجع التاريخية الكبرى، يقرأ باستفاضة عن جواري هشام ابن عبد الملك، بينما لا يعثر على اسم الإمام السجّاد زين العابدين عليّ بن الحسين – سلام الله عليه!

بلْ يقرأ عن أخبار الراقصات والمغنيّات في عصر المماليك، ولا يقرأ كلمة واحدة عن سلطان العلماء (العز بن عبد السلام)! وغير ذلك من الكثير من الأخطاء والخطايا التي ارتكبها المؤرخون في مختلف العصور!

فلماذا لا تُعاد كتابة التاريخ بطريقة موضوعية، لإنصاف أعلام أمتنا، وإنقاذ تاريخ حضارتنا، حتى نقدمه للأجيال القادمة مُصفّى من الشوائب التي علقت به؟!

***

تعالوا إلى الشّاعر (محمود خليفة غانم) لنستمع إلى صرخاته من خلف القضبان

في هذه «الميمية» التي بين أيدينا .. لندرك أوجه التطابق والاختلاف بينها وبين القصائد التي شابهتها في الغرض والموضوع، مثل: نونية كل من: هاشم الرفاعي، وشكري مصطفى، ويوسف القرضاوي، وقصائد المجذوب، ومصطفى حمام، وعصام الغزالي، وغيرهم!

خذني إليك... !

خُذني إليكَ لعلّ نارَكَ أرحمُ ... ما دمتَ قد وَلّيتَ من لا يرحم
فالنار عندك جنّة لَوْ قُورنَتْ ... بالسجن في زنزانةٍ تتضرّم
جدرانها تهتزّ في أنفاسها ... آهاتُ مظلوم تذوب وتكظم
رقَّ الحديدُ على النوافذ خِلتُهُ ... ينشقُّ عن قضبانِهِ يتكلّم
ضجّت هنا الجدران مما شاهدت ... وتضرعت من أجل من يتألمُ
تبكي على الإنسان إنسانيةً ... بيعتْ بسوقٍ فاز فيها الدرهم !

***

من خلف قضباني أبثُّ شكايتي ... وإليكَ أُعليها، وأنت الأعلمُ
للموت إعصارٌ يدكُّ حياتنا ... والظلم باقٍ عمره لا يهرمُ
هُدِمَت هنا الأخلاقُ من جدرانها ... والسجنُ صرحٌ شامخٌ لا يهدم
والموت لم يدركْ خطى الباغي هنا ... أتراه يخشاهُ وعنه يحجم؟
للسجن جلّادٌ خطى أقدامه ... من وقعها جرحُ الضحايا يلطم
ناحتْ ليالينا ودقَّ سوادُها ... في الأفق أوتاداً وقالت خيِّموا !

***

أعوامنا ذابت بأنهار الأسى ... كزوارقٍ ألواحُها تتحطمُ !
أنا واحدٌ من بين آلافٍ هنا ... دونَ اتهامٍ لي كأني (طلسم)
تُهَمٌ تُكال بلا دليلٍ دائنٍ ... طوراً شيوعيٌّ وطوراً مسلم

أو تحت بند مُحرِّضٍ ومناهضٍ ... للثورة العصماء فيما يُزعم
وأنا ابن «مصر» كان جدِّي قبلهم ... فلاحَ وادي النيل مجداً ينظم
وُرِّثتُ عنه حبَّ أرضي جنتي ... وأنا بمصرَ مُشيِّدٌ ومتيّم

* * *

قد أودعوني سجنهم وأنا الذي ... ما زلتُ عن أسبابِهِ أستفهمُ
عشرون عاماً من حياتي أُهدِرَتْ ... فيها أظن - بلا قضاةٍ تحكمُ
الله أكبر، تهمتي مُتلبِّساً ... بالحمد - في حشد - كأنِّي مجرم
في بحرهم كمْ أغرقوني لم أجد ... طوقي وَمِجدافي وفُلْكي هشّموا
أنا ريشةٌ في ريحهم تلقى كما ... شاءوا .. وإني قصة لا تُختم
ضاع الشباب وصُوِّحَ الوردُ الذي ... ضمَّ العطور وعود عمري برعم
والآن بعد الصبر هل لي من غدٍ ... يا رب أم هذا قضاء مبرم؟
إني أَلِفتُ الظلمَ من عهدي به ... ونسيتُ طعم العدل فيما يطعمُ
ولقد صبرتُ على عذابي مرغماً ... هل ذاك صبر والصبور المرغم؟
إني البريءُ ولم أجد لي منصفاً ... إنْ صحتُ ألفاظي بحلقي تلجمُ !
أنا لستُ إنساناً لأني فاقدٌ ... حريّتي، حتى الأنينُ محرَّمُ !
لا صوت إلاَّ الصمت أنوي قطعه ... والخوف يمنعني ولا يقوى الفمُ
فلربما نطق اللسان بغيرهم ... فالويل كلُّ الويلِ لي إنْ يعلموا

* * *

قومٌ بزيِّ الناسِ في ألوانهم ... لكنهم لم يقرءوا أو يعلموا
لا ربَّ في أذهانهم لم يسمعوا ... عنه بدنياهم، وآلهةٌ همو
قومٌ قساةٌ لفّقوا لي تهمةً ... وعلى الشرائط سجّلوا ما صمموا
وعلى العرائض سوّدوا دعواهمو ... زيفاً ولم تدحض لأني معدم !

ويُلفّقُ التحقيق ضدي مثلما ... يهوى المحقّقُ أو يُرادُ وأبصم
غاب المحامي والقضاة استُكرِهوا ... في غيبة القانون لم يتكلموا
الظلم سيد غابة يقتات من ... سكانها، ويعبث فهو الضيغم!
إن قلتُ: «لا يا ظالم» نلتُ منيّتي ... وإذا نُعيت، فلا يقام المأتم!
سجنٌ كبير يزعمون بأنه ... قلبُ العروبة وهي منه تعقمُ
يا ربّ لا أنساك فاسمع أنّتي ... من داخلي لا ذنبَ لي، تسترحم
إني أخاف إذا سألتك ربما ... شهد اللسان عليَّ أخشى منهمو
أخشى من الأعضاء في جسمي فقد ... أضحت جواسيساً ونابت عنهمو
الشك أضحى توأمي أنكرته ... وسئمته، لكنه لا يسأم!
أخشى أفكّر إنّ في رأسي لهم ... كل المرايا كي تُرِي ما يُكتَمُ
أخشى أنام فقد حلمت بأنني ... حرٌّ فعوقِبَ في السجون النُّوَّم
أحصوا على أوراقهم أنفاسنا ... وترصدوا طرفَ العيون ورقموا

* * *

يا ربِّ باسم الأمن تُهتكُ حرمةٌ ... لا تستباح، لكيْ يسودَ المجرم!
وله زبانيةٌ تصوّر عسفهُ ... شهداً، وعنه كلّ سمٍّ بلسمُ
كمْ قاتلٍ أو فاسقٍ لم يلقيا ... مثلَ البريء .. وكم بريءٍ يُعدَم!
كمْ من كلابٍ درّبوها لم يكن ... تقطيعها أجسادنا يكفيهمو!
كمْ من أظافرَ لم تُقلّم إنما ... نُزِعَتْ بآلاتٍ وكم سال الدم!
كمْ من عزيزٍ ذلّ في تعذيبه ... من بعد أهلٍ بينهم يتنعّم!
كمْ زائرٍ في الفجر شرّد أسرةً ... من أجل واشٍ مجرمٍ، لا يندم!

* * *

هي صورة في خاطري محفورةٌ ... لما فتحتُ الباب ليلةَ دمدموا

قومٌ غلاظٌ أزعجوا أهلي على ... خوفٍ يعربدُ في المقرّ ويدهم

لم أنس أبنائي الحيارى ليلة ... فيها أُخِذْتُ صراخهم يتَحمْحمُ

لم أنس أصغرَ طفلةٍ إذْ أمسكتْ ... بذراع إلفي والعيون تسجَّم

لابد أن أنسى فإنّ تذكّري ... ما قارفوه من حياتي يعظُم

ما لا يُطاقُ ولا يُقالُ ولا يُرَى ... ذبحوا الفضيلةَ كي يعيشَ المأثم!

***

الحَرُّ ضايق ضابط السجن الذي ... -يروي المظالم- وجهُهُ المتجهِّم

نصف الإله رئيسه معبودهُ ... ورئيسه الأعلى إلهٌ أعظمُ

وعلى الطريق طغاة مصرَ تربّعوا ... كلٌّ بمملكة الفساد يُحكّم

الخوف يحكمهم برغمِ سلاحهم ... فرعون في أعماقهم يتحكّم

كثرت فراعين البلاد فعربدوا ... مادام شعب النيل يخشى منهمو

صرنا ضحايا ثورةٍ كنّا لها ... أمواجَ بحرِ سفينةٍ تتقدّمُ

أسرى بلا حرب لدى حُرّاسنا ... من أجل ترقيةٍ نُذلُّ ونُشتم!

***

يا ربِّ هل يرضيك أن أغدو بلا ... عقلٍ يقيني ما عليه أندمُ

يا ربِّ إن الخوفَ يهزم أمةً ... مذعورةً فيه بنوها استسلموا

في كل فردٍ سجنهُ، سجَّانهُ ... من ذاته، أغلاله والمعصَم

القائد المغرور ضيَّع جيشه ... في أرض «سيناء» بخزيٍ يُهزَم

الخمرُ خيّلتِ اليهودَ برأسهِ ... نملاً يدبّ بجمع قوتٍ يغرم

العبقريُّ الفذُّ وهو جنايةٌ ... لو يعلمون وقيل عنه المُلْهمُ

ليثٌ علينا ثم صار بخزيهِ ... مثلَ النعامةِ وهو فينا الأعظم

والنكسةُ الحُبْلى تئنُّ، مخاضها ... في أرضنا رجس فمن ذا يرحم؟

ثـوبُ الشـجاعة لـو نضـاه فـارسٌ ... مـاذا يفيـد سـلاحهُ أو يـدعمُ؟

* * *

وتـدور أيـام تجـرُّ شـهورَها ... وبموكـب التـاريخ ثـار القمقـمُ

وتمخّض الليلُ الغضوب عن المنى ... حمـل الزمـان وليـدَها يتبسّـم

فُتِحـت إذاعـات السـجون بآيـةٍ ... منطوقهـا «صـلوا عليـه وسـلموا»

مـن منـبر في مجلس الشعب انـبرى ... صـوتٌ يجلجـل للعدالـةِ تبسـم

أمـراً ليفـتحْ كـلُّ بـابٍ موصـدٍ ... مـن كـلِّ سـجنٍ والقيـودُ تحطّـم

يـا ربِّ حققـت الأمـانيَ، أشرقـت ... كالشـمسِ «بـالإفراج» عمـن أرغمـوا

الله أكـبر زلـزلي يـا أرضـنا ... زلزالـك الموعـود يـوم يغمغـم

والحمـد للهـادي علـى توفيقـه ... وعلـى الشـهيدِ لأجلـهِ نـترحّمُ !



فرعون وقومه !

الشاعر المهندس/ **عصام الغزالي**- أحد الشعراء الذين انصهرت تجربتهم الشعورية في الرؤية الإسلامية، وهو من الصنف الذين يعرفون قدر أنفسهم - وأقصد بقدر نفسه هنا- أيْ مقدار نبوغه الأدبي ومكانته الشعرية، حتى وإنْ تجاهله الآخرون، وأغمطوا حقه، ورموه بألسنةٍ حِداد، فلا يكترث بآرائهم، ولا تطاوعه نفسه بأن يرسل قصيدة واحدة لنشرها في تلك الصحف الملقاة على الأرصفة، وما ذلك إلاَّ توقيراً لنفسه، وصيانة لرسالة الشِّعر!

إنَّ القارئ لشعره يدرك من أول وهلة أنه أمام «مهندس الكلمات» و«فنان الصور» و«خبير المعاني». فهو مبدع قدير، يعرف ماذا يكتب؟ ومتى يكتب؟ ولمن يكتب؟! فلا يوجد شاعر من مُجايليه يفري فريّه!

فلا عجب أن نرى كلماته يحق لها أنْ تُوزَّن بميزان الذهب، فله بصمته الشعرية الواضحة، ونكهته الأدبية المتميزة، وله قاموس شعري لا يشاركه فيه أحد، وكثيراً ما نراه يعمد إلى استخدام الرمز والكناية والمواربة، كما نرى في قصيدة «أحلام رمادية»:

أُقلّبُ في الجرائد كل يوم	وأحلم أنْ تُجلّلُ بالسوادِ
وأحبسُ دمعةً حرى تُروِّي	من الأشواق قهري واضطهادي
....	....
أُقلّبُ في الجرائد كل يوم	مزيفة بألوان المدادِ
وأمضي في الشوارع كل عينٍ	تقابلني مقابلة الجمادِ
فهل يدرون أن الفجر آتٍ	وأنّ الصبر حتميُّ النفادِ؟!
وأني في انتظار فتىً نبيلٍ	يزيح القافزين على الجوادِ؟!

أُقلّب في الجرائد كل يوم — وإنْ مضتْ الحوادثُ في عنادي
وأحلم أنْ أرى العنوان خَطْباً — يُفجّرُ صرخةً .. ليستْ بوادي
فأمضي في الشوارع كل عينٍ — تُحرضني على ضغط الزنادِ

.... — ....

زفافكَ مُوشكٌ في يوم حُزنٍ — وعُرسُكَ لابسٌ ثوب الحِدادِ!

تتبين موهبة الشاعر الحقيقية في قدرته على توصيل رسالته في أقل عدد من الكلمات، فلا ثرثرة فارغة، ولا إطالة مُمِلّة، ولا حشو ممجوج، بلْ استطاع أن يجمع بين سهولة اللفظ ورشاقته، وجزالة العبارة ورقتها، مع تكثيف المعاني، ففي قصيدته «العرس الجنازة» يقول:

يا أصحاب العرس المخزي — نزَّ الدم فوق الخلخال
لا ترتقبوا المطر الآتي — لا تحتضنوا الطيفَ الخالي
لن يبقى من هذا شيءٌ — هذا ثلج في غربال
هذا رأسي إنْ أوردكم — إلا مستنقع أوحالِ
إنْ أدخلكم في عصمته — لن يخرجكم منها والي

.... — ....

أنا لا أبكي في عرسكمو — لكنَّ المشهد أوحى لي!
قولوا لم يصْدقْ ناصحنا — وضعوا حدّا لاسْترسالي
فُضُّوا هذا العرس الباكي — كيْ ننتظر العرس التالي
مِتُّم في أعيننا .. لكن — من قرر موت الأشبال؟!

لكن، الذي يعنينا من هذا الأمر كله، هو موضوع هذا البحث، الذي يدور في فَلَك الشِّعر الذي انهالتْ رصاصاته على معسكر الشر، وصُوّبت قذائفه تجاه عصابة البغي، من الجبابرة الطغاة الحاكمين بأمرهم ... وها نحن أمام قصيدة من هذه القصائد النارية للشّاعر «عصام الغزالي» فلنترك له فسحة من الوقت لينقل لنا

الصورة التي رسمتها ريشته لهذا الفرعون، وما كان من أمر قومه معه:

فرعون وقومه!

أنـــــــتَ المــــــــدانُ، ولا أُدِينـــــــــكْ
هـــــم (فرعنـــــوكَ) فتــــاهَ طينُــــكْ
أذْلَلْـــتهمْ وهـــزمتهمْ ورأيـــتَ مـــنهم مـــا يُعينُـــك
وجعلـــتَ مـــن وادي الرخـــاءِ خرابـــةً فيهـــا عرينُـــك
(نـــيرونَ) كنـــتَ وكرَّمـــوكَ فهـــلْ بقافيـــةٍ أُهينـــك؟!
أحرقـــتَ قـــاهرةَ المعـــزّ فصـــفَّقوا .. سَلِمَـــتْ يمينُـــك!!
وجعلتنـــا خلـــفَ الشعـــوب فلـــمْ يَثُـــر شعـــب سجينـــكْ
يـــا أيهـــا الشـــعبُ الصـــبورُ، وبعـــضُ صـــبرك مـــا يشـــينُكْ
لا يُحكِـــم الطـــاغوتُ قبضـــتهُ ســـوى إنْ بـــانَ لينُـــكْ
يـــا صـــانعَ الفرعـــون هـــلْ ينهـــاك عـــن دُنيـــاكَ دينُـــك؟!
مُـــرْ مَـــن يقـــودك أن يُطيـــع وأنـــت مرتفـــعٌ جبينـــكْ
إنّ الـــذي حَمَـــلَ الأمانـــةَ خـــادمٌ لـــكَ لا خدينُـــكْ
يـــا مصرُ يـــا بلـــدي الحبيـــب ومـــا بكـــى مـــثلي حزينُـــكْ
وأرى بغـــاثَ الطـــير يســـهل في مناقـــرها عجينُـــكْ
فأميـــل نحـــوك والـــدموع يفضـــها منّـــي أنينُـــكْ
وأنـــا أُتمـــتم: لمْ تمـــتْ، هـــذا الـــتراب بـــه جنينُـــكْ
مـــا زال سرُّ الله فيـــكَ ولم يـــزل حيـــاً دَفِينُـــكْ
والمجـــدُ يـــأبى أن يـــرين عـــلى مكينـــكَ مُســـتكينُكْ
انهـــض عـــلى ألم الجـــراحِ ومِـــنْ جراحـــكَ مـــا يزينُـــكْ
وإذا طغـــى الفرعـــونُ فيـــكَ فقـــل لبأســـكَ: حـــانَ حينُـــكْ

أمير شعراء الرفض!

رحل عن هذه الدنيا، مُودِّعاً الهموم والأحزان، والطرقات والأرصفة، لكيْ يستريح هناك، تاركاً بقايا عظام، وقصاصات ورق، وقلم رصاص لم يملك سواه!

- تقول «بطاقته الشخصية» إنه ولد سنة 1940 بإحدى قرى صعيد مصر.

- وتقول «صحيفة أحواله» إنه حصل على الشهادة الثانوية، لكنه لم يكمل تعليمه الجامعي.

- وتقول «بطاقته الصحية» إنّ غولاً اسمه «السرطان» نازله في سنواته الأخيرة، ودارت بينهما معركة رهيبة، فاضطر الشاعر «الأعزل» أن يستسلم، تاركاً له بقايا أشياء من عظام وعروق وجلد بشري ودم جاف.

- وتقول «بطاقة رسم القلب» إنَّ نبضاته على مدى ربع قرن ترجمت إلى كلمات فيها دموع الأسى، وشموخ الأباة، وترفّع السادة، ونداء القادة: اشهروا الأسلحة .. واتبعوني.

- وفي «مستشفى الحياة» سمعت بنفسي «أطباء الكلمة» و«خبراء الحرف» يقولون إنه كان يتمتع «بتلباثية» الزرقاء، وشفافية المتصوفة الذين ينظرون إلى الغيب من ستر رقيق، فدعا، وحذر، وأنذر، لكن قومه لم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد، فكان مزيد من التشريد والتهويد، والخيام والرغام والهوام.

- وتقول «بطاقته الفنية» إنه فزع إلى التراث الإنساني، وخصوصا «الإسلامي والعربي» منهيستحضر شخصياته، ويستوحي أساطيره، ويسترفد صوره وشوارده وكلماته، وأخذ يعتصر هذا التراث قطرات، فمنها ما كان أريجاً فوّاحا، ومنها ما كان حميماً متسعرا، وكل ذلك في إبداع رائع عجيب.

ذلكم هو (أمل دنقل) أحد كتيبة الشّعراء الذين داهمهم الموت في سن مبكرة، بعدما بلغت موهبته ذروة نضوجها الفني، واكتملت أبعاد تجربته، وبهذا الرحيل المبكر فإنه يلحق بطبقة متميزة جداً من الشعراء العرب وغير العرب، رحلوا وهم يصهرون في لهيب الحرية، ومن هذه الطبقة في تراثنا العربي القديم: طَرَفة بن العبد، وامرؤ القيس. وفي أدبنا الحديث: الهمشري، والشابي، وبدر شاكر السياب، وهاشم الرفاعي، وغيرهم.

وفي الأدب الأوروبي رحل (رامبو، وبودلير، وكيتس، وبروك) في سن مبكرة .. بَيْدَ أنهم تركوا وراءهم رصيداً هائلاً من لتجارب الإبداعية، التي أثّرت في مسيرة الشّعر الحديث.

لعلَّ حياة «أمل دنقل» ورحيله المبكر ترجمان حيّ لهذه الثنائية التي تلبثت بتجاربه الشّعرية وصبغت رؤيته للكون والإنسان والحياة.

ولعلَّ قصيدته «ضد مَنْ» التي يرثي فيها نفسه– تعلن عن هذه الثنائية وعن رؤية الشّاعر وموقفه النضالي، والعنوان ذاته «ضد من» نلمس فيه طابع المقاومة، مقاومة الموت، ومكابدة الواقع المعايش فيه بصبر وجلد.

أمّا أداة «مَنْ » الاستفهامية، فهي هنا رمز للمجهول، المجهول الذي تتسع أبعاده لتشمل الزمن والحياة والخوف من المجهول الذي يستشعره الشاعر، فالمجهول هنا رمز جامع لكل القوى التي يخشاها الشاعر ويخاف من سطوتها. ونلاحظ أن لون (البياض) قد اتخذ دلالة في التعبير عن الموت من خلال تضافر أشياء عديدة وردت في القصيدة.

إنَّ الشاعر يعيد تشكيل الرموز بشكل خاص، فاللون الأبيض الدال على الموت المُوحِي به، ينهض بإزائه اللون الأسود دلالة على الحياة خلافاً للمعهود:

كل هذا البياض يذكرني بالكفن

فلماذا إذا مِتُّ .. يأتي المعزّون متّشحين .. بشارات لون الحداد

هل لأنّ السواد، هو لون النجاة من الموت،

لون التميمة ضد .. الزمن ... ضد منْ؟!

ومتى القلب- في الخفقان اطمأن؟!

بين لونيْن: استقبل الأصدقاء .. الذين يرون سريري قبراً .. وحياتي دهرا

وأرى في العيون العميقة .. لون الحقيقة .. لون تراب الوطن!

و«أمل دنقل» الذي كان الشِّعر حجر الأساس في موقفه من الكون والإنسان والانفعال الصادق المائج ببواعث التجارب .. وبما يدور في محيط الشّاعر وفي زمنه من انكسار المسار، وتخبط الخطى، وضياع الأرض، وانحسار القيم الإنسانية .. كل هذه الظواهر كانت قدر الشاعر، وكانت مصدراً ثرياً من مصادر إلهامه .. وكان الشّعر سيد بيته، وسبباً لانفعاله المستمرِ وتوتره الدائم.

وقِيل إنَّ رحلته اليومية منذ الصباح حتى الصباح التالي، منذ استيقاظه، فنزوله إلى الشارع واختلاطه بالناس والأحداث العادية كانت أشبه برحلة صيد وجدانية، إنها رحلة صيد للقصيدة، موضوعها ورموزها ولغتها ومناخها العام حتى يمكن القول: إن الناس جميعاً كانوا مشاريع قصائد لدى أمل دنقل!

وحين نتصفح ديوان الشاعر ونتأمل عناوين قصائده، وبخاصة في مجموعته الشعرية (البكاء بين يدي زرقاء اليمامة) نعثر على مفاتيح التجربة الشِّعرية، وعلى موقف الشّاعر من هذه القضية «ثنائية الموت والحياة» فعناوين القصائد ترد على هذا النحو (بكائية ليلية – كلمات سبارتكوس الأخيرة- الأرض والجرح الذي لا ينفتح للبكاء- بين يدي زرقاء اليمامة- أيلول الباكي هذا العام- السويس وهي الآن في ثياب الموت والفداء- يوميات كهل صغير السن- إن العالم في قلبي مات- أجازة فوق شاطئ البحر- صديقي الذي غاص في البحر مات- موت مغنية مغمورة –

الموت في لوحات—الموت ما زال مقيماً على الأبواب—الحزب لا يعرف القراءة .. إلخ. ولا تكاد تخلو قصيدة لأمل من إيقاع الموت .. ولعل حب الشاعر للحياة وبحثه الدائب عن الحرية دفع به إلى هذا التكثيف الشعوري واللغوي لتجسيد الموت، فقد قُدِّرَ له أن يعيش زمن الهزيمة وأن يبكي بين يديْ زرقاء اليمامة، لأن رؤيته لم يأبه بها أحد! فعلق على ما حدث وصور العهد الآتي .. وأدلى في ساحة الصراع بين الموت والحياة بأقوال جديدة عن حرب البسوس، ثم كانت النهاية .. البداية .. وكان (مقتل القمر) في أوراق الغرفة رقم « 8 »!

«أمل دنقل» لم يُكَرّم في حياته أبداً، وهذا طبيعي، لأنه شاعر رفض في الأساس .. وشعراء الرفض عادة لا تكرمهم الحكومات التي ينتقدونها باستمرار، كما أن القسوة لدى أمل كانت آلية للدفاع، وليست طبعاً متأصلاً فيه، وكانت وراء خشونته وقسوته الخارجية رقة مؤثرة حتى في شعره، برغم أن الناس لا يرون فيه سوى أنه شاعر «لا تصالح» و«البكاء بين يديْ زرقاء اليمامة» لكنه كان يخفي في داخله شاعراً رومانسياً. واقرأ مثلاً رومانسياته «العينان الخضراوان» و«رباب» ستجده شاعراً آخر في غاية الوداعة، يبحث عن عالم آمِن، وعن حبيبة لا تُوجَد، ووطن يليق .. لكنه من أسف لم يملك من أسباب الحياة ما يكفل له أمناً وكفافاً يتيح له الكشف عن روحه الحقة وذاته الأصلية.

لكن الغرفة رقم « 8 » التي كتب فيها أصفى أشعار وداعه ورثائه لنفسه، كانت مرآة أمل الحقيقية، التي كشفت عن قوة شخصيته في مواجهة الموت، وفهمه العميق والحقيقي لوجود الإنسان على هذه الأرض. ولنأخذ مثلاً على قدرة أمل دنقل في توظيف التراث واستحضار شخوصه متضمناً الإسقاطات السياسية بمهارة فائقة:

كنتُ في كربلاءْ ..

فقال لي الشيخ: إنَّ الحسينْ.. مات من أجل جرعة ماءْ

فتساءلتُ: كيف السيوف استباحت .. ابن الأكرميْن !
فأجاب الذي بصّرته السماءُ: إنه الذهبُ المتلألئُ في كل عيْن
فإنْ تكن كلماتُ الحسيْن .. وسيوفُ الحسيْن .. وجلالُ الحسيْن
سقطت دون أن تنقذ الحقّ من ذهب الأمراء
أفتقدرُ أن تُنقذ الحقَّ ثرثرة الشعراء ؟!
والفراتُ لسان من الدم لا يجدُ الشفتيْن!

أمّا قصيدة (لا تُصالِح) كتبها الشاعر في نوفمبر 1976 فما هو سرّ رفضه للصلح، وغضبه المستطير، وكراهيته الدفينة للصهاينة .. في الوقت الذي هرول فيه «المُطبّعون» نحو «شالوم» فُرادى وجماعات .. مشياً على الأقدام، أوْ زحفاً على البطون!

لا تُصالِح ... !

(١)

لا تُصالِحْ! ولوْ منحوكَ الذهبْ
أتُرى حين أفقأُ عينكَ، ثمّ أُثبّتُ جوهرتيْن مكانهما ..
هل ترىَ؟ هيَ أشياءٌ لا تُشْتَرى:
ذكرياتُ الطفولة بين أخيكَ وبينكَ، حسُّكما -فجأة- بالرجولة،
إنك إنْ مِتَّ: للبيت ربّ.. وللطفل أبْ ..
هل يصيرُ دمي -بين عينيْكَ- ماءً؟
أتنسى ردائي الملطّخَ .. تلبسُ -فوق دمائي- ثياباً مطرزة بالقصبْ؟
إنها الحربُ! قد تثقل القلبَ .. لكن خلفك عارَ العرب

لا تُصالِحْ.. ولا تتوخَّ الهَرَبْ !

(٢)

لا تُصالِح على الدم .. حتى بدمْ !
لا تُصالِح! ولو قِيلَ رأسٌ برأسٍ! أكُلّ الرؤوس سواءٌ؟!
أقلب الغريب كقلب أخيكَ؟! أعيناه عينا أخيك؟!
وهل تتساوى يدٌ .. سيفها كان لكْ .. بيدٍ سيفها أثْكلكْ ؟
سيقولونَ: جئناك كيْ تحقن الدم ..
جئناك كُنْ -يا أميرُ- الحكَمْ.. سيقولون: ها نحن أبناء عمْ.
قل لهم: إنهم لم يُراعوا العمومةَ فيمن هَلَكْ
واغرس السيفَ في جبهة الصحراء .. إلى أن يجيب العَدمْ ... إنني كنتُ لكْ ..
فارساً .. وأخاً .. وأباً ... ومَلِكْ !

(٣)

لا تُصالِحْ .. ولو حَرَمْتكَ الرقادْ .. صرخاتُ الندامةْ .. وتذكَّرْ
(إذا لانَ قلبك للنسوة اللابسات السوادْ ولأطفالهن الذين تخاصمهم الابتسامة)
أن بنتَ أخيكَ «اليمامة» زهرةٌ تتسربل -في سنوات الصبا- بثياب الحدادْ
لا تُصالِح!
فما ذنبُ تلك اليمامة .. لترى العشَّ محترقاً .. فجأةً، وهي تجلس فوق الرمادْ؟!

(٤)

لا تُصالِحْ .. ولوْ توَّجوكَ بتاج الإمارة
كيف تخطو على جثة ابنِ أبيكَ؟ وكيف تصير المليك ..
على أوْجُهِ البهجةِ المستعارة؟

كيف تنظر في يدِ من صافحوك .. فلا تبصر الدم .. في كلِّ كفْ؟
إنَّ سهماً أتاني من الخلفْ .. سوف يجيئكَ من ألفِ خَلفْ
فالدمُ –الآن– صار وساماً وشارة
لا تصالحْ، ولو توّجوكَ بتاج الإمارة
إنَّ عرشكَ: سيفٌ .. وسيفكَ: زيفٌ
إذا لم تزِنْ –بذؤابته– لحظات الشرفْ.. واستطبتَ الترفْ

(٥)

لا تُصالِح.. ولوْ قال مَنْ مال عند الصدامْ«..ما بنا طاقةٌ لامتشاق الحسامْ »
لا تصالح ولو قيلَ ما قيلَ من كلمات السلامْ .. كيف تستنشقُ الرئتانِ النسيمَ المُدنّسْ؟
كيف تنظر في عيني امرأةٍ .. أنت تعرف أنك لا تستطيع حمايتها؟
كيف تُصْبح فارسها في الغرام؟ كيف ترجو غداً ... لوليدٍ ينام
كيف تحلم أوْ تتغنى بمستقبلٍ لغلام وهو يكبُر –بين يديك– بقلب مُنكّسْ ؟
لا تُصالِحْ .. ولا تقتسم مع من قتلوكَ الطعام ... وارو قلبَك بالدمْ ..
وارو الترابَ المقدّسْ .. وارو أسلافكَ الراقدينَ .. إلى أن تردَّ عليكَ العِظامْ !

(٦)

لا تصالحْ، ولو ناشدتْكَ القبيلة .. باسم حزنِ «الجليلة»
أن تسوق الدهاءَ، وتُبْدي –لمن قصَدوكَ– القبُولْ.
سيقولونَ: ها أنتَ تطلبُ ثأراً يطولْ .. فخُذْ –الآنَ– ما تستطيعُ:
قليلاً من الحقّ ... في هذه السنوات القليلة
إنه ليس ثأركَ وحدَك، لكنه ثأر جيلٍ فجيلُ

وغداً .. سوف يولدُ من يلبس الدرعَ كاملةً، يوقد النار شاملةً،
يطلب الثأر، يستولد الحقّ، من أضلعِ المستحيلْ
لا تُصالِحْ، ولو قيلَ إنّ التصالَح حيلةٌ

(٧)

لا تصالحْ، ولوْ حذّرتكَ النجومْ .. ورمى لك كُهّانُها بالنبأْ ..
كنتُ أغفر لوْ أنني مِتُّ .. ما بين خيطِ الصواب وخيطِ الخطأْ
لم أكن غازياً، لم أكن أتسلّلُ قربَ مضاربِهمْ .. أوْ أحومُ وراءَ التخومْ
لم أمدّ يداً لثمار الكرومْ .. أرضَ بستانِهم لكم أطأْ

(٨)

لا تصالحْ، إلى أن يعودَ الوجودُ لدورته الدائرة:
النجومُ .. لميقاتِها .. والطيورُ .. لأصواتِها .. والرمال .. لذراتِها
والقتيلُ لطفلته الناظرةْ ... كلُّ شيء .. تحطّم في لحظةٍ عابرة
كلُّ شيء تحطم في نزوةٍ فاجرة
والذي اغتالني: ليس رباً .. ليقتلني بمشيئته
ليس أنبلَ منّي .. ليقتلني بسكينتِه،
ليس أمهرَ منّي .. ليقتلني باستدارتِهِ الماكرةْ
لا تصالحْ، فما الصلحُ إلا معاهدةٌ بين ندّيْنِ ..
والذي اغتالني مَحْضُ لصّ .. سرقَ الأرض من بين عينيَّ
والصمتُ يُطلقُ ضحكته الساخرةْ !

(٩)

لا تصالحْ، ولوْ وقفَتْ ضد سيفكَ كلُّ الشيوخْ

هؤلاء الذين يحبون طعم الثريدْ
هؤلاء الذين تدلّت عمائمهم فوق أعينهم،
وسيوفهم العربية قد نسيتْ سنوات الشموخ
لا تصالحْ، فليس سوى أن تريدْ ..
أنت فارسُ هذا الزمانِ الوحيدُ .. وسواكَ .. المسوخ !
لا تُصالِحْ ... لا تُصالِحْ !



القدس عروس عروبتكم..!

(مُظَفَّر النَّواب) شاعر عراقي واسع الشهرة، عرفته عواصم الوطن العربي شاعراً مُشرَّداً يشهر أصابعه بالاتهام السياسي، لمراحل مختلفة من تاريخنا الحديث .. وقد نال عدداً من الألقاب والكُنَى التي تصف حالته مثل: الشاعر المتمرد، والثائر، والمطارد، والحزين، والملتاع .. ووصفه الذين عايشوه بأنه (إنسان داخل شاعر، وشاعر داخل إنسان) وأنه زاهد في كل شيء إلاَّ الشِّعر!

وعن سبب طغيان الجانب السياسي في شعره، يقول: «لأنّ الهمّ السياسي دائم الحضور فيلقى متابعة مستمرة».

وهو عاشق للمنصَّة والميكرفون وحضور الجماهير الغفيرة لسماع أشعاره، حيث يرى أن «الإنشاد يلعب دوراً مهماً كون اللغة العربية تحمل موسيقى عذبة لا توجد في اللغات الأخرى، فضلاً عن أن الإلقاء يرهب الأنظمة ويكهرب الجو فيدفع إلى الرفض والتحدي والوعي .. بسبب التفاعل الذي تخلقه القصيدة داخل قاعات الشعر»!

وفي كتاب (مظفر النواب .. شاعر المعارضة السياسية) تتكشّف لنا المحطات الرئيسية في حياة هذا الشاعر العراقي المعارض، وكيف جاءت اتهاماته عميقة وحادة وجارحة وبذيئة أحياناً.. إنه يصدر عن رؤية تتجذّر معطياتها في أعماق تاريخ المعارضة السياسية العربية، وتمتد أغصانها في فضاء الروح حتى المطلق.

وُلِدَ «مظفر النواب» في بغداد-جانب الكرخ عام ١٩٣٤ من أسرة أرستقراطية تتذوق الفنون والموسيقى وتحتفي بالأدب. وفي أثناء دراسته في الصف الثالث الابتدائي اكتشف أستاذه موهبته الفطرية في نظم الشعر وسلامته العروضية، وفي

المرحلة الإعدادية أصبح ينشر ما تجود به قريحته في المجلات الحائطية التي تحرر في المدرسة والمنزل كنشاط ثقافي من قبل طلاب المدرسة.

تابع دراسته في كلية الآداب ببغداد في ظروف اقتصادية صعبة، حيث تعرض والده الثري إلى هزة مالية عنيفة أفقدته ثروته، وسلبت منه قصره الأنيق الذي كان يموج بندوات ثقافية، وتقاد في ردهاته الاحتفالات بالمناسبات الدينية والحفلات الفنية على مدار العام.

بعد عام ١٩٥٨ أيْ بعد انهيار النظام الملكي في العراق، تم تعيينه مفتشاً فنياً بوزارة التربية في بغداد، فأتاحتْ له هذه الوظيفة الجديدة تشجيع ودعم الموهوبين من موسيقيين وفنانين تشكيليين، لئلا تموت موهبتهم في دهاليز الأروقة الرسمية والدوام الشكلي المقيت.

في عام ١٩٦٣ اضطر لمغادرة العراق، بعد اشتداد التنافس الدامي بين القوميين والشيوعيين الذين تعرضوا إلى الملاحقة والمراقبة الشديدة، من قِبل النظام الحاكم، فكان هروبه الى إيران عن طريق البصرة، إلاَّ أن المخابرات الإيرانية في تلك الأيام (السافاك) ألقت القبض عليه وهو في طريقه إلى روسيا، حيث أخضع للتحقيق البوليسي وللتعذيب الجسدي والنفسي، لإرغامه على الاعتراف بجريمة لم يرتكبها.

بعدها سلّمته السلطات الإيرانية إلى الأمن السياسي العراقي، فحكمت عليه المحكمة العسكرية هناك بالإعدام، إلاَّ أن المساعي الحميدة التي بذلها أقاربه أدت إلى تخفيف الحكم القضائي إلى السجن المؤبد.

أثناء السجن قام مظفر النواب ومجموعة من السجناء السياسيين بحفر نفق من الزنزانة المظلمة، يؤدي إلى خارج أسوار السجن، فأحدث هروبه مع رفاقه ضجة مدوية في أرجاء العراق والدول العربية المجاورة.

وبعد هروبه المثير من السجن توارى عن الأنظار في بغداد، وظل مختفياً فيها ستة

أشهر، ثم توجه إلى الجنوب (الأهواز) وعاش مع الفلاحين والبسطاء حوالي سنة. وفي عام ١٩٦٩ صدر عفو عن المعارضين فرجع إلى سلك التعليم مرة ثانية.

عادت أغنية الشيطان مرة ثانية .. حيث حدثت اعتقالات جديدة في العراق، فتعرض مظفر النواب إلى الاعتقال مرة ثانية، إلاَّ أن تدخل «علي صالح السعدي» أدى إلى إطلاق سراحه.

غادر بغداد إلى بيروت في البداية، ومن ثم إلى دمشق، وراح ينتقل بين العواصم العربية والأوروبية، حتى استقر به في دمشق. فكرَّس -الشاعر- حياته لتجربته الشعرية وتعميقها، والتصدي للأحد ث السياسية التي تلامس وجدانه الذاتي وضميره الوطني .. وقد سيطرت مأساة فلسطين المزمنة على شعره، فسجّل فيها أشد قصائده لهجة، وأعلاها صوتاً .. فمثلاً يقول في قصيدته (بيان سياسي):

ليست تسوية.. أو لا تسوية .. بل منظور رؤوس الأموال.. ومنظور الفقراء
أعرف من يرفض حقاً .. من تاريخ الغربة والجوع بعينيه
وأعرف أمراض التخمة .. يمكنني أنَ أذكر بعض الأسماء

....

لنْ تصبح أرض فلسطين لأجل سماسرة أرضيْن .. لا تخشوا أحداً في الحق
فما يلبس حق نصف رداء .. ليس مقاتل من يدخل مشجب بأسلحة فاسدة
أوْ يجبن .. فالثورة ليست خيمة فصل للقوات .. ولا تكيّة سِلْمٍ للجبناء

....

وإياكم أبناء الجوع فتلك وكالة غوث أخرى
أسلحة فاسدة أخرى .. تسليم آخر .. لا نُخدع ثانية بالمحور أوْ بالحلفاء
فالوطن الآن على مفترق الطرقات .. وأقصد كل الوطن العربي

فإمّا وطن واحد أوْ وطن أشلاء

لكن مهما كان فلا تحترموا .. فالمرحلة الآن

لبذل الجهد مع المخدوعين .. وكشف وجوه الأعداء

المرحلة الآن لتعبئة الشعب إلى أقصاه .. وكشف الطباخين

وأيّ حصاة طبخوا بالوعد وبالماء .. هذي مرحلة ليس تطول

وكثيراً ما يعمد -الشاعر- إلى تعرية الواقع العربي (واقع الأنظمة) فيتهكم ما شاء له أن يتهكم، ويسخر من تلك الحكومات ما شاء له أن يسخر، فيقول في قصيدته (في الرياح السيئة يعتمد القلب):

الأساطيل لا ترهبوها

انفروا لو عراة كما قد ولدتم .. وسدوا المنافذ في وجهها

أقصفوا ما استطعتم إليه الوصول من الأجنبي المجازف

واستبشروا العاصفة .. مرحبا أيها العاصفة .. أحرقوا طغم القمع من خلفكم

فالأساطيل والقمع شيء يكمل شيئاً .. كما يتنامى الكساد على عملة تالفة

بالدبابيس والصمغ هذي الدمى الوطنية واقفة

قربوا النار منها .. لا تخدعوا أنها تتغير .. لا يتغير منها سوى الأغلفة

لا الحكومات .. لا الراجعون إلى الخلف .. لا الأطلسي.. لا الآخرون وإنْ نضحوا فلسفة

لا تخف إننا أمة لوْ جهنم صُبّتْ على رأسها واقفة .. ما حنى الدهر قامتها أبداً

يا جنود العرب، يا جنود العجم، أيها الجند .. ليس هنا ساحة الحرب، بلْ ساحة الالتحام

لدكّ الطغاة .. وتصفية لبقايا عروش .. توسخ في نفسها خائفة

أيها الجند.. بوصلة لا تشير إلى القدس مشبوهة .. حطموها على قحف أصحابها
لقد بات من بات متجها نحو (يافا) .. بنيرانه جارفة
أيها الدم العربي لماذا هجرت .. وواجيك العربي فلسطين
أنت أجب.. أيها الدم يا سيد المعرفة !

ومن بين عشرات القصائد السياسية وقصائد المعارضة التي يضج بها ديوان (مظفر النواب) تظل قصيدة (يا قاتلتي) أو (القدس عروس عروبتكم) أشهر قصائده، فقد كانت إلى عهد قريب من «الممنوعات»! ننشر هنا بعضاً منها فقط:

القدس عروس عروبتكم
يا قاتلتي بكرامة خنجرك العربي
أهاجر في الفقر ... وخنجرك الفضي بقلبي.. وأولادي
عشقتني بالخنجر.. والأجر بلادي .. ألقيت مفاتيحي في دجلة
أيام الوجد وما عاد هنالك .. في الغربة مفتاح يفتحني
ها أنذا أتكلم من قفلي .. من أقفل بالوجد وضاع على أرصفة الشارع سيفهمني
من كان مخيم يقرأ فيه القرآن .. بهذا المبغى العربي سيفهمني
من لم يتزوّد حتى الآن.. وليس يزاود في كل مقاهي الثوريين
سيفهمني .. من لم يتقاعد كي يتفرغ للهو .. سيفهم أي طقوس للسرية في لغتي
وسيعرف كل الأرقام.. وكل الشهداء.. وكل الأسماء
وطني علّمني أن أقرأ كل الأشياء .. وطني علّمني أن حروف التاريخ مزورة
حين تكون بدون دماء
يا وطني هل أنت بلاد الأعداء؟ هل أنت بقية داحس والغبراء؟
وطني أنقذني من رائحة الجوع البشري

أنقذني من مدن يصبح فيها الناس .. مداخن للخوف وللزبل

من مدن ترقد في الماء الآسن .. كالجاموس الوطني .. وتجتر الجيف

أنقذني كضريح نبيٍّ مسروق

في هذي الساعة في وطني تجتمع الأشعار .. كشعب النار

وترضع في غفوات البر صغار النوق

يا وطني المعروض كنجمة صبح في السوق .. في العلب الليلية يبكون عليك

ويستكمل بعض الثوار رجولتهم .. ويهزون على الطبلة والبوق

أولئك أعداؤك يا وطني

من باع فلسطين سوى أعداؤك يا وطني .. من باع فلسطين وأثرى بالله

سوى قائمة الشحاذين على عتبات الحكّام .. ومائدة الدول الكبرى

فإذا أجن الليل تطق الأكواب بأن القدس عروس عروبتنا

من باع فلسطين سوى الثوار الكتبة

أقسمت بأعناق أباريق الخمر .. وما في الكأس من السم

وهذا الثوري المتخم بالصدف البحري ببيروت .. تكرّش حتى عاد بلا رقبة

أقسمت بتاريخ الجوع .. ويوم المسغبة

لن يبقى عربي واحد .. ما دامت حالتنا هذي الحالة .. بين حكومات الكتبة

القدس عروس عروبتكم

فلماذا أدخلتم كل زناة الليل إلى حجرتها

وسحبتم كل خناجركم .. وتنافختم شرفاً .. وصرختم فيها أنْ تسكت صوناً للعرض

فما أشرفكم أولاد القحبة .. هل تسكت مغتصبة

أولاد الفعلة لستُ خجولاً .. حين أصارحكم بحقيقتكم

أن حظيرة خنزيرٍ أطهر من أطهركم

تتحرك دكة غسل الموتى .. أمّا أنتم لا تهتز لكم قصبة

الآن أُعرّيكمْ .. في كل عواصم هذا الوطن العربي قتلتم فرحي

في كل زقاق أجد الأزلام أمامي

أصبحت أُحاذِر حتى الهاتف .. حتى الحيطان .. وحتى الأطفال

أقيء لهذا الأسلوب الفج

تعالوا نتحاكم أمام الصحراء العربية .. كيْ تحكم فينا

أعترف الآن أمام الصحراء بأني ميتذل وبذيء.. كهزيمتكم .. يا شرفاء مهزومين

ويا حكّاماً مهزومين .. ويا جمهوراً مهزوماً

ما أوسخنا .. ما أوسخِنا .. ونكابر ما أوسخنا

لا أستثني أحداً

يا جمهوراً في الليل يداوم في قبر مؤسسة الحزن

سنصبح نحن يهود التاريخ .. ونأوي في الصحراء بلا مأوى

هل وطن تحكمه الأفخاذ الملكية .. هذا وطن أمْ مبغى؟

هل أرض هذي الكرة الأرضية .. أمْ وكر ذئاب؟

ماذا تدعى الجلسات الصوفية في الأمم المتحدة؟

ماذا يدعى إرسال الجيش الإيراني الى قابوس؟

وقابوس هذا سلطان وطني جداً .. لا تربطه رابطة ببريطانيا العظمى

وخلافاً لأبيه ولد المذكور من المهد ديمقراطياً

ولذلك تسامح في لبس النعل .. ووضع النظارات
فكان أن اعترفت بمآثره الجامعة العربية يحفظها الله
وإحدى صحف الإمبريالية قد نشرت عرض سفير عربي
يتصرف كالمومس في أحضان الجنرالات وقدام حفاة (صلاله)
ومن لا يعرف أن الشركات النفطية في الثكنات، هناك يراجع قدرته العقلية
أصرخ فيكم .. أصرخ أين شهامتكم إنْ كنتم عرباً.. بشراً.. حيوانات
فالذئبة حتى الذئبة تحرس نطفتها .. والنملة تعتز بثقب الأرض
أمّا أنتم فالقدس عروس عروبتكم
فلماذا أدخلتم كل السيلانات إلى حجرتها .. ووقفتم فيها أن تسكت صوناً للعِرض
فأيّ قرون أنتم .. أولاد قراد الخيل كفاكم صخباً
خلوها دامية في الشمس بلا قابلة .. ستشد ظفائرها.. وتقيء الحمل عليكم
ستقيء الحمل على عزتكم .. ستقيء الحمل على أصوات إذاعتكم
ستقيء الحمل عليكم بيتاً.. بيتاً .. وستغرز أصبعها في أعينكم
أنتم مغتصبي..
حملتم أسلحة تطلق للخلف .. وثرثرتم .. ورقصتم كالدببة
كوني عاقراً أيْ أرض فلسطين .. كوني عاقراً أيْ أم الشهداء
من الآن فهذا الحمل من الأعداء .. ذميم .. ومخيف
لن تتلقّح تلك الأرض بغير اللغة العربية
يا أمراء الغزو فموتوا .. سيكون خراباً .. سيكون خراباً
هذي الأُمة لابد لها أن تأخذ درساً في التخريب !

الأعمى الذي رأى كل شيء !

حَفَلَ الشِّعر العربي بكثير من الشعراء العُميان أمثال: بشّار بن بُرد، وأبو العلاء المعري، وعبد الله البردوني ... هؤلاء الذين رأوا كل شيء، فأرشدوا المُبصرين، وحوّلوا الظلام إلى عالم أسطوري حافل بالرؤى والنبوءات .. لأنهم لم يعترفوا بالعمى في أيّ لحظة من حياتهم!

فلا نعجب عندما نرى هؤلاء الشعراء أجادوا التصوير وبرعوا فيه بشكل غير مسبوق، لكن نعجب من عجز الدراسات العلمية والنفسية التي لم تستطع بعد أن تكشف عن كُنه هذه الحقيقة .. التي ربما تكمن في قول بشّار:

عَمِيتُ جنيناً والذكاءُ من العمى ... فَجِئتُ عجيبَ الظنِّ للعِلْمِ موئلا!

إلى جانب قدرة هؤلاء الشّعراء على التقاط الصور البعيدة التي قصرت كاميرات المبصرين عن التقاطها، نجد تجاربهم الإبداعية اتسمتْ بالتجديد وتجاوز الأشكال والرؤى، وعمق المعاني التي تمتزج بالفلسفة وطرح الأسئلة، فضلاً عن الروح الثورية التي ألهبتْ أشعارهم وقصائدهم وعرّضتهم للقيل والقال وكثرة السؤال!

هؤلاء «العميان» يتناسون أنفسهم وهمومهم الذاتية، في الوقت الذي يحملون فيه هموم الآخرين، ويتبنون قضاياهم، ويجهرون بآرائهم، التي سببت لهم كثيراً من المتاعب، كقول البردوني:

يمانيون في المنفى ... ومنفيّون في اليمن

جنوبيون في صنعا ... شماليون في عدن

خطى أكتوبر انقلبت ... حُزيرانية الكفن

فمن مستعمرٍ غازٍ ... إلى مستعمرٍ وطني!

ترك (عبد الله البردوني) أعمالاً أدبية متنوعة، كلها مرتهنة بعامل الزمان والمكان، فمنذ ديوانه الأول «من أرض بلقيس» الذي صدر في القاهرة سنة 1961 ثم ديوان «في طريق الفجر» ثم ديوان «مدينة الغد»، وديوان «زمان بلا نوعية» وغيرها من دواوينه التي بلغت إثنا عشر ديواناً، هذا إلى جانب كتبه الثمانية التي تناولت تاريخ اليمن المعاصر السياسي والثقافي والاجتماعي .. كل هذه الأعمال مقيدة بالمكان اليمني، وبالحالة اليمنية، وبالتاريخ اليمني .. ففي قصيدة «يمني في بلاد الآخرين» يقول:

من أين أنا؟ مَنْ يدري	أوَ ليستْ لي جنسيه؟
نسبي رايات حمر	وفتوحات ذهبيه
فلماذا تستغربني	هذي الزمر الخشبيه؟
عربي لا تعرفني ..	حتى الدنيا العربيه
وأبي -قالوا- يمنيّ	أُميٌّ -قالوا- يمنيه
لكن أنستني لوني	وفمي .. أيدي الهمجيه
سنوات جوعى عطشى	وقيادات تبعيه
....	....
يا ريح .. بلادي خلفي	ومعي مثلي منسيه
حتى أرضي يا أرضي	كأهاليها منفيه!
وبلاد بلادي منفى	ومتاهات أبديه
مِنْ أين؟ .. مجهول	جوّال دون هويه
وبلا وطنٍ لكنّي	موهوم بالوطنيه!

لعلّ شعور -الأدباء العميان- بالغربة النفسية والزمانية التي كانت ملازمة لهم في جميع أطوارهم الحياتية، ترك بصمة قوية في نتاجهم الإبداعي، فالبردوني يرى أنه

ليس هو الغريب وحده، بلْ -وهو الأدهى- غربة الوطن كله، فنراه يقول في قصيدة «من مَنْفَى إلى مَنْفَى»:

بلادي من يدي طاغٍ إلى أطغى إلى أجفى
ومن سجنٍ إلى سجنٍ ومن منفى إلى منفى
ومن مستعمرٍ بادٍ إلى مستعمرٍ أخفى
ومن وحشٍ إلى وحشين وهي الناقة العجفا
بلادي في كهوف الموت لا تفنى ولا تُشفى

....

بلادي في ديار الغير أو في دارها لهفى
وحتى في أراضيها تُقاسي غربة المنفى

هذا، وقد نال البردوني حظاً واسعاً من الشهرة، لروائعه الإبداعية المتميزة، كما تقلّد عليها أوسمة كثيرة، كوسام الأدب والفنون في عدن، وحصل على جوائز أدبية رفيعة كجائزة مهرجان أبي تمام بالموصل في العراق، وجائزة شوقي وحافظ في القاهرة، وفي عام ١٩٨٢ أصدرت الأمم المتحدة عملة فضية عليها صورته، كمعاق تجاوز العجز.

من بين روائع البردوني، تلك القصيدة الفائزة في مهرجان الشِّعْر العربي الذي انعقد في المربد بالعراق في ديسمبر ١٩٧١ (وافيتُ من صنعاء) التي تكشف عن موهبة الشاعر الحقيقية، واحترافه الإبداعي، وامتلاكه ناصية الفن وتوجيهه بمهارة فائقة:

وافيتُ من صنعاء !

ما أصدق السيف! إنْ لمْ ينضهِ الكذب ... وأكذبَ السيف إنْ لمْ يصدق الغضب

بيض الصفائح أهدى حين تحملها ... أيدٌ إذا غلبت يعلو بها الغلب

وأقبحُ النصر .. نصرُ الأقوياء بلا ... فهْم .. سوى فهْم كم باعوا .. وكم كسبوا

أدهى من الجهل علم يطمئن إلى ... أنصاف ناس طغوا بالعلم واغتصبوا

قالوا: هم البشَرُ الأرقى وما أكلوا ... شيئاً .. كما أكلوا الإنسان أو شربوا

***

ماذا جرى .. يا أبا تمامَ تسألني؟ ... عفواً سأروِي.. ولا تسأل.. وما السبب؟

يدَمى السؤال حياءً حين نسأله ... كيف احتفتْ بالعِدَى (حيفا) أوْ(النقب)؟

من ذا يلبّي؟ أَمَا إصرار معتصمٍ؟ ... كلاً وأخزى من (الأفشين) ما صلبوا

اليوم عادت علوج (الروم) فاتحةً ... وموطن العرَب المسلوبُ والسلب

ماذا فعلنا؟ غضبنا كالرجال ولم ... نصدق .. وقد صدق التنجيم والكتب

فأطفأتْ شهب (الميراج) أنجمنا ... وشمسنا .. وتحدّتْ نارَها الخطب

وقاتلتْ دوننا الأبواق صامدة ... أمّا الرجال فماتوا... ثَمَّ أو هربوا

***

ماذا ترى (أبا تمام)؟ هلْ كذبتْ ... أحسابنا؟ أو تناسى عرقه الذهب؟

عروبة اليوم أخرى لا ينمّ على ... وجودها اسم ولا لون.. ولا لقب

تسعون ألفاً (لعمورية) اتّقدوا ... وللمُنجِّم قالوا: إننا الشهب

قيل: انتظار قطاف الكرم ما انتظروا ... نضج العناقيد .. لكن قبلها التهبوا

واليوم تسعون مليوناً وما بلغوا ... نضجاً .. وقد عُصِرَ الزيتونُ والعنبُ

تنسى الرؤوس العوالي نار نخوتها ... إذا امتطاها إلى أسياده الذنب

***

(حبيب) وافيتُ من صنعاءَ يحملني   نسر وخلف ضلوعي يلهث العرب
ماذا أُحدّثُ عن صنعاء يا أبتي؟   مليحةٌ عاشقاها: السُلُّ والجَرَبُ
ماتت بصندوق «وضّاح» بلا ثمن   ولمْ يمت في حشاها العشق والطرب
لكنها رغم بخل الغيث ما برحتْ   حُبْلَى وفي بطنها «قحطان» أوْ «كَرِب»
وفي أسى مقلتيها يغتلي «يمن»   ثانٍ كحلم الصبا .. ينأى ويقترب
«حبيبُ» تسأل عن حالي وكيف أنا؟   شبّابة في شفاه الريح تنتحب
كانت بلادك (رحلاً) ظهر (ناحية)   أمّا بلادي فلا ظهر ولا غبب
أرعيتَ كل جديب لحم راحلة   كانت رعته وماء الروض ينسكب
ورحت من سفر مضنٍ إلى سفر   أضنى .. لأن طريق الراحة التعب
لكن أنا راحل في غير ما سفرٍ   رحلي دمي.. وطريقي الجمر والحطب
إذا امتطيتَ ركاباً للنوى فأنا   في داخلي.. أمتطي ناري وأغترب
قبري .. مأساة ميلادي على كتفي   وحوليَ العدم المنفوخ والصخب

***

«حبيبُ» هذا صداك اليوم أنشده   لكن لماذا ترى وجهي وتكتئب؟
ماذا؟ أتعجب من شيبي على صغري؟   إني ولدت عجوزاً .. كيف تعتجب؟
واليوم أذوي وطيش الفن يعزفني   والأربعون على خديَّ تلتهب
كذا إذا ابيضَّ إيناع الحياة على   وجه الأديب أضاء الفكر والأدب
وأنت مَن شِبْتَ قبل الأربعين على   نار (الحماسة) تجلوها وتنتحب
وتجتدي كل لص مترف هبة   وأنت تعطيه شِعراً فوق ما يهب
شرّقت غرّبت من (والٍ) إلى (ملكٍ)   يحثك الفقر.. أو يقتادك الطلب
طوّفتَ حتى وصلت (الموصل)   فيك الأماني ولم يشبع لها أرب
انطفأت لكن موت المجيد الفذ يبدؤه   ولادة من صباها ترضع الحِقب

«حبيبُ» مازال في عينيك أسئلة　　　　بدوٍ .. وتنسى حكاياها فتنتقب
وما تزال بحلقي ألف مبكية　　　　من رهبة البوح تستحيي وتضطرب
يكفيك أنّ عدانا أهدروا دمنا　　　　ونحن من دمنا نحسو ونحتلب
سحائب الغزو تشوينا وتحجبنا　　　　يوماً ستحبل من إرعادنا السحب؟
ألاَ ترى يا «أبا تمَّامَ» بارقنا؟　　　　(إنَّ السماء تُرجَّى حين تحتجِبُ)!



السيرة الذاتية لسيّاف عربي!

معظم الذين كتبوا عن الشّاعر (نـزار قبـاني) أكـدوا أنـه لا يستطيع الخروج مـن القمقم الأنثوي، ولم ينجح في فك ارتباطه بالمرأة، وسحب قواته الغازية من أرضـها .. هناك من يرون أن «نزار» حليفاً للمرأة، وآخرون يرون فيه أنه أعدى أعداء المـرأة .. منذ أعلن ديكتاتوريته في أولى قصائد ديوانه (القرار) الذي جعل منها حبيبته رغم أنفها، فلقد قرر هو .. وما عليهـا سـوى الإذعـان والطاعـة لقـراره الشـهرياري دون مناقشة:

إنّي عشقتكِ واتخذتُ قراري .. فلمنْ أُقدّم يا تُرى أعذاري

لا سلطة في الحب تعلو سلطتي .. فالرأيُ رأيي والخيار خياري

هذا ليس جديداً على نزار، فهو معروف بنرجسية، وبتضخم (الأنا) عنده .. فقـد كان يريد أن يثبت للنساء -وهنّ أغلب قرائه- أنه معشوق زمانه!

هـو شـاعر المرأة بحـق-لدرجـة أنـه لم يسـتطع أن يغـادر جزيـرة النسـاء حتـى في أشعاره السياسية، حيث قلّدَ جيدها بالإكسسوار، وزينها بالمساحيق، فجعل الـوطن امرأة، والبندقية امرأة، والسياسة امرأة!

وإذا أردنا أنْ ننصفه؛ فإننـا نقـول: إنـه (مـع) و(ضـد) المـرأة في آن واحـد .. فهـو مصـاب (بالشـيزوفرينيا) فتـارة يكـون مـع المـرأة ويطالـب بـأن تعامـل كإنسـان لـه عواطف وأحاسيس ولـه حقـوق .. وأخـرى يـتقمص شخصـية (مسرور السيّاف) بحيث لا يتورع عن قطع رقبة أيَّ أنثى يمكن أن تسقط عليها عيناه!

على الرغم من ذلك عشقته النساء، ربما تكون ألفاظه فراشات ملونة، وموسيقى وجـواهر .. فـلا أحـد ينكـر أن لشـعره تـأثيراً وبريقـاً .. غـير أنـه يمكـن اعتبـاره مـن

الضرب الثاني الذي أشار إليه ابن قتيبة في مقدمة كتابه (الشّعر والشّعراء) أيْ مما حسن لفظه وقصر معناه!

عندما دخل (نزار) الساحة الأدبية، وفي يده مجموعته الشعرية الأولى (قالت لي السمراء) رأى فيها المحافظون محاولة لتحريك الحجارة في (شطرنج) الخليل بن أحمد الفراهيدي .. وكانت اقتراباً من مملكة الحب.

هذا الديوان (قالت لي السمراء) يقول عنه النقاد: إنه حينما صدر سنة 1944 أحدث وجعاً عميقاً في جسد المدينة التي ترفض أن تعترف بجسدها أو بأحلامها..

(قالت لي السمراء) كان محاولة طفولية صغيرة لتجاوز ما كان إلى ما يمكن أن يكون .. أوْ بمعنى آخر تجاوز الشعر منمرحلة السكون التاريخي إلى مرحلة الحركة والتمرد!

لقد كان ديوان (قالت لي السمراء) في الأربعينات -كما يقول نزار- زهرة من أزهار الشر، وإذا كانت باريس قد تسامحت مع «بودلير» حين أهداها أزهاره السوداء، وسلط الضوء على المغائر السفلية والدهاليز الفرويدية في داخل الإنسان، فإن دمشق الأربعينات لم تكن مستعدة أن تتخلى عن حبة واحدة من مسبحتها لأحد!

بهذا الديوان ابتدأت حفلات الرجم -على حد تعبير نزار- وأخذت المشادات الكلامية في شأن الديوان بين نزار وخصومه، وجاءت ردود الفعل جارحة ذابحة! وحاول نزار أن يرد على هذا الهجوم كما حاول في الوقت ذاته تفسير نظرته الجغرافية القاصرة في جسد المرأة في هذا الديوان، وهو اعتراف حر، وتفسير جرىء وتقويم منطقي لهذا الديوان بعد ثلاثين عاماً من صدوره، فمع رفضه لنقد المتشددين نراه يعترف بأن الديوان كان لعبة الحرية على قدر ما يستطيع أن يلعبها تلميذ على مقعد الدراسة، ويعترف بأن الحب والشهوة في الديوان قد اتسما بالتوتر والعصبية، وما ذلك

إلاَّ لأن الحب في تلك الأيام كان حباً مقهوراً ومحظوراً ومسروقاً من ثقوب الأبواب!

كان ينظر أول الأمر إلى المرأة على أنها مادة ميتة في أكثر الشعر العربي السابق، لقد اعترف نزار بعد ثلاثين سنة أنه في أعماله الأولى ورث هذه النظرة التجزيئية في الجنس الثاني. ويذكر أنه لم يتحرر من هذا الميراث إلاَّ حين أُتيحت له الفرصة أن يجلس عام ١٩٥٢ على مقعد من مقاعد (الهايد بارك) في لندن، وأقام الحوار مع الجنس الآخر.

ومع ذلك كان ينظر إلى ديوانه (قالت لي السمراء) بمثابة زهرة من زهرات الحرية تفتحت في مزهريات الشباب والشابات. إن (نزار) لا ينكر وفرة ما كتبه في شعر الحب، ولا ينكر اهتمامه بهموم النساء، ولكنه لا يريد أن يعتقد الناس أن هموم النساء هي كل همومه.

لقدْ أغْرَتْ قصائد نزار بحلاوة إيقاعها وعذوبة ألفاظها وجمال معانيها وسلاسة تكوينها، أشهر المغنيين والمغنيات وظلوا يغنونها في مختلف بقاع الأرض العربية .. خاصة عندما صدر ديوانه «الحب لا يقف على الضوء الأحمر» الذي أشار إليه في الافتتاحية بقوله:

هذا كتابي الأربعون .. ولمْ أزلْ .. أحبو كتلميذٍ صغير .. في هواكِ

كل اللغات قديمة جداً .. لابدَّ من لغةٍ أُقصِّلها عليك حبيبتي .. لابدَّ من لغةٍ تليق بمستواكِ

حَلَّقتُ آلاف السنين .. وما وصلتُ إلى ذُراكِ

وجلبتُ تيجان الملوك .. وما حصلتُ على رضاكِ

وصعدتُ فوق الأبجدية كيْ أراكِ

يا من تخيط قصائدي ثوبا لها ..

هل ممكن بين القصيدة .. والقصيدة .. أنْ أراكِ!

هكذا كان بستان (نزار قباني) مملوء بالأزهار والورود، وكان قاموسه الشعري يضجّ بأصناف العطور، وأريج الورود، وأصوات النساء، وأسماء المطاعم والملاهي والمقاهي .. إلى أن جاء زلزال «حزيران» المدمِّر، ووقعت الواقعة، فتحوّل -نزار- العاطفي الذي كان أشبه بمجنون ليلى،تحول إلى شاعر من شعراء الهجاء الغلاظ، كالحطيئة والفرزدق وجرير!

لقد كانت هزيمة حزيران 1967 نقطة تحوّل كبيرة في حياة «نزار» الشعرية، حيث أصبح من يومها يحسّ بأن هناك كابوساً يجثم على صدره وصدر كل عربي، وأن هذا الكابوس لن تزول آثاره إلاَّ بمحاربة الديكتاتورية وترسيخ قيم الحرية والديمقراطية في كل الأرض العربية.

فلم تعد أشعار نزار وقصائده كالنسيم البارد والهواء العليل مثلما كانت من قبل، بلْ صارت قصائده حِمَم بركانية وريحاً صرصراً تقتلع البيوت والأشجار والصخور وكل شيء في طريقها .. فقد أمسك بمسدّسه وأطلق النار في قارعة الطريق على كل المارة، وإنْ كانت أكثر قذائفه وأشدها وقعاً، التي أصابت الحكام الذين تسلّطوا على شعوبهم فأورثوهم الهزيمة الكبرى.

إن المتأمل في قاموس نزار السياسي -أيْ بعد فجيعة حزيران، وبدءاً بقصيدة هوامش على دفتر النكسة- لا يسمع سوى لغة الشتيمة، وصفع الوجوه، وضرب النعال، كقوله في القصيدة إيّاها:

أنعي إليكم يا أصدقائي اللغة القديمة .. والكتب القديمة ..

كلامنا المثقوب كالأحذية القديمة .. ومفردات العهر والهجاء والشتيمة

يمضي الشاعر على هذا النحو من السخرية اللاذعة وجلد الذات، إلى أن يقول متهكماً:

جلودنا ميّتة الإحساس .. أرواحنا تشكو من الإفلاس ..

أيامنا تدور بين الزار والشطرنج والنعاس
هل نحن خير أُمة قد أُخرِجت للناس؟

لقد تحول نزار تحولاً كلياً .. وأصبح عَلَماً من أعلام الشعر السياسي في العصر الحديث، وعضواً بارزاً في حزب المعارضة، فصارت أشعاره أشبه بزجاجات حارقة، أو عبوات ناسفة، وجرّ عليه الشعر «الممنوع» كثيراً من الأزمات والمصائب؛ فحُرِمَ من دخول كثير من العواصم العربية، وصُودِرتْ دواوينه، ومُنِعتْ أغانيه التي غنّاها كبار النجوم، وقضى بقية عمره في المهاجر، حتى لفظ آخر أنفاسه وهو يحلم بالحرية، وما علِمَ أنها حلم بعيد المنال!

ترى، هل كان نزار –مُحقّاً أمْ مُخطئاً– في هجائه السياسي الحارق، وهجومه الضاري؟

لسنا في حاجة إلى الإجابة عن هذا السؤال، فقد طرحناه من قبل، عند حديثنا عن «الشعر السياسي» وكشفنا عن دوافع الشعراء النفسية والسياسية؛ التي فرضتْ هذا اللون الشعري فرضاً، وساقتهم إليه رغماً عنهم، فحملوا راية العصيان، ولسان حالهم يقول: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه : ٧٢].

وقد كتب نزار إلى الرئيس عبد الناصر رسالة طويلة –بعدما أحدثت قصيدته «هوامش على دفتر النكسة» زلزالاً بحجم الهزيمة– ليست اعتذاراً أو تأسفاً، إنما أراد أن يدافع عن فنّه، ويكشف له عن سرّ غضبه وانفعاله في القصيدة.. كان من ضمن ما جاء في هذه الرسالة:

«سيادة الرئيس جمال عبد الناصر ..

في هذه الأيام التي أصبحت فيها أعصابنا رماداً، وطوقتنا الأحزان من كل مكان، يكتب إليك شاعر عربي يتعرض اليوم من قِبَل السلطات الرسمية في الجمهورية العربية المتحدة لنوع من الظلم لا مثيل له في تاريخ الظلم. وتفصيل

القصة أنني نشرت في أعقاب نكسة الخامس من حزيران قصيدة عنوانها «هوامش على دفتر النكسة» أودعتها خلاصة ألمي وتمزقي وكشفتُ فيها عن مناطق الوجع في جسد أُمتي العربية، لاقتناعي أن ما انتهينا إليه لا يُعالَج بالتواري والهروب، وإنما بالمواجهة الكاملة لعيوبنا وسيئاتنا. وإذا كانت صرختي حادة وجارحة، وأنا أعترف سلفاً بأنها كذلك فلأن الصرخة تكون بحجم الطعنة، ولأن النزيف بمساحة الجرح.

مَنْ منا يا سيادة الرئيس لم يصرخ بعد 5 حزيران؟ مَنْ منا لم يخدش السماء بأظافره؟

مَنْ منا لم يكره نفسه وثيابه وظله على الأرض؟

إنَّ قصيدتي كانت محاولة لإعادة تقديم أنفسنا كما نحن، بعيداً عن التبجح والمغالاة والانفعال، وبالتالي كانت محاولة لبناء فكر عربي جديد يختلف بملامحه وتكوينه عن ملامح فكر ما قبل 5 حزيران. إنني لم أقل أكثر مما قاله غيري، ولم أغضب أكثر مما غضب غيري، وكل ما فعلته أنني صُغتُ بأسلوب شعري ما صاغه غيري بأسلوب سياسي أو صحفي. إنني لم أخترع شيئاً من عندي، فأخطاء العرب النفسية والسياسية والسلوكية، مكشوفة كالكتاب المفتوح.

وماذا تكون قيمة الأدب يوم يجبن عن مواجهة الحياة؟ ومن يكون الشاعر يوم يتحول إلى مُهرِّج يمسح أذيال المجتمع وينافق له؟ إلى آخر ما جاء في هذه الرسالة الطويلة».

الشاهد من القصة؛ أن هذه القصيدة «هوامش على دفتر النكسة» كانت أول الحجارة المُسوّمة، والقذائف الحارقة التي ألقى بها نزار في مستنقع السياسة الراكد، والتي رمى بها الحكام العرب، ثم توالت بعد ذلك أسراب الطير الأبابيل، ترميهم بحجارةٍ من سجيل!

ليس هناك شاعر في القرن المنصرم، احتدم الجدل حول شعره مثل نـزار، ولمْ ينتهِ الجدل حتى عند موته، إذْ رفض نفر من الإسلاميين المتشددين الصلاة على جثمانه في أحد مساجد لندن، متهمين إياه بالزندقة والفسوق، فيما توسط آخرون واستأذنوا في الصلاة عليه، قائلين لإخوانهم المتشددين: هلاَّ شققتم عن قلبه؟ فردَّ عليهم المتشددون: نعم، شققنا عن دواوينه!

لكن، يبقى (نزار) متميزاً بين مجايليه بقاموسه الشعري، وموهبته المتألقة، ففي قصيدته «الحب لا يقف على الضوء الأحمر» نراه يدين الإرهاب الفكري والسياسي .. حيث يقول:

لا تفكر أبداً .. فالضوء أحمر .. لا تكلم أحداً .. فالضوء أحمر

لا تجادل في نصوص الفقه .. أو في النحو..

أو في الصرف.. أو في الشعر.. أو في النثر

أو في عناوين الجريدة.. وتفاعيل القصيدة.. وبقايا قهوتك

لا تنم بين ذراعي زوجتك .. إنَّ زوارك عند الفجر موجودون تحت الكنبة!

إن العقل ملعون، ومكروه، ومنكر

لا تفكر بعصافير الوطن .. وبأشجار وأنهار وأخبار الوطن

لا تفكر بالذين اغتصبوا شمس الوطن .. إنَّ سيف القمع يأتيك صباحا!

كما نراه في قصيدة «الكتابة بالحبر السري» يتهكم بسخرية شديدة، من كُتّاب السلطة، ومنافقي الحُكّام، وحملة البخور، الذين يصفّقون للديكتاتور في السراء والضراء:

هُمْ يكتبون .. كأنهم لا يكتبونْ ..

ويعاصرون سقوط تاريخ .. وهم مثل الدجاج مجلدون

....

البائعون ثقافة مغشوشةً .. والكاتبون قصائداً سريةً

ماذا يريد الأدعياء الكاذبون؟ الثائرون على دفاترهم

وهم عند النظام .. موظفون

ماذا يريد الهاربون .. من الشهامة، والرجولة .. ماذا يريد الهاربون؟

ماذا يريد اللاعبون على اللغاتِ .. الشاطرون .. الماكرون؟

الشاهدون على جريمة شنقِنا .. ماذا تراهم يشهدونْ؟

هكذا .. خَلَّفَ نزار تراثاً شعرياً ثرياً في الجانب السياسي، ولعلّ من أشهر قصائده، وأكثرها ذيوعاً وانتشاراً قصائد: (تزوجتك أيتها الحرية، كتابات على جدران المنفى، لقد مرَّ عشرون عاماً علينا، الممثلون، القدس، الغاضبون، منشورات فدائية على جدران إسرائيل، المحضر الكامل لحادثة اغتصاب سياسي) وغيرها.

أمّا قصيدة (السيرة الذاتية لسيّاف عربي) فقد تعرض -نزار- بسببها للحرمان من دخول عدد من الدول العربية، وهي تقع في 154 بيتاً، ومقسّمة إلى سبعة مقاطع، والفكرة الرئيسية في القصيدة هي تصوير الطغيان والقهر والتسلّط والاستبداد والإقطاع السياسي الذي ابتليتْ به أوطاننا .. فتعالوا نستمع إلى سيرة السيّاف العربي، بالرغم من أنها سيرة كريهة، تشمئز منها الشياطين، لكن نزار هو الذي سجّلها ورسمها بريشته الخاصة .. فماذا يقول الطاغية السيّاف؟

السيرة الذاتية لسيّاف عربي:

أيها الناس

لقد أصبحتُ سلطاناً عليكم

فاكسروا أصنامكم .. بعد ضلال واعبدوني .. إنِّي لا أتجلَّى دائماً

فاجلسوا فوق رصيف الصبر .. حتى تبصروني

اتركوا أطفالكم من غير خبز .. واتركوا نسوانكم من غير بعل، واتبعوني

احمدوا الله على نعمته .. لقد أرسلني لكيْ أكتب التاريخ، والتاريخ لا يُكتَب دوني

إنني يوسف في الحُسْن .. ولمْ يخلق الخالق شَعْراً ذهبياً، مثل شَعري

وجبيناً نبوياً كجبيني .. وعيوني غابة من شجر الزيتون واللوز

فصلُّوا دائماً .. كَيْ يحفظ الله عيوني

أيها الناس

أنا مجنون ليلى .. فابعثوا زوجاتكم يحملنّ مني .. وابعثوا أزواجكم كيْ يشكروني

شرف أن تأكلوا حنطة جسمي .. شرف أن تقطفوا لوزي وتيني .. شرف أن تشبهوني

فأنا حادثة ما حدثت منذ آلاف القرون

أيها الناس

أنا الأولُ والأعدلُ .. والأجملُ من بين جميع الحاكمين

وأنا بدر الدجى .. وبياض الياسمين

وأنا مخترع المشنقة الأولى .. وخير المرسلين

كلما فكرتُ أن أعتزل السلطة .. ينهاني ضميري!

من ترى يحكم بعدي هؤلاء الطيبين؟!

من سيشفي بعدي الأعرج .. والأبرص والأعمى .. ومن يُحيي عظام الميّتين

من ترى يخرج من معطفه ضوء القمر .. من ترى يرسل للناس المطر

من ترى يجلدهم تسعون جلدة .. من ترى يصلبهم فوق الشجرة

من ترى يرغمهم أن يعيشوا كالبقرة .. ويموتوا كالبقرة

كلما فكرتُ أن أتركهم .. فاضتْ دموعي كغمامة

وتوكلتُ على الله .. وقررتُ أن أحكم الشعب .. من الآن إلى يوم القيامة!

أيها الناس

أنا أملككم .. مثلما أملكُ خيلي وعبيدي

وأنا أمشي عليكم .. مثلما أمشي على سجاد قصري

فاسجدوا في قيامي .. واسجدوا في قعودي

أوَلَمْ أعثر عليكم ذات يوم .. بين أوراق جدودي

حاذروا أن تقرأوا أيّ كتاب .. فأنا أقرأ عنكم

حاذروا أن تكتبوا أيّ خطاب .. فأنا أكتب عنكم

حاذروا أن تسمعوا فيروز بالسر .. فإني بنواياكم عليم

حاذروا أن تنشدوا الشِّعر أمامي .. فهو شيطان رجيم

حاذروا أن تدخلوا القبر بلا إذن .. فهذا عندنا إثم عظيم

والْزموا الصمتَ إذا كلمتكم .. فكلامي هو قرآن كريم

أيها الناس

أنا مَهْدِيكم فانتظروني .. ودمي ينبض في قلب الدوالي .. فاشربوني

أوقفوا كل الأناشيد .. التي ينشدها الأطفال في حب الوطن .. فأنا صِرتُ الوطن

إنني الواحد .. والخالد ما بين جميع الكائنات

ارفعوا فوق الميادين تصاويري .. وغطّوني بغيم الكلمات

واخطبوا لي أصغر الزوجات سناً .. فأنا لستُ أشيخ

جسدي ليس يشيخ .. وسجوني لا تشيخ .. وجهاز القمع في مملكتي .. ليس

يشيخ

أيها الناس أنا الحَجَّاج

إنْ أنزع قناعي تعرفوني

وأنا جنكيز خان .. جئتكم بحرابي.. وكلابي وسجوني

لا تضيقوا أيها الناس ببطشي .. فأنا أقتل كيْ لا تقتلوني

وأنا أشنق كيْ لا تشنقوني .. وأنا أدفنكم في ذلك القبر الجماعي .. كيْ لا تدفنوني

أيها الناس

اشتروا لي صُحفاً تكتب عني .. إنها معروضة مثل البغايا .. في الشوارع

اشتروا لي ورقاً أكبر .. مصقولاً كأعشاب الربيع .. ومداداً ومقابر

كل شيء يُشتَرى .. في عصرنا حتى الأصابع

اشتروا فاكهة الفكر .. وخلُّوها أمامي

واطبخوا لي شاعراً .. واجعلوه بين أطباق طعامي

أنا أُميٌّ وعندي عقدة .. مما يقول الشعراء

فاشتروا لي شعراء يتغنَّون بحسني

واجعلوني نجم كل الأغلفة .. فنجوم الرقص والمسرح .. ليسوا أبداً بأجمل مني

اشتروا كل ما لا يُشتري .. في أرضنا أو في السماء

اشتروا لي غابة عسل النحل .. ورطلاً من نساء

فأنا بالعملة الصعبة .. أشترى ما أُريد

أشتري ديوان بشّار بن بُرْد .. وشقاه المتنبي وأناشيد لبيد

فالملايين التي في بيت مال المسلمين .. هي ميراثٌ قديمٌ لأبي

فأْخذوا من ذهبي .. واكتبوا في أمهات الكتب ..

إنَّ عصري عصر هارون الرشيد

يا جماهير بلادي .. يا جماهير الشعوب العربية

إنني روح تقي .. جاء كيْ يغسلكم .. من غبار الجاهلية

سجِّلوا صوتي على أشرطة .. إنَّ صوتي أخضر الإيقاع ..

كالنافورة الأندلسية

صَوِّروني باسم كالجيوكندة .. ووديعاً مثل وجه المجدليّة

صوروني وأنا أقطع كالتفاح .. أعناق الرعية

صوروني وأنا أفترسُ الشِّعر بأسناني .. وأمتصُ دماء الأبجدية

صوروني بوقاري .. وجلالي .. وعصاي العسكرية

صوروني عندما أصطاد وعْلاً .. أو غزالاً

صوروني عندما أحملكم .. فوق أكتافي لدار الأبدية ..

يا جماهير الشعوب العربية

أيها الناس

أناالمسئول عن أحلامكم .. إذ تحلمون ..

وأنا المسئول عن كل رغيفٍ تأكلون

وعن الشِّعر الذي.. من خلف ظهري تقرأون

فجهاز الأمن في قصري .. يوافيني بأخبار العصافير .. وأخبار السنابل

ويوافيني بما يحدث في بطن الحوامل

أيها الناس

أنا سجّانكم وأنا مسجونكم .. فلتعذروني

إنني المنفيُّ في داخل قصري .. لا أري شمساً .. ولا نجماً .. ولا زهرة دفلة

منذ أن جئتُ إلي السلطة طفلاً .. ورجال السرك يلتفون حولي
واحد يضرب طبلة .. واحد يمسح جوخاً .. واحد يمسح نعلاً
منذ أن جئتُ إلي السلطة طفلاً
لمْ يقل لي مستشار القصر كلاّ .. لمْ يقل لي وزرائي .. أبداً في الوجه كلا
إنهم قد علّموني .. أن أرى نفسي إلهاً .. وأرى الشعب من الشرفة رَمْلاً
فاعذروني إنْ تحولتُ لهولاكو جديد
أنا لمْ أقتل لوجه القتل يوماً ... إنما أقتلكم كَيْ أتسلّى!!



ارحلْ !

(فاروق جويدة) مثله كمثل نزار قباني، بدأ رحلته الشِّعرية بكتابة الأشعار العاطفية، ثم نَذَرَ بقية حياته مخلصاً للقضايا الوطنية. حتى الجمهور الذي كان يستمع ويستمتع بقصائدهما العاطفية هو ذات الجمهور الذي تحوّل معهما إلى عشق الأشعار السياسية، إلاَّ أنّ هناك فروقاً واضحة بين الشاعريْن، سواء في القاموس الشِّعري، أوْ في طريقة المعالجة، أوْ في النكهة التي يجدها القارئ لكل منهما. فالشّاعر (فاروق جويدة) أكثر التزاماً وأكثر اعتدالاً، وأقرب للموضوعية من صاحبه، فلا نكاد نجد عنده لفظاً فاحشاً أوْ خارجاً عن الذوق العام.

سألتهُ عن الفارق بينه وبين صاحبه، فقال: «أنا ريفيّ عاشق، ونزار دمشقيّ جارح»!

لعلَّ الذي ميّز (جويدة) عن كثير من مجايليه من الشّعراء، وأضاف إلى رصيده الأدبي إضافة حقيقية هو الشّعر المسرحي، الذي ربما وجد فيه ضالته -في زمن الانكسار وعصر الهزائم- فحمّله من رؤاه السياسية وقضاياه الفكرية ما أراد، فكتب أربع مسرحيات شعرية، حظوا باهتمام النقاد، ولاقوا قبولاً حسناً عند الجماهير، وهي: (دماء على ستار الكعبة، والوزير العاشق، والخديوِ، وهولاكو).

القارئ لشعر (جويدة) من السهل عليه أن يقف أمام القسمات الرئيسة في أعماله الإبداعية، سواء كانت جوانب فنية أو فكرية، فهناك ألحان جميلة وموسيقى عذبة تصاحب قصيدته من أولها إلى آخرها، وهناك ألفاظ حِسَان كأنها فراشات ملونة، وعندما تتجول في بستانه الشِّعري، لا تتعثّر في حُفرٍ أوْ مطبات صناعية، وليست هناك -ثمة- لوغاريتمات أوْ طلاسم أوْ ألغاز كالتي ابتدعها «دعاة الحداثة» وعبيد

الشعر الحر، وإخوانهم في «الرضاعة»!

أيضاً، نلحظ –الشّاعر– يُكرّس في خطابه الشّعري مفهوم (الأُمّة) لما تحمله هذه الكلمة من دلالات ومعانٍ بعيدة .. فهو ينادي «الأُمة» وينصح «الأُمة» ويعاتِب «الأُمة» عِتاباً شديداً، دون مواربة، ودونما خوف ولا وجل .. فيقول:

لـنْ تسمعوا صوتي .. ولا صرخاتي ... ما عاد يجدي النصحُ في الأمواتِ
منْ مُنْجدي في الحرب، سيفٌ عاجزٌ ... أَمْ أُمّـةٌ ركعتْ لقهرِ غزاةِ
مَنْ سامعي في الأسر .. ليلٌ حالكٌ ... أَمْ أُمّـةٌ سكرتْ على مأساتي
مَـنْ أرتجي والعارُ يسكن أُمّـةً ... كفّنتُها في القلبِ من سنواتِ
هي أُمّـةٌ سكبتْ رحيق شبابها ... وتشردت شِيَعاً بكلِّ شَتاتِ
هي أُمّـةٌ باعتْ صهيلَ جيادها ... للراكعين على حذاءِ طغاةِ
هي أُمّـةٌ حكمتْ زمامَ شعوبِها ... بالموت .. والنيران والصفقاتِ
خمسون عاماً عشتُ أصرخُ .. أُمّتي ... ومواكب الشهداء بالعشراتِ
خمسون عاماً والطغاة فوارسٌ ... خاضوا الليالي الحُمْرَ في الحاناتِ
يا ضيعةَ العمر الطويلِ وخيبتي ... في أُمّـةٍ تختالُ بالنكساتِ

تتلخّص شاعرية «جويدة» في أنه «**صاحب قضية**» تلمس ذلك كله بمجرد أن تتقاطر أمامك مفردات قاموسه الشعري .. تلك المفردات التي تتناثر عبر أشعاره بغزارة شديدة مثل: (الإسلام، الأُمة، الوطن، النيل، القدس، فلسطين، الشهداء، الوحي، القرآن، الأنبياء، الأولياء، المساجد، المحاريب، المآذن، الموت، البعث والنشور، الجنة والنار، الله أكبر، ليلة الإسراء، ضمير الحق، الفضائل والأخلاق والقيم، صلاح الدين، كابول، بغداد، وسراييفو، و.... القهر، الطغاة، السجّان، الجلاّد، الاستبداد، الكُهّان، السجون، السياط، المشانق، الطوفان، أشلاؤنا، راية العصيان، العجز والذل والندم، قيود العجز، باعتْ فوارسها، سيف جبان، شاختْ

عزائمها، عهد خائن، الزمن البغيض، مواكب الطغيان، داء السلم ..إلخ.

شاعرية جويدة- فيها من أوجه التشابه والتقارب والتمازج بصورة أوْ بأخرى مع شعراء كثيرين من شعراء العربية المحدثين أمثال: بدوي الجبل، وصالح جودت، ومحمود حسن إسماعيل. ولعله يقترب أكثر ما يقترب من عبد الرحمن صالح العشماوي، خاصة في مطالع القصائد وخواتيمها .. فكثيراً ما يفتتحان قصائدهما بالتساؤلات، ويختتمان بالتفاؤل والأمل والبشارة. وكلاهما يصدران عن الرؤية الإسلامية في معالجة القضايا المعاصرة، وينهجان البساطة والوضوح، مع الإسهاب في رسم الصور وعرضها بأشكال متباينة، ابتغاء تشخيص العِلَل والأوجاع التي استبدّتْ بجسد الأمة وأنهكتْ قواه .. ففي قصيدته (ما عاد يكفينا الغضب) إثر الجرائم التي اقترفتها قوات التحالف الأنجلو- أمريكي في «سجن أبو غريب» ببغداد، بدأ الشّاعر قصيدته بهذا التساؤل:

مَنْ قال إنَّ العار يمحوه الغضب ... وأمامنا عِرْض الصبايا يُغتصب؟

صور الصبايا العاريات تفجّرت ... بين العيون نزيف دمّ من لهب

عارٌ على التاريخ كيف تخونه ... هِمَمُ الرجال، ويُستباح لمن سلب!

يستمر الشّاعر في تنبيه القارئ بما حلّ بجزء عزيز من بلادنا، ثم نراه ينتقل إلى تذكير المسلمين بأن حديثهم عن الماضي لا يجديهم شيئاً، فهل يجدي العرب أن يتحدثوا عن ماضيهم، وعن حضارتهم، وأنهم كانوا وكانت لهم أمجاد، أو كانوا في الماضي أبطال الفتوحات، أوْ أنهم خير أُمة وما شابه ذلك من المآثر، فيقول:

لا تسألوا الأيام عن ماضٍ ذهب ... فالأمس ولّى .. والبقاءُ لمن غَلَبْ

ما عاد يجدي أن نقول بأننا ... أهل المروءة، والشهامة .. والحسبْ

ما عاد يجدي أن نقول بأننا ... خير الورى ديناً .. وأنقاهم نسبْ

ولتنظروا ماذا يراد لأرضنا ... صارت كغانيةٍ تضاجع من رغبْ

حتى رِعاع الأرض فوق ترابنا — والكل في صمتٍ تواطأ .. أو شجبْ
الناس تسأل: أين كُهّان العرب — ماتوا .. تلاشوا، لا نرى غير العجبْ

وهناك عشرات القصائد السياسية لفاروق جويدة، مثل قصيدة (مرثية ما قبل الغروب) التي كتبها إبان الغزو العراقي للكويت سنة 1990م- خاطب فيها الحكام العرب، متهماً إياهم بالعمالة والجُبن والخيانة .. يقول فيها:

في أيِّ شيءٍ أمام الله قد عَدَلوا — تاريخُنا القتْل .. والإرهابُ .. والدجلُ
من ألف عامٍ أرى الجلادَ يتبعنا — في موكب القهر.. ضاع الحلمُ..والأجل
نبكي على أُمةٍ ماتت عزائمها — وفوق أشلائها .. تسَّاقط العللُ
أرضٌ تَوارتْ وأمجادٌ لنا اندثرتْ — وأنجمٌ عن سماءِ العمرِ ترتحلُ
فكمْ بكينا على أطلال قرطبةٍ — وقُدسنا لم تزلْ في العارِ تغتسلُ
في القُدس تبكي أمام الله مئذنةٌ — ونهرُ دمعٍ على المحراب ينهملُ
وكعبةٌ تشتكي لله غربَتها — وتنزفُ الدمعَ في أعتابِ من رحلوا
في كل يومٍ لنا جرحٌ يطاردُنا — ويمتطي ظهرنا.. أيانَ نرتحلُ
قالوا لنا أرضُنا أرضٌ مباركةٌ — فيها الهدى والتُقى.. والوحي والرسلُ
مالي أراها وبحرُ الدَّم يغرقُها — وطالعُ الحظِ في أرجائها.. زُحَلُ
في أيّ شيء أمام الله قد عدلوا — وكلهم كاذبٌ.. قالوا وما فعلوا
هذا جبانٌ وهذا باع أمّته — وكلهم في حِمَى الشيطانِ يبتهلُ
يا وصمة العارِ هُزي جزع نخلتنا — يسّاقط القهرُ.. والإرهابُ.. والدجلُ
ضاعت شعوبٌ.. وزالتْ قبلنا دولٌ — وعصبةُ الظلمِ لنْ تعلو بها.. دُوَلُ !

ومن قصائده السياسية -أيضاً- تلك القصيدة التي جاءت بعنوان: «ارحل»كتبها أثناء المظاهرات التي اجتاحتْ مصر، مطالبة برحيل نظام الديكتاتور (حسني مبارك). فأشعلتْ حماس الثوّار، وظل الناس يتناقلونها عبر شبكة

الانترنت! يقول فيها:

ارحلْ وحزبك في يديْك

ارحل كـ«زين العابدين» وما نراه أضلّ منك

ارحل وحزبك في يديك

ارحل فمصر بشعبها وربوعها تدعو عليك

ارحل فإنِّي ما أرى في الوطن فرداً واحداً يهفو إليك

لا تنتظر طفلاً يتيماً بابتسامته البريئة أن يُقبِّل وجنتيْك

لا تنتظر أُمًّا تطاردها هموم الدهر تطلب ساعديْك

لا تنتظر صفحاً جميلاً فالخرابُ مع الفساد يرفرفان بمقدميْك

ارحل وحزبك في يديْك

ارحل بحزب امتطى الشعب العظيم

وعتى وأثرى من دماء الكادحين بناظريْك

ارحل وفشلك في يديْك

ارحل فصوت الجائعين وإنْ علا لا تهتديه بمسمعيْك

فعلى يديْكَ خراب مصر بمجدها عاراً يلوِّثُ راحتيْك

مصر التي كانت بذاك الشرق تاجاً للعلاء وقد غدت قِزماً لديْك

كَمْ من شبابٍ عاطلٍ أوْ غارقٍ في بحرِ فقرٍ وهو يلعن والديْك

كَمْ من نساءٍ عُذِّبَتْ بوحيدها أوْ زوجها تدعو عليْك

ارحل وابنك في يديْك

ارحل وابنك في يديْك قبل طوفان يطيح

لا تعتقد وطناً تورِّثه لذاك الابن يقبل أوْ يبيح

البشر ضاقت من وجودك .. هلْ لابنك تستريح؟

هذي نهايتك الحزينة هلْ بقى شيء لديْك؟

ارحل وعارك أيّ عارْ

مهما اعتذرتَ أمامَ شعبكَ لنْ يفيد الاعتذارْ

ولمن يكونُ الاعتذارْ؟

للأرضِ.. للطرقاتِ.. للأحياءِ.. للموتى..

وللمدنِ العتيقةِ.. للصغارْ؟!

ولمن يكونُ الاعتذارْ؟

لمواكب التاريخ.. للأرض الحزينةِ

للشواطئِ.. للقفارْ؟!

لعيونِ طفلٍ

مات في عينيْه ضوءُ الصبحِ

واختنقَ النهارْ؟!

لدموعِ أُمٍّ لَمْ تزل تبكي وحيداً

فرَّ أملاً في الحياة وانتهى تحت البحارْ

لمواكبِ العلماء أضناها مع الأيام غربتها وطول الانتظارْ؟!

لمن يكون الاعتذار؟

* * *

ارحل وعاركَ في يديْكْ

لا شيء يبكي في رحيلك..

رغم أنَّ الناس تبكي عادة عند الرحيلْ

لا شيء يبدو في وجودك نافعاً

فلا غِناءَ ولا حياةَ ولا صهيل..

ما لي أرى الأشجار صامتةً

وأضواءَ الشوارعِ أغلقتْ أحداقها

واستسلمتْ لليلِ في صمت مخيف..

ما لي أرى الأنفاسَ خافتةً

ووجهَ الصبح مكتئباً

وأحلاماً بلون الموتِ

تركضُ خلفَ وهْمٍ مستحيلْ

ماذا تركتَ الآن في أرض الكنانة من دلّيل؟

غير دمع في مآقي الناس يأبى أنْ يسيلْ

صمتُ الشواطئ .. وحشةُ المدن الحزينةِ..

بؤسُ أطفالٍ صغارٍ

أُمهات في الثرى الدامي

صراخٌ .. أوْ عويلْ..

طفلٌ يُفتِّش في ظلام الليلِ

عن بيتٍ توارى

يسأل الأطلالَ في فزعٍ

ولا يجدُ الدليلْ

سربُ النخيل على ضفافِ النيل يصرخ

هَلْ تُرى شاهدتَ يوماً ..

غضبةَ الشطآنِ من قهرِ النخيلْ؟!
الآن ترحلُ عن ثرى الوادي
تحمل عاركَ المسكونَ
بالحزب المزيّفِ
حلمَكَ الواهي الهزيلْ..

* * *

ارحلْ وعارُكَ في يديكْ
هذي سفينَتك الكئيبةُ
في سوادِ الليل تبحر في الضياع
لا أمانَ .. ولا شراعْ
تمضي وحيداً في خريف العمرِ
لا عرش لديكَ.. ولا متاعْ
لا أهلَ.. لا أحبابَ.. لا أصحابَ
لا سنداً .. ولا أتباعْ
كلُّ العصابةِ تختفي صوب الجحيمِ
وأنت تنتظرُ النهايةَ..
بعد أنْ سقط القِناعْ



قصيدة الانتفاضة

الشّاعر الفلسطيني (سميح القاسم) صدر له أكثر من أربعين كتاباً في الشّعر والقصة والمسرح والمقالة، وصدرت أعماله في سبعة مجلدات عن ثلاث دور نشر في القدس وبيروت والقاهرة، وتُرجِمت كثير من قصائده إلى اللغات الأخرى. وقد حاز على عدد من الجوائز، منها: جائزة «البابطين» للإبداع الشعري، ومن قبلها جائزة «غار الشعر» من إسبانيا.

يقول: شعري جزء من الانتفاضة وليس شاهداً عليها، الأدب الشاهد يأتي من أقطار أخرى يعبر شعراؤها بالقصيدة عن تضامنهم مع المقاومة، أمّا شعر الفلسطينيين فجزء أصيل من التجربة ذاتها.

فالأدب في أوقات الانتفاضة يصبح جزءاً من الانتفاضة، حيث يتحول إلى طاقة قادرة على دفع عجلات الحركة في الاتجاه الذي يراه الشاعر صحيحاً. ويقول: «أنا مازلتُ في خندق المقاومة، لم أبرحه حتى يتوقف أزيز المصفحات والمجنزرات من على أرضنا، وحتى نرى النور في ديارنا، وحتى تعود العصافير والطيور إلى أوكارها .. وسأظل أحمل نعشي على كتفي وأمشي وأطلب تفاحة موتي وأغني للحرية».

ويرى، أن المبدع لا يمكن أن يرضى عن شيء حوله، فسمة الرفض أصيلة ومتجذرة في نفسه، ومهما قدم من عمل جيد، يشعر أنه دون ما كان يشتهيه. فالمبدع -دائماً- يطمح إلى الأفضل والأحسن والأجمل.

ومع أنه يعيش في إسرائيل؛ إلا أنه لا يحس بهذه الازدواجية أبدا، فيقول: أنا شاعر عربي ثائر بقيم قومية وإنسانية شمولية، لستُ عنصرياً، بل أكره العنصرية

وأكره الظلم والظالمين، وبمثل ما أحارب النازية والفاشية، أحارب أيضاً الاحتلال والعنصرية الإسرائيلية. فلم تكن الدولة دولتي في أيّ وقت ويبدو أنها لن تكون دولتي، تعاملتُ معها كواقع سياسي فقط. فليست لديّ فواتير أسددها لأحد، ولستُ مديناً لأي دولة أو مؤسسة، وعبرت عن ذلك في قصيدتي «إعلان نوايا»، وقصيدتي «لا أستأذن أحداً». فأنا أكبر سناً من هذه الدولة، فالوطن هو الأساس، أمّا الدولة فهي العابر تتغير وتتبدل وتتشكل وتزول قريباً .. وحتى لو اخترت أن أعيش في استراليا أوْ في أمريكا بمحض إرادتي، فسيظل وطني الأول هو قطعة الأرض التي أملكها على سفوح الجليل .. هذا هو الوطن الذي يسبق الدولة ويسبق المفاهيم السياسية والمراحل التاريخية، ويبقى بعده أيضا».

وعن الفارق بين تجربته الشِّعرية وتجربة الشّاعر محمود درويش، يقول: أعتقد أن الأديب والناقد الفلسطيني المعروف (يوسف الخطيب) لخّص هذه التجربة، فاعتبرني المعبّر عن الهم القومي العربي، واعتبر محمود درويش المعبّر عن الهم الوطني الفلسطيني. ولعل حصري في أدباء المقاومة لا يروق لي كثيراً، لكنني أُعبّر عن هموم الأمة العربية كلها. ومعظم النقاد الذين تناولوا تجربتي أطلقوا عليّ نعت «شاعر العروبة» لأن همّي هو الهم العربي العام، والهم الفلسطيني جزء مركزي وأساسي من كل.

وعن سر التواصل الحاشد بينه وبين الجمهور، يقول: هنالك شيء يمكن تسميته بالتماهي بيني وبين المتلقي لم أخطط له، وهو تماهي وجداني وفكري وإنساني، وأنا سعيد جداً به.

ويؤكد أن قصيدة «رسالة إلى غزاة لا يقرأون» نالت هذه الشهرة الواسعة أكثر من غيرها لأنها كانت من قلب الحدث، وشاركت في فعاليات الانتفاضة الأولى بشكل مباشر. فهي بالفعل قصيدة الانتفاضة، لأنها كانت من داخلها، وكانت إيقاعها وكانت لحمها ودمها.

ويقول: أنا أحياناً أشعر بالضيق، عندما يطالبونني في كل أمسية شعرية بقراءتها، مع أنني أريد أن أقرأ شيئاً جديداً مختلفاً، لدرجة أنني أحياناً أدّعي أنها ليست معي لأتهرّب منهم!

ويعتقد أن «المد القومي في الوسط العربي داخل الخط الأخضر من دوافعي الأولى، فقد تجولت من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، وقدمت قصائدي في جميع المدن والقرى العربية في فلسطين، فكان لقصيدتي دور كبير في تعميق الوعي القومي والانتماء الحضاري لدى شعبنا الفلسطيني المجاهد».

ويؤمن أن الشِّعر يقوم بدورفعال ونشيط لتحريك الدورة الدموية بالزخم المتصدي لآلة الاحتلال، والدليل على ذلك أن قصائد الانتفاضة تتردد في الأروقة الأكاديمية بمثل ما تتردد على ألسنة طلاب المدارس وفي الساحات وفي الشوارع، فعندما تتأزم ظروف الأمم تغدو الحاجة إلى الأدب المؤثر والمعبر أكبر وأشد إلحاحاً.

والانتفاضة -من وجهة نظره- تحولت إلى هاجس ليس في الشِّعر الفلسطيني أوْ الشِّعر العربي فقط، بلْ في الشِّعر العالمي ككل، لأنها تحولت من حدث سياسي إلى هم قومي ووطني وإنساني .. وقد فوجئت في بلجيكا بشاعر يقرأ لي قصيدة عن الانتفاضة باللغة الفرنسية، كذلك في ألمانيا فوجئت بشاعر ألماني يقرأ لي قصيدة عن الانتفاضة بالألمانية، وفي أكثر من بلد أجنبي وجدت شعراء يكتبون قصائد بعنوان «انتفاضة» لفظ الكلمة بالعربية وحروفها أجنبية!

وإلى (قصيدة الانتفاضة) للشاعر سميح القاسم:

رسالة إلى غزاة لا يقرأون !

تقدّموا تقدّموا

كل سماءٍ فوقكم جهنم

وكل أرض تحتكم جهنم

تقدموا

يموت منا الطفل والشيخ ولا يستسلم

وتسقط الأم على أبنائها القتلى ولا تستسلم

تقدموا .. بناقلات جندكم .. وراجمات حقدكم

وهدموا ، وشردوا ، ويتموا ، وهدموا

لن تكسروا أعماقنا .. لن تهزموا أشواقنا

نحن قضاء مبرم .. تقدموا

طريقكم وراءكم .. وغدكم وراءكم .. وبحركم وراءكم

وبركم وراءكم ولم يزل أمامنا

طريقنا وغدنا وبرنا وبحرنا .. وخيرنا وشرنا

فما الذي يدفعكم من جثة لجثة .. وكيف يستدرجكم من لوثة للوثة

سفر الجنون المبهم ... تقدموا

وراء كل حجر كف .. وخلف كل عشبة حتف

وبعد كل جثة فخ جميل محكم .. وإن نجت ساق يظل ساعد ومعصم

تقدموا

كل سماء فوقكم جهنم .. وكل أرض تحتكم جهنم

تقدموا .. حرامكم محلل / حلالكم محرم

تقدموا .. بشهوة القتل التي تقتلكم ، وصوبوا بدقة لا ترحم

وسددوا للرحم ان نطفة من دمنا تضطرم .. تقدموا

كيف اشتهيتم واقتلوا .. قاتلكم مبرأ / قتيلنا متهم

ولم يزل رب الجنود قائما ساهرا .. ولم يزل قاضي القضاة المجرم ...

تقدموا .. لا تفتحوا مدرسة / لا تغلقوا سُجنا

ولا تعتذروا ، ولا تحذروا ، لا تفهموا

أولكم آخركم / مؤمنكم كافركم / وداؤكم مستحكم

فاسترسلوا .. واستبسلوا .. واندفعوا / وارتفعوا / واصطدموا

وارتطموا .. لآخر الشوط الذي ظل لكم

فكل شوط وله نهاية .. وكل حبل وله نهاية .. وكل ليل وله نهاية

وشمسنا بداية البداية

لا تسمعوا / لا تفهموا / تقدموا

كل سماء فوقكم جهنم .. وكل أرض تحتكم جهنم !

لا خوذة الجندي ، لا هراوة الشرطي .. لا غازكم المسيل للدموع

غزة تبكينا / لأنها فينا / ضراوة الغائب .. في حنينه الدامي إلى الرجوع

تقدموا .. من شارع لشارع / من منزل لمنزل / من جثة لجثة

تقدموا .. يصيح كل حَجَرٍ مغتصب .. تصرخ كل ساحة من غضب

يضج كل عصب: الموت ... لا الركوع .. موت ... ولا ركوع !

تقدموا .. ها هو ذا تقدم المخيم

تقدم الجريح والذبيح والثاكل والميتم .. تقدمت حجارة المنازل

تقدمت بكارة السنابل .. تقدم الرضع والعجز والأرامل

تقدمت أبواب جنين ونابلس .. أتت نوافذ القدس صلاة الشمس

والبخور والتوابل .. تقدمت تقاتل .. تقدمت تقاتل!

لا تسمعوا، لا تفهموا ... تقدموا

كل سماء فوقكم جهنّم .. وكل أرض تحتكم جهنّم!

شاعر الصحوة الإسلامية

لَـمْ يرَ الشُّعراء في الحقب الأخيرة إلاَّ هزائماً ونكسات، ومزيداً مـن أعـمال الخيانـة والغدر، وسلسلة من المهانة والذل والتنـازلات .. فـأينما تقـع أعيـنهم يـرون جمـاجم إخـوانهم تتطـاير، ويشـاهدون دمـاءهـم تنهمـر، ويسـمعون كـل يـوم عـن المجـازر الجماعية التي يتعرضون لها، دونما ذنبٍ اقترفوه .. إلاَّ أنْ قالوا ربُّنا الله!

فكيف لا تثور عاطفة الشعراء ولا ينبعث شعورهم؟!

وماذا يُنتظَر في هذه الأجواء من شـاعر مسكون بـالهمّ العـربي والإسـلامي مثـل: عبد الرحمن صالح العشماوي؟

لقد امتطى جواد الشِّعْر، وأطلـق لـه العنـان، فعبّر عـن مشـاعر المسـلمينفي كـل مكان –آلاماً وآمالاً– فمن أول قراءتك لأشعاره يفـور الـدم في عروقـك؛ مـن غـيظ الواقع الأليم الذي تخوض الأُمَّة في أوحاله، وتئن تحت براثنه ..

(العشماوي) يصدر عـن تجربـة شـاعر معـايش للواقـع الإسـلامي، لـذا، جـاءت أشعاره تقطر دماً، وقصـائده مغسـولة بالـدمع! وعنـدما تسـأله عـن ذلـك .. يقـول: اسأل الشِّعْر، فالشِّعر يكتبني!

الشِّـــعْرُ يكتبنـــي ويعزفنـــي عـــلى ... وتـــر الأســـى ويهـــزّ جـــزع خيـــالي
والشـعر يعـرف مـا يعـاني خـاطري ... فيفـــــيض بـــــالآلام والآمـــــالِ
فلكـمْ أتـى شـعري كأنفـاس الصِّـبا ... حينـــاً، وحينـــاً جـــاء كـــالزلزالِ!

المتتبع لمسيرة العشماوي الإبداعية، يلحظ التـدفق الشـعري الـذي صـاحب هـذه الرحلـة، ولعـلّ مأسـاة فلسـطين كـان لهـا الحـظ الأوفـر مـن هـذه البحـور والقـوافي المتنوعة، فلا يكتفي بما سطره عنها من قصائد ودواوين خاصة بها، بلْ يجعلها قاسـماً

مشتركاً في سائر موضوعاته، فهي ملازمة له عندما يكتب عن الصومال أوْ الشيشان أوْ البلقان أوْ غير ذلك من المحن التي أصابت الأُمة .. فيقول في قصيدته «من القدس إلى سراييفو»:

يرحل الشعر بي إلى القدس، لكن   كُسِرتْ عند بابـهِ الأوزانُ
آه يا قدسنا تنكّر قومٌ   وأباحوكِ للعدوّ وخانوا
صنعوا قهوة الخضوع، فلمّا   أتقنوها تبرّأ «الفِنْجانُ»

بلْ استمع إليه وهو ينادي على الفتى الفلسطيني الذي يرمي بالحجر، قائلاً له:

عِطْرُ البطولةِ في طريقك ينشر   وإليكَ أهداب المفاخر تنظرُ
شرفتْ بك الأرض التي أمهرتها   دمكَ الكريم، وقدسها بك يفخرُ
والمسجد الأقصى على محرابه   أملٌ، بكفكَ والحصى، يستبشرُ
إني رأيتكَ في مواجهة الردى   جبلاً بهامته السحائبُ تبهَرُ
من أين جئتَ؟ أكاد أحلف أنني   أبصرتُ أنّ سواكَ عندكَ يصغُرُ
أمِنَ البراءة، وهي أجمل لوحة   أبرزتها وبها شموخكَ يظهرُ؟
أمِنَ الإباءِ، وأنت أصغر فارسٍ   مازال بالروح الأبيّة يكبر؟
يا فارس الحجر الأشمّ، عيونُنا   صارتْ بعينكَ تبصرُ

....

يا فارس الحجر الأشم، قصائدي   ترنو إليكَ حروفها وتقدّرُ
سخِرتْ حجارتُكَ التي أحييْتها   من قلب كل مكابرٍ يتحجّرُ
ما أنتَ بالطفل الصغير، وإنما   أنتَ الشجاعُ الحرّ لا يتقهقرُ

لا يوجد شاعر اكتوى بأزمة «البلقان» واصطلى بلهيبها مثل العشماوي، إذْ فاضتْ قريحته في التعبير عن مأساة البوسنة طيلة الحقبة التي دارتْ رحى الحرب فيها على المسلمين هناك، وشهدوا ما لمْ تشهده أوربا في الحربين العالميتين! يقول في

قصيدته «سرايفو تقول لكم»:

«سرايفو» تقول لكم: ثيابي	ممزّقةٌ، وجدراني ثقوبُ
محاريبي تئنُّ، وقد تهاوى	على أركانها القصفُ الرهيبُ
وأوردتي تُقطّع، لا لأني	جنيتُ، ولا لأني لا أتوبُ
ولكني رفعتُ شعار دينٍ	يضيقُ بصدق مبدئه الكذوبُ
لأني لا أُجاملُ أوْ أُحابي	ولا أرضى الخضوعَ ولا أذوبُ

وللعشماوي قدرة فائقة على تقمّص الشخوص كما هي، والتعبير عما بها بصورة فائقة، وترجمة أحاسيس أصحابها ومشاعرها، كأنهُ هو صاحب التجربة، وهذه خاصية لا يملكها كثير من المبدعين .. ففي قصيدته «عندما يئنّ العفاف» ينقل لنا نبض صرخة مسلمة من بلاد البوسنة والهرسك، فيقول على لسانها:

أنا قصةٌ صاغ الأنينُ حروفها	ولها من الألم الدفين سياقُ
أنا أيها الأحبابُ مسلمةٌ طوى	أحلامها الأوباش والفسّاقُ
أخذوا صغيري وهو يرفع صوته	«أُمي» وفي نظراتهِ إشفاقُ
ولدي، ويصفعني الدّعيُّ ويكتوي	قلبي، ويُحكمُ بابي الإغلاقُ
ولدي، وتبلغني بقايا صرخةٍ	مخنوقةٍ، ويقهقه الأفّاقُ
ويجرني وغدٌ إلى سردابه	قَسْراً، وتُظْلمُ حولي الآفاقُ
ويئنُّ في صدري العفافُ ويشتكي	طُهري، وتُغْمض جفْنها الأخلاقُ
أنا لا أريد طعامكم وشرابكم	فدمي هنا يا مسلمون يُراقُ
عرضي يُدنّسُ أين شيمتكم أمَا	فيكم أبيٌّ قلبه خفّاقُ؟!

ليس هذا فحسب؛ بلْ استمع إليه— وهو يترجم معاناة طفل من أطفال الأقليات المسلمة، فيقول في قصيدته «رسالة شكر من طفلٍ بسنويّ» التي كتبها سنة ١٤١٤هـ— وفيها من السخرية اللاذعة والعتاب المرير الذي هو أشدّ من جلد السياط:

شكراً لكم يا مسلمون فقدْ بَدَتْ ... لي، غَيْرةُ الأخوال والأعمام!
نُسْبَى نُشرّدُ في البلاد وأنتمُ ... تتعلّقون بسُتْرَة الحاخامِ
تتحدَّثون بحكمة القسِّيس في ... طردي وفي قتلي وفي إرغامي
تهوي مآذننا على شاشاتكم ... وتُمزَّق الأجسادُ بالألغام
وترون أُمّاً يُستباحُ عَفافها ... والطفلُ يُقتل قبل حين فطام
وترون آلاف الثكالى بيننا ... وترون آلافاً من الأيتام
وترون أوربا تُقسّم أرضنا ... جَهْراً وتُصدر حُجّة استحكامِ
فَتُحَوْقِلُون وتُغمضون عيونكم ... وأنا على جمر الصليب الحامي
أستغفر الرحمن من ظلمي لكم ... فلقد مسحتم جرحنا بكلامِ

....

شكراً لكم يا مسلمون لأنكم ... لمْ تبعثوا أحداً لجمع حُطامي
إنّا عذرناكم لأنّ جيوشكم ... مشغولة بقطيعة الأرحام
إنّا عذرناكم لأن كؤوسكم ... ستظلُّ لوْ جئتم بغير مُدام
إنَّا عذرناكم فسيروا حيثما ... شئتُم، وهزُّوا راية استسلام
زيدوا من النوم الطويل فإنكم ... سترون فيه عجائب الأحلامِ
ودعوا لنا ما نحن فيه فإننا ... نهفو لعون الواحد العلاّمِ

لمْ يزلْ -الشاعر- يطوف حول ضفاف الجراح النازفات من بلد إلى بلد، فبعد أنْ عبر بنا من فلسطين السليبة إلى البلقان الجريحة، ها هو يجرُّنا إلى القرن الأفريقي المنسيّ، لينقل لوحة حزينة بائسة لطفل صومالي حائر، أنهكته المجاعات بعدما أنهكتْ بلده الحروب الأهلية الطاحنة، فيقول في قصيدته «صرخة طفل صومالي» التي كتبها سنة ١٤١٣ هـ:

أنـا، مَـنْ أنـا، في هـذه الأرض التـي تشـقى بسـوء تعامـل الأنـذالِ؟
أنـا، مَـنْ أنـا، قُـل لي بربـكَ يـا أبي إني أرى مـا ضـاق عنـه خيـالي؟
لِمَ يقتلـون أمـام عينـي إخـوتي لِمَ يحرقـون ملابـس الأطفـال؟

....

أيـن المفـرُّ؟ وكـل بـابٍ لمْ يـزلْ يشـكو إلينـا قسـوة الأقفـال؟
أيـن المفـرُّ؟ وهيئـة الأُمـم ارتمـتْ مبهـورةً، في حضـن «بطرس غـالي»؟

....

أبتـاهُ، هـلْ في الأرض قلـبٌ خـافقٌ أهنـاك قـومٌ يشـعرون بحـالي
أهنـاك قـومٌ يسـمعون نـداءنا ويروننـا في قبضـة الأغـلالِ
رخصـتْ دمـاء المسلمين، فهلْ مضى زمـن الإبـاءِ، وموقـف الأبطـالِ
مـا هـذه حـرب القبائـل بيننـا بـلْ خُطّـةُ الأعـداء لاستئصـالي!

وها هو يصحبنا في رحلته حول العالم، كاشفاً لنا عن مواضعٍ أخرى من الألم، أمّا الوجع هذه المرة فليس في أفريقيا، ولا في أوربا، ولا حتى في منطقة الشرق الأوسط، إنما يكمن في شبه القارة الهندية .. إنه كما أسماه الشاعر (صرخة من المسجد البابري):

عبثـاً، دعـوتُ وصِحـتُ يـا أحـرارُ عبثـاً، لأنَّ قلـويكم أحجـارُ
عبثـاً، لأنّ شـؤونكم يـا قومنـا في الغـرب يُفْتـل حبلهـا وتُـدارُ

....

أمّـا سـقوطُ « البـابريُّ » فحالـةٌ مألوفـةٌ تجـري بهـا الأقـدارُ
هـذي شـؤون الهنـد لـيس لنـا بهـا شـأنٌ، ومـا للمسـلمين خيـارُ

....

يـا ويحكـم يـا مسـلمون، مـآذني تهـوي، وبيـتُ مـؤذني ينهـارُ

ويئنُّ محرابي على أنقاضه ... ويموتُ تحت ركامِيَ الأخيارُ

يا ويحكم يا مسلمون، قلوبكم ... جمدتْ فليستْ بالخطوب تُثارُ

مليارُكم لا خير فيه كأنما ... كُتِبَتْ وراء الواحد الأصفارُ

ما جرّأ الهندوسَ إلاّ صمتكم ... ولكم يُذلُّ بصمته المغوارُ

خابتْ سياسة أُمةٍ، غاياتها ... تحقيقُ ما يرضى به الكفّارُ

هكذا -العشماوي- لا يفتأ يشخّص أمراض الأمة، ويصف الأدوية، من خلال تجاربه المفعمة بالرؤى الصادقة، والخيال الخصب، والبيان الصافي، الخالي من الغموض الشائن، والتعقيد المذموم، والحفر والتضاريس. وأكثر ما يتجلّى ذلك في قصيدته الشاملة (عندما تتلعثم الحروف) وسوف يدرك -القارئ- لماذا تلعثمت الحروف!

عندما تتلعثم الحروف !

عربــاتُ حُزنكَ ما تزال تسيرُ ... وجناحُ بلبلكَ الحزينِ كسيرُ

والسالكونَ الدربَ، إمّا واثقٌ ... في خَطْوِه أوْ خائفٌ مذعورُ

وصهيلُ خيلِ الراحلين توجُّعٌ ... ورياحُ ليلِ الساهرين دَبُور

وقصيدتي عصفورةٌ مذعورةٌ ... بجناح أشواق الفؤادِ تطيرُ

وحديثُ مَنْ تهوى يجيئُكَ صافياً ... فكأنه فوق اللسانِ نَميرُ؟

يا منْ كَسَوْتَ الشِّعْرَ أَبْهى حُلَّةٍ ... فالشِّعْرُ عندك جدولٌ وخرَيُر

والشِّعْرُ عندك واحةٌ مخضلّةٌ ... في جوِّها غيمُ الوفاءِ مَطيرُ

والشِّعْرُ عندك جمرةٌ ورصاصةٌ ... في وجه تجّار الحروف تثورُ

والشِّعْرُ يرسم من فؤادك لوحةً ... فيها من الألم الدَّفين سطورُ

ما الشِّعْرُ إلاّ دولةٌ نغَّميةٌ ... والصدق فيها سيِّدٌ وأميرُ

يا منْ مَدَدْتَ الحزنَ كأسَ قصيدةٍ ... منها يفيض على القلوب سرورُ

تشكو وترسل ما شكوتَ قصائداً ... للنقد فيها وردةٌ وصدورُ

خُضْ لجَّةَ الأوهام واجعل بحرها ... رَهْواً، فمثلُكَ بالعبور جديرُ

وامْدُدْ جسورَك نحو أُمتكَ التي ... مُدَّتْ لها نحو الضَّياع جسورُ

تدعو لتحرير البلاد، وإنَّ ... لنفوسِ قومكَ يُطْلَبُ التحريرُ!

أرأيتَ أغصاناً تمدُّ ظِلالَها ... للسائرين وما لهنَّ جُذورُ؟!

قالوا: أدِرْ كأسَ الصَّفاءِ كأنَّهم ... لم يُبصروا كأسَ الشقاءِ تدورُ!

وكأنهم لم يعلموا أنَّ الأسى ... من كلِّ ناحيةٍ عليَّ يُغير

وكأنهم لم يبصروا العصر الذي ... يجتاح فيه قلوبَنا التكديرُ

عَصْرٌ تُحكِّمُ فيه أنظمةُ الهوى ... فجليلُ أَمْرِ الناسِ فيه حقيرُ

ويُعَزُّ فيه مُهرِّجٌ ومبهرجٌ ... ويُذَلُّ فيه العالِمُ النِّحريرُ

عصرٌ تعالى فيه صوتُ منافقٍ ... متلَوّنٍ، وتطاول المغرورُ

عصرٌ تكشَّفَ للرذيلةِ وجهُه ... وعن الفضيلةِ وجهُه مستورُ

عصرٌ لأمريكا منابع مالهِ ... وعتادِهِ، ولأُمتي التقتيرُ

عصرٌ لأوروبا خلاصةُ فكره ... ولأُمتي التخميس والتشطيرُ

ومن الرزيَّةِ لا رزيَّةَ بعدها ... أنْ يستذلَّ المسلمين كَفورُ

قالوا: أَدِرْ بالصَّفْوِ أحرفَكَ التي ... مازال يُكتَبُ حولَها التقريرُ

أينَ الصَّفاءُ، ومسجُد الأقصى الأسى ... في مقلتيْه، وقلبُه مفطورُ؟!

وعلى سراييفو دخانٌ لمْ يزلْ ... يروي الحكايةَ، والصَّباح ضَريُر؟

وعلي أريتريا ضبابٌ قاتمٌ ... والجرحُ يسمعُ ماروتْ كشميرُ؟

ومدامع الأكراد تسقي غابةً ... للحزنِ، فيها للطغاةِ جحورُ؟

والطفل يسأل، والقذائفُ حوله ... لهبٌ، ونارُ القاذفاتِ سعيرُ؟

ما بال منزلنا اختفى فركامه ... لغةٌ يحدِّثنا بها التدميرُ؟!

لِمَ لا أرى أُمــي تُعِــدُّ مــلابسي وعــلى ملامحهــا رِضَىً وحبــورُ؟!
لِمَ لا أرى أختــي تطــارد لعبتــي لِمَ لُمْ يَعُــدْ يشــدو لنــا العصــفور؟!
لِمَ لا أرى أثــراً لقريتنــا التــي فيهــا تكــوَّنَ عــالمي المســحورُ؟!
يــا عــالَمَ الحريــة احترقــتْ يــدي أو مــا لــديكم منقــذٌ ونصــيرُ؟!
أأبيــتُ في أشــداقِ بــردٍ قــارسٍ وقــد اعــترى الجســدَ الصــغيرَ فتــورُ؟!
أوَ مــا تــرونَ رُكــامَ مدرســتي الــذي يبكــي، وللقصــف الرهيــب زئــيرُ؟!
أوَ مــا لــديكم مَــنْ يكفكــفُ أدمعــي أو مــا لــديكم مُرشــدٌ ومشــيرُ؟!
أيــن الحضــارةُ، إنهــا أكذوبــةٌ كــبرى تــردَّد، والشــهادةُ زورُ؟!
بُنيَــتْ عــلى جُــرُفِ الهــوى فأساسُــها مُتهالــكٌ، وســياقُها مبتــورُ
يــا بســمةَ الطفــل التــي ذُبحــتْ عــلى شــفتيه، عــذراً فــالطريقُ عســيرُ
يــا عــرض لــيلى مزَّقــوكَ، وقومنــا أكــلٌ وشربٌ هــانيءٌ وسريــرُ
وقــرارُ مــؤتمرٍ تمــوتُ حروفُــه قبــل الكتابــةِ، والغيــابُ حضــورُ
يــا صرخــةَ الثَّكْلى سمعتُك والأسى نــارٌ، ودقَّــاتُ الفــؤاد زفــيرُ
تســتصرخينَ وفي مســامع قومنــا وَقْــرٌ، فــلا وعــيٌ ولا تــدبيرٌ
قَلْــبُ الــذي تســتصرخين مُجــوَّفٌ فكــأنما هــو منــزلٌ مهجــورُ
لا تســألي عنــي فإنّــا لمْ نــزلْ في درب حسرتنــا الطويــل نســيرُ
وإذا خَطَوْنــا للتفاعــل خُطْــوةً فــالقول فيهــا الصــارمُ المــذكورُ
ولــربما عُقِــدَتْ لأجلــك نــدوةٌ فيهــا يِــدلُّ بعلمــه الــدكتورُ
يــا صرخــةَ الــثَّكْلَى، قوافــلُ أُمتــي ســلكتْ بهــا غــيرَ الطريــقِ الِعــيْرُ
تاهــتْ خُطاهــا والعواصــفُ حولهــاَ ومكــانُ مــؤطيء خُفِّهــا محفــورُ
وركــابُ أُمتنــا يقــود زمامهــا في عصرنــا التَّيئــيسُ والتخــديرُ
في وجــه أُمتنــا الحــزين إشــارةٌ نحــو الأســى في الخــافقين تُشــيرُ

والجالسون على الأرائك لمْ يزلْ ... فيهم صريعٌ للهوى وأسيرُ
يتجاذبون حديثهم، وكأنهم ... لمْ يبصروا الأحداثَ وهي تمورُ
ووسائل الإعلام تضربُ دفَّها ... وشعارها التضليل والتزويرُ
يا مَنْ يطالبني بوجهِ قصيدةٍ ... طَلْقِ المُحيَّا، زانهُ التحبيرُ
عذراً فإنك لوْ رأيت بمقلتي ... لعلمتَ أنّي في الأسى معذورُ
ما زالتُ أطرقُ بابَ أُمتنا على ... أملِ اللقاءِ، فما أجاب صريرُ
كَلَّتْ يدي والبابُ كَلَّ، وأُمتي ... يخلو بها التهويد والتنصيرُ
فُرِشَتْ لها بُسُطُ الهوان وأُلبِسَتْ ... بلحافِ ذُلٍّ، والجوابُ شخيرُ
ونظامُ عالمنا الجديُد يقودها ... نحو الهلاكِ، وسيفها مكسورُ
عُذراً فإنّ الشّعر عندي لمْ يزلْ ... يبكي، وحَبْلُ خيالهِ مبتورُ
قلبي حزينٌ والحقيقةُ مُرَّةٌ ... والشِّعر للقلب الحزين سفيرُ
وإذا تلعثمتْ الحروفُ فعذرُها ... أنَّ الأسى فيما تراه كبيرُ
كَمْ شاعرٍ فَذٍّ رأى مِنْ حوله ... عُمْقَ الجراحِ فخانه التعبيرُ!



العميل ..!

الشّاعرة (عليّة الجعّار) واحدة من الأديبات اللائي أسهمن في تصحيح مسيرة أدب المرأة في هذا العصر، فكرّستْ مفهوم الأدب الإسلامي، والتصدي بقوة لطوفان التغريب والمذاهب والفلسفات الوافدة.

الأدب -من وجهة نظرها- هو التعبير البليغ الموقظ للعواطف السامية في الإنسان، والمعبّر عن أحلام الفرد وآماله وأشواق روحه، وعن مشاعره النبيلة وخواطره المهذبة .. كذلك الحديث عن الوطن وقضاياه، ورسم لوحات بيانية جميلة للحياة والطبيعة، والحديث عن لحظات السعادة الغامرة في حياة الإنسان، انتماء الإنسان المسلم لربه ودينه ورسوله وكتابه الحكيم، ولأمته ووطنه ومجتمعه .. كل ذلك هو الأدب الذي ينطلق من روح الإسلام، ويعبر عن نشوة الشعور الإنساني في قلب المؤمن .. أيضاً، تقدير البطولة ومدح الأبطال وهجاء أعداء الدين والحياة، وحماسيات النضال من أجل بلوغ أشرف الغايات وأسماها.

وتؤكد الشّاعرة علية الجعّار أن الأدب الذي نريده هو النشيد الخالد الذي يترنم به الإنسان، متبتلاً في محراب الجلال والجمال والوجود والطبيعة. والنموذج الأعظم أمامنا هو كتاب الله الحكيم {القرآن الكريم} معجزة السماء، ورسالة الأنبياء، إنه أرفع نموذج للأدب الإسلامي على الإطلاق، لا يشابهه بيان، ولا تضارعه بلاغة.

إن المتأمل في مسيرتها الشعرية يجد لها نصيب وافر من الشعر الوطني والسياسي، الذي يتسم بالوضوح الشديد والتلقائية، والبعد عن كافة أشكال الغموض والألغاز والتهويمات التيوجدناها عند كثير من الشعراء المحدثين، ففي قصيدتها

«العـار» تقول:

أيـن العروبـة؟ في لبنـان؟ مزّقهـا — باسـم العروبـة أبنـاء لهـا نُجـبُ
أيـن العروبـة؟ في بغـداد؟ أمْ هربـت — خجـلى مهرولـة تبكـي وتنتحـبُ

.... — ....

الله كــرّم بــالقرآن أمتنــا — هــل أنتمـو أمـة القـرآن يـا عـربُ؟
خلّفتمـوه وغــرّتكم بفتنتهــا — تِلْـك الحيـاة وهـذا الجـاه والـذهب
هـذا جزاء ويـوم الفصـل موعـدكم — إنّي أراه بظهــر الغيــب يقــتربُ

زارت الشاعرة «سراييفـو» أثناء المحنـة التي حلّـت بمسـلمي البلقـان في أوائـل التسعينيات مـن القـرن المـاضي، ورأت هنـاك مـا لا عـين رأت، ولا أذن سـمعت .. فاشتد غيظها، جرّاء ما سمعته وما رأتـه مـن مجازر وحشية يتعرض لهـا المسلمون، والتي سجلت أحداثها في قصيدة «مذابح المسلمين» التي تبتهل وتدعو في خواتيمها على المتخاذلين من بني جلدتنا، فتقول:

برئنــا إليــكَ مــن أدعيــاء — قــد تولّــوا مــن دونــه الكفّــارا
ألّهــوا عنــدهم ظلومــا جهــولاً .. — ضــلّ قلبــاً واســتكبر اســتكبارا
يمّمــوا بيتــه وحجّــوا إليــهِ — نصّــبوه في أمرنــا مُستشــارا
صــدّقوه وحــالفوه وعاشــوا — في حِمــاهُ وقدّســوا الــدولارا..
جــازِهم يــاربّ واغلُــظ علــيهم — ربّ واجعــل مــا دبّــروه خســارا

رحم الله الشاعرة الإسلامية «علية الجعّار» التي صدقت ما عاهدت الله عليه، إذْ كانت تقوم مقاماً لا يتسنى إلاّ لأولي العزم من المؤمنين .. وهـا نحـن أمـام قصيدتها التي وجّهتها في غمرة الأحداث الدامية إلى كل عميل وخائن لدينه ووطنه:

العميل .. !

-إلى كل عميل خائن لدينه ووطنه-

الْعـــق نعـــال العـــم ســـام	وكـــن لـــه الخـــل الـــوفيّ
الجـــأ لـــه والْـــثم يديـــه	في الصـــباح وفي العشـــيّ
واسترضـــه وامْنحـــه مـــا	يبغـــى ولا تبخـــل بشـــيْ
واجعلـــه في الـــدنيا وليّـــاً	بـــئس هـــذا مـــن وليّ
واطلـــب حمـــاه ولـــذ بـــه	هـــذا هـــو الشرك الخفـــيّ
وارض الدنيـــة والمهانـــة	والعمالـــة يـــا دنـــيّ
بـــعْ دينـــك الأســـمى بـــدنيا	ذلـــك المســـخ الغـــويّ
واهجـــر كتـــاب الله واحجـــب	نـــوره الزاهـــي الســـني
كمّـــمْ شـــفاه الصـــالحين	وكـــل إنســـان ســـويّ
وارســـم لنـــا في الفكـــر نهجـــا	لـــيس يرضـــاه النبـــيّ
اغْـــصِ الـــذي خلـــق الوجـــو	ـــد الواحـــد الأحـــد العـــليّ
واهنـــأْ بجـــاه العـــم ســـام	فجاهنـــا الله القـــويّ
وادخـــل جهـــنّهم خلفـــه	يـــوم القيامـــة يـــا غبـــيّ !



كِلابٌ .. وأُسُود !

منذ النصف الثاني من القرن العشرين -أو بمعنى أدق- منذ سريان وباء «الحداثة» في الشّعر العربي الحديث، تزاحمت الأسئلة حول عدد من الإشكاليات التي فرضتها موجة الحداثة. ولعل إشكالية «الغموض» ظاهرة واضحة عند دعاة الحداثة، خاصة منذ أن دخلت الرمزية إلى لبنان وانتشرت على يد سعيد عقل، والغموض ينتشر في الشعر العربي مع كل صيحة تجديد وكل دعوة حداثة، حتى انعدم التواصل بين المبدع والمتلقي. لذلك نجد نقاد الحداثة يعدون هذا الغموض من مزايا الشعر الجديد الذي لا يشاركه فيها الشعر القديم!

من أسف، نسي هؤلاء أوْ تناسوا، أن اللغة العربية ليست لغة غموض وإبهام، ولكنها لغة وضوح وبيان وعلى هذا جاء أدبها في تاريخها الطويل، وقامت علوم اللغة العربية لترسخ هذه الحقيقة الساطعة. وبهذه اللغة المبينة جاء القرآن الكريم الذي وصف صراحة في غير موطن بأنه «قرآن مبين» و«كتاب مبين» نزل «بلسان عربي مبين» ... إلخ.

فإذا كان الوضوح خاصية بارزة من خصائص أسلوب الأدب الإسلامي، كي يتحقق الانسجام بين الروح العربي الإسلامي وبين أسلوب الأدب الإسلامي. والوضوح ليس نقيضاً للعمق وليس مرادفاً للسطحية والابتذال، كما أن لُطْف المعنى يحوجك إلى الفكر وتحريك الخاطر؛ وقد فرق -إمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني- بين التعقيد المذموم والعمق المحمود، وكشف عن حاجة المعنى اللطيف إلى الفكر، وبيّن أن المعنى اللطيف إذا جاء في غاية البيان والإيضاح فلا يعني هذا أن نتهمه بالضحالة والسطحية ونظن أن صاحبه لم يبذل فيه جهداً ولا مشقة حتى

وضعه عند أطراف عقلك.

أعتقد أن المشكلة ليست هي الغموض والوضوح، ولكن المشكلة أن (دعاة الحداثة) يريدون أن ننقطع عن تراثنا، ونطلب المقاييس من بيئات مختلفة أخذت من أدبها وانطبقت عليه، ولكنها عندنا غريبة عن بيئتنا، فلا هي أخذت منها ولا استقام تطبيقها عليها. ولست أدري كيف يكون الغموض الذي يمتدحونه الآن مدحاً والبيان والإيضاح ذماً، مع أن القرآن الكريم المعجز بيّنٌ واضحٌ كما وصفه الله تعالي، فهل يزعم أحد أن وضوحه منقصة وأن بيانه مذمة؟ ومن عجب أن صار الغموض -الآن- سمة بارزة في أشعار الحداثيين ودراساتهم وأبحاثهم ومقالاتهم أيضاً وهم يروجون له ويدعون إليه، فإذا كان الغموض هو الذي يمنح الشعر قيمته ويعطي للأدب مكانته ومنزلته فعلى تراثنا العربي كله العفاء!

لعلَّ الذي جعلنا نطرح هذه الإشكالية، هو طابع هذه القصيدة التي نحن بصددها، للشاعر الفلسطيني (**إسماعيل شعشاعة**) الذي استطاع من خلالها أن يعقد مقارنة بين صنفيْن من البشر، لا يخفيان على أحد.

(الصنف الأول) هو «الكلاب» -أوْ البشر الكلاب- وقد أفلح الشّاعر عندما تدارك الأمر، واعتبر أن تشبيههم بالكلاب فيه ظلم كبير وتحامل شديد على الكلاب التي هي رمز الوفاء! وقد أوضح هذا المعنى الشاعر عبد الحميد الديب. وقديما صنّف أحد العلماء كتاباً في هذا الصدد أسماه: «تفضيل الكِلاب على كثيرٍ ممن لبس الثياب»!

أمّا (الصنف الآخر) فهم ضحية جُبن وخذلان «الصنف الأول»، الذي تاجر بقضيتهم عبر الندوات والمؤتمرات والقمم التي تُعقد بين حين وآخر .. إنهم أطفال الحجارة والمجاهدون في أكناف بيت المقدس، الذين يحملون أرواحهم على أكفّهم باحثين عن الشهادة!

ترى .. كيف تحدث -الشّاعر- عن هذيْن الصنفيْن المتناقضيْن؟ وما مدى نجاحه أوْ إخفاقه في المقارنة التي عقدها في هذه القصيدة:

كِلابٌ .. وأُسُود !

كِلابٌ والكلابُ أشدُّ طُهْراً ... كِلابٌ .. والكلابُ أجَلُّ قَدْرَا

إذا شبّهْتَهُمْ فيها اشمأزَّتْ ... وتاهتْ فوقهمْ تختالُ كِبْرا

فما بينَ الكلابِ وبينَ قوم ... كِلابٍ صَارَ أعواماً ودهْرا

إذا خاطبتهمْ كَلَحُوا وُجُوهاً ... وإن عاملتهمْ قتلوكَ غدرا

كلابُ الأرضِ أنصعُ .. بَلْ كَفَجْرٍ ... وهم زادوا اسْوِداداً بَلْ وفُجْرَا

قذاراتٌ بهمْ أعْمَتْ أُنوفاً ... تفُوحُ بساحهمْ ظُهْراً وعصرا

ولوْ يتكلمونَ تخالُ قوماً ... بأفواهٍ نَفَثْنَ أذىً وجمرا

كلامُهُمُو بذيءٌ أوْ رديءٌ ... كأنّ القوم في الطرقاتِ تهذي

وتنظُرُ مِنْ عُيونٍ فاجراتٍ ... وتَبْسُمُ والوجوهُ غَدَوْنَ صُفْرا

وتنبحُ في صباحٍ أوْ مساءٍ ... وتنبحُ والنباحُ يزيدُ سعْرَا

فرأسٌ فارغٌ والعقلُ خاوي ... ونابٌ بارزٌ يشتدُّ عقْرا

تمادوا في فسادٍ وانحلالٍ ... فكان نصيبهم بؤساً وخُسْرَا

لَكَمْ أكلوا حراماً ثم ناموا ... عن الحق المبين اليوم عُمْرَا

أعانوا ظالماً أو مُستبداً ... فكانَ الظلمُ للظُّلام صِهْرا

وباعوا في المزاد لهم ضميراً ... وبعضٌ منهمو يزدادُ كُفْرا

ويبرأُ منهمو قومٌ كرامٌ ... وأبرأُ منهمو سِرّاً وجهرا

كِلابُ الأرضِ أرفعُ في مقام ... وأطهرُ منهمو فعلاً وسؤْرا

فلا يزهو بهمْ شرفٌ رفيعٌ ... وهم للذُّل والتحقير أسْرى

وهُمْ عارٌ على وطني وقومي ... أحالوا الخصبَ كُثْباناً وقَفْرَا

لُصوصٌ ، والغَنيُّ بهِمْ فقيرٌ ... فقيرُ النفسِ كمْ يزدادُ فقرا

وفي وطني وفي قومي أُسودٌ ... تفوحُ ثيابُهم عَبَقاً وزَهرا

وأشرافٌ تُسَابَقُ للمعالي ... تخالُ القومَ أقماراً وبدرا

يفوحُ عبيرهم في كل حينٍ ... يفوحُ فيملأُ الساحاتِ عِطرا

وفي وطني انتصاراتٌ وعدلٌ ... على مر الزمانِ يثيرُ فخرا

وفي وطني جنان الخُلد خُضْرٌ ... ينابيعُ الحياةِ بَسَمْنَ ثَغْرَا

وأطفالُ الحجارةِ من بلادي ... وأبطالُ الجهادِ تفُلُّ صخرا

وفي وطني أسودٌ ضارياتٌ ... تُذيقُ عدونا مُرّاً فمُرّا

تُمرّغه بِذُلٍّ أو بخزيٍ ... تصدُّ ذئابه فتموتُ قهرا

تذودُ عن المحارمِ والزوايا ... تطيعُ الله .. لا تعصيهِ أمرا

همُ الأبطالُ .. لا أحداً سِواهُمْ ... أضاءوا في سوادِ الظُّلْم بَدرا

وفي وطني نخيلٌ باسقاتٌ ... على مرّ الزمان طرحن تمرا

وفي وطني قناديلٌ أضاءتْ ... ظلام الليل والتاريخ فجرا

وفي وطني براعمُ يانعاتٌ ... نمتْ وترعرعتْ براً وبحرا

تسابقُ للمعالي في شموخٍ ... وتنقشُ في جبين الدهر نصرا

وتحفرُ في المزابلِ للخزايا ... وللظُّلاّم والفُجّارِ قبرا !

الحاخام يخطب في بغداد !

شاعر مسكون بهموم وطنه، ومتدلّه به إلى حد الجنون، اصطلى بنيران «طاغية البعث» وتلظّى بسعيره، إنه الشّاعر العراقي (يحيى السماوي) الذي قضى في سجون العراق قرابة عشرين عاماً، ثم استطاع الهرب من السجن بأعجوبة أثناء انتفاضة العراقيين إبان حرب تحرير الكويت، أيْ في أزمة الخليج الثانية سنة 1991 فاتجه الشّاعر إلى السعودية عبر الحواجز والحدود، وأقام فيها بضع سنوات، فلما أحسّ أن العلاقات العربية بدأت تتحسّن مع حكومة بغداد شيئاً فشيئاً، خاف على نفسه من أن يصير كبش فداء لصفقة سياسية أو نحو ذلك من ألاعيب السياسة، فاتجه إلى استراليا، ومازال يقيم بها إلى هذا اليوم!

ما كان ينبغي لنا أن نسمع عن هذا الشّاعر لوْ لم يهرب من السجن، وقد تساءلتْ -يوماً- إحدى الأديبات: لماذا لم نقرأ لهذا الشّاعر من قبل؟ فأجابها بقصيدة بعنوان (أُختاه) بثَّ فيها مرارة شكواه، وما لاقاهُ من العنت والجور في زنازين الطاغية، إذْ يقول فيها:

أختاهُ -جُرحي منكِ يعتذرُ .. والشّعرُ، والقنديلُ، والوترُ
قد كان لي حقلٌ وحنجرةٌ ... وبروضتي يتعانقُ الشجرُ..
أختاهُ: لوْ تدرينَ أيّ فتىً هذا الذي بزغيفه غدروا
بستانه: كوخٌ، وموطنه: زنزانةٌ، ورحيقه الضجرُ
جيلان مَرّا في مصارعةٍ أنا والأسى، والقيدُ والسفرُ
فإذا استباح القحط سنبلتي فلأنّ حقلي عافه المطرُ!
عشرون في قحطٍ، بيادرنا - أثمارها الأشواكُ والحَجَرُ!

أعنابنـــا حَسَـــكٌ، وقهوتُنـــا آهاتُنـــا ... وثيابُنـــا وَبَـــرُ
وطـــنٌ تقاســـمَ عشـــبهُ نَفَـــرٌ مُتعسّـــفٌ، وفُراتـــه نفـــرُ!
يتفـــاخرون بعـــار ســـطوتهم وأنـــا بوشْـــمِ القيْـــدِ أفتخِـــرُ!
عجبـاً عـلى الجـلاّد: قـدْ هُزِمـتْ كفّـــاه، والمقتـــولُ منـــتصِرُ!

....

قـــدْ كنـــتُ ميْتـــاً يـــا مُســـائلتي .. بـــالله: كيـــف تـــنفّس الحجـــرُ؟
كيــف اســتحال الشــعرُ لي نســغاً وتعـــانق الإلهـــامُ والسَـــحَرُ؟
ولقـــد هجـــرتُ الشـــعر في وطنـــي لمّـــا تـــدنّس حرفـــه الـــنضِرُ
ولقـــد شـــدوتُ، لأنّ حنجـــرتي عـــادتْ، وعـــاد لعزفـــهِ الـــوترُ
فـــإذا كتبـــتُ، فمـــن فضـــائلكم .. وإذا كبـــوْتُ، فـــإنني بشَرُ

(السماوي) من أعلى أصوات شعراء المعارضة العراقية، وأكثرهم حنيناً إلى بلده! وقد خلع على «العراق» كثيراً من الألقاب والكُنَى، مستلهماً تراثها الزاخر بالأمجاد، وتاريخها الحافل بالمآثر، فتارة يدعوها (أخت هارون) فيقول في قصيدته «يا أخت هارون»:

يا أخت «هارون» .. ما أنصفتِ هارونا فـإنّ كأسـكِ فـاض اليـوم غِسـلينا
يا أخت «هارون» هلاّ عُـدْتِ عاشـقةً عـذراء تلـبسُ مـن ديبـاج ماضـينا؟
يا أخت هارون قـد جفّـتْ حناجرنـا مـن الصراخ وقـدْ ذلّـتْ صـوارينا
دالتْ علينا صروفُ الدهر وانقلبتْ صروحنـا فـإذا راياتنـا الـدُّونى!
فـأين منـا زمـان كـان يحسـبنا فيـه الطغـاةُ -عـلى ظُلـم- براكينـا؟
يـا أخـت «هـارون» لَّما صرتِ آنيـةً لقـيحِ «عفلـق» صـار الـزادُ طاعونـا!
دعوتُ يوماً بـوأدِ «البعـث» في وطنـي فجلْجلَ الكـونُ -كـل الكـونِ- آمينـا!

وتارة يدعوها (بنت جعفر) ويبث إليها همومه، وهموم وطنه الذي هرب منه

قسراً: فيقول في قصيدته «لقد أفصحتَ يا قلبي»:

طرقتـكَ «لُبنـى» أمْ دعَتْـكَ «لميسُ» ... فالليلُ زِقٌّ .. والهمومُ كـؤوسُ؟

يا بنت «جعفر» كمْ صرختُ وراعني ... أنّ الـذي سـمع الصراخ غلـوسُ

مـا للعـراق اليـوم يكظـم غيظـهُ ... والبغـيُ فـوق الرافـديْن جلـيسُ ؟

بغـدادُ؟ مـا عـادت عـروس عروبتـي ... وأخـو الرذائـل في العـراق عـريسُ

أخشـى عـلى «بغـداد» عفّتهـا، ومـا ... عرفـتْ مطاوعـة اللئـيمِ عـروسُ

طفح الأسى فغرقتِ يا ابنة «جعفر» ... وعـلى ضـفافكِ أعشـبَ التـدليسُ

عتبي عـلى مـوج «الفـراتِ» ونخلـهِ ... كيـف اسـتكان فعـاثَ فيـه شَروسُ؟

آهٍ عـلى زمـنٍ تعثّـر صُـبحهُ ... فاسْـتَعبدتْ جمـعَ الكـرامِ تِيـوسُ!!

فـإذا ابـنُ طـاهرةِ الخمـارِ مُشرّدٌ ... وإذا ابـن خالعـةِ الإزارِ رئـيسُ!

وإذا العـراقُ مدينـةٌ غجريـةٌ ... ومـن المـآذنُ يشـهق النـاقوسُ

زَعَـمَ ابـن «عفلـق» أنّ ديـن محمّـدٍ ... لمْ يكتمـلْ -إنّ الـدعيَّ دسـيسُ

«تمـوزُهُ» عـارٌ عـلى أيامنـا ... ويفـوحُ مـن «نيسـانهِ» التـدنيسُ

إنّ الجـراح النازفـات كثـيرةٌ ... وأقلّهـا أن العـراق حبـيسُ

أفصحْ! لقد أفصـحتَ يـا قلبي فهلْ ... طرقتـكَ «لُبنـى»؟ أمْ دعتـكَ «لميسُ»؟

وتارة، نراه يتوجه بالخطاب إلى «هارون الرشيد» شاكياً ما آلتْ إليه عاصمة الخلافة، وكيف تبدّلت الأوضاع وانقلبت رأساً على عقب؛ فيقول في قصيدة أخرى:

هـذا عراقُـكَ يـا رشـيدُ .. رغيفـهُ ... حَسَـكٌ، وكـوثرهُ دَمٌ ووحـولُ

تحـت الكـراسي في العـراق جماجمٌ ... وعـلى الكـراسي في العـراق مغـولُ

وإذا «العفالقـةُ» اسـتقام لأمـرهم ... حُكْـمٌ -فغانيـة الكهـوفِ بتـولُ!

للجاهليـة، في العـراق عقيـدةٌ ... و«بنـي قُريظـةَ» محفِـلٌ وقبيـلُ

إنه شاعر مسكون بحب وطنه إلى حد الجنون، مع أن الوطن نسيه ونسيَ لونه وملامحه، بسبب البعد والاغتراب. إنه ينام ويصحو على همومه وجراحه الغائرة التي نكأها البعثيون، فاستمع إليه؛ وهو يتضجر ألماً في قصيدته (رفقاً بضعفي):

لوْ كنتُ أعلمُ ما ختامُ حسابي ... لرجوتُ ربّي أنْ يحين ذهابي!
عندي من القلق المرير قوافلٌ ... ضاقتْ هوادجها ببعض عذابي!
قبري معي يمشي .. ويمشي بيننا ... طفلان قد رضعا مُضاغ الّصابِ
كل الدروب مشيتها، وفرشتها ... بلظى ضياعي أوْ رماد شبابي!
فضَجِرْتُ منّي، والجفون تساءمَتْ ... مِنْ مقلتيّ فشاجرتْ أهدابي!
عيدٌ وآخرُ، ثم آخر .. والمُنى ... مذبوحةٌ، وهشيمةٌ أكوابي!
ملأتْ حروفُ الحزنِ كل صحيفتي ... وتزيّنتْ بالفاجعاتِ شِعابي
لوْ يُطْعَنُ المعشوقُ -كنتُ غرستُ ... صدر العراق خناجري وجرابي!
في مَنْ ذا يعلّمني الجحود لعلّني ... أنسى هواه ولعنتي ومصابي؟
مَنْ ذا يعلّمني الجحود لعلّني ... سأتوبُ من عشقي فأُوصِدُ بابي؟
وطني يُلمْلِمُ حزنه وهمومه ... ويزورني في الطّيْفِ كالمرتابِ

....

أدري بأنكَ يا عراقُ خذلتني ... ونسيتَ لون ملامحي وثيابي
ودفنتني ظِلاّ لغصن طفولةٍ ... خلف الفراتِ وغابتي وهضابي
عاتبتُ قلبي يا عراقُ .. لأنني ... أدري بقلبكَ لا يطيقُ عتابي

هكذا بلغ حُب -يحيىَ السماوي- لوطنه، إنه حُبٌ من نوع فريد، ملك عليه قلبه وعقله وسمعه وبصره وجميع حواسه، ولعلّه أراد أن يكشف لنا جانباً من هذا الحب الساحر في قصيدته (أنا آخر الأحفاد في مدن الهوى) التي يقول فيها:

أنا آخرُ الأحفاد في مدن الهوى ... لكنّ حظّي في هواي قليلُ

الحب ميراثي .. فأُمي «عبلةٌ» وأبي «كُثيّرٌ» والشقيق «جميل»
و«ابن الملوّح» كان صنو صبابتي وجميعنا في عشقهِ مخذولُ
أحزانُ «عُذرةَ» في الهيام ورثتها منفاي بيتي، والحبيبُ عذولُ
أنا آخرُ العشّاق يا كُتب الهوى وأنا -لقنديل الهُيام- فتيلُ!

بقدر هذا الحب المضطرم في قلب الشاعر لأرض الرافدين، بقدر سخطه على الطغاة الذين ساموا الناس سوء العذاب، فراح الشاعر يصبّ جام غضبه على عصابة البعث، إذْ يقول في قصيدة (آهٍ على وطنٍ شُلّ الصباح به):

فأرض «دجلة» عندي عن مصائبها ما لا يُقالُ، فماذا يكتبُ القلمُ؟
مدائنٌ أصبحتْ للناس مقبرةً وأنهُرٌ ماؤها مما يُراقُ دمُ!
وأيُّ حاكم لؤمٍ بات يحكمنا وقدْ تساوى لديهِ الدِينُ والنغمُ
هو ابن ألف أبٍ نذلٍ لواحدةٍ يكادُ يخجلُ منهُ العارُ واللؤمُ!

....

وا ضيعةَ المجدِ يا «هارون» قدْ ثُكِلَتْ بغدادُ بعدكَ، واستشرى بها السقمُ
تناسل السلُ والطاعون في دمها كأنّها امرأةٌ في رحمها عُقمُ!
صار العراقُ، عراق الخير مقبرةً للطيبين، وجنّاتٍ لمن هدموا
على المنابر جُهّال بلا لغةٍ وفي المساجد مَنْ عاثوا ومَنْ أثموا
أنا من الشعب فردٌ لا حقوق لهُ ضاعتْ حقوقي لمّا ضاعتْ القيمُ

أمّا العجب -كل العجب- فلا يكمنْ في شاعرية «السماوي» فحسب، بلْ في حسّه المرهف، وحدثه الشفّاف، ونبوءته الصادقة، إذْ تنبأ بسقوط نظام البعث بأصنامه وطواغيته، في الوقت الذي كان فيه هذا النظام مدججاً بالسلاح حتى أسنانه، وكانت تحرسه شياطين الإنس والجن من مشارق الأرض إلى مغاربها .. فلنستمع إلى هذه النبوءة التي سجلها -الشاعر- منذ قرابة عقدين من الزمان، في

قصيدته «قالت وجرحك جرحي» التي يقول في آخرها:

عنـدي مـن الحُـزْنِ غابـاتٌ وأوديـةٌ ... عميقــةٌ كظــلام الليــل تنــتظمُ!
عشرون دورة شمسٍ ما احتفى وطني ... يوماً، ولا اقتربتْ من أرضه النّعمُ!
طغى الصفيقُ، ورهطٌ حولهُ خدمُ ... لـهُ عـلى أهلنـا مـن غَيّـهِ نُظُـمُ
مُخَلّـعٌ يتبـاهى في نذالتـهِ ... فليس يقربـهُ -من لؤمـهِ- اللـؤمُ!

....

صـدّام: يـا وسـخَ الـدنيا برمّتهـا ... يا بئس منْ حُكِمُوا، ومنْ حَكَمُوا
بحجمِ مجدكَ نَعلي يا ابن ألف أبٍ ... نـذْلٍ لواحـدةٍ، حيـث الرّضـاعُ دَمُ!
تِـهْ يـا خبيـثُ .. فللأيـامِ دورتهـا ... وسوف يُنْتَعلُ الطاغوتُ والصنَمُ!

لعلَّ قصيدته (الحاخام يخطب في بغداد) واحدة من قصائده الكثيرة، التي أطلق فيها صرخاته المدوية وقذائفه الشعرية في وجه الطاغية «صدام حسين» وقد كتب الشاعر هذه القصيدة سنة ١٩٩٤ بعد أن ألقى صدام حسين خطاباً يقول فيه: «... وإنني مازلتُ أمتلك الشجاعة الكافية لتكرار التجربة .. فهنيئاً للعراقيين وللأمة العربية بالانتصارات العظيمة وبالمجد الذي حققناه». أيْ بعد تدمير قوة العراق العسكرية على أيدي قوات التحالف!

الحاخام يخطب في بغداد !

خَطَبَ «ابنُ صَبْحَةَ» يا أنامُ ..[1] ... سـمعاً إذا خطـبَ الهُـمامُ !
«قعقـاعُ» هـذا العصر، لـو ... أقعـى: تراجفـتِ العظـامُ
وإمـامُ -حـزب البعـث- ... تقطـرُ مـن عمامتـهِ المـدامُ!
فسـل النصـارى واليهـود ... أمِثلـهُ عـرفَ اللئـامُ؟

(١) صَبحة: هي أُم صدام حسين.

فهـــو الحصـــانُ الســـومريُّ — وثـــورُ بابـــلَ، والحســـامُ
أوفى مـــن الكلـــب الـــوفيِّ — لـــهُ عـــلى عهـــرٍ ذِمـــامُ
ومشـــى فشـــاصَ التمـــرُ — واستلقى عـلى الـدربِ السَّـخامُ
إبلـــيسُ كـــان لـــه البدايـــةُ — وابـــنُ «ميشـــيلَ»[1] الخِتـــامُ
لا تقـــربنّ العفلقـــيّ - — فـــما لخنزيـــرٍ وِئـــامُ!
مـــاذا ســـترجو مـــن لئـــيم — حـــفَّ زورقـــهُ الرغـــامُ؟
عشـــق الجـــراحَ النازفـــاتِ — لـــه برغوتهـــا هُيـــامُ!
فـــرسٌ يُقـــادُ ولا يقـــودُ — عليـــهِ -مـــن دنـــسٍ- لجـــامُ
نـــارٌ عـــلى عَلَـــم اللئـــام — بـــهِ تفـــاخرتِ اللئـــامُ !
تجـــري النذالـــةُ في دِمـــاهُ — فـــما لمسراهـــا فطـــامُ !
السِـــلمُ والإســـلامُ مُـــنْذُ — كانـــا : بمذهبـــهِ حَـــرامُ
مـــا قـــامَ يومـــاً للصـــلاةِ — ولـــيس يعرفـــهُ الصـــيامُ!
وَلَـــغَ الفـــراتَ فَدُنِّسَـــتْ — ضِـــفتاهُ واحتشـــدَ الغـــمامُ
تَـــيْسُ الرّفـــاقِ، إذا يقـــومُ — فرِفقـــةُ المـــاخورِ قـــاموا !
قـــومٌ هُـــم بـــين الرذائـــلِ — أيـــنما كانـــت: زِحـــامُ !
وهـــم الغطارفـــةُ الجهابـــذةُ — الفلاســـفةُ الكـــرامُ !
عـــن «جَـــدِّهِ» وَرِثَ العـــراقَ — ومـــنْ بواديـــهِ اســـتقاموا !
ولأمِّـــهِ أرضُ الكويـــتَ — وشـــعبها الحـــرُّ المضـــامُ
كَـــذبَ الـــرواةُ .. فخالُـــهُ — مـــا كـــان ديدنَـــهُ الحـــرامُ ![2]

---

(١) ميشيل: هو ميشيل عفلق الماسوني، مؤسس حزب البعث.

(٢) إشارة إلى خاله «خير الله طلفاح» المشهور في العراق بلقب (حرامي بغداد).

«بـــرزان»[1] مـــا سرقَ النعـــاجَ ولا لـــ«ســـبعاوي» خِصـــامُ
أعمامُـــهُ شـــغلوا فَـــمَ الــــ دنيـــا، وكـــان لهـــم مقـــامُ !
عرفـــتْ كـــلابُ الليـــلِ سيـــ ـــماهُمْ إذا جـــنّ الظـــلامُ !
حصـــدوا ومـــا زرعـــوا، وقـــا مـــوا في الـــبلاد ومـــا أقـــاموا
بشَرٌ ولكـــنْ: طـــاب عنـــدَ هـــمُ مـــع الغـــنم المنـــامُ
صـــــبراً ســـــينطفئ الضرامُ ويعـــــمُّ في الأرض الســـلامُ
فـــيمَ العجالـــةُ يـــا جيـــاعُ الـــ ـــرافديْن ويـــا حُطـــامُ ؟
جـــيلانِ مـــرّا والعـــرا قيـــون زادُهُـــمُ الكـــلامُ
شـــعبٌ لـــهُ تِـــبْنُ الحقـــولِ و«أسرتـــان» لهـــا الطعـــامُ[2]
يـــا مقلـــةَ اسرائيـــلَ – نـــامي ... فـــابنُ عفلـــقَ لا ينـــامُ !
حاخامُـــــكِ العـــــربيُّ في بغـــداذَ حارسُـــكِ الهُـــمامُ !



(١) برزان« أخ صدام من أمه، وكان رئيساً للمخابرات العراقية، ومشهور بدمويته. و«سبعاوي» أخ صدام من أمه أيضا، كان وزير الأمن العام، وله نفس دموية أشقائه.
(٢) هما أسرتا «آل مجيد» التي ينتمي لها صدام حسين، وأسرة «آل طلفاح».

صلاة الكُهَّان !

احتفتْ العربية بنساء أديبات ضربن بسهم وافر في الأدب، وكن نماذج رفيعة للأديبات الناثرات والشّاعرات في قوة البيان وفصاحة اللسان، فكان النساء الشواعر في الحقب الماضية يُشار إليهن بالبنان.

المتتبع لمسيرة الأدب النسوي أو «أدب المرأة» يلحظ عليه طابع الألم، ونبرة التشاؤم والحرمان، وسحابة الحزن التي تغشاه، خاصة في كتابات أعلامه في القرن العشرين، أمثال: عائشة التيمورية، ومَلَك حفني ناصف، ومَيّ زيادة، ووردة اليازجية، وزينب فوّاز، ووداد سكاكيني، وجليلة العلايلي، وسهير القلماوي، وعاتكة الخزرجي، ونازك الملائكة، وغيرهن.

أيضاً، مما يلفت الانتباه في نتاج «أدب المرأة» أنه موسوم بخصائص الأنوثة، مع شدة التركيز على مشاعر المرأة، وتصوير أعماقها وشمائلها التي تكشف عن دخائل نفسها وخفايا حسها.

لكن .. شهدت الحقبة الأخيرة من القرن العشرين نماذج جديدة ومغايرة من أدب المرأة، حيث اختفت منه ملامح الحزن والألم والكآبة، وقدمت الأديبات الإسلاميات –خاصة– ألواناً لا تختلف عما قدمه الرجال، من أشعار وطنية وسياسية، كما رأينا عند الشّاعرة عليّة الجعّار، والشّاعرة نوال مهني، وفاطمة عبد الحق، وسعيدة خاطر الفارسي، وإنصاف بخاري، وغيرهن من الأديبات اللائي واجهن عولمة الإباحية، وتصدَّيْن لطوفان التحلل والعُريّ.

إذن .. لا نعجب عندما نرى في قصائد الشّاعرة العُمانية الدكتورة (سعيدة خاطر) ما يفوق في جودته وجمالياته ورؤيته، كثيراً مما أبدعه الرجال.

«سعيدة خاطر» تلميذة نجيبة للشّاعرة العراقية (نازك الملائكة) وفي هذا تقول: «لقد أورثتنا نازك –أنا والكثير من طلابها– شيئاً من ذلك الالتزام باهظ الثمن، وشيئاً من حبها المكتنز المقدس للوطن والقومية، ووتراً من الأوتار المشدودة بحدة الإحساس المسنن على شفرة الالتزام الصارم .. فإذا بنا نسير على الدرب .وحينما تفحصتُ ما كتبتهُ على مدى العشرين عاماً وجدتُ معظمه يتمحور حول القصائد القومية والوطنية، وأزعم أنه لا تفسير لذلك سوى أن الأثر الذي تركته بقايا الأفاويق التي استحلبناها من حليب الغضب النازكي الذي رضعناه في صبانا الباكر مازالت في خليط مشاعرنا التي ننفثها في ماء الشعر».

نعم .. فالقارئ لشعر سعيدة خاطر، يلمس الروح الوطنية التي تتدفق من ثنايا قصائدها ...تقول في قصيدتها «المتهم»:

التهمة أنّي عربيٌّ
وشعوري بالمحنة يكبر

....

أحببتُ الوطن الممتد من طنجة لليمن الأخضر
وكبرتُ ولم يكبر وطني
فُتِّتَ للأصغر فالأصغر
لمْ تكبر إلاَّ أحزانُ
فرّخَتْ الهم لنا أكثر ...
أحلامي الخضراء تلاشت
كنقيع للماء تبخّر

....

أحببتُ أنا وطني الأكبر

وسكبت دمائي ليحرر

أفإن ترجمت الحب إلى

أفعال سقتُ إلى المخفر؟!

هكذا تستمر –الشاعرة– عبر قصائدها، في كشف أغوار قضية المواطن العربي المعاصر الذي صار مُعلّقاً بين السماء والأرض، بعدما غابت ملامحه، واندثرت هويته، وأصبح غريباً في وطنه، ومستهجناً فوق أرضه، مسلوب الإرادة، وخائر العزيمة، بسبب جرعات التخدير التي يتعاطاها ليل نهار، من الأبواق الإعلامية التي تبث عليه أناشيد السلام، وأحلام السلام، وثقافة السلام، حتى أورثته الجبن والذل والخنوع.

فالشّاعرة كلما حاولت أن تنأى بالكتابة عن فلسطين، رأت حروفها تحجّ إليها رغماً عنها، وكأنها هي والقدس أسيرتان. فتقول في قصيدة «مأسورتان»:

بني قومي أللبرّاقِ عينٌ ... فيهدي العمرَ بارقةً تلوحُ؟!

أما من نخوةٍ تدعو فتاها ... ومعتصمٍ تؤججه الجروحُ؟!

يلبي رجفةَ الصوتِ برعدٍ ... به من ومضةِ الأسيافِ ريحُ

....

يئستُ من السلامِ بقتل أهلي ... وتشريدي، فتنكرني البطوحُ

عروسٌ كُفّنتْ بثياب عرسٍ ... وضحكاتٌ توسدها الضريحُ

وقنديلٌ طفا في جوف أُمٍّ ... عليهِ يرتمي القلبُ

بيوتُ الشعر قد مُلئتْ نواحاً ... كبيتِ القدسِ يملؤه النزوحُ

نجحت الشّاعرة في قصيدتها (صلاة الكُهّان) في رسم صورة صادقة لحالة العجز العربي والترهُّل الذي أصاب الزعامات، التي وصفتهم أدق توصيف وأبلغ تعبير (الراقصون، النائمون، المتسامحون، الخانعون، الراكعون، الساجدون ..)!

صلاة الكُهَّان!

الراقصونَ على جماجم صبرنا
لا يأبهونْ
يتناسلونَ تناسلَ الطاعون في الجسدِ .. المعبّأ بالسمومْ
يتناوبونَ حراسةَ الوجعِ المعتَّق في الدماءْ .. فينتشونْ
وللدماءِ مخالبُ البرقِ المسنَّنِ .. إذ يستبدُّ به الجنونْ
لكنهم لا يأبهونْ
للأمِّ تسعِلُ حسرةً وتمجُّ آهاتِ المرارةْ
للأرض خاتلها نذيرُ الموتِ كفَّنها دِثارَه
للزهرِ رشرش عمرَه غضاً عطوراً للجسارة
وبذوره شهق الترابُ بها .. تغنّت راجعون
ومضتْ تزمجرُ.. قادمونَ .. وقادمونْ
لكنهم لا يأبهونْ

* * *

النائمون على زلازل رفضنا .. لا يفقهون
أن البراكينَ الحبيسة قد تثور
لو بعد قرنٍ .. لا تنامْ
والفجرُ يسلخُ جلدةَ الليلِ المدجَّجِ .. حين يحتضرُ الظلام
والريحُ تصفعُ كفّها أسطورةَ الطودِ
المعمّم بالشموخِ يصونه جيشُ الغمامِ .. بلا رُعودٍ أو مزونْ
لكنهم لا يفقهونْ

التانصونَ الحلمَ من حَدَقِ الصباحِ ، لا يسألونْ ..
كيف النسورُ تبعثرتْ ريشاً ترودُ التيهَ
والتيهُ يمنُّ ولا يريدْ
ولِمَ تسيلُ دماؤها نذراً مباحاً والحمى ... يزهو ويكتنز الصديد؟!
ولمن يمد الدوحُ أذرعَه ظلالاً
وفمُ الرعاةِ تيبستْ فيه أغاريدُ القصيدْ .
أضحى العرينُ مَهْجَراً.. تأوي إليه من فجاج الأرضِ
أفواجُ العناكبِ والثعالبِ والقرودْ .
أضحى العرينُ بلا زئيرٍ .. إلا سواد الآثمينْ
من كلِّ فجٍّ ينسلونْ.. لكنهم لا يسألونْ

***

كُهّان هذا العصر دمتمْ.. للتخاذلِ والمجونْ
يا أيها المتسامحونَ
القائمونَ .. الراكعونَ ... الساجدونْ
لطفاً لمن تُزجى صلاةُ العجزِ .. حين تسبّحون؟!
أركانُ معبدنا المقدسِ صُدِّعتْ .. وهوَتْ على قربانِ
شيخٍ مستجيرٍ لا يُجارْ
وعلى نشيجِ الأمهاتِ .. تجترُّ جمرَ الانصهارْ
وعلى ترانيم الصغارِ جنازةٌ .. يتْلُونَ يتمَ الانكسارْ

***

كهاننا .. كهاننا.. طالتْ بكم آجالُ أعمارٍ طوالْ

إنّا نحرنا العمرَ قرباناً .. زُلْفَى تقرِّبنا المنالْ

كهاننا .. كهاننا

كهانُنا لا يسمعون .. وعلى مضاجعهمِ تقلب عجزُهم متثائباً

كي ينعموا .. يتلون سِفْرَ الخانعين

فبهذْيه خضعتْ جلودهم

جَفَتْ فعلَ المحامدِ.. وبهذْيه يتلوّنونْ

كهان هذا العصر دمتم .. للتخاذل والمجونْ

يا أيها المتسامحونَ.. الراكعونَ ... الساجدونْ

لُطْفاً لمن تُزْجَى صلاةُ العجزِ .. حين تُسبّحون؟!

رسالة «صدام» إلى الزعماء العرب!

منذ بضع سنين، أنشأ الدبلوماسي اليمني، الدكتور/ عبد الولي الشميري- صالوناً أدبياً، استطاع به أن ينافس جماهير كرة القدم!

(الشميري) شاعر حتى الثمالة، يقول: «أنا أحيا بالشِّعر، وبدونه تستحيل الحياة، ولعلّي أصبر على الجوع والعطش، ولا أصبر على فراق الشِّعر لحظة واحدة .. وإنْ كان جسدي في (الجامعة العربية) بيْد أن قلبي مع الشّعراء، وقد عبّرتُ عن ذلك شِعراً، وقلت:

الشِّعر فيض خيال فيه عاطفة ... يمليه شجو وأفراح وأحزان

والشِّعر معنى وإبداع وقافية ... ووثبة اللغة الفصحى وأوزان

وما سواه فلا شِعرٌ ولا أدبٌ ... متى تساوى «أدونيس» و«حسّان»؟

وللشميري ديوان شعر بعنوان (أوتار) أودعه خلاصة تجاربه الحياتية، وآماله، وآلامه .. كما أنَّ له أشعاراً أخرى كثيرة في العاطفة والغزل العفيف. وقد كتب في سنة ١٩٨٦ قصيدة بعنوان (عدن) يقول فيها:

لا صوت يعلو صوت نائحة الوطن ... في القدس في حيفاء في مينا (عدن)

وأكاد لا أجد المنام لفرط ما ... ارتفع الأنين من السجين الممتهن

هذا (الكلاشنكوف) أخطب ناطقٍ ... وألذّ مسموعٍ وأكبر مؤتمن

فيه العزاءُ لكل جرحٍ نازفٍ ... عبر السنين ولمْ يواريه الكفن!

وفي قصيدته (مَنْ يشتري القلب) إذ كاد الهمّ يعصف بفؤاده لما يدور حوله .. فيقول:

للــراحلين وجسرُ المــوت قبلــتهم ... للخلــد يجــرون لا شرقــاً ولا غربــا
مـا بالُ «شـارون» ظمآنـاً فـما رويتْ ... أطماعــه مــن دمانــا والبُكــا شُرْبــا
يئســاً بنــي زمــنٍ كنّــا لــه حطبــاً ... يــا ليــتَ كنــا عــلى أجــداثكم تُرْبــا

أمّا في قصيدته (عهد إلى الله) فيصدر عن تجربة شاعر اصطلى بنيران الهزائم التي لحقت بأمته منذ أكثر من نصف قرن من الزمان .. وبالمعادلة الصحيحة يقرر الشاعر متى؟ وكيف يكون التفاوض مع الآخر، لأن ميزان القوة هو الذي يتكلم ويفرض سيطرته:

خمســون عامــاً ولا فجــرٌ ولا أمــلٌ ... ولا نهــارٌ يبيــد الليــل والظُّلَــمَا
خمســون عامــاً وأجيــال يمزقهــا ... جيــش اليهــود فــما استكفى ولا رحمــا
قلــن تفــاوض إسرائيــلُ صــادقةً ... إلا إذا قيــل جيــش الفــاتحين رمــى
(فيتــو) اليهــودِ سيبقى لــيس ينقضــهُ ... إلا إذا فــارس الإيــمان قــدْ هجــما

كان لسقوط بغداد تحت أيدي قوات التحالف الأنجلو- أمريكي، صدىً مدوياً، فصاغ الشعراء في هذا الحدث أطناناً من القصائد، ففي قصيدته (إلى بغداد) يقول الشميري متميّزاً من الغيظ:

لحــا اللهُ الحيــاة وســاكنيها ... وتــبّ لــعصر أجيــال النفــاقِ

....

تُــدكُّ اليــوم «للــنعمانِ» دار ... بناهــا الــذكر مــن ريــش الــبراق؟
وهــارون الرشــيد وهــل يراهــا ... حدائقــه تُمــزّق والســواقي
لإسرائيــلَ هــذي الحــرب حتــى ... لخــدمتها نصــير عــلى ســباقِ
لأجــل الــنفط لا بُوركــتَ نفطــاً ... وخــيرٌ منــك أســنمة النِّيــاقِ

أمّا قصيدته التي حملت عنوان (رسالة من صدام حسين إلى قمة الزعماء العرب بتونس) فلها حكاية طريفة، جديرة بأن تُحكى، مفادها أن القمة العربية الدورية التي

تنعقد تحت إشراف جامعة الدول العربية كانت على وشك الانعقاد في تونس حسب ما كان مقرراً لها، بينما كانت تخيّم على الوطن العربي سحابة كثيفة من اليأس من الحاضر والتشاؤم من المستقبل، خاصة بعد سقوط العراق تحت قبضة الاحتلال الأمريكي، ثم أعقبها إلقاء القبض على «صدام حسين». وقد كانت هذه أول قمة عربية سوف تنعقد بعد هذه الأحداث الجسام، وفي تلك الأثناء، ووسط هذا الجو المشحون بالتوجس والحذر وتوقّع فشل قمة الزعماء العرب -كالعادة- فإذا بالصحف تطالعنا بهذه القصيدة الساخرة جداً، والتي كتبها -الشميري- على لسان صدام حسين، كأنه ينادي على حكام العرب ويحكي لهم صروف الدهر وما صنعت به الأيام، وكيف صار من حال إلى حال: ثم يبشرهم جميعاً بأن مصيرهم هو العزْل والأسْر -كما صار مصيره- وأنهم قد نُسالمهم أن القصيدة نُشِرتْ بدون توقيع صاحبها، فكان الناس يتساءلون: من الشاعر الذي تجرّأ وكتبها؟ فتضاربت الآراء حول معرفة صاحبها! ولعلّ سر عدم توقيع -الشاعر- على القصيدة، وعدم نسبتها إليه، يرجع إلى طبيعة عمله كرجل دبلوماسي من ناحية، ولما حوته القصيدة من هجاء سياسي وسخرية لاذعة!

لكن، لم يلبث أن اكتشفَ البعض اسم صاحبها .. خاصة متذوقي شعر الشميري والمتابعين لكتاباته، فأعجبت هذه القصيدة البعض وقام بمعارضتها، كما أنها لم تعجب آخرين -حزناً منهم وتعاطفاً مع الرئيس العراقي- فقاموا بالرد عليها وعلى صاحبها .. بحسب أن نشير هنا إلى واحدة من هذه الرسائل الغاضبة، وهي لعبد الجبار سعد (سهيل اليماني) أحد شعراء اليمن، والذي قدّم لها بهذه السطور الحارقة: «الأخ الدكتور/ عبد الولي الشميري .. أبعث إليك هذه القصيدة وهي في الواقع تعتبر رداً على قصيدتكم التي كتبتموها باسم (صدام) آمل أن تجد طريقها للنشر كأقل حق له، ولنا كلام بعد نشركم لهذه القصيدة الرخيصة الوضيعة التي تلبس

قميص الأحبار والقسيسين .. آمل أن تنشر قصيدتي المرفقة كاعتذار عملي عما قدّمت يداك، وإلاَّ فسيكون لنا معك شأن». وها نحن نقتطف بعضاً من أبيات القصيدة الغاضبة:

في غير كفّكَ لا يُهزّ صقيلُ ... وبغير عزمكَ لا يُعز ذليلُ
ولكَ المواكب والكتائب جندها ... أهل الخفاء يؤمّهم جبريلُ
وبك اكتستْ (بغداد) حرمة (مكة) ... في يوم أقبل جمعهم والفيلُ
بُورِكتَ يا(صدام) مجداً باذخاً ... وأسيرُ عزٍّ بالعُلَى مكبول
أنتَ العروبة شمسها ونجومها ... وأنا رفيقك في السماء (سهيل)
وأنا لأقطاب النِّفاق (حذيفة) ... ولكل إفك صارم مسلولُ
وليَ الحروفُ أصوغها في مدحكم ... فيها أصولُ على العدى وأجول
وأشنّفُ الآذان في ترتيلها ... فبها وربي يعذب الترتيلُ
حُيّيت من أرضٍ بها صدّامها ... يشري العدى ويبيعهم وينيل
يسقي النواحي كلها إنْ أجدبتْ ... بالعز حتى ترتوي وتسيل
وتحوطه آساد (بابل) في الوغى ... خير الخلائق قولهن القيل

أمّا القصيدة المعنية في هذا المقام، فها هي شاخصة أمامنا:

رسالة من «صدّام» إلى قمة الزعماء العرب بتونس

يا قمة الزعماء إني شاعرٌ ... والشِّعْر حر ما عليه عتابُ
إنّي أنا صدامُ أطلق لحيتي ... حيناً ووجه البدر ليس يعابُ
فعَلامَ تأخذني العلوجُ بلحيتي ... أتخيفها الأضراسُ والأنيابُ؟
وأنا المهيبُ ولوْ أكونُ مقيداً ... فالليثُ من خلفِ الشباكِ يهابُ
هلاّ ذكرتم كيف كنتُ معظماً ... والنهرُ تحت فخامتي ينسابُ

عشرون طائرةً ترافق موكبي ... والطيرُ يُحشرُ حولها أسرابُ
والقادةُ العظماءُ حولي كلهم ... يتزلفون وبعضُكم حُجّابُ
عمان تشهدُ والرباط فراجعوا ... قمم التحدِّي مالهنَّ جوابُ
سيجيب طبعُ الزور تحت جلودكم ... صدامُ في جبروته العرّابُ
كنتُ الذي تقفون خلف حذائه ... تتقاربُ العاناتُ والأشنابُ
في الواحة الخضراء حول قصوره ... يتزاحم الزعماء والأحزابُ
ولنيل مرضاتي وكسبِ صداقتي ... يتسابقُ الوزراءُ والنوابُ
ماذا صنعتم يا رفاقُ وما عسى ... أن تصنعوا، وزن العميل ذبابُ
مثلي، وأكثرُكم على إخوانه ... متآمر ومخادع كذابُ
أو لمْ تكونوا ظالمين شعوبكم ... مثلي؟! وكلُ قطاركم أذنابُ
فإذا انتهبتُ من العراق وشعبه ... ثرواته، فجميعُكم نهّابُ
وإذا فسقتُ بسببكم وعدائكم ... فالكل منكم فاسقٌ سبّابُ؟
للغربِ صلينا ولمْ نكفر به ... وأنا الإمامُ وقصريَ المحرابُ؟
أفتكتمون على الشعوبِ سجودَكم؟ ... والغربُ رَبٌّ دونه الأربابُ
القتلُ والتعذيبُ شرعٌ محكمٌ ... جاءت به «نيويوركُ» والأعرابُ
فقتلتُ مليونين من فرسانكم ... والقتلُ دين محكم وكتابُ
وفتحتُ فارسَ من جديدِ تطوعا ... والفتحُ يا شعبَ الكويتِ خرابُ
يا قمة تروي الهوانَ بتونس ... فالمنجزاتُ ضيافة وخطابُ
أمّا البيانُ هو البيانُ وإنما ... تستبدل الأقلامُ والكتابُ
لا تجزعوا من أيِّ لفظٍ واضح ... فاللفظ لغو ما عليه عقابُ
تدري وكالات الغزاة بأنكم ... لوجودها الأزلامُ والأنصابُ
تدري بأن العُربَ شعبٌ واحدٌ ... لا فرقَ إلاّ الثوبُ والجلبابُ

والمسلمُ العربي شخصٌ مجرمٌ أفكارهُ الإجرام والإرهابُ
أنا والعراقُ نكون بنداً واحداً فعلام تُغلق دوني الأبوابُ؟
وأنا العراقي الذي في سجنه بعد الزعيم مذلة وعذابُ
ثوبي الذي طرزته لوداعكم نُسِجتْ على منواله الأثوابُ
إنّي شربتُ الكأس سماً ناقعاً لتدار عند شفاهكم أكوابُ
أنتم أُسارى عاجلاً أوْ آجلاً مثلي، وقد تتشابه الأسبابُ
والفاتحون الحمرُ بين جيوشهم لقصوركم يوم الدخول كلابُ
توبوا إلى «شارون» قبل رحيلكم واستغفروه فإنه توابُ!
عفواً إذا غدتْ العروبة قحبة وحُماة أهليها الكرام قحابُ!



أغاني الديكتاتور!

استطاع الشّاعر الفلسطيني (محمود درويش) أن ينقش اسمه على خريطة الشّعر العربي الحديث وسط مجايليه من الشّعراء العرب، ولولا أنه كان جديراً بذلك لتلاشى اسمه وتبخّرت أشعاره، كما تلاشتْ عشرات الأسماء الباهتة، وتبخّرت أطنان القصائد التافهة.

لقد استطاع أن يستلهم التراث برؤية جديدة، وأن يفقه حركة التاريخ بوعي شديد .. فواكب أحداث القضية الكبريقضية فلسطين يوماً بيوم، وساعة بساعة، فأحدثت قصائده دويّاً في الأوساط السياسية والعسكرية الإسرائيلية، فتعرض للمساءلة تارة، وللمضايقة تارة أخرى، والتهديد المستمر بالملاحقة والمطاردة، والتصفية الجسدية إن لزم الأمر!

فعندما نُشِرت قصيدته (عابرون) في نيسان 1988 قدمت جريدة «معاريف» ترجمة مشوهة لها. فتناوبت التعليقات عليها صحف الاحتلال مثل «يديعوت أحرنوت» و«دافار» و«هآرتس» استهتار «معاريف» واستهانتها بثقافة القرّاء. وقامت قيامة (شامير) رئيس الوزراء الصهيوني آنذاك– وكشف عن توتره وتشنجاته إزاء ما ورد في القصيدة، فثارت ثورته، وشتم الشاعر، وازدرى الشعراء العرب.

لقد نبش (محمود درويش) أوراق التاريخ ورصد حركة التاريخ بأحداثها، ليستخلص من هذه الحركة أبعادها في الزمان الاجتماعي .. فقلّب بين يديه الاسم (العبرانيون) وأدرك أن دلالة الاسم كانت تاريخية، واشتقاق الاسم من الفعل (عَبَرَ). فهم إذن (عابرون) فلم يمكّنهم تصرّفهم ومسيرتهم التاريخية من أن

(يستقروا) وليس لهم بين دروب التاريخ إلاَّ ممرات ضيقة، لا تلبث أن تندثر، بفعل ما يرتكبونه من حماقات .. إن التاريخ لم يمنحهم إلا لحظات (مرور عابرة) لا تقدم ولا تؤخر في تاريخ الحضارات وأعمار الدول وتاريخ الأمم .. من هنا لصقت بهم هذه التسمية الدالّة!

بمناسبة الحديث عن محمود درويش .. فإنه هو وبقية شعراء فلسطين لم يستطيعوا بعد أن يخدموا القضية الفلسطينية كما ينبغي، فلم تصل أشعارهم إلى الشارع الأوروبي والأمريكي حتى تشرح قضيتهم العادلة أمام الرأي العام الغربي، وتحظى بالتعاطف والدعم المعنوي، في الوقت الذي نجحت فيه الدعاية الصهيونية المضللة في حجب الرؤية الحقيقية، وجعلت الغرب كله يتعاطف مع إسرائيل باعتبارها الضحية والمجني عليها .. ولعل السر في ذلك هو ضعف مستوى الشعر والفن الذي أنتجه الأدباء الفلسطينيون عامة.

وبعد؛ فإننا لسنا بحاجة إلى الحديث عن هذا الشاعر –في هذا المقام– بقدر ما نحن بحاجة إلى تقديم قصيدته الطويلة جداً (أغاني الديكتاتور الموزونة) التي جاءت في مجموعة شعرية مستقلة، والتي نشرها على حلقات متفرقة، في صورة رسائل متتابعة. وقد لفت انتباهي، وأثار اندهاشي أن هذه القصيدة خلتْ من أعماله الكاملة، وما كان لنا أن نسمع عنها، لولا أن دلّنا عليها صديقنا الصحافي «سيد زايد» الذي استخرجها من أحشاء المجلات القديمة .. لكن، زالتْ الدهشة، وبطل العجب، عندما تذكرت أن هذه القصيدة من «اللون الممنوع»، فربما تظهر في الألفية الرابعة أو الخامسة، مثل أشعار الكُميْت، ودِعبل، وعبد الله بن الأحمر، وغير ذلك من «شِعْر المُكتّمات» الممنوع تداوله إلا في السوق السوداء!

لعلَّ (محمود درويش) أراد بقصيدته «أغاني الديكتاتور» أن يحاكي أستاذه (نزار قباني) في قصيدة «السيرة الذاتية لسيّاف عربي» ويغني على قيثارته. والقارئ

للقصيدتين يجد فوارقاً كثيرة بين «التلميذ» و«الأستاذ»، أو بين «ديكتاتور درويش» و«طاغية نزار» .. أهمها:

- كان نزار أسبق من صاحبه في التقاط الفكرة وإنجازها، فإليه يرجع الفضل، وإليه تُنسَب «براءة الاختراع» بلْ لا نكون قد تجاوزنا الصواب إذا اعتقدنا أن درويش اقتبس الفكرة من «أستاذه» وصاغها بطريقته.

- قصيدة نزار كانت سيرة ذاتية للطاغية، أمّا قصيدة درويش فهي عبارة عن خطب وبيانات سياسية – كما يتضح من العناوين التي حملتها كلا القصيدتين.

- نزار شاعر مسكون بالهمّ العربي كله، بينما درويش يعاني من الوجع الفلسطيني فقط، لذا .. كان نزار أمهر في الأداء وأدق في التعبير وأعلم بعِلَلِ الطاغية وأمراضه من صاحبه.

- بمجرد قراءتك لهذا، وذاك، تدرك أن درويش لا يمتلك آليات نزار وثقافته السياسية والتاريخية والاجتماعية.

- أيضاً، لا نجد في شاعرية درويش «النكهة» التي تتميز بها أشعار نزار .. وهي التي من شأنها أن تجذب القارئ للإقبال على الإبداع، ومحاولة حفظه وترديده.

- تتمتع قصيدة نزار بحظ وافر من الخيال المفرط والسخرية اللاذعة والموسيقى الداخلية –كما رأينا من قبل– مما جعلها أكثر عذوبة وجاذبية من قصيدة درويش.

- استخدم نزار في قصيدته كثيراً من تقنيات القصيدة الحديثة، وهذا ما لم يتوفر عند الثاني، مما سلب قصيدة درويش كثيراً من الجمال الفني.

- اعتمد نزار على التكثيف قدر المستطاع في عرض سيرة الطاغية، بينما كانت «الثرثرة» والتكرار والحشو والألفاظ الممجوجة سمة بارزة عند درويش.

- اقتباس درويش من قصيدة نزار كثيراً من الرؤى والألفاظ واضح جداً في القصيدة.

- كشف درويش عن انتهائه اليساري، بينما كان نزار «غير منتمي» إلاَّ للحرية فقط.

- نجح الشاعران في إبراز التناقض الصارخ في حياة الطاغية أو الديكتاتور، وقد تفوق درويش على نزار في تكريس دعوى الألوهية عند الديكتاتور في سائر خطبه وبياناته!

أغاني الديكتاتور الموزونة !

استهلَّ محمود درويش كتابة «خطب الديكتاتور» برسالة بعث بها من باريس إلى صديقه الشاعر سميح القاسم، يقول فيها: «هل تعرف ماذا يشغلني في هذه الأيام؟ إنه الديكتاتور، نقيض ملاكك .. الديكتاتور. إني مشغول بالديكتاتور إلى درجة عيّنتُ معها نفسي كاتباً لخطب الديكتاتور! ما أصعب هذه المهمة، وما أشد ما تثيره من متعة حين نعي أنها لعبة أدبية ..

الديكتاتور .. حولنا .. بيننا .. فينا ... «حين باشرت كتابة خطاب الديكتاتور الأول «خطاب الجلوس» كنتُ أنوي كتابته نثراً، ولكن امتلائي بالسخرية جرني إلى الإيقاع، ورغبتي في الضحك جرتني إلى القافية. لماذا تثير القافية الضحك إلى هذا الحد؟ ألأنها تسلط الحواس على النتوء، ولأن الديكتاتور نتوء في الطبيعة؟ لا أعرف تماماً».

«لنضحك قليلاً مع الديكتاتور وعلى الديكتاتور، ومهما كان الاختلاف الأيديولوجي بين أنواع الديكتاتورية صحيحاً، فإن الديكتاتور هو الديكتاتور. والديكتاتور يثير الرعب والسخرية معاً .. وساعات ما بعد الظهر هي وقت السخرية، سأودّعك الآن لأكتب إحدى خطب الديكتاتور، فقد أطلقت عليه قافيتي، كما أطلق هو عليّ نباح كلابه وكُتّابه».

محمود درويش ٩/ ٩/ ١٩٨٦ باريس

خطـاب الجلوس !

سأختار شعبي! سأختار أفراد شعبي
سأختاركم واحداً واحداً من سلالة أمي ومن مذهبي
سأختاركم كي تكونوا جديرين بي!
إذن أوقفوا الآن تصفيقكم كي تكونوا جديرين بي وبحبي
سأختار شعبي سياجاً لمملكتي ورصيفاً لدربي
سلام عليكم .. سلام .. سلام
سأختار من يستحق المرور أمام مدائح فكري ...
ومن يستحق المرور أمام حدائق قصري ..
سأختار شعباً محباً وصلباً وعذباً ..
سأختار أصلحكم للبقاء .. وأنجحكم في الدعاء لطول جلوسي
فتباً ... لما فات من دول مزقتها الزوابع!
لقد ضقتُ ذرعاً بأمية الناس
سأختار شعباً من الأذكياء، الودودينوالناجحين
سأختاركم وفق دستور قلبي
فمن كان منكم بلا علة .. فهو حارس كلبي
ومن كان منكم طبيباً .. أُعينه سائساً لحصاني الجديد
ومن كان منكم أديباً .. أُعينه حاملاً لاتجاه النشيد
ومن كان منكم حكيماً .. أعينه مستشاراً لصك النقود
ومن كان منكم وسيماً .. أُعينه حاجباً للفضائح
ومن كان منكم بلا ذهب أو مواهب .. فلينصرف

سأمنحكم حق أن تخدموني، وأن ترفعوا صوري فوق جدرانكم

وأن تشكروني لأني رضيت بكم أمة لي

سأمنحكم حق أن تتأملوا ملامح وجهي في كل عام جديد

ولا تدخلوا في السياسة إلا إذا صدر الأمر عني ، لأن السياسة سجني

هنا الحكم شورى .. هنا الحكم شورى

أنا حاكم منتخب .. وأنتم جماهير منتخبة

ومن واجب الشعب أن يلحس العتبة

أنا الحاكم الحر والعادل

وأنتم جماهيري الحرة العادلة ..

سننشئ منذ انتخابي دولتنا الفاضلة

....

سأختار أفراد شعبي ..

سأختاركم واحداً واحداً مرة كل خمس سنين

وأنتم تزكونني مرة كل عشرين عاماً إذا لزم الأمر، أو مرة للأبد

قد اخترت شعبي واختارني الآن شعبي .. فسيروا إلى خدمتي آمنين

أذنتُ لكم أن تخروا على قدمي ساجدين

فطوبى لكم .. ثم طوبى لنا أجمعين !

وهكذا يستمر -الشاعر- في عرض خُطب الديكتاتور، فيعرض (خطبة الفجر) ثم خطبة السلام) ثم أتبعها (بخطبة الأمير) ثم (خطبة القبر) ثم جاءت (خطب الفكرة) وبعدها جاءت (خطبة النساء)ثم يختتم المجموعة (بخطاب الخطاب).

الشَّاعر المجهول!

يأتي ضمن كتيبة «شعراء المعارضة» أوْ «شعراء الرفض» هذا «الشَّاعر المجهول» الذي سوف نفصح عن اسمه ولقبه وموطنه وآرائه وفلسفته في الحياة والناس والكون، بعد معرفة سر جهل المجتمع به وبأمثاله من الشّعراء الأصلاء، وسرّ تواري إنتاجهم الأدبي وعدم انتشاره وذيوعه مثل شعر غيرهم، الذين هم دون قامتهم الأدبية!

ففي رأيي؛ أن جهل الناس أوْ عدم معرفتهم بشخص «ما» لا يعيبه في شيء، حتى لوْ كان هذا الشخص من الموهوبين أوْ من النوابغ، أوْ من ذوي الكفاءات العلمية والفكرية، إلا أن ذلك يكشف عن خللٍ واضحٍ في بنيان المجتمع، أوْ أن «فيروس» أصاب ذلك المجتمع، فأفسد ذائقته وأتلف حواسه .. وكمْ من العلماء والأدباء والمفكرين، بلْ كمْ من الفلاسفة والعباقرة «المجهولين» في تلك المجتمعات المهزومة نفسياً، التي تدير ظهرها لفلذات أكبادها والصالحين من أبنائها، أوْ تتنكّر للعلماء والمبدعين، وتتجاهلهم عمداً، وقد تزدريهم أوْ ترميهم -أحيانًا- بأشنع الصفات وأحطّها!

يحدث هذا في الوقت الذي تحتفي فيه تلك الدولة أوْ ذاك المجتمع بالمهرّجين والمبهرجين، وتمنح الجوائز والنياشين للأقزام والمتسلّقين، وتحتفي وسائل الإعلام الرسمية بلاعب كرة نكرة، أوْ فنانة مغمورة، وغيرهم من بائعات الهوى وكاشفات البطون!

إذن، لا يعيب الأديب أوْ العالم -مهما كانت منزلته العلمية والفكرية- أن يظل مجهولاً في مجتمع كهذا، أوْ حتى يُنفَى خارج الوطن، مادام ذلك المجتمع اختار

الضلال على الهدى، واستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير!

من أسف، فإنَّ هذه الظاهرة الغريبة والشاذة، لا توجد كثيراً أوْ لا تتضح بجلاء إلا في أُمة العرب، التي صارت مستنقعاً للميكروبات الاجتماعية والأمراض النفسية .. فكمْ من العلماء الذين كُمّمتْ أفواههم، وأُحرِقَتْ مؤلفاتهم، وكمْ من المفكرين الذين حُوصِروا وأُبعِدوا عن مواقع التأثير والتوجيه، وكمْ من الأدباء والشعراء الذين قُيِّدوا وسُلْسِلوا وأُعدِموا؟!

ذلك؛ أنّ مجتمعاتنا –حتى الآن– لم تصل بعد إلى القدرة على احترام الموهبة في ذاتها دون نظر إلى أيّ ظروف أوْ اعتبارات أخرى.

إننا في حاجةٍ حقيقيةٍ إلى رعاية الموهبة والحرص عليها وعدم التفريط فيها أوْ تعريضها للضياع .. لأنّ الموهبة في أيّ مجتمع هي ثروة كامنة مثل البترول والذهب وسائر الثروات المعروفة، بلْ إنّ الموهبة هي أثمن من كل هذه الثروات، لأن بدونها تصبح الأُمم فقيرة، حتى لوْ كانت غنية بكل الثروات التي عرفها البشر منذ فجر التاريخ إلى الآن ...

بحسب أن نذكر مقولة القائد البريطاني (تشرشل): إن بريطانيا مستعدة للتنازل عن جميع مستعمراتها وليست مستعدة للتنازل عن «أدب شكسبير»!

بلْ إنّ نابليون عندما جاء غازياً مصر سنة 1798 لم يجعل حملته مكونة من الأسلحة وجنود البحر والبر فقط، بلْ اصطحب معه –في المقدمة– مائة وستة وأربعين أديباً وعالماً وفناناً من أنبغ أبناء فرنسا وأكثرهم موهبة، وكَوَّن من هؤلاء ما أسماه «مجتمع العلوم والفنون»!

إنّ التجاهل لدور الموهبة، والتفريط فيها، وعدم الاهتمام برسالتها في بناء حياتنا ومساهمتها في إقامة أساس حضاري راسخ، تعتبر عِلّة أساسية من العِلَل التي يعاني منها المجتمع العربي، وهي إحدى الظواهر المؤلمة التي تصنع ما نسميه بالتخلف في

مجتمعنا الراهن.. فما الظن بمحاولات التخلص منها، ومطاردتها، والتنكيل بها، ومعاقبتها أشد العقاب، بلْ وتصفيتها في بعض الأحيان!

أمّا عن شاعرنا (المجهول) الذي يُعدّ واحداً من شعراء الرفض- فهو الأستاذ/ خالد محمد سليم -أحد أبناء مركز «أبو حمّاد» التابع لمحافظة الشرقية بمصر- عمل مُوجّهاً بحقل التربية والتعليم، قبل أن يصل إلى سن المعاش ... كيْ يستريح من غبار الطّباشير وعناء التلاميذ وفوضى الامتحانات و...إلخ.

لعلّه في قصيدة «أنا مُسلم» أراد أن يقدّم نفسه للناس بطريقة مغايرة عمّا جاء في شهادة الميلاد أوْ البطاقة العائلية، وبذلك يكفينا عناء السفر ومشقة السؤال عن مصلحة الأحوال المدنية، والبحث في الأوراق الرسمية، إذْ يقول:

أنا مسلم ديني يعلّمني المحبة والإخاءْ

لا فرق بين الناس عندي .. كلهم عندي سواءْ

أنا لا أدسّ ولا أكيد ولا أدبّر في الخفاءْ

أنا لست أحمل في فؤادي غير أنوار الصفاءْ

لكنني سمح بنفسي إنْ دعا داعي الفداءْ

ليست أشعار الشيخ/ خالد سليم كتلك القصائد الفاسدة التي تقاس بالمتر والقيراط، ولا كالتي توزن بالكيلو والقنطار، مما رزأتنا به المطابع في هذه السنوات الأخيرة من ركام يتضافر أصحابه بضخامة الحجم وكثافة الوزن، ويستعينون بصداقاتهم وبوسائلهم الخفيةْ على الخروج به على الناس دون خجلٍ أوْ حياء!

يُروَى أن الناقد سيد قطب، نظر -ذات مرة- إلى ديوان من تلك الدواوين، وقد اكتنزَ شحماً ولحماً، وهزل معنى وروحاً، ثم قلّبه في يديه وقال: قديماً كان يقال: حمار شُغْل. فها نحن أُولاء عشنا لنرى حمار شِعْر!

أقول: ليست قصائد الشيخ خالد سليم من تلك النماذج المترهلة، أوْ المطولات

المملة والكريهة، أو النظم الممجوج الذي ينفّر القارئ والمستمع معاً، كالذي اعتاد «الأكاديميون» على كتابته وإدمانه، ظناً منهم أنهم ماداموا درسوا علم العروض أصبحوا بذلك شعراء، أوْ معتقدين بجهلهم أنّ الشّعر هو كلمات مرصوفة رصفاً! مع أن المجتمع لم يطلب منهم أن يكونوا شعراء ولا يحزنون، ولا يطلب المجتمع من أحد أبداً أن يكون كذلك، فالشّاعر مولود من بطن أمه شاعراً، ومَنْ لم يخلقه الله شاعراً، فيستحيل أن يصبح شاعراً.

لكن قصائد هذا «الشّاعر المجهول» ليست كتلك البضاعة الراكدة التي يفترش بها أصحابها في الأسواق الرخيصة، أوْ كالتي تطبعها وزارات الثقافة على نفقة تلك الدول المغلوبة على أمرها، وتروّج لها وسائل الإعلام. إنما تُقاس أشعار-خالد سليم- وتُوزن بقيمتها الفكرية والجمالية التي تحملها إلى المتلقي.

فمن أول وهلة لقراءة شِعْره أوْ الاستماع إليه تدرك أنك أمام قامة أدبية أعلى وأرقى بكثير من أولئك الذين صنعهم النقاد المقرظون أوْ نفختهم أبواق الإعلام نفخاً ذاتياً.

وإنْ كنتُ أدري أن -شاعرنا- لا يجيد «صناعة» العلاقات الخاصة مع النقاد والكُتّاب والإعلاميين، كما أنه لا يُحسِن الدبيب إلى مقار الصحف والجمعيات الأدبية. لكن لا أدري -ولا المُنجّم يدري- ما الذي يمنع هذا الشّاعر الموهوب من أن يقوم بجمع قصائده وطبع ما يمكن طبعه، كيْ يستمتع القارئ بمثل هذا الشّعر العذب والفن الجميل الذي أوشك أن يندثر وسط الدخان الكثيف الذي خَلّفه غواة الحداثة، ودعاة التغريب، وعبيد الشِّعر الحر، وإخوانهم في «الرضاعة» من الأدعياء، والمتسكعين على أرصفة الأدب!

لعلّ أبرز ما يميز شاعرية خالد سليم: البساطة والوضوح، وأن شعره من اللون الذي سهل لفظه وقرب معناه .. فلا نجد في شعره الغموض المذموم ولا التعقيد

المتعمد، وعندما نتجول في رياض قصائده وحدائقه الغنّاء، لا نتعثر في حفر ولا مزالق ولا مطبات صناعية! ففي رائعته المطولة «رسالة إلى أُمّة» يُشخّص آلام الأُمة، متألِماً أسفاً لما اعتراها من العِلَل والأمراض، ثم يصف الدواء في خواتيمها بصدق وصراحة متناهية:

ما ذلك التيه يغشى الناس ظلمته ... ما ذلك الضيق والإخفاق والكدر
صادقتم الشرق إذْ بالشرق ينكركمْ ... وهل ترانا مع الإلحاد ننتصر
صادقتم الغرب يا للغرب ..كم مكرتْ ... ذئابه البيضُ كم خانوا وكم غدروا !
بذلتم الجهد فوق الجهد ما صلحتْ ... أيامنا وغدت كالنار تستعر
كل الصداقات بعد الله زائفةٌ ... وكل ما مسّكم بلوى ومختبر
عودوا إلى الله تلقوا ظِل رحمته ... برداً وأيامكم تحلو وتزدهر
عودوا إلى الله يكشف كل كربكم ... وتشرق الشمس والأهوال تنحسر
وتخرج الأرض من طياتها ... وينبت الصخر والقيعان والحجر
إنْ تنصروا الله ينصركم على ثقة ... وإنْ تولوا فإن الله مقتدر
ما كان ربي وفي القرآن أنزله ... معذّب الناس إنْ تابوا وإنْ شكروا

إذا كان –خالد سليم– واحداً من الشعراء الإسلاميين، لكن لم تتقوقع رؤيته أوْ تختزل في المعنى الضيّق للأدب الديني، فيحصره حول العبادات والشعائر الدينية والمضامين العقائدية – كما يظن بعض الطيبين، بلْ أدرك المعنى البعيد للأدب الإسلامي، ومعادلة الفن الرفيع، باعتباره هو الأدب الذي يصوّر الإنسان والحياة والكون كله بأسلوب مشرق ورؤية إيمانية، فنراه حيناً يكتب قصيدة تهنئة إلى ابنته بمناسبة تفوقها الدراسي، وحيناً نراه يُولّي وجهه نحو مسقط رأسه، ويتذكّر مرابع الصبا والطفولة، فيكتب أرق قصائده عن مدينة الإسماعيلية:

وما زال حُسنكِ ملءَ العيون ... وما مثل حُسنكِ صاغ الإلهْ

وكـمْ قـصّ جـدّي لنـا إذْ سـهرنا | أحاديــث شــتى رواهــا الــرواة
عــن الإنجليــز وغــدر اليهــود | وكيــف انــتصرتِ وخــاب الغــزاة

عندما وقف -شاعرنا- أمام البحر، الذي هو آية من آيات الله، فلم يمرّ عليه ككثير من الناس الذين يخرّون عليها صُمّاً وعُميانا، ولم يزغ عقله وقلبه مثل «شاعر الطلاسم» الذي لم يدرِ كُنه هذا البحر الذي يجري بأمر الله .. فقد ناجاه الشّاعر كصديق حميم، وبثّ إليه شكواه، ثمّ راح يخاطبه بشفافية المتصوفة قائلاً:

أنــــتَ يـــا بحـــرُ كتـــابُ | مــــن عظـــاتٍ واعتبـــارْ
.... | ....
لمْ تـــزل يـــا بحـــرُ لغـــزاً | أنـــــت مطـــويّ الستـــارْ
ربــــك الجبــــار ربي | ذو جــــــلال واقتــــــدارْ

إنّ (خالد سليم) يصدر عن تجربة شاعرٍ مطبوعٍ متمرّس، أمسك بناصية الفن فساسهُ بمهارةٍ عالية، كما أُوتي حظاً وافراً من الحكمة؛ لذا فقد أُوتي خيراً كثيراً، فجاءت أشعاره وقصائده -بمثابة- قطرات من رحيق العمر، ففي قصيدته «مَنْ يبايع» التي ضمّنها بالحِكَم والأمثال والمواعظ؛ يُذكّرنا فيها بـ«زهير بن أبي سُلْمَى» في معلقته الشهيرة، فبعدما حرّضنا «خالد سليم» على الجهاد في سبيل الله، لانتزاع الحقوق المغتصبة واسترداد الأوطان السليبة، والكرامة المنتهكة، اختتم خطابه الشعري قائلاً:

كلنا يوماً سيرتاد المنايا مورداً
فلنمُتْ في ثوب عِزّ تحت رايات الفدا
....
إنَّ أغلى أُمنيات النفس أنْ أُستشْهدا

الحق، أنني عاجز -في هذا المقام- عن التعبير عن هذه القامة الشّعرية السامقة،

ولعلّ واحداً من النقاد أوْ الباحثين الجادين، مثل تلميذه وراويته الشّاعر (ياسر غريب) يضطلع بجمع ودراسة تراث هذا الشّاعر، حتى لا تغيب ذاكرة الأُمة وسط ضجيج شعراء الحداثة، الذين أقاموا مملكةً للقبح، وأولموا بالتمر الوخواخ، وصنعوا واقعاً مريراً، ودنيا مختلطة، يمكن أن يطبّق عليها الباب المعروف في الفقه بـ«الملاعنة»!

وهذه قصيدة (الأمير) للشّاعر الكبير الشيخ/ خالد سليم- وهي واحدة من قصائده المملوءة بالحِكَم والعِبَر والأمثال ... لمن أراد أن يذكّر أوْ أراد شكورا:

الأمير (دمعة على الماضي وعبرة للمستقبل)

يا مَنْ لبستَ من الإمارة ثوبها ... وغدوتَ في لألائها تتقلّبُ

لا يخدعنَّك أنَّ ثوبك سندسٌ ... وبأنَّ تاجك بالنجوم مذهَّبُ

فغداً ستُنزع من كنوزكَ عارياً ... وتميل شمسك للزوال وتغربُ

وتقام أفراح وتُرفع زينةٌ ... ويجيء غيرُك بالورود يُنصَّبُ

وتغيب في بطن الثرى وكأنما ... ما كان حولَك عسكر أوْ موكبُ

يا غافلاً إنَّ الحياة قصيرةٌ ... والموت في خطواتنا يتأهبُ

أين المواثيق التي أعطيتَها ... وحديث عرش للإمارة مسهبُ

أسوارُ قصركَ عالياتٌ دوننا ... ما للأمير عن الرعية يُحجبُ..

والخلق تنظر نحو قصرك في أسىً ... وسلاح جندِك للصدور مصوَّبُ

من حام منهمْ حول بابك أوْ دنا ... واراهُ من الزنازنِ غيهبُ

كَمْ دمعةٍ تحت الظلام حزينةٍ ... عصَف الولاة بها وأنت المذنِبُ

كمْ ضلّلتك من البطانة عصبةٌ ... ووشى بأذْنك ساحر ومقربُ

وسهرتَ في ليل المقاصر ضاحكاً ... تُصغي لمن أثنَوْا عليكَ وتطربُ

*** ***

الله يــرحم مــن أمــيرٍ قــد قضي ليــلَ الخلافــةِ مسْــهداً يتعــذبُ
يبكــي لعــلّ مــن الرعيــة بائســاً ذا حاجــةٍ عَــزّت عليــه ومطلــبُ
ويــئنُّ في ليــل الــدياجر ليتنــي مــا أنجبــتْ إيــاي أمٌ أو أبُ
نامــت عيــون النــاس مــلءَ جفونهــا وأنــا المعــذّب فــيهمُ والمتعــبُ

*** ***

يــا مَــنْ ســعيتَ إلى الإمــارة مجهَــداً حُكْــم النفــوس مــن الرعيــة أصــعبُ
فلــربما أمســى بــقصرك خــادمٌ رثُّ الخطــى هــو للســلامة أقــربُ
حُمِّلــتَ مــا لم تحتملْــه وأشــفقتْ منــه الجبــال فكــمْ لأمــرك أعجــبُ!
أطلقــتَ مــن أيــدي الــذئاب تســوؤنا وانســاب في ليــل الــبلاد النُّهــبُ
وتنــام عينــك مــا ســمعتَ ومــا تــرى وكــأنّ شخصــكَ في الــبلاد مُغيَّــبُ
والنــاس قــد مــلأ الشــقاءُ حلــوقهمْ وتــراهمُ لمــا شــكَوْا قــد أذنبــوا!
ســفَّهت قــول الأتقيــاء جهالــةً ومضــيتَ مــن ذكــر النصــيحة تغضــبُ
وتمــرُّ في ركــب النفــاق مُلوّحــاً هزِجــاً وكفُّــك بالــدماء مُخضَّــبُ
ولكَــمْ نســجتَ مــن الخيــال وقائعــاً ووقفــتَ في عيــد الإمــارة تكــذِبُ
وتســوق أرقامــاً وباطــل حُجــةٍ والنــاس مــن ضــحكٍ بهــا تتعجــبُ
أكلَ الجناة وفوق ظهرك كمْ طغَوْا وبَغَــواْ وأنــت عــن الجنــاة تُحاسَــبُ
كــلُّ تــولَّى عنــك.. كــلُّ قــد مضى وذهبــتَ في غُــلّ السلاســل تُســحبُ
لتــذوقَ أوزار العبــاد ومــثلما جرَّعــتَ مــن كــأس المظــالم تشربُ
للهِ كَــمْ لعبــتْ بــكَ الأهــواء والــ ــدنيا ومازالــتْ بغــيركَ تلعــبُ!



ارحل .. يا بلطجي !

الشَّاعر السوري (محمود السيد الدغيم) باحث أكاديمي بمركز الدراسات الإسلامية في كلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن.SOAS منذ سنة ١٩٧٧م إلى الآن. حصل على الماجستير والدكتوراه من جامعة سالفورد في مانشستر البريطانية، وله أعمال أدبية، وفكرية كثيرة، فضلاً عن الدور الكبير الذي اضطلع به في تحقيق التراث.

على الرغم من وفرة نتاجه الشّعري، وتنوع أغراضه؛ إلاَّ أنه لا تتجلّى شاعريته، وتتضح معالم شخصيته، سوى في الهجاء والسخرية والنقد اللاذع!

القارئ لأشعار (الدغيم) يدرك من أول وهلة مدى شاعريته؛ في قوة معانيه، وسلاسة أفكاره، وجاذبية كلماته، ورهافة حسه .. ويمكن تلخيص ذلك كله في القول: بأنه شاعرٌ مطبوع!

لكن الذي أوقفني طويلاً، وأدهشني كثيراً؛ تلك الأشعار التي رثى فيها الديكتاتور (صدّام حسين)! لاسيما أنَّ (الدغيم) شاعر إسلامي سلفي لا ريب فيه!

فها هو يشيد بـ-طاغية البعث- في قصيدة طويلة، بعنوان: (أيا صدّام):

بكى العراقُ ونُكِّستْ أعلامُ ... وتجاسر العملاءُ يا صدّامُ

يا فارس الميدان في يوم الوغى ... مني عليك تحية وسلامُ

صلّى عليك العرب يا أسد الشرى ... والمخلصون وصلّت الأقوامُ

يا ابن الحسين طريق جدك واضح ... عليه سار إلى الأمام إمامُ

درب الشهادة دربكم يا سادتي ... يحلو بها يا إخوتي الإعدامُ

يا والد السبطيْن يا جد الفتى … علّمتهم أن الكرام كرامُ
عمّدتَ دربك بالوفاء لأُمةٍ … عربيةٍ خانتْ بها الأعجامُ
يا أيها السُّنّي دربكَ واضحٌ … يا سيد الساداتِ يا قمقامُ
يا قائد الشهداء أنت مناضلٌ … ومكافحٌ ومجاهدٌ صمصامُ
شنقوكَ في العيدِ في إحرامنا … فتعكّر التهليلُ والإحرامُ
وبكى الحجيجُ عليكَ في عرفات … فدموعهم فوق الخدود سجامُ
وبكى على بغداد مصر ومكة … والقدسُ يا محبوبها والشامُ
كَرَّمْتَ أرضك ميتاً ومجاهداً … فبكتْ عليك العرب يا ضرغامُ

هذه أبيات قليلة مما كتبه (الدغيم) مفتخراً بصدام وآله؛ الذين حولوا العراق إلى مقبرة جماعية!

وهي أشعار متواضعة فنياً، خلتْ منها رائحة الشاعرية! فضلاً عن المغالطات الفكرية والتاريخية التي غصّتْ بها القصيدة!

لا نريد التوقف كثيراً عند هذه الإشكالية، فقد يطول حولها الحديث، بسبب اختلاط المفاهيم، وغياب المعايير الصحيحة في الحكم على الأشياء لدى كثير من السلفيين المعاصرين.

لكن؛ يبدو أنها جاءت رد فعل لظروف بعينها. بلْ ظني أن -الشاعر- غير مقتنع بها ... ولذلك أدعوه إلى التوبة مما جادتْ به قريحته! فباب التوبة لا يزال مفتوحاً، قبل أن يأتي «يوم التغابن» يوم يعض الظالمُ على يديْه!

***

على الرغم من ذلك؛ إلاَّ أن (الدغيم) يبقى شاعراً كبيراً بين شعراء هذا العصر، له بصماته الثقافية الواضحة، وله مواقفه الأدبية الجادة، فيقول في قصيدته (اللغة

العربية:

قَالَتْ لَعَمْرُكَ؛ غِيْلَ غِيْلَ نَصِيْرِيْ ظُلْماً، فَفِيْ أَيْدِي الْعَدُوِّ مَصِيْرِيْ
مَا عَادَ يَبْحَثُ نَاطِقِيْ عَنْ نُصْرَتِي يَا حَسْرَتِيْ، يَا نَاسُ، أَيْنَ جَرِيْرِيْ
أَيْنَ الْحُطَيْئَةُ، وَالْمُقَنَّعُ؛ إِنَّنِيْ أَحْتَاجُهُمْ لِمَعَارِكِ التَّحْرِيْرِ
أَحْتَاجُ لِلشُّعَرَاءِ وَالأُدَبَاءِ وَالْـ أُمَرَاءِ، وَالْمُتَبَحِّرِ النِّحْرِيْرِ

هذا، وقد ضرب (الدغيم) في «الشِّعْر السياسي» بحظٍ وافر، إذْ بدتْ شجاعته المعهودة، فها هو في قصيدة (لصوص المخابرات) يعرِّض بالرئيس الأسد، وبطانة البعث، فيقول:

لصوص الأَمْنِ قَدْ سَرَقُوا السُّهَادَا كَمَا اخْتَطَفُوا الْعَدَالَةَ وَالرَّشَادَا
وَدَالَتْ دَوْلَةٌ، وَأَتَىْ نِظَامٌ يُرَجِّحُ رَأْسُ دَوْلَتِهِ الْعِنَادَا
فَدَوْلَتُهُمْ تَدَاوَلَهَا لُصُوْصٌ وَعَاثُوْا فِيْ مَرَافِقِهَا فَسَادَا
فَعَسْعَسَتِ الْبِلادُ، وَغَابَ عَدْلٌ وَغَمَّ الظُّلْمُ فِي الْوَطَنِ الْعِبَادَا
وَظَنَّ الْقِرْدُ عَنْ جَهْلٍ خُلُوْداً كَأَنَّ الْقِرْدَ لَيْثٌ لاَ يُعَادَىْ
وَأَوْعَزَ لِلُّصُوْصِ بِنَهْبِ مَالٍ فَحَازُوا الْمَالَ، وَاغْتَصَبُوا الْبِلادَا
وَعَمَّ الظُّلْمُ، وَالأَشْلاءُ قَالَتْ: دَمُ الشُّهَدَاءِ قَدْ طَلَبَ الْجِهَادَا

ليس هذا فحسب، بلْ استمع إلى -الدغيم- في قصيدة (السفهاء) وهي من قصائده الطوال، كشف فيها عن أخلاقيات (الجوقة الحاكمة) وفسادها، ويُعرِّي الأنظمة الحاكمة بأمرها. حتى وإنْ كان -الشاعر- سدد سهامه صوب النظام البعثي في سوريا، إلاَّ أن صورة (السفهاء) واحدة ومكررة في كل نظام عربي مستبد!

يقول الدغيم:

طَاْغٍ طَغَى، فَتَجَمَّعَ السُّفَهَاْءُ   وتفرق الطلاّبُ والعلماء

وَتَشَكَّلَتْ لِلْخَاْئِنِيْنَ وِزَاْرَةٌ   مَوْزُوْرَةٌ، مَرْذُوْلَةٌ، خَرْقَاْءُ

تَنْهَى وَتَأْمُرُ حَسْبَمَاْ يَحْلُوْ لَهَاْ   فَيُصَفِّقُ الأَرْذَاْلُ، وَالدَّهْمَاْءُ

وَيُسَاْهِمُ الأَنْذَاْلُ فِي الْجَيْشِ الَّذِيْ   خَاْنَ الْحِمَىْ، فَاحْتُلَّتِ الأَجْزَاْءُ

جُزْءاً فَجُزْءاً، وَالْمَسِيْرَةُ لَمْ تَزَلْ   تَمْشِيْ، وَيَهْتِفُ بِاسْمِهَا الْجُبَنَاْءُ

وَالْجَيْشُ جُيِّشَ مِنْ حُثَاْلَةِ أُمَّةٍ   مَنْكُوْبَةٍ حَكَمَتْ بِهَا الأَعْدَاْءُ

وَتَقَاْسَمَتْ إِعْدَاْمَهَاْ حُرَّاْسُهَاْ   فَتَنَاْثَرَتْ -مِنْ شَعْبِهَا- الأَشْلاْءُ

وَاغْتِيْلَتِ الْعَاْدَاْتُ، وَالْعُرْفُ الَّذِيْ   يَرْضَىْ بِهِ الأَحْرَاْرُ، وَالنُّبَلاْءُ

وَعَدَاْلَةُ التَّشْرِيْعِ غَاْبَتْ بَعْدَمَاْ   عَبَثَتْ بِأَفْكَاْرِ الْوَرَى الأَهْوَاْءُ

فَاسْتَأْسَدَتْ كُلُّ الثَّعَاْلِبِ فَجْأَةً   وَاسْتَرْزَقَ النُّوَّاْبُ وَالْوُزَرَاْءُ

فَبِمَجْلِسِ الشُّوْرَىْ: قَطِيْعُ ثَعَاْلِبٍ   وَبِمَجْلِسِ النُّوَّاْبِ: نَاْبَ عِوَاْءُ

وَمَجَاْلِسُ الأُمَمِ الْهَزِيْلَةُ: مَسْرَحٌ   تَلْهُوْ بِهِ الذُّؤْبَاْنُ، وَالأَعْضَاْءُ

وَالْبَرْلَمَاْنُ: مُجَيَّرٌ، وَرَئِيْسُهُ   وَغْدٌ بكل نميمة مَشَّاْءُ

فَلِكُلِّ مُرْتَزِقٍ، وَلِصٍّ: مَنْصِبٌ   وَحِرَاْسَةٌ، وَبِطَاْنَةٌ حَمْرَاْءُ

وَلِكُلِّ مَنْ سَفَكَ الدِّمَاْءَ: جِرَاْيَةٌ   تَجْرِيْ، فَتُسْفَكُ فِي الْبِلاْدِ دِمَاْءُ

وَلِكُلِّ قَوَّاْدٍ يَقُوْدُ قِيَاْدَةً   دِمَنٌ بِهَا الْمَرْذُوْلَةُ الْخَضْرَاْءُ

مِنْ نَفْسِهِ، مِنْ آلِهِ، مِنْ حِزْبِهِ   مِنْ غِيِّهِ: يَتَنَاْسَلُ الإِغْوَاْءُ

يُغْوِيْ، وَيُغْرِيْ كُلَّ مَنْ أَلِفَ الْخَنَاْ   جَهْراً، وَدَاْرَتْ رَأْسَه الصَّهْبَاْءُ

وَيُهَجِّرُ الشُّرَفَاْءَ دُوْنَ جِنَاْيَةٍ   حَتَّى يُضَاْمَ السَّاْدَةُ الشُّرَفَاْءُ

وَتَضِيْقَ أَرْضٌ حُرَّةٌ بِشُعُوْبِهَاْ   وَيُسَلَّطَ الأَرْذَاْلُ وَاللُّقَطَاْءُ

فَنَرَى الْبِلاْدَ كَأَنَّهَاْ سِجْنٌ يُدِيْرُ   شُؤُوْنَهُ الْمُحْتَلُّ وَالْعُمَلاْءُ

فَلِكُلِّ مَأْبُوْنٍ عَمِيْلٍ سُلْطَةٌ   مَوْبُوْءَةٌ مَنْبُوْذَةٌ نَكْرَاْءُ

مَقْرُوْنَـــةٌ مَجْنُوْنَـــةٌ مَخْذُوْلَـــةٌ ... مَلْعُوْنَـــةٌ مَسْمُوْمَـــةٌ رَقْطَـــاْءُ
تَنْهَـــىْ وَتَـــأْمُرُ بِالضَّـــلاْلِ سَفَاْهَـــةً ... جَهْـــراً، فَيُرْفَـــعُ لِلضَّلِيْـــلِ لِـــوَاْءُ
وَتُجَـــرَّدُ الأَوْطَـــاْنُ مِـــنْ آبَاْئِهَـــاْ ... وَجُدُوْدِهَـــاْ، ويضـــيع الأبنـــاء
فَتَصِـــيْرُ إِقْطَاْعـــاً لِقَاْطِـــعِ دَرْبِنَـــاْ ... وَيُسَلَّـــطُ السُّفَهَـــاْءُ والخُبَثَـــاْءُ

منذ سنين بعيدة، والشاعر/ محمود الدغيم- يوجه قذائفه صوب أوكار الديكتاتورية، وقلاع الاستبداد بالشام التي حولها البعثيون إلى خرابة! لذلك جاءت قصائد -الشاعر- كلها مباشرة، وشديدة اللهجة، ومملوءة بالسخرية اللاذعة، وهذه القصيدة (تحية البلاد) تكاد تكون أطول قصائد الشاعر، يقول في مقدمتها:

تِلْـكَ الْبِـلاْدُ بِـلاْدِيْ، حُبُّهَـاْ قَـدَرٌ ... مُقَـدَّرٌ مِـنْ إِلَـهِ الْكَـوْنِ بَاْرِيْهَـاْ
دَاْلَـتْ، وَمَـاْ نَهَضَـتْ؛ لَمَّـاْ تسـلّمها ... قِـرْدٌ، وَدُبٌّ بِنَـاْرِ الشَّـرِّ يُصْلِيْهَـاْ
وَجَنَّـدَ الْقِـرْدُ -مِـنْ أَفْـرَاْدِهِ- زُمَـرَاً ... وَزَجَّ كُـلَّ خَسِيْـسٍ فِـيْ حَوَاْشِيْهَـاْ
وَحَـاْرَبَ الدِّيْـنَ، وَالأَخْـلاْقَ قاطبـةً ... سِـرًّا، وَجَهْـرًا، وَمَاْ أَصْغَـىْ لِدَاْعِيْهَـاْ
يَاْ نَاْسُ! إِنَّ بُغَاْثَ الْعَصْرِ قَدْ غَدَرُوْا ... وَسَلَّمُـوْا الأَرْضَ لِلْبَاْغِـيْ بِـمَاْ فِيْهَـاْ
يَاْ نَاْسُ! إِنَّ لُصُوْصَ الدَّاْرِ مَاْ حرسوا ... أَرْضَ الْـبِلاْدِ، وَلاْ شَـاْدُوْا مَبَاْنِيْهَـاْ
فَالْعِرْضُ، وَالأَرْضُ، وَالأَمْـوَاْلُ سائبةٌ ... وَأُمَّةُ الْعُـرْبِ! ذِئْـبُ الْغَـرْبِ رَاْعِيْهَـاْ
وَفِيْ الْقَطِيْعِ كِلاْبٌ -قَطُّ- مَاْ نَبَحَـتْ ... إِلاْ لِتُرْشِـدَ ذِئْبـاً جَـاْءَ يُؤْذِيْهَـاْ
يَـاْ لِلْكِـلاْبِ! الَّتـيْ سَـاْءَتْ بِمَوْطِنِنَـاْ ... وَنَفَّـذَتْ كُـلَّ مَـاْ يَهْـوَاْه غَاْوِيْهَـاْ
فَـالْقِرْدُ -فِيْ مَجْلِسِ الأَوْغَـاْدِ- مِهْنَتُـه ... ذُلُّ الشُّعُـوْبِ الَّتِـيْ ضَاْعَـتْ أَمَاْنِيْهَـاْ
إِنَّ الْقَصَـاْئِدَ -لِـلأَوْطَاْنِ- ذَاْكِـرَةٌ ... تُخَلِّـدُ الذِّكْـرَ، وَالأَجْيَـاْلُ تَرْوِيْـهَـاْ

بمجرد أن سمع (الدغيم) بنبأ فرار الديكتاتور التونسي (زين الفاسدين بن علي) كتب قصيدته (ثورة تونس) التي أشاد فيها بشباب تونس، وعلى رأسهم الشهيد «محمد البو عزيزي» الذي كان سبباً وراء اشتعال الثورات في الوطن العربي. وفي

القصيدة تعريض صريح، وهجاء شديد للديكتاتور السوري (الأسد). أيضاً تحريض للشعوب؛ لاقتلاع الأنظمة القمعية:

يَا تُونُسَ الْخَضْراءِ أَلْفُ تَحِيَّةٍ ... مِنِّيْ إلى شَعْبٍ تَمَرَّدَ إِذْ سَعَىْ
حَتَّى تَكَسَّرَتِ الْقُيُوْدُ وَرَفْرَفَتْ ... رَاياتُ عَهْدٍ بالكرامَةِ شَعْشَعْا
فَكَأَنَّ حَقَّ الشَّعبِ أَضْحَى بُعْبُعًا ... مُتَمَرِّداً، وَالنَّذْلُ يَخْشَى الْبُعْبُعَا
وَأَبُو عَزِيْزِيْ قَدْ أَعَزَّ أَعِزَّةً ... لَمَّا انْتَخَى بِعَرِيْنِهِ وَاسْتَرْجَعَا
وَأَثَارَ أَهْلَ الْمَاجِدَاْتِ فَقَرَّرُوْا ... أَنْ يَخْلَعُوا لِصاًّ خَلِيْعاً جَعْجَعَاْ
وَأَرَى الطُّغاةَ عَلَى الْكَرَاسِيْ كَالدُّمَىْ ... صُفْرَ الْوُجُوْهِ، وَحَوْلَهُمْ قَدْ لَعْلَعَاْ
ضَاْقَتْ عَلَىْ فِرْعَوْنَ أَرْضُ بِلادُنَا ... لَمَّا رَأَىْ مَا لَمْ يَكُنْ مُتَوَقَّعَا
فَذِئَابُ تُوْنُسَ هَرْوَلَتْ مَذْعُوْرَةً ... وَغَداً بِلادُ الشَّاْمِ تَخْلَعُ أَضْبُعَاْ
إِنَّ الضِّبَاْعَ عَلَى دِمَشْقَ اسْتَأْسَدَتْ ... وَالضَّبْعُ فِي قَصْرِ الرِّئَاْسَةِ بَعْبَعَا
يَا أَيُّهَا الضَّبْعُ الجبانُ لَقَدْ مَضَىْ ... زَمَنُ الْخُنُوعِ، لَكَيْ تُذَلَّ وَتَخْضَعْا
بُشْرَىْ فَتُوْنُسُ حَرَّرَتْ وَتَحَرَّرَتْ ... وَغَداً بِلادُ الشَّاْمِ تَلْوِي الأَذْرُعَاْ
وَيَغِيْبُ عَهْدُ الظَّالِمِيْنَ فَلا نَرَىْ ... أَسَداً يُعَرْبِدُ فِيْ حَمَاْةَ وَسَعْسَعَا
طُوِيَتْ سُنُوْنُ الْخَوْفِ مِنْ طَاغٍ طَغَىْ ... وَجِدارُ إِرْهَابِ الشُّعُوْبِ تَصَدَّعَا

خلع «ديكتاتور تونس» فتح شهية الشعراء، وألهب حماسهم؛ ففاضت قرائحهم بقصائد حارقة راحوا يرجمون بها الطواغيت التي حولت العالم العربي إلى مغارة لصوص، وزنازين!

كثير من الشعراء كتبوا قصائد بعنوان (ارحل) وهو الشعار الذي رفعته الجماهير الثائرة في من الخليج إلى المحيط ، إيذاناً بالثورة على الظلم والاستعباد والقهر. وكان (الدغيم) واحداً من هؤلاء الشعراء الثائرين! ونظراً لطول القصيدة، فقد اخترنا بعضاً منها:

ارحل

غَـادِرْ بِـلادِيْ بِالْعَجَـلْ ... وارْحَـلْ؛ فَحُكْمُـكَ قَدْ أَفَـلْ
يَـا «بَلْطَجِـيُّ» لَقَـدْ مَضَىْ ... ليـلُ الطغـاة بـما حمـل
وَأَتَـى الصَّـبَاحُ فَلَـنْ تَـرَىْ ... لـص السـواحـلِ والجـبل
وَدِّعْ؛ وَسَـارِعْ؛ وَارْتَحِـلْ ... عهـد الطـواغيـت ارتحـل
هَـرَبَ اللُّصُـوْصُ جَمِيْعُهُمْ ... والشـعب كـان، ولـم يـزلْ
أَمَّـا اللُّصُـوْصُ فَـإِنَّهُمْ ... هَرَبُـوْا كَأَسْـرَابِ الْحَجَـلْ
هَرَبُـوْا لأَنَّ فُلُوْسَـهُـمْ ... هَرَبَـتْ بِغَفْلَـةِ مَـنْ غَفَـلْ
فَـاهْرُبْ، وَدَعْنَـا إِنَّنَـا ... ثُرْنَـا عَـلَىْ عَهْـدِ الزَّلَـلْ
وَارْكَـبْ حِمَـارَكَ وَانْصَرِفْ ... يَـا نَـذْلُ؛ أَوْ فَارْكَـبْ نَغَـلْ
وَدَعِ الْجِمَـالَ لأَهْلِهَـا ... لَـنْ يُنْقِـذَ اللِّـصَّ الْجَمَـلْ
وَدَعِ الْخُيُـوْلَ بِأَرْضِـنَا ... وَاذْهَـبْ إِلَىْ شَـهْرِ الْعَسَـلْ
لُمِّـمْ لُصُوْصَـكَ، وَانْصَرِفْ ... هَيَّـا تَـدَحْرَجْ يَـا جُعَـلْ
مَـاذَا أَصَـابَكَ هَـلْ جُنِنْـتَ؟ ... وَهَـلْ أَجَنَّـكَ مَـا حَصَـلْ؟
أَمْ كُنْـتَ تَحْلُـمُ بِالْبَقَـاءِ ... وَبِـالْخُلُوْدِ مِـنَ الأَزَلْ
أَضْـغَاثُ أَحْـلامٍ مَضَـتْ ... خَـدَعَتْكَ، «وَالْفِلْـمُ» اكْتَمَـلْ
ارْحَـلْ وَخُـذْ كُـلَّ اللُّصُـوْصِ ... وَخُـذْ رُعَاعَـكَ يَـا هُبَـلْ
بَـلْ خُـذْ جَمِيْـعَ الْمُخْـبِرِيْنَ ... وَكُـلَّ جُمْهُـوْرِ الْكَسَـلْ
خُـذْ مَـنْ تَجَـبَّرَ أَوْ تَكَـبَّرَ ... أَوْ تَجَسَّـسَ أَوْ قَتَـلْ
إِنَّـا خَلَعْنَـا خَوْفَنَـا ... فَارْحَـلْ كَمَخْلُـوْعٍ رَحَـلْ

ارحلوا عَنّا !

على الرغم من أن الشّاعر العراقي (أحمد مطر) من جيل الشّعراء المحدثين جداً في خريطة الشّعر العربي، إلا أنه أصبح أكثرهم حضوراً وتأثيراً في أوساط المثقفين وعشّاق الشّعر والفن الجميل، حتى ذاع صيته في كل مكان.

لستُ أرى في هذا الذيوع والانتشار الواسع الذي أحرزه -الشّاعر- لُغزاً مُحيّراً، أوْ سِراً غامضاً، يحتاج إلى بحث ودراسة، أوْ الاستعانة بالمنجّمين والعرّافين! فشهرته هذه تكمن في لون الشّعر الذي اعتاد أن يقدمه إلى الجماهير العطشى إلى الحرية، فالشّعر السياسي أشد تأثيراً، وأكثر حضوراً، وأوسع جماهيرية، من الأغراض الشّعرية الأخرى، لما يتميز به من الصراحة والوضوح والقوة وغلبة روح التهكم والسخرية، ذات النكهة المحببة لدى المتلقي.

على الرغم من أنّ هذا الشّاعر يعيش في لندن، إلاّ أنه يعيش فيها بجسده فقط، أمّا قلبه فلم يفارق وطنه العربي، فهو -على حد قوله: «أنا شاعر في خدمة أُمة، ولستُ ممثلاً لقبيلة معينة ..أستعرض الوجع العربي بشكل عام، وأحرّض الموجعين على الانعتاق»!

المهم أن (أحمد مطر) أخلص في فنّه لقضية واحدة، وبذل في سبيلها -ومازال- ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ألا وهي قضية (الحرية) فأعلن تمرّده على أنظمة القمع والقهر، وشحذ لسانه في وجه الديكتاتورية والاستبداد السياسي، فجاءت قصائده حادّة غاية في الحدّة، وقاسية غاية في القسوة، وانهمر سيله الشعري -بلغته الساخرة، ورموزه الشفّافة، وصوره المباغتة- كالطوفان الهادر الذي لا عاصم منه، خاصة في عصر الفضائيات وثورة الإنترنتْ، التي كَفَتْ أصحاب الفكر شر المساءلة، وشر

النفّاثات في العُقَد .. فلا حاجة للصحافة أوْ لدور النشر، فليست -ثمّة- رقابة ولا رقيب، ولا نقابة ولا نقيب!

في سؤال وُجِّهَ إلى أحمد مطر حول حريته، متى افتقدها .. وأين وجدها؟ فأجاب: «لم أفقد حريتي حتى أجدها، لقد فقدت أشياء كثيرة وكبيرة بسبب انشغالي بالحفاظ على هذه الحرية. ولو أنني فقدتها، لكانت كل تلك الأشياء في حوزتي، ما عداي!

حريتي هي أنا، ولن تستطيع أيّة قوة في الدنيا أن تجردني منها، ولو جردتني من روحي .. لقد أودعتها القدرة على الصراخ حتى بعد موتي. أمّا الشعر الجميل والصادق فهو رهن بجمال وصدق الشاعر لا بالمكان، غير أن مثل هذا الشاعر قد يضطر في ظروف القمع وضيق ذات القول إلى استخدام حيل التخفي، لركوب وسائط النقل دون أن يدفع ثمن التذكرة، وهذا ما لا يحتاج إليه في المنفى، لأن المنفى نفسه هو الثمن الباهظ المدفوع سلفاً، من أجل حيازة الحنجرة كاملة، والتجرد من طاقية الإخفاء»!

وسُئِلَ أحمد مطر -أيضاً-: لماذا لم تكتب في المجال العاطفي الذي يستهوي الشعراء، علماً بأن كل الشعراء الذين يكتبون اللون السياسي لهم قصائد ودواوين كاملة في الغزل ... فأجاب: «نعم .. أنا على علم بأنّ لكل الشعراء دواوين في الغزل، وهذا هو بالضبط ما طمأنني على أنّ ثغورنا «العاطفية» ليست مكشوفة أمام جحافل «العاذلين» والحمد لله، وأن مخزوننا من القلوب المشكوكة بالسهام كفيل بأن يُعيل «لواعج غرامنا» لألف سنة مقبلة على الأقل. وإذا أضفت إلى هذا كون أمننا الداخلي مستتباً ومضبوطاً مثل «العقال» ببركة الآلاف المؤلفة من «ضبّاط» الإيقاع، فسيكون من الطبيعي أن يداخلني اليقين بأن الجهاد على تلك الجبهة قد أصبح بالنسبة لي «فرض كفاية» مما يمنحني عذراً واسعاً للانصراف إلى حجرة

رغائبي الذاتية دون خشية من «عـاذل» أو «رقيـب»! خلاصـة الأمـر هـي أن لي قلبـاً مفعماً بالعواطف المشبوبة، لكنه لا يعرف الكـذب مطلقـاً، ولـذلك فـإنني سـأكون مستحقاً للعنته إذا حاولت إقناعه بضرورة إقامة معرض لصبابتي، فيما هو يرى «بأم فؤاده» أن بيتنا بمن فيه وما فيه، سابح في الحريق».

وفي سؤال حول مذهبه الشعري، قيل له: لو قمنا بتقسيم المدارس الشعرية على خلفية 11 سبتمبر إلى مدارس إرهابية وأخرى غير إرهابية .. فأين سيكون أحمد مطر؟

قال: «إذا بكى طفل رضيع على صدر أمّه، في هدأة ليل العرب والمسلمين، فلا أستبعد في زمن المهازل هذا، أن تعدّه أميركا، برصانتها المعهودة «محوراً للشر» ينبغي استخدام القوة النووية للإطاحة بـ«حفّاظته»!

فهل بعد هذا تسألني أنا من أيّ مدرسة سأكون؟!

أنا إرهابي، من قبل سبتمبر ومن بعده، وبإمكانك أن تسأل عن هذا حكامنا الطيبين جداً، والمبادرين إلى التطبيع. كل ما تغير هو أنني كنتُ إذا قيل لي (سبتمبر) أصرخ: ملعون أبو «تمبر». أمّا الآن فلم أعد أسبّه .. نكاية بأمريكا، وإمعاناً في الإرهاب!

هذه هي بعض آراء أحمد مطر وأفكاره، لكن من حقنا أن نستمع لأشعاره حتى تكتمل رؤيتنا عن هذا الشّاعر .. فها هو يرسل برقياته إلى المجاهدين في الأرض المباركة مشجّعاً ومحفزاً. ومثلما نادى نزار قباني على «أطفال غزة»، فأحمد مطر ينادي على «أهل الضفة» في قصيدته الطويلة قائلاً:

يا أهل الضفة .. يا أحرار

أنتم فاتحة القرآن، وأنتم خاتمة الأحزان

أنتم حقٌّ وجميع الناس أباطيل

أنتم روح الله .. وأنتم إنجيل الإنجيل
يا من تعتصمون بحبل الله جميعا
سيروا والله يوفِّقكم
لا تنتظروا منا أحدا .. لا تثقوا فينا أبدا
فهنا أبناء أنابيب .. وهنا أبناء براميل
يعتصمون بحبل غسيل!

أمّا عن سخريته اللاذعة، وانتقاداته للحكومات العربية، فهي أهم ما اشتهر به أحمد مطر، فكل شِعره يدور في هذا الفلك، غير مكترث بعواقبه، ففي قصيدة «تبديل الأدوار» يقول:

رأتِ الدول الكبرى تبديل الأدوارْ
فأقرّت إعفاء الوالي
واقترحت تعيينَ حمارْ !
ولدى توقيع الإقرارْ نهقتْ كلُّ حمير الدنيا باستنكارْ:
نحن حمير الدنيا لا نرفضُ أن نُتعَبْ
أوْ أن نُركَبْ أو أن نُضربَ أو حتى أن نُصلبْ
لكن نرفضُ في إصرارْ أن نغدو خدماً للاستعمارْ
إنّ حُموريتنا تأبى أن يلحقنا هذا العارْ !

هكذا، يبقى «أحمد مطر» الشّاعر السياسي الأول في الوطن العربي -في الوقت الراهن- خاصة بعد رحيل العمالقة، أمثال: عمر أبو ريشة، وبدوي الجبل، والبردوني، والجواهري، ونزار قباني، وغيرهم من أعمدة القصيدة العربية.

وهذه قصيدة وجّهها -الشّاعر- للحكّام العرب، عندما أعلن الصهاينة بمباركة

«الكونجرس» أن (القدس) عاصمة أبدية لليهود!

ارحلـوا عنّـا .. !

ارفعوا أقلامكم عنها قليلاً

واملأوا أفواهكم صمتاً طويلاً

لا تجيبوا دعوة القدسِ .. ولوْ بالهمسِ

كيْ لا تسلبوا أطفالها الموت النبيلا !

دونكم هذي الفضائيات

فاستوفوا بها «غادر أو عاد»

وبوسوا بعضكم .. وارتشفوا قالاً وقيلا .. ثم عودوا ..

واتركوا القدس لمولاها .. فما أعظم بلواها

إذا فرَّتْ من الباغي .. لكيْ تلقى الوكيلا !

***

طفح الكيلُ .. وقدْ آنَ لكم .. أن تسمعوا قولاً ثقيلاً

نحن لا نجهل من أنتم

غسلناكم جميعاً .. وعصرناكم .. وجفّفْنا الغسيلا

إننا لسنا نرى مغتصب القدس .. يهودياً دخيلاً

فهو لم يقطع لنا شبراً من الأوطان

لوْ لمْ تقطعوا من دونه عنا السبيلا

أنتمُ الأعداء

يا من قد نزعتم صفة الإنسان .. من أعماقنا جيلاً فجيلا

واغتصبتم أرضنا منا .. وكنتم نصف قرن

لبلاد العرب محتلاً أصيلا

أنتم الأعداء

يا شجعان سِلْمٍ .. زوجوا الظلم بظلم

وبنوا للوطن المحتل عشرين مثيلا!

أتعدون لنا مؤتمراً؟

كلاًّ .. كفى .. شكراً جزيلاً

لا البيانات ستبني بيننا جسراً

ولا فتل الادانات سيجديكم فتيلا

نحن لا نشتري صراخاً بالصواريخ

ولا نبتاع بالسيف صليلا

نحن لا نبدل بالفرسان أقنانا

ولا نبدل بالخيل صهيلا

نحن نرجو كل من فيه بقايا خجلٍ

أنْ يستقيلا

نحن لا نسألكم إلاَّ الرحيلا

وعلى رغم القباحات التي خلفتموها

سوف لنْ ننسى لكم هذا الجميلا !

***

ارحلوا ...

أمْ تحسبون الله .. لم يخلق لنا عنكم بديلا؟!

أيّ إعجاز لديكم؟

هلْ من الصعب على أيّ امرئ أن يلبس العار

وأنْ يصبح للغرب عميلا؟!

أيّ إنجاز لديكم ؟

هلْ من الصعب على الفرد .. إذا ما ملك المدفع

أنْ يقتل فيلا؟!

ما افتخار اللص بالسلب

وما ميزة من يلبد بالدرب .. ليغتال القتيلا؟!

***

احملوا أسلحة الذلّ وولّوا .. لتروا

كيف نُحيلُ الذُّلّ بالأحجار عِزاً ... ونُذلُّ المستحيلا !



المراجع

- القرآن الكريم.
- كُتُب السنَّة النبوية المُطهَّرة.
- قذائف الحق، محمد الغزالي، المكتبة العصرية، بيروت.
- سر تأخر العرب والمسلمين، محمد الغزالي، القاهرة ط١ ١٩٨٥
- الحلول المستوردة .. وكيف جنتْ على أُمتنا، القرضاوي، ط٤ ١٩٨٨
- أولويات الحركة الإسلامية يوسف القرضاوي مكتبة وهبة ط٤ ١٩٩٢
- أزمة العقل المسلم، عبد الحميد أبو سليمان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٨١
- مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، دار ثابت للنشر ط٤ ١٩٨٩
- التفسير العلمي للأدب، د. نبيل راغب، المركز الثقافي الجامعي ١٩٨٠
- شعراء وتجارب، صابر عبد الدايم، داو الوفاء ٢٠٠٠
- الطاغية، إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، العدد ١٨٣، ١٩٩٤
- سقوط الحداثة، محمد عبد الشافي القوصي ط١ ٢٠٠٤ دار المريخ
- أضواء على الأدب العربي، أنور الجندي ط١ ١٩٦٩ دار الكتاب العربي.
- ثلاثون عاماً مع الشّعر والشعراء، رجاء النقاش دار سعاد الصباح ١٩٩٢
- أجمل مائة قصيدة في الشّعر الإسلامي المعاصر، أحمد الجدع، عمّان.
- أحلى عشرين قصيدة في حب آل البيت، سيد سليم، دار النيل للنشر، ٢٠٠٣م.

- قضايا من الفكر العربي، د. يوسف عز الدين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨

- الصفحات السود لمدرسة التغريب والحداثة والتنوير، محمد عبد الشافي، مدبولي ٢٠٠٧

- أبو القاسم الشابي «شاعر الحب والثورة» رجاء النقاش، دار المريخ للنشر ١٩٨٨

- المُكتّمات، كاظم الظواهري، دار الصحوة، ١٩٨٧م.

(دواوين الشِّعر)

- ديوان «عمرو بن كلثوم».

- ديوان المتنبي، دار الكتب العلميةبيروت ١٩٨٦

- ديوان الفرزدق، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٧

- ديوان البارودي.

- ديوان حافظ إبراهيم، الناشر/ محمد أمين دمج، بيروت ١٩٦٩

- الشوقيات، أحمد شوقي.

- ديوان مصطفى لطفي المنفلوطي.

- ديوان «الحياة الأولى» محمد الغزالي- مكتبة الشروق ١٩٩٨م.

- ديوان البردوني «الأعمال الشعرية» الهيئة العامة للكتاب، صنعاء٢٠٠٢

- ديوان محمود الزبيري، دار العودة بيروت ١٩٨٦

- ديوان «مهاجرون بلا أنصار» علية الجعّار، المكتب المصري الحديث، ٢٠٠٠م.

- الشّاعر الثائر وليد الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٨٧

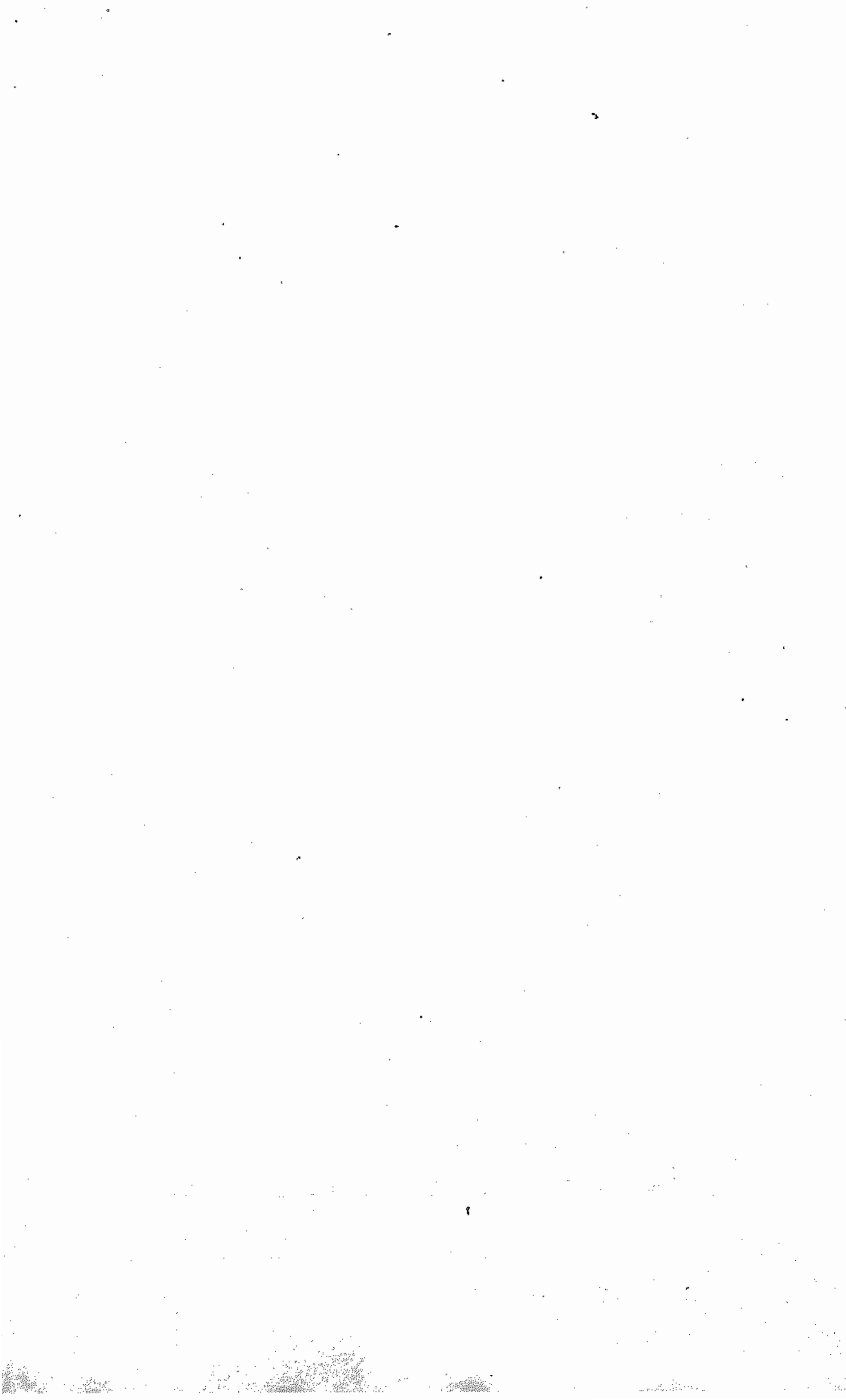
- الأعمال الشِّعرية، أمل دنقل، مكتبة مدبولي ١٩٩٥م.

- الأعمال الشّعرية الكاملة، فاروق جويدة، الهيئة المصرية للكتاب.
- الأعمال الشّعرية الكاملة، أحمد مطر، لندن .
- مواكب الفجر، محمد أمين الشيخ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٣م.
- مختارات من الشّعر الإسلامي الحديث، دار البشير عمان ١٩٨٩.
- خذني إليك، محمود خليفة غانم، مطبعة الفجالة الجديدة ١٩٨٥
- إليها تحج القوافي، سعيدة خاطر، مركز الحضارة العربية بالقاهرة ٢٠٠٤
- القصائد السياسية «مختارات» نزار قباني، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢
- ديوان نفحات ولفحات، يوسف القرضاوي، دار الضياء للنشر عمّان ١٩٨٥م.
- قصائد لها تاريخ، زكي مبارك مطابع دار الشعب بالقاهرة ١٩٨٧
- أُهدّدكم بالسكوت- عصام الغزالي؛ دار الوفاء بالمنصورة ١٩٩٤
- ديوان عبد الحميد الديب، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٠
- (جِراح مصر) القصائد العشر، هاشم الرفاعي، مكتبة الإيمان ١٩٩٢
- ديوان الشعراوي. تحقيق: د. صابر عبد الدايم -الهيئة المصرية للكتاب ٢٠٠٩.
- ديوان الشّاعر إسماعيل شعشاعة.
- ديوان (متى يعود فارسي) للشاعر خالد محمد سليم.
- ديوان بدوي الجبل. بيروت ٢٠٠٣م.





فهرس



الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة





صدرحديثا

والأعمال الشعرية

جمـــال بخيت



القاهرة: ٤ ميدان حليم - خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو - ميدان الأوبرا: ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤
Tokoboko_5@yahoo.com

الأعمال الشعرية الكاملة

أحمد فؤاد نجم



القاهرة : ٤ ميدان حليم - خلف بنك فيصل
ش٢٦يوليو - ميدان الأوبرا : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤٠
Tokoboko_5@yahoo.com

الأعمال الشعرية العامية

إيمان بكرى



القاهرة : ٤ ميدان حليم - خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو - ميدان الأوبرا : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦١ - ٢٧٨٧٧٥٧٤
Tokoboko_5@yahoo.com

أشعار العامية المصرية

سمير عبد الباقى



القاهرة : ٤ ميدان حليم - خلف بنك فيصل
ش٢٦ يوليو - ميدان الأوبرا: ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤
Tokoboko_5@yahoo.com



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com